

دولة بني مهدي في اليمن

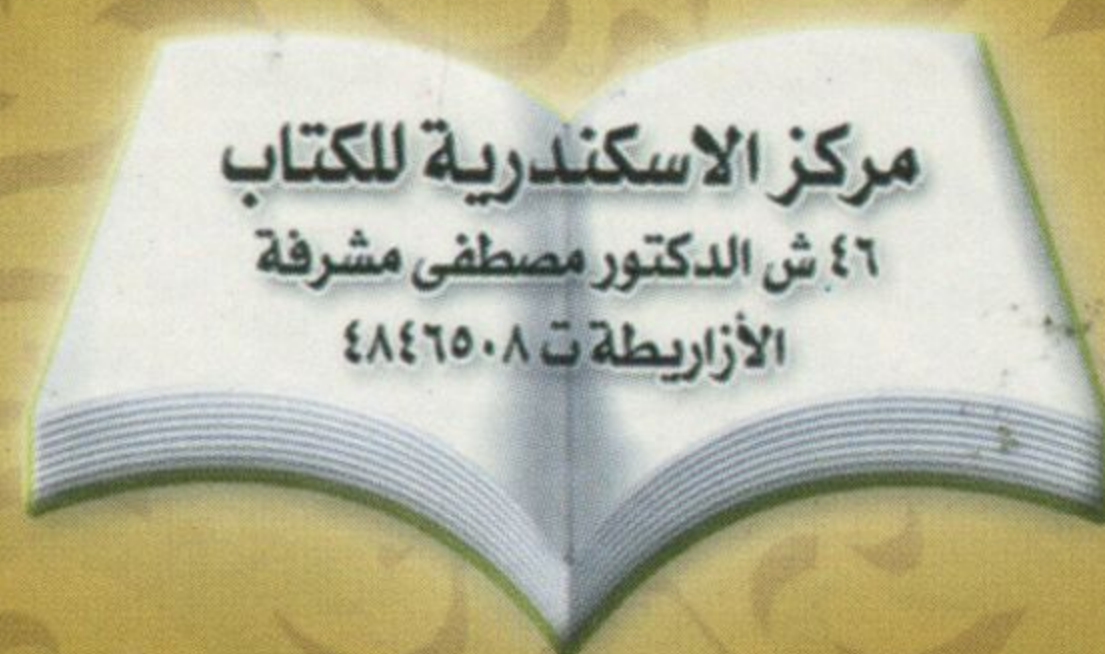
أحوالهم السياسية وأهم مظاهر حضارتهم

(٥٣٣ - ٥٦٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٧٤ م)



الدكتور

نهلة رزق محمد أحمد



مركز الاسكندرية للكتاب
٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة
الأزايطة ت ٤٨٤٦٥٠٨

دولة بني مهدي في اليمن

أحوالهم السياسية وأهم مظاهر حضارتهم

(٥٣٣ - ٥٦٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٧٤ م)

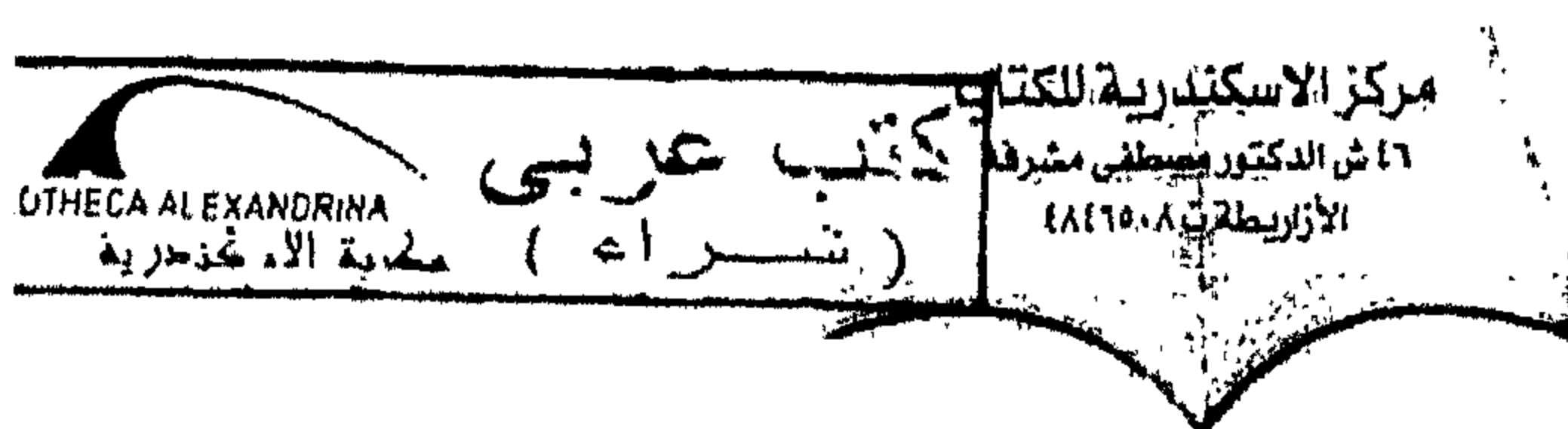
دولة بنى مهدي فى اليمن

أحوالهم السياسية وأهم مظاهر حضارتهم

(م ۱۱۷۴ - ۱۱۳۸ / ه ۵۶۹ - ۵۳۳)

الدكتور

نهلة رزق محمد أحمد



رقم الايداع : ٢٤٧٧ / ٢٠١٣

الترقيم الدولى : ٢١-٢٣-٢٨٨-٩٧٧-٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

صدق الله العظيم

سورة النساء آية ١١٣

المحتويات

الصفحة

الموضوع

ط - م	المقدمة
ن - ذ	دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث
٣٢-١	التمهيد
٣-٢	- مكانة مدينة زبيد
١٣-٤	- الأوضاع السياسية في بلاد اليمن قبيل قيام دولة بني مهدي
١٩-١٣	- انقسام اليمن إلى دويلات
٣٢-٢٠	- عهد الدولة النجاشية في زبيد وعلاقتها بآل مهدي
٣٢	- ظهور بني مهدي سياسيًا
٧٧-٣٣	الفصل الأول
	الأحوال السياسية عهد دولة بني مهدي
٣٧-٣٤	- قيام دولة بني مهدي
٣٩-٣٧	- بداية النشاط الديني لعلي بن مهدي
٤٢-٣٩	- البيعة الأولى لعلي بن مهدي ٥٣٨هـ/١١٤٣م
٤٣-٤٢	- البيعة الثانية لعلي بن مهدي ٥٤٥هـ/١١٥٠م
٤٨-٤٣	- أسباب ثورة علي بن مهدي على الدولة النجاشية
٥٠-٤٨	- حصار زبيد
٥٣-٥١	- استيلاء علي بن مهدي على زبيد وتوطيد سلطانه عليها
٥٤	- وفاة علي بن مهدي وتولي ابنه مهدي الحكم
٥٦-٥٤	- سياسة مهدي في توطيد سلطانه بتوسيع نطاق دولته
٥٧-٥٦	- وفاة مهدي وتولي أخوه عبدالنبي الحكم
٦١-٥٧	- سياسة عبدالنبي في توطيد سلطانه واتساع ملكه
٦٦-٦٢	- العلاقات السياسية لدولة بني مهدي مع حكام اليمن
٧١-٦٧	- التحالف القبلي ضد عبدالنبي بن مهدي
٧٧-٧٢	- علاقة دولة بني مهدي بالمخلاف السليماني
١٠٧-٧٨	الفصل الثاني
	الفتح الأيوبي وسقوط دولة بني مهدي في اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م
٨٠-٧٩	- الفتح الأيوبي لليمن
٨٨-٨٠	- أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن
٨٩-٨٨	- حملة تورانشاه إلى اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م
٩٢-٨٩	- فتح زبيد والقضاء على دولة بني مهدي

- سيطرة تورانشاه على اليمن ٩٢
- القضاء على نفوذ بني مهدي في اليمن ٩٤-٩٢
- أسباب هزيمة دولة بني مهدي وانتصار الجيش لأيوبي ٩٥-٩٤
- نتائج الفتح الأيوبي لليمن ٩٦-٩٥
- عناصر الجيش والسياسة العسكرية لدولة بني مهدي ١٠٧-٩٦

١٥٦-١٠٨

الفصل الثالث

الأحوال الاقتصادية عهد دولة بني مهدي في اليمن

- الزراعة ١٠٩
- العوامل المؤثرة في الزراعة (عوامل طبيعية - أساليب الزراعة -
- الزراع والحصاد - المحاصيل الزراعية) ١٢١-١٠٩
- الحرف وأهم الصناعات : ١٣٢-١٢١
- صناعة المنسوجات - الصباغة والزخرفة ١٢٦-١٢٢
- الصناعات الجلدية ١٢٨-١٢٧
- صناعة العطور ١٢٨
- صناعة النسيج ١٢٩-١٢٨
- الصناعات الغذائية ١٢٩
- الصناعات المعدنية ١٣١-١٣٠
- التجارة في زبيد : ١٣٩-١٣١
- التجارة الداخلية والأسواق ١٣٤-١٣١
- التجارة الخارجية وطرقها برًا وبحرًا ١٣٧-١٣٤
- الصادرات والواردات ١٣٩-١٣٧
- النظام المالي : ١٥٦-١٣٩
- أولاً : الموارد الشرعية : ١٤٢-١٣٩
- أ- عشور الأرض (الخراج) ١٤٠-١٣٩
- ب- عشور التجارة ١٤٢-١٤٠
- ثانيًا : الموارد غير الشرعية : ١٤٤-١٤٣
- المصالحات - الغنائم ١٤٤-١٤٣
- طريقة تحصيل الأموال ١٤٦-١٤٤
- المعاملات المالية ١٥٥-١٤٦
- دراسة تحليلية لدرهمي عبدالنبي بن مهدي ١٥٢-٤٩
- الموازين والمكاييل والمقاييس في زبيد ١٥٥-١٥٣
- معوقات التجارة ١٥٦-١٥٥

الأحوال الاجتماعية عهد بني مهدي في اليمن

- عناصر السكان :
- القبائل ١٦٩-١٥٨
 - العناصر الأجنبية ١٦١-١٥٨
 - أهل النمة (النصارى - اليهود) ١٦٣-١٦١
 - طبقات المجتمع ١٦٦-١٦٣
- أولاً : طبقات الخاصة :
- الحكام ١٦٦-١٦٨
 - زعماء القبائل ١٦٩-١٧٠
 - العلماء والقضاة ١٧٠-١٧٤
 - كبار الملاك ١٧٤-١٧٥
- ثانياً : طبقة العامة
- الجند ١٧٥-١٧٦
 - العامة ١٧٦
 - الفلاحون ١٧٦-١٧٧
 - أرباب الحرف والصناعات ١٧٧-١٧٨
 - الرقيق ١٧٩-١٨٠
 - الأخدام ١٨٠-١٨١
- مظاهر الحياة الاجتماعية :
- العادات والتقاليد ١٨٢-١٨٢
 - المأكل والملبس ١٨٢-١٨٧
 - الزواج (الخطبة - المهر - الطرح - الطلاق - الولادة) ١٨٧-١٩٢
 - الأعياد والاحتفالات (الدينية - الشعبية) ١٩٢-١٩٤
- العمران :
- أولاً : العماائر الدينية ١٩٤-٢٠٢
 - الجوامع والمساجد ١٩٤-١٩٨
 - المدارس ١٩٨-١٩٩
 - الخانقاوات ٢٠٠
 - الأربطة ٢٠٠
 - الجنابذ ٢٠١
 - المشاهد ٢٠١
 - الأسبلة ٢٠٢

٢٠٦-٢٠٢	ثانيًا : العمائر المدنية :
٢٠٤-٢٠٢	• القصور والقلاع
٢٠٤	• المنازل
٢٠٥-٢٠٤	• الخانات
٢٠٦-٢٠٥	• الوكالات أو السماسر
٢٠٨-٢٠٦	ثالثًا : المنشآت الحربية والدفاعية :
٢٠٧-٢٠٦	• الأسوار
٢٠٧	• الأبواب
٢٠٨-٢٠٧	• الأبراج
٢٠٨	- مرافق أخرى في زبيد (الحمامات)
٢٨٧-٢٠٩	الفصل الخامس
	الأحوال الثقافية في عهد دولة بني مهدي في اليمن
٢١٧-٢١٠	- المؤثرات الثقافية
٢٢٢-٢١٧	- خصائص الحركة العلمية
٢١٨-٢١٧	أولاً : شمولية المعرفة
٢٢٢-٢١٨	ثانيًا : الرحلة في طلب العلم (الرحلة الداخلية - الرحلة الخارجية)
٢٥٧-٢٢٢	ثالثًا : حركة التأليف
٢٢٨-٢٢٢	- الدراسات الدينية
٢٢٣-٢٢٢	• في مجال التفسير
٢٢٤-٢٢٣	• في مجال الحديث
٢٢٨-٢٢٤	• في مجال الفقه
٢٣١-٢٢٨	- الدراسات اللغوية :
٢٣٠-٢٢٨	• في علم النحو
٢٣١-٢٣٠	في علم اللغة
٢٥٠-٢٣١	- النشاط الأدبي في الشعر
٢٥٤-٢٥١	- الدراسات التاريخية
٢٥٧-٢٥٤	- الدراسات العلمية
٢٧٥-٢٥٨	- المذاهب الإسلامية في اليمن :
٢٦٤-٢٥٩	أولاً : المذهب الشافعي وجهود علمائه
٢٦٨-٢٦٤	ثانيًا : المذهب الزيدي وجهود علمائه
٢٧٢-٢٦٨	ثالثًا : المطرفية وجهود علمائها
٢٧٥-٢٧٢	رابعًا : المذهب الإسماعيلي وجهود علماء الشيعة
٢٧٥	- الدعوة الطييبية في اليمن

٢٩٤-٢٧٥	- دور العلم والمعرفة والمراحل التعليمية
٢٧٨-٢٧٥	أولاً : المراحل التعليمية
٢٨٠-٢٧٩	ثانياً : مراكز التعليم
٢٨٤-٢٨٠	ثالثاً : مجالس التعليم
٢٨٦-٢٨٥	رابعاً : وظائف التدريس
٢٨٦	خامساً : أوقات الدراسة
٢٨٧-٢٨٦	سادساً : الإجازات
٢٩٤-٢٨٨	الخاتمة
٣٠٠-٢٩٦	الملاحق
٣٢٢-٣٠١	الخرائط والصور
٣٥٥-٣٢٣	قائمة المصادر والمراجع

الحقبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ :

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد ... تُعد الدراسة في التاريخ اليمني ولاسيما الإسلامي من أمتع الدراسات التاريخية وأصعبها في ذات الوقت.

ذلك لأن الدراسة التاريخية اليمنية تبرز مستوى رقي المجتمع اليمني أو تدهوره ممثلاً في النظم الإدارية والمالية والاقتصادية والقضائية والعسكرية وأيضاً حياته الاجتماعية والعلمية، وكذلك توضح لنا المزيد من المعلومات التاريخية السياسية اليمنية بشكل عام ومدى تأثيرها على تاريخها الحضاري.

غير أنه من الصعوبات التي تواجه الباحث في تاريخ اليمن بوجه عام هي العوامل الطبيعية والقبلية، فهي الأكثر تأثيراً وسيطرة على المجتمع اليمني، حيث أثرت هذه العوامل الطبيعية على حياة اليمنيين السياسية والاجتماعية والثقافية تأثيراً كبيراً على مدى عصورهم المختلفة، مما أدى إلى انعزال بعض المناطق عن بعضها بحواجز جبلية، فنشأت كل منطقة منعزلة عن الأخرى، لها نظامها الذي يحميها وينظم علاقتها بغيرها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية وأدى ذلك إلى سيطرة العصبية القبلية، وهذا ما نراه مجسداً في الزعامات القبلية.

وقد أثرت مختلف الطموحات السياسية في أوضاع اليمن القبلية، فتصارعت القوى المتعاصرة — في القرن السادس الهجري — مع بعضها البعض وتبادلت النصر والهزيمة، وأطيح بأسر حاكمة لتحل مكانها أخرى إلى حين، وتمكن بعضها من السيطرة على ممتلكات البعض الآخر، فكانت الغلبة للقوة والتحالف القبلي.

ففي المجال السياسي كانت اليمن منقسمة إلى عدة دويلات مختلفة الاتجاه، ففي المناطق النهامية وخاصة زبيد، أيدت الدولة النجاشية، الخلافة العباسية وهي وريثة الدولة الزيدية في زبيد، فكان النجاشيون عبيداً لهم وتمكنوا من السيطرة على الدولة بعدئذ وأبقوا على مذهبها السني في الفترة ٤٠٣-٥٥٤هـ/١٠١٢-١١٥٩م. أما منطقة شمال هضبة صنعاء وخاصة

صعدة، فكانت بها الأئمة الزيدية الذين كانوا مستقلين عن الخلافتين (العباسية والفاطمية) وذلك من سنة ٢٨٠-٦١٤هـ/٨٩٣-١٢١٧م حتى تقلص نفوذهم على يد الملك المسعود الأيوبي. فضلاً عن ذلك كان هناك الزريعيون في عدن ويسيطرون على أبين وتَعِز، وهم من أتباع الدولة الإسماعيلية في الفترة ٤٧٠-٥٦٩هـ/١٠٧٨-١١٧٤م، ثم آل حاتم في صنعاء، وكانوا على المذهب الإسماعيلي أيضاً في الفترة ٤٩٤-٥٦٩هـ/١١٠١-١١٧٤م، كذلك كان آل مهدي في زبيد، الذين قضوا على حكم النجاشيين وخلفوهم في زبيد في الفترة ٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م، ثم الأيوبيون، الذين عملوا على توحيد اليمن من ٥٦٩-٦٢٦هـ/١١٧٤-١٢٢٩م.

وفي حالات نادرة^(١) فقط حاولت الخلافة العباسية استعادة قوتها ومجدها في إقرار ما تراه مناسباً، بحكم كونها الخلافة الإسلامية المهيمنة، وقد ساعدها على ذلك كونها ظلت — في زمن الانقسامات والفوضى العسكرية^(٢) — الغطاء الشرعي والروحي الذي لجأ إليه المتقاتلون أحياناً للحصول على الشرعية من الخلافة الإسلامية، وظلت تلك الأوضاع على حالها حتى مجيء الأيوبيين إلى اليمن فتغيرت الخارطة السياسية في اليمن لصالحهم.

أما من ناحية الوضع المذهبي لليمن في القرن السادس الهجري، فقد انتشرت فيها جميع المذاهب الإسلامية، نظراً لبعدها عن مركز الخلافة العباسية، فانتشر مذهب الإسماعيلية في مغارب اليمن الأعلى فضلاً عن نجران وعسير، وانتشر مذهب الإباضية في غرب صنعاء وفي شَظَب وفي حضر موت، أما الزيدية فانتشرت في صعدة وما حولها، بينما انتشرت مذاهب أهل السنة في بقية اليمن. أما المذهب الصوفي، فاعتقه علي بن مهدي مؤسس الدولة المهدية ونادى به في بداية تكوينه لدولته في مدينة زبيد، وبالفعل نجح في ذلك. وينتج عن ذلك أن اتجه أصحاب كل مذهب في استقطاب أنصاره بناء على فكرتهم المذهبية، فادعى أصحاب كل مذهب أنهم أحق في تولي السلطة السياسية دون غيرهم من الفرق، وأوردوا لذلك الأدلة والبراهين والحجج التي تؤيد رأيهم ويقتنع بها أنصارهم.

(١) على الرغم من أن الدولة النجاشية كانت ممثلة للخلافة العباسية وأن سيطرتها يجب أن تمتد على اليمن كله، إلا أن الصليحيين تمكنوا من إزاحة نفوذهم عن معظم مناطق اليمن، وذلك بسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تتمكن من صد الفاطميين عن السيطرة على مصر والشام.

(٢) المقصود بالانقسامات ظهور الصلافة وسيطرتهم على الخلافة العباسية في ذلك الوقت والصراع على السلطة في بغداد فيما بينهما.

واستخدم أصحاب كل مذهب أسلوبًا خاصًا بهم في دعوة الناس إلى مذهبهم السياسي، فالشيعة الإسماعيلية اتخذوا أسلوب الدعوة السرية ثم استخدموا القوة للوصول إلى السلطة، أما الزيدية فاستخدموا الدعوة إلى الإمام بظهوره داعيًا إلى نفسه بالإمامة وشاهرًا سيفه ضد السلطة المخالفة له مذهبياً مدعيًا أنه أحق بالسلطة دون غيره، وتستررت دولة بني مهدي في بدايتها خلف المذهب الصوفي معلنة مبادئها التي تُظهر الزهد والورع والتسامح لاستمالة الكثيرين إليها من الأنصار، بينما عول أهل السنة على تأييد السلطة الدينية الشرعية وهي السلطة العباسية، فنشأ صراع مستمر وقتال مرير حول السلطة بين كل تلك الفرق. ولم يكن هذا الصرع سببه الخلاف المذهبي الديني فقط، بل كان سببه أيضًا الخلاف السياسي حول اعتلاء السلطة.

ويُعد موضوع الدراسة لدولة بني مهدي في اليمن في الفترة التاريخية ما بين ٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م، من الدراسات التي تعالج بعض الجوانب من التاريخ السياسي والحضاري لليمن كدراسة علمية منهجية والتي لم يركز عليها أو يستوفها بعض الباحثين لاسيما في المجال الحضاري، باعتبار أنها فترة تاريخية قصيرة مليئة بالأحداث والصراعات والعلاقات المتشابكة المتداخلة، الأمر الذي يحتاج إلى جهد لاستخلاصها وإبراز نتائجها، كذلك ندرة المعلومات الخاصة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية من جانب المؤرخين القدامى، مما استلزم إتباع المنهج التاريخي الذي يعتمد على النصوص من المصادر الأصلية لتفسيرها لهذه الدراسة وتوضيح سياسة دولة بني مهدي وما اتسمت به من شدة وعنف وتأثير هذه السياسة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلاد اليمن، ومهما كان قصر فترة البحث فهي تعبر عن الأوضاع السائدة وقتذاك.

وتتألف هذه الدراسة من خمسة فصول فضلاً عن التمهيد والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية وبعض الملاحق والصور والخرائط الخاصة بفترة البحث.

تناول التمهيد : الأوضاع السياسية في بلاد اليمن قبيل قيام دولة بني مهدي، حيث كانت اليمن مفككة سياسيًا ومجزأة إلى وحدات سياسية متعددة تحكمها زعامات قبلية مختلفة، تتبع كل منها مذهب مختلف عن الأخرى، فمنهم من يدين بالولاء للخلافة العباسية، أو الخلافة الفاطمية، ومنهم من يستقل بالسلطة والمذهب كالزيدية.

ويوضح الفصل الأول : السياسة الداخلية لدولة بني مهدي في زبيد، وينقسم إلى عدة عناصر منها توضيح قيام دولة بني مهدي وسياسة حكامها في توطيد وتوسيع سلطانهم

في اليمن وتأثير ذلك على الأحداث السياسية في اليمن، بداية من محاولات علي بن مهدي في الاستيلاء على الحكم وإسقاط الدولة النجاشية في زبيد، ونجاحه في ذلك الأمر، ثم توريث الحكم في أولاده من بعده مع التوسع الذي شمل كثير من بلدان اليمن، مع توضيح العلاقات الداخلية والخارجية لدولة بني مهدي.

بينما يتناول الفصل الثاني : أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن وسقوط دولة بني مهدي، وتتبع الفتح الأيوبي للقضاء على نفوذ دولة بني مهدي كله مع توضيح أن السياسة العسكرية كانت سبباً من أسباب انهيار الدولة

ويأتي الفصل الثالث : بالبحث في الحالة الاقتصادية في عهد دولة بني مهدي، من حيث الثروة الزراعية والأساليب المتبعة فيها للزراعة وأهم المحاصيل ووسائل الري، أيضاً التعريف بالحرف وأهم الصناعات الخاصة بالثروة المعدنية، وأهم الحرف اليدوية، وكذلك صناعة الجلود والنبيذ والمنسوجات، ولا تغفل التجارة الداخلية وأهم الأسواق والسلع التجارية، وأيضاً التجارة الخارجية وأهم طرقها سواء كانت طرق برية أو طرق بحرية.

فضلاً عن النظام المالي الذي اتبعته دولة بني مهدي من حيث الإيرادات والمصروفات والمعاملات المالية التي من خلالها تُنشر عملة لدولة بني مهدي وتحديداً في فترة حكم عبدالنبي بن مهدي وذلك عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م مع التحليل والتوضيح لأهمية هذه العملة وما تحمله من نقوش وبيانات.

وقد استعانت الدراسة لأول مرة بنشر نموذج لعملة عبدالنبي بن مهدي وتحليل الكتابات والنقوش الواردة بها، حيث أنها لم تنشر في مصدر أو مرجع من قبل.

بينما يتناول الفصل الرابع : الحياة الاجتماعية في عهد بني مهدي، من حيث عناصر السكان وطبقات المجتمع اليمني، وتوضيح عاداته وتقاليده، وخاصة في مدينة زبيد، ودور بعض المنشآت والمؤسسات الاجتماعية في ذلك الوقت.

أما الفصل الخامس فيتناول : الحياة الثقافية، موضحاً فيه أسباب النهضة الثقافية في اليمن والحركة العلمية من حيث مؤثراتها ومراكزها المتعددة، وخصائص الحركة العلمية من رحلات داخلية وخارجية في طلب العلم، وأيضاً توضيح المذاهب الفقهية وأثرها في التقدم الفكري، ومدى جهود علماء السنة والشيعة في نشر العلوم المذهبية داخل وخارج اليمن.

وأخيراً هذه دراسة متواضعة لإبراز سياسة دولة بني مهدي في اليمن في مختلف النواحي سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، وتوضيح نتائج هذه الدراسة وأسباب سقوط هذه الدولة، وأسأل الله التوفيق، وحسبي أنني اجتهدت وبذلتُ الجهد وأنفقتُ الوقت الكثير مع نية خالصة لإعداد هذه الدراسة.

وفي النهاية أحمّد الله تعالى الذي أعانني على إتمام هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم، ثم لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر شكري وعظيم امتناني وتقديري واحترامي للأستاذ الدكتور **محمود عرفة محمود** على معاونته الصادقة لي في إعداد هذه الدراسة، فقد استفدتُ من فيض علمه ونصحه الدائم لي منذ أن كان الموضوع فكرة حتى خرج إلى حيز الوجود، وأشهدُ أن توجيهاته السديدة وإرشاداته واضحة في كل صفحات الرسالة، لذلك لا يوفيه الشكر وإن كثر، إنما الذي يوفيه جزاءه ويعطيه أجره هو الله وحده عز وجل، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

كما أقدم شكري وامتناني لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور **عبادة عبدالرحمن رضا كُحيلة** على كل ما أمدني به لهذه الدراسة من معلومات قيمة وتوجيهات سديدة، فجزاه الله عني خير الجزاء ومتعته الله بكامل الصحة والعافية، كما أشكره مرة ثانية لتفضله بمناقشة هذه الدراسة.

كما أتقدم بجزيل الشكر ووافر احترامي إلى الأستاذ الدكتور **محمد عيسى الحريري** أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة المنصورة، على تفضله بمناقشة هذه الدراسة.

كما أقدم شكري الذي يعجز لساني عن انتقاء كلماته، وعرفانا بالجميل إلى **أبي وأمي**، اللذان شجعاني ووضعاني على بداية الطريق إلا أن إرادة الله لم تشأ أن يستكملا معي هذا الطريق، لهذا فإنني أهدي هذا العمل إلى روحهما رحمهما الله وجعله في ميزان حسناتهما، وأسكنهما فسيح جناته.

وأتقدم بالشكر إلى كل الذين ساعدوني وقدموا لي التسهيلات في سبيل إعداد هذه الدراسة وأخص بالذكر زوجي الدكتور **محمد أحمد إبراهيم** فجزاه الله عني خير الجزاء ومتعته بالصحة والعافية هو وأسرته.

وفي الختام الشكر أيضاً لكل أساتذتي وزميلاتي في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة والسادة أمناء مكاتب جامعات القاهرة وعين شمس والجامعة الأمريكية ومكتبة

الإسكندرية ودار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية، والمكتبة اليمنية للدكتور
السفير اليمني **عبدالولي الشميري** بالقاهرة.

عرض لأهم مصادر البحث

اعتمدتُ في دراستي هذه على مجموعة من المصادر الأصلية اليمنية وغير اليمنية، سواء عند الحديث عن الناحية السياسية أو الاقتصادية أو المذهبية أو الاجتماعي، إلا أنني حرصتُ على أن تكون الأولوية للمصادر اليمنية، لاسيما المعاصرة لفترة البحث أو القريبة منها لمؤرخين يمينيين أو غير يمينيين، مخطوطة كانت أم مطبوعة، مع الاستعانة ببعض المراجع الحديثة التي تقوم بدراسة وتحليل بعض الموضوعات الخاصة بالدراسة والتي وردت في المصادر اليمنية، ولما كان المقام لا يتسع لذكر أهمية كل مصدر من هذه المصادر، فإن الباحثة ستكتفي بذكر بعضها.

الفصل الأول الخاص بالأوضاع السياسية في بلاد اليمن في عهد دولة بني مهدي،

اعتمدتُ فيه على كثير من المصادر المخطوطة والغير مخطوطة يأتي في مقدمتها : مخطوط لمحمد بن محمد بن منصور بن أسير الذي كان حيًا سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م وهو " العقد الفريد في تاريخ مدينة زبيد " وتكمن أهمية هذا المخطوط في التعريف بدولة بني مهدي بداية من ترجمة لمؤسس هذه الدولة وهو علي بن مهدي الرعيني مستعرضًا دوافعه لإنشاء هذه الدولة، ومرورًا بالأحداث السياسية التي شهدتها هو وأبناؤه في توطيد سلطانهم في زبيد خاصة وفي اليمن عمومًا، بعد القضاء على دولة بني نجاح وكذلك علاقتهم بالدول اليمنية الأخرى والحروب التي كانت قائمة بينهم بين نصر وهزيمة حتى قدوم بني أيوب إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م.

وتوجد نسخة المخطوط في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ٣١٨ ورقة، ميكروفيلم رقم ٢٢٦٢ تاريخ.

ومخطوط لأبي الحسن علي بن الحسن بن محمد بن إسماعيل الخرجي الشافعي الزبيدي النسابة المعروف بابن وهاس ت ٨١٢هـ / ١٤١٠م. بعنوان " المسجد المسبوك والزبرجد المكوك فيمن ولي اليمن من الملوك "، وهو يتناول تاريخ اليمن السياسي والثقافي، ويخص بالحديث دول اليمن المستقلة حتى سنة ٨٠١هـ - ١٣٩٨م، مرتبًا على اثني عشر فصلًا، وتأتي دول بني مهدي في الفصل الرابع، بداية من تأسيسها ومرورًا بأحداثها التاريخية السياسية في اليمن مع الدول اليمنية موضحًا العلاقة بينهم والتي كانت تتسم بالصراع والحروب الدائمة.

وتأتي أهمية هذا المخطوط لما أوضحه لنا من نسب علي بن مهدي وبعض صفاته وعلاقاته السياسية المختلفة مع حلفائه وأعدائه وأساليبه العسكرية، كما استعرض المخطوط بعض النواحي الاقتصادية والعمرانية لدولة بني مهدي في اليمن.

وهذا المخطوط في معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ٣٩٨ ورقة، ميكروفيلم رقم ١/٧٣٦.

كذلك كان مخطوط ابن وهاس الزبيدي ت ٨١٢هـ/١٤١٠م، بعنوان " الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الإسلام " أهمية كبيرة للبحث فقد أشار هذا المخطوط للفترة السياسية لحكم دولة بني مهدي وبعض الأحداث السياسية الملزمة لمدة حكمهم والصراعات التي كانت قائمة مع الإشارة لمدى نتائجها على دولة بني مهدي، مثل التحالف القبلي الذي كان بين بني حاتم في صنعاء وقبائل بني همدان، وكذلك العلاقات السياسية بين الدولة الصليحية بقيادة الملكة أروى بنت أحمد والدولة الزيدية في عدن، ومدى تأثير ذلك على دولة بني مهدي سواء بالسلب أو الإيجاب.

وهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ٢٤٧ ورقة، ميكروفيلم رقم ١١٨٢ تاريخ.

كذلك كان مخطوط يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد اليمني ت ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م وعنوانه " أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن "، أهمية كبيرة من حيث كم المعلومات التي استعنت بها في هذه الدراسة، فكان به معلومات هامة لكثير من الأحداث السياسية في دولة بني مهدي، موضحًا فترة حكم كل حاكم وأهم ما قام به من أعمال سياسية وحربية وعلاقاتهم السياسية بدول اليمن الأخرى، كما أوضح لنا أسباب خروج الأيوبيون من مصر إلى اليمن وانتصارهم على دولة بني مهدي والقضاء على دولتهم في اليمن.

وهذا المخطوط بمعهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، في ١٦٣ ورقة، ميكروفيلم رقم ٦٤ تاريخ.

ومن المصادر المطبوعة، استفاد البحث من كتابي عبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الدتبع الشيباني ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م، وهما كتاب " الفضل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد "، وهو تاريخ عام لمدينة زبيد مستعرضًا فيه ملوك الحبشة باليمن من آل نجاح وذكر وزرائهم، وذكر الملوك الصليحيين، وقيام دولة بني مهدي

١- سيرتي، وزوال ملك الحبشة وانقضاء دولتهم، وذكر دولة بني أيوب وأول دخولهم اليمن، موضحًا علاقة بني مهدي بالخلافة العباسية، وهذا الكتاب تحقيق الدكتور يوسف شلح.

وكتاب " قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون " وهو تاريخ عام لدويلات اليمن منذ فجر الإسلام حتى عصره، وأوضح فيه بعض النواحي السياسية والإدارية، وبعض الإشارات عن النواحي العسكرية لدولة بني مهدي، وكذلك النواحي المالية والعمرانية.

كما كان لكتاب تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد ت ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م وهو " تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن "، فائدة كبيرة للبحث، إذ أمدني بمعلومات هامة عن الحياة السياسية لم ترد في مصادر أخرى كعلاقة علي بن مهدي بأنصاره وبعض التفاصيل عن حروبه مع الدول اليمنية المناوئة له، كما أوضح العوامل التي ساعدت علي بن مهدي في استيلائه على مدينة زبيد، وتوطيد سلطانه لها، ومدى اتساع ملك عبد النبي بن علي ابن مهدي الذي وصل وامتد إلى كل اليمن، ومقدار ما في خزائنه من مال وكنوز، التي استولى عليها الأيوبيون بعد ذلك عند قضائهم على نفوذ بني مهدي وزوال حكمهم في اليمن.

يتناول الفصل الثاني من الدراسة الحياة العسكرية والجيش في دولة بني مهدي،

موضحًا أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن، والتعرض لأسباب ونتائج سقوط وانتهاء دولة بني مهدي في زبيد واليمن. ومن أهم المصادر التي استعنتُ بها في هذا الفصل، مصدر لابن حاتم، بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد الياامي الهمداني، ت بعد سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م، وهو بعنوان " السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك الغز باليمن "، تحقيق المستشرق الدكتور ركس سميث، ويُعد هذا الكتاب من أهم المصادر عن الحكم الأيوبي في اليمن، واستفادت منه الدراسة، بداية من وصول الحملة الأيوبية إلى اليمن بقيادة تورانشاه سنة ٥٦٩هـ / مارس ١١٧٤م، وضبط الأمور في زبيد بعد القضاء على دولة بني مهدي بمساعدة الأشراف السليمانيين، وتوضيح مقدار الغنائم التي استولى عليها الأيوبيون من آل مهدي متمثلة في الحصون ما بها من كنوز وأموال، مع استعراض أسباب ونتائج انتصار حملة الدولة الأيوبية على دولة بني مهدي.

كذلك استفدتُ من كتاب ابن شداد، بهاء الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م، بعنوان " سيرة صلاح الدين " المسماة بالنوار السلطانية والمحاسن اليوسفية، وهو من المصادر المهمة التي تتناول حياة صلاح الدين الأيوبي مع الاستعراض

لتواريخ الحملات الصليبية، وأسباب توجيه حملة تورانشاه إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، ثم الاستيلاء عليها بعد القضاء على دولة بني مهدي وبعض الدول الأخرى في اليمن.

كما أمدنا كتاب أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، بعنوان "الروضتين في أخبار الدولتين"، بمعلومات دقيقة عن تاريخ الدولة الأيوبية بداية من صلاح الدين الأيوبي، وتصديه لمؤامرة عمارة اليمني في مصر، وخروج تورانشاه بحملة عسكرية لفتح اليمن والاستيلاء عليها، موضحاً أسباب هذه الحملة، وأهم نتائجها والقضاء على دولة بني مهدي واستقرار الأمور لدولة بني أيوب.

ومن المصادر المهمة أيضاً كتاب للكبيسي، محمد بن إسماعيل الكبيسي ت ١٣٠٨هـ/١٨٩٩م بعنوان "اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية"، والذي أمدنا بمعلومات هامة توضح العناصر التي اشتركت في جيش دولة بني مهدي من أهل الجبال وأهل القرى وما كان لذلك من تأثير على جيش آل مهدي من حيث القوة والعدد.

ومن أبرز المصادر التي استعانت بها الباحثة في **الفصل الثالث الخاص بالحياة الاقتصادية**، كتاب لأبي محمد بن مسعود بن علي بن أحمد بن المجاور البغدادي النيسابوري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م وهو بعنوان "صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز"، المسمى تاريخ المستبصر، تحقيق أوسكر لوفغرين، وهو من أهم المصادر التي تتعرض للنواحي الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، وخاصة فترة بني مهدي وبني زريع وبني أيوب وتظهر أهميته لأنه قريب المعاصرة لفترة الدراسة، فيقدم لنا معلومات متعددة عن النواحي الاقتصادية، مثل الزراعة وأنواع الفاكهة، وطرق المواصلات في أنحاء اليمن، كما يصف لنا صناعة الجلود والملابس في زبيد، ويصف لنا حركة النشاط التجاري في عدن وصنعاء، وأهم الصادرات والواردات كما يشير إلى البلدان التي تتعامل مع اليمن تجارياً.

ومن الكتب المهمة في هذا الفصل، كتاب للملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ت ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، وهو بعنوان "ملح الملاحه في معرفة الفلاحه"، الذي أورد فيه الكثير من المعلومات الزراعية الهامة، مثل أماكن الزراعة في اليمن وزبيد وأنواع المحاصيل الصيفية والشتوية، وأوقات الزراعة والحصاد وأنواع التربة وعملية الزراعة والسري، وتصنيف أنواع الغلات الزراعية وكيفية تخزينها، وكذلك الإشارة إلى المواسم المرتبطة بالزراعة عند أهل زبيد.

ومن الموسوعات المهمة كتاب لأبي العباس أحمد القلقشندي ٧٥٦-٨٢١هـ/١٣٥٥-١٤١٨م، بعنوان **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ويعرض القلقشندي فيه معلومات أدبية وتاريخية وجغرافية خاصة ببلاد اليمن، ففي الجزء الخامس تحدث عن مدينة زبيد اقتصاديًا، موضحًا المحاصيل والأسواق والمعاملات المالية والأسعار والطرق التجارية المؤدية إلى اليمن، كما ذكر ملوك بني مهدي تباعًا في الحكم وسنى الولاية، كما أورد في كتابه بداية ونشأة مدينة زبيد مرورًا بمراحلها التاريخية لملوكها من بني زياد ثم بني نجاح ثم بني مهدي ثم بني أيوب ثم دولة بني رسول.

يُضاف إلى ذلك كُتب الجغرافية والرحلات، لما لها من أهمية في تحديد مواقع بعض المدن والطرق الخاصة بالدراسة، بجانب المعلومات التاريخية، ومن أهم كتب الجغرافيا كتاب لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الإدريسي ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م، بعنوان **"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"** وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه قدم للدراسة معلومات مهمة عن اليمن وزبيد وبعض القرى وطرقها بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بالزراعة وأنواعها وأهم المحاصيل، وطرق الري وموارد المياه، والتعدين، وأهم الصناعات التي اشتهرت بها زبيد مع توضيح طرق المواصلات التجارية سواء كانت برية أو بحرية، وطريقة جباية الضرائب وتحصيل الأموال.

ومن كتب الرحلات التي أفادت الدراسة، كتاب لمحمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (٧٠٣-٧٧٩هـ/١٣٠٤-١٣٧٨م)، بعنوان **"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"**، المعروف بمهذب رحلة ابن بطوطة، وقد ورد به معلومات هامة ذات طابع جغرافي وصفي لليمن وزبيد، وكذلك معلومات عن النواحي الاقتصادية متمثلة في أنواع الزراعة والري وأهم المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها زبيد وأوقات حصادها، وأهم الصناعات الغذائية القائمة عليها، كما أوضح لنا طرق التجارة البحرية مع ذكر بعض الصادرات والواردات مع الدول الأخرى، ليس ذلك فقط وإنما أمدنا بمعلومات ذات طابع اجتماعي، فوصف عوائد الناس ومظاهر احتفالاتهم الخاصة بزبيد.

أما الفصل الرابع الخاص بالأحوال الاجتماعية في بلاد اليمن في عهد دولة بني مهدي، اعتمدت فيه على كثير من المصادر، ولعل أهمها كتاب لنجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي اليمني ٥١٥-٥٦٩هـ/١١٢١-١١٧٤م، وهو بعنوان **"المفيد في تاريخ صنعاء وزبيد"**، المعروف بتاريخ اليمن، ورغم مما فيه من أخطاء تاريخية، لاسيما

فيما يتعلق بالدولة الزيادية، إلا أنه أفاد الدراسة كثيرًا حيث أنه كان معاصرًا لكثير من الأحداث وقريبًا من علي بن مهدي فترة من الزمن، وكذلك لأنه من أهم وأقدم المصادر التي تعرضت لأخبار اليمن، فنقلت عنه المصادر التي أتت بعده، وتم تحقيقه أكثر من مرة، حيث قام المستشرق الألماني (كاي) بتحقيقه سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م، وألحق به تعليقات مهمة، وقام الدكتور حسن سليمان بترجمة هذا الكتاب وأضاف إليه بعض التعليقات التي زادت من أهمية هذا الكتاب وطبع في القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، كما طبع في اليمن سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، وأخيرًا قام الأستاذ محمد بن علي الأكوع بإعادة تحقيق كتاب عمارة مرة أخرى، وأضاف إليه القسم الخاص بالشعراء اليمنيين أو الوافدين على اليمن، وهذا الجزء لم يوجد في المخطوطة التي اعتمد عليها المستشرق كاي، وهذا الجزء أفاد البحث كثيرًا، لاسيما عند الحديث عن الشعراء. وكان من الضروري للدراسة، الإمام الكامل بالمعلومات التي وردت لعمارة حيث أن كتابه كان بمثابة سجل كامل لسائر مناحي الحياة التاريخية في اليمن، سواء كانت سياسية أو إدارية أو قضائية أو عسكرية أو مالية أو اقتصادية أو فكرية، وتعرض للدول المستقلة بها، وأهمها الدولة الصليحية والنجاحية والزيرية وآل مهدي، كما أنه أورد إلينا معلومات هامة عن الطبقات الاجتماعية وخاصة الأدباء والشعراء في اليمن.

يضاف إلى ذلك كتاب لنشوان بن سعيد الحميري ت ٥٧٣هـ / ١١٧٧م، بعنوان " ملوك حمير وأقيال اليمن "، الذي أمدني بمعلومات هامة عن القبائل اليمنية، وخاصة التي كان لها دور في التحالف السياسي مع الدول المستقلة في اليمن وخاصة الدولة الزيرية في عدن والدولة الحاتميه في صنعاء ودولة بني مهدي في زبيد، كذلك أورد الكتاب معلومات عن قبيلة حمير ووطنها وما كان لها من دور في أحداث اليمن السياسية والاجتماعية.

ويعتبر كتاب عبدالله الطيب بامخرمة ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م، وعنوانه " تاريخ ثغر عدن "، من المصادر المهمة حيث أن مؤلفه أورد لنا معلومات غزيرة عن طبقات التجار التي سكنت اليمن، لاسيما مدينة عدن، موضحًا علاقات التبادل التجاري بينهم وبين تجار مدينة زبيد، من حيث السلع الواردة من خارج اليمن وتوضيح أهم معوقات التجارة بداية من البحار ثم في جباية الضرائب في الموانئ التجارية، فاستفادت الدراسة منه اجتماعيًا واقتصاديًا.

أما الفصل الأخير والخاص بالأحوال الثقافية والصراعات المذهبية التي وجدت في اليمن في فترة حكم بني مهدي، والتي كانت قائمة على كثير من الاختلافات السياسية التي

توضح أن اليمن في ذلك الوقت كان به المذهب السني والمذهب الشيعي والمذهب الزيدي، وكذلك مذهب التصوف، فاستعنتُ بكثير من المصادر المخطوطة وغير المخطوطة، سواء كانت سنية أو إسماعيلية أو زيدية أو تصوفية كُتبت بأيدي مؤرخين يمنيين، هذا بالإضافة إلى كتب الفرق والمذاهب التي كتبت بأيدي مؤرخين وعلماء غير يمنيين.

المصادر السنية أهمها : مخطوطة لعبدالرحمن بن علي الديبع ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م بعنوان " فضائل اليمن وأهله "، تحدث فيه عن فضل أهل العلم في اليمن وخص بالذكر زبيد واصفاً أنها اختلفت عن غيرها من مدن اليمن من حيث طلبة العلم وكثرة العلماء وحفظة القرآن، كما أنه أورد كثير من الشعر والشعراء ومنهم عمارة اليمني مستعرضاً مرثيته التي قالها في وفاة والد صلاح الدين الأيوبي، كما أن المخطوط أوضح لنا أشهر المساجد في زبيد ودورها الثقافي.

وهذا المخطوط في معهد المخطوطات العربية، ١٠ ورقات، ميكروفيلم رقم ٢٤٨٦ تاريخ، ونسخة أخرى ميكروفيلم رقم ١١٦٢ تاريخ في أربع ورقات.

أما كتاب عمر بن سمرة الجعدي ت ٥٨٦هـ/١١٩٠م بعنوان " طبقات فقهاء اليمن "، أمدني بمعلومات غزيرة وثرية عن فقهاء اليمن ومحدثيها السنيين وجهودهم في نشر الفكر السني في بلاد اليمن وزبيد، مستعرضاً فقهاء الشافعية في صنعاء وعدن وعلى امتداد منطقة تهامة، منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عصر المؤلف، وما صنّفوه من كُتب، وما عقدوه من حلقات ومناظرات علمية.

كما أفدتُ منه كثيراً في الحديث عن المراكز العلمية للمذهب السني، والرحلات العلمية داخل وخارج اليمن طلباً للعلم.

وترجع أهمية هذا الكتاب أنه معاصر لموضوع الدراسة، فقد عاصر مؤلفه حكم الدولة الزيرية، ودولة بني مهدي، وبداية حكم الأيوبيين، فأورد لنا الكثير من فقهاء وعلماء القرن السادس الهجري، وعنه أخذتُ الكتب التي أتت بعده، وكذلك هو من أهم الكتب فائدة للدراسة في النواحي الثقافية والدينية والمذهبية لليمن .

كما كان لكتاب بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م بعنوان " السلوك في طبقات العطاء والملوك "، أهمية كبيرة للدراسة، وهو تحقيق محمد بن الأكوع، وهو يترجم لفقهاء الشافعية وعلمائها منذ فجر الإسلام حتى عصره، ورغم أنه يعتمد في

معلومات كتابه على مصادر من سبقته من الكتب مثل طبقات ابن سمره وتاريخ صنعاء للرازي، إلا أنه يضيف معلومات كثيرة عليها استقاها من مصادر أخرى وأضاف كثيراً من المعلومات للأشخاص الذين ترجمت لهم هذه الكتب.

ويُعد هذا الكتاب مصدراً مهماً في الحياة العلمية، لأنه يحتوي على الكثير من المعلومات في النواحي الفكرية والدينية والمذهبية، ويمتاز الكتاب بإيراد أسماء أماكن هؤلاء الفقهاء والعلماء.

أيضاً كتاب بدر الدين الحسين بن عبدالرحمن بن محمد الأهدل ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م بعنوان "تحفة الزمن في ذكر سادات اليمن"، تحقيق عبدالله الحبشي، اعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على كتاب السلوك للجندي، بل ويُعد مختصراً له ثم أضاف إليه ترجمة العلماء ومنذ وفاة الجندي إلى عصره وقد أفاد هذا الكتاب الدراسة في الجوانب الفكرية والعلمية والمذهبية لليمن.

وعند الحديث عن المذهب الإسماعيلي، اعتمدتُ على كثير من المصادر الإسماعيلية ومن أهمها : مخطوط لعماد الدين إدريس بن علي بن عبدالله اليماني ت ٧١٤هـ/١٣١٤م، بعنوان "كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار"، وهو أحد دعاة الإسماعيلية الفاطمية في اليمن، ويوضح هذا المخطوط مبادئ الدعوة الإسماعيلية مع دور الدعاة في نشر المذهب الإسماعيلي في اليمن، وهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ١٩٠ ورقة، ميكروفيلم رقم ١١٨٤.

أيضاً مخطوط عماد الدين إدريس بن الحسن بن عبدالله الأنفي ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، بعنوان "نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار"، أفاد الدراسة كثيراً عند الحديث عن الدعوة الإسماعيلية باليمن والجهود التي بذلها دعاة الإسماعيلية سواء كانت سياسية أو دينية من جل نشر المذهب الإسماعيلي متصلاً من أيام منصور اليمن ابن حوشب حتى أيام المؤلف، وعلى الأخص منذ سقوط الدولة الصليحية سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م وحتى سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م، ويعطي المؤلف أهمية خاصة للدعوة الإسماعيلية والعلاقات بين الطائفتين الإسماعيليتين في اليمن، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم رقم ٢٢٥٣.

ولنفس المؤلف عماد الدين إدريس بن الأنفي، كتاب عنوان "عيون الأخبار وفتن الآثار في ذكر النبي المصطفى المختار ووصية علي بن أبي طالب قاتل الكفار وآلهما الأئمة

الأطهار عليهم صوات الله العزيز الغفار"، وهو يبحث المظهر الديني للدعوة الإسماعيلية منذ نشأتها وحتى النصف الثاني من القرن السادس الهجري، ويقع في سبعة أجزاء، أطلق المؤلف على كل جزء منها "سُبع" وهو لفظ ذو دلالة عند الإسماعيلية الذين يُعرفون "بالسَّبْعِيَّة" نسبة إلى إمامهم السابع محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وهو من الكتب التي تؤرخ للدعوة الصليحية في اليمن، وقد جعل وضع المؤلف كداعٍ مطلق للدعوة الطيبية في اليمن والمصادر والوثائق الإسماعيلية النادرة التي اطلع عليها من كتابه المصدر الرئيسي لدراسة الدعوة اليمينية، فذكر دور الداعي علي بن محمد الصليحي للدعوة الفاطمية في اليمن وخلفائه من بعده، موضحًا الحروب والانتصارات والهزائم التي صاحبها من خلال تراجم لأهم رجال الدولة والدعوة. كما تناول تفاصيل هامة لتتمة عهد المستنصر بالله وقيام الدولة الصليحية في اليمن، والانشقاق الذي أعقب وفاة المستنصر، وعهد المستعلي بالله والأمر بأحكام الله وبداية فترة الدعوة الطيبية في اليمن.

وعند الحديث عن المذهب الزيدي كان من الطبيعي أن يكون جلّ اعتمادي على كتب الزيدية مخطوطة أو مطبوعة، ومن أهمها مخطوط لحمد أحمد المحلي ت بعد سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، بعنوان "الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية"، وترجم هذا المخطوط لأئمة الزيدية في اليمن والجهود العلمية لهم، وما صنّفوه من كتب وما عقّده من حلقات علمية، هذا بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بالناحية السياسية والحروب التي خاضها هؤلاء الأئمة ضد أعدائهم.

وهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم برقم ٩٥٦ تاريخ، ودار الكتب المصرية رقم ٢٣٨٧٥ تاريخ : الجزء الأول ميكروفيلم رقم ٣٥٢٥٦، وصفحاته ٢٨٢ ورقة، والجزء الثاني : ميكروفيلم رقم ٣٥٩١٢، وصفحاته ٢٤٨ ورقة.

وأيضًا مخطوط ليحيى بن الحسين ت ١١٠٠هـ/١٦٨٨م، بعنوان "المستطاب في تاريخ علماء الزيدية الطناب" والمسمى "طبقات الزهر في أعيان العصر"، أو "طبقات الزيدية الصغرى"، وهو من المصادر التي أرّخت للمذهب الزيدي في بلاد اليمن، وترجمت لعلمائه الذين قاموا بدور كبير في نشر الفكر الزيدي، والتصدي لخصومه، وقد رتب المؤلف تراجمه على طبقات، والمخطوط من أهم المصادر للبحث في النواحي الثقافية والمذهبية للمذهب الزيدي - المطرفية والمخترة - فهو يوضح نشأة المذهب الزيدي وانشقاق المذهب المطرفي والمخترة عنه والصراع فيما بينهما، وأهم مراكزهم العلمية وما بذله العلماء من

مجهود في نشر مذهبهم وما صنفوه من كُتُب وما عقّده من حلقات علمية، وقد رتب مؤلفه تراجمه على طبقات. وهذا المخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم رقم ٣٢٩ تاريخ.

ومن مصادر الدراسة عدة سير للأئمة الزيدية مثل كتاب سليمان بن يحيى الثقفي ت بعد ٥٦٦هـ/١٧٠م، وعنوانه "سيرة الإمام أحمد بن سليمان" وورد به معلومات عن علاقة الإمام أحمد بن سليمان بدولة بني مهدي والحروب التي قامت بينهما، بجانب بعض المعلومات عن الصفات الشخصية والسياسية للإمام أحمد بن سليمان والتي توضح مكانته للمذهب الزيدي في اليمن آنذاك من خلال مؤلفاته الفكرية التي أثّرت المذهب وحقق له الانتشار في بقاع كثيرة من اليمن.

التحقيق

التمهيد :

تعد مدينة زَبِيد^(١) من المدن التي حظيت بمكانة سياسية واقتصادية وعلمية طيلة حقبة طويلة من تاريخ اليمن، فكانت عنصراً هاماً ومؤثراً في كثير من الأحداث التاريخية في اليمن، خاصة المرحلة السابقة على قيام دولة بني مهدي "موضوع الدراسة".

ومدينة زَبِيد إحدى قواعد بلاد اليمن^(٢)، يحدها من الجنوب واديها المسمى زبيد، ومن الشمال وادي رمع^(٣)، ومن الشرق الجبال الشامخة والحصون الباذخة، والمعقل المنيع، والمساكن الرفيعة، ومن الغرب البحر الأحمر، وهي أعظم مدن اليمن، وأكبر من صنعاء، وبينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً^(٤).

ومساحة زبيد تبلغ عشرة آلاف وتسعمائة ذراع^(٥)، أي إنها ستمائة وخمسة وأربعون وثلاث معاد^(٦).

(١) زبيد : بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت، كان اسمها قديماً بلاد الحُصيب نسبة إلى وطن الحُصيب بن عبد شمس، ثم غلب عليها اسم الوادي الذي تنتمي له " وادي زبيد " وهي مدينة مشهورة باليمن. ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، م ٢، ج ٤، ص ٤٦٨.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، تحقيق : محمد بن علي الأكوخ، منشورات دار الإمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص ٢٥٨.

(٣) رمع : بكسر الراء وسكون الميم، أحد الوديان الكبيرة التي تصب في البحر الأحمر. اليعقوبي : كتاب البلدان، مطبعة بريل، لندن، ١٩٦٧م، ص ٣١٨.

(٤) الفرسخ مقياس من مقاييس المسافات مقدارة ثلاثة أميال والميل البري = ١,٦٠٩ كم. زين العابدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء للطباعة والنشر، ٢٠٠٦م، ص ٤٠٢.

(٥) الذراع : وحدة قياس طولية يبلغ ٠,٥٨ م. (زين العابدين نجم: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص ٢٧٦).

(٦) المعاد : في عرف أهل اليمن، قطعة من الأرض مربعة، لكل جانب منها قصبستان والقصبية تساوي ٣,٥٥ م. ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، مركز الدراسات والبحوث

اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ص ١٣.

وهي من حيث خطوط الطول أربع وستون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربع عشرة درجة وعشر دقائق^(١).

وأول من اختط المدينة محمد بن عبدالله بن زياد الأموي^(٢)، بأمر من الخليفة عبدالله المأمون بن هارون الرشيد، في شهر شعبان سنة أربع ومائتين للهجرة (٨١٩م). ومدينة زبيد مَسُورَة^(٣)، وركب بالصور أربعة أبواب^(٤) : أحدهما ينفذ إلى الشرق وهو المسمى باب الشَّبَارِقِ^(٥)، ثم حصن قوارير. والثاني إلى الشمال، وهو المسمى باب سَهَام، ينفذ إلى وادي رَمَع وسَهَام، وهو واجهة المدينة. والثالث إلى الغرب، وهو الذي يسمى باب غُلَافَقَة^(٦)، ينفذ إلى غلافقه وإلى الأهواب^(٧). والرابع إلى الجنوب، وهو المسمى باب القُرْتَب^(٨)، ينفذ إلى وادي زبيد ثم إلى قرية القُرْتَب.

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ج ٥، ص ٩، ١٠.

(٢) ابن عبدالمجيد اليماني : بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق : عبدالله محمد الحبشي، محمد أحمد السباني، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٣٨؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج ٤، ص ٢١٣..

(٣) شمس الدين الأنصاري : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، أنوار سوتز، ليبزيج، ١٩٢٤م، ص ٢١٦؛ الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٠٦.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد، ص ٤٩؛ عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ١٤٨؛ محمد الأكوع الحوالي : اليمن الخضراء، مطبعة الساعدة، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٨٨.

(٥) الشبارق : نسبة إلى قرية الشبارق الواقعة شرق المدينة. ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٤٩.

(٦) غلافقة : بضم الغين، بلدة ساحلية بالشمال الغربي من زبيد، المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، منشورات دار الحكمة، صنعاء، ١٩٨٨م، ص ٤٨٣.

(٧) الأهواب : ميناء صغير لمدينة زبيد، وهو بالقرب منها ويمتاز بجمال الطبيعة. المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص ٥٢.

(٨) القرتب : بضم القاف والتاء، بلدة وضاحية من ظاهر جنوب مدينة زبيد، وينسب إليها الباب الجنوبي لمدينة زبيد. الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢٠.

الأوضاع السياسية في بلاد اليمن قبيل قيام دولة بني مهدي :

كانت اليمن في القرن الخامس الهجري مفككة " سياسيًا ومجزأة " إلى وحدات سياسية متعددة تحكمها زعامات قبلية مختلفة أهمها قبائل حمير وقبائل همدان، فاليمن الأسفل كان مقسمًا بين قبائل حمير وكانوا غالبًا ما يخضعون لحكام تهامة باعتبارهم ممثلين للخلافة العباسية. وكان اليمن الأعلى مقسمًا بين قبائل همدان والزيدية، فكانت قبائل همدان تطيع حكام تهامة، وأحيانًا تستقل بالسلطة عنهم، وتارة تطيع الزيدية، ومن ثم نرى حكم هذه الزعامات القبلية لليمن^(١) آنذاك كالاتي :

- ١- بنو مَعْن : وهم من قبيلة ذي أصبح ثم من حمير حكموا مدن، عدن ولحج وأبّين وحضرموت والشحر^(٢).
- ٢- بنو الكَرْنَدِي : وهم من حمير حكموا مخلاف المعافر ومخلاف الجند بحصونهما مثل السَّمْدَان والسَّوَا والذُمْلُوَة، وصَبْر وذُخْر ثم توسعوا نحو مخلاف جعفر، فسيطروا على مخلاف عَنَّة (العدين) بمدنها مثل المُنْخِرَة وذِي جَبْلَة وحصونها مثل التُّعَكَر^(٣).

(١) محمد عبده السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، مكتبة خالد بن الوليد وعالم الكتب اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص ٧.

(٢) أبّين : مخلاف مشهور على ساحل البحر الهندي شرقي عدن (الحجري: بلدان اليمن، م ١، ص ٥٥).
عمارة اليمني : تاريخ اليمن، تحقيق : حسن سليمان محمود، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص ٥٦؛
ابن الديبع : قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق : محمد الأكرع، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٣٣٤.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٥٦، ٥٧؛ ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، تحقيق : أوسكر لوفغرين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م، ص ٧٢، ٧٣؛ الوصابي : تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق : عبدالله الحبشي، دار العودة، بيروت، ط ١، ١٩٧٩م، ص ٢٩.
السَّمْدَان : حصن شامخ في بلد الرجاعية من بلاد المعافر يضرب به المثل في المناعة والحصانة.
(المقحفي : معجم البلدان، ص ٣٢٥). السَّوَا : من أعمال تعز وهي عزلة كبيرة، اتخذها ملوك بني الكرندي مركزًا لهم في ق ٤هـ، (المقحفي : معجم البلدان، ص ٣٣١). الذُمْلُوَة : حصن عظيم باليمن يقع في جنوب الجند كان يسكنه آل زريع (ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٢، ص ٣١٢). صَبْر : اسم الجبل الشامخ العظيم المطل على تعز فيه عدة حصون وقرى (الحجري: بلدان اليمن وقبائلها، دار -

٣- بنو أصبح : وهم من حمير حكموا المناطق الواقعة شرق وشمال مدينة (إب) مثل حصن حبّ (بعدان) وعزّان وبيت عز والشعر وأنور والنقىل والسحول، ثم صارت تلك المناطق تحت حكم بني التبعي^(١).

٤- بنو وائل : وهم من الكلاع ثم من حمير حكموا المناطق الواقعة غرب وشمال مدينة جبلة مثل مخلاف وحاطة بحصونها مثل يريس ودهران ويفوز وعزّان

= الحكمة اليمانية، صنعاء، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، م٢، ص٤٦٢). نَجَز : جبل ببلاد المعافر ويعرف اليوم بجبل حبش (الحجري : بلدان اليمن، م١، ص٣٤٠؛ المقحفي : معجم البلدان اليمانية، ص٢٤٩). التّعكر : هو أشهر جبال اليمن علواً وحصانة، وكان من معاقل الصليحيين الهامة (المقحفي : معجم البلدان، ص٩١؛ الحجري : بلدان اليمن، م١، ص١٥٥). مخلاف الجند : مسماه بجند بن شهران بطن من المعافر وبينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً وبها مسجد بناء معاذ بن جبل (رضي الله عنه) (ياقوت الحموي : معجم البلدان، م٢، ص٨٠؛ الأنصاري : تحفة الدهر، ص٢١٧). المعافر : يقع في جنوب وغرب تعز، ونسبة إلى المعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أد بن الهميسع بن عمرو بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ (المقحفي : معجم البلدان، ص٦٠٧). مخلاف جعفر : يطلق على بلاد إب والعدين وما حولهما، وهو منسوب إلى جعفر أحد مماليك محمد بن عبدالله ابن زياد مؤسس دولة بني زياد (المقحفي : معجم البلدان، ص١٢٣). مخلاف عنة : واد مشهور من بلاد العدين غربي إب ويصب في وادي زبيد (المقحفي : معجم البلدان، ص٤٧٠).

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص٥٧؛ ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٧٢، ٧٣؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، تحقيق : عبدالفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١، ص٢٤١؛ الكبيسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمانية، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٣م، ص٢٥، ٢٦.

حصن حبّ : حصن منيع من معاقل اليمن وأصعبها في بعدان (المقحفي : معجم البلدان، ص١٤٧). حصن عزّان : من حصون ريمة باليمن مطلق على مدينة إب من الزاوية الشرقية الشمالية (المقحفي : معجم البلدان، ص٤٤٢). بيت عز : من حصون اليمن في بعدان كان لعلي بن غواض (ياقوت : معجم البلدان، م١، ص٤١٠). حصن الشعر : في ناحية النادرة متصل ببعدان شرقاً (الحجري : بلدان اليمن، م٢، ص٤٥٤). أنور : حصن وبلدة في ناحية المخادر جنوبي مدينة إب (المقحفي : معجم البلدان، ص٤٩). النقىل : هو نقىل صيد، جبل عظيم، والنقىل بلغة أهل اليمن العقبة، وهو بين مخلاف جعفر وبين حقل ذمار (ياقوت : معجم البلدان، م٤، ص٤٠١). السحول : قاع معروف ما بين مدينة إب جنوباً وحتى قفر يريم شمالاً (المقحفي : معجم البلدان، ص٣٠٧).

والخضراء^(١) وشعب ومدينتهم شاحط ثم حل محلهم بنو التبعي في الشمال وبنو الكرندي في الجنوب.

٥- بنو التبعي : وهم من حمير حكموا المناطق الشمالية لمدينة ذي جبلة مثل حصن خدد (جبل حبيش) والشوافي أولاً، ثم توسع حكمهم نحو المناطق الشمالية والشرقية لمدينة إب، فسيطروا على حصن حب وعزان والشعر والسحول^(٢).

٦- بنو عبدالواحد : وهم من حمير أيضاً حكموا المناطق المجاورة لباجل مثل أعمال بُرَع والعمد ولعسان^(٣).

٧- وبالنسبة إلى قبائل همدان حكم قوم منهم حصن أشيخ (أنس) ومقرى ومخاليقها^(٤).

٨- آل الضحاك الهمداني وأبى الفتوح الخولاني والأئمة الزيدية : حكموا صنعاء وما حولها، ودار صراع كبير بين هذه القوى الثلاث حول السيطرة على صنعاء، وكانت كل قوة من القوى الثلاث تسيطر على صنعاء لبعض الوقت، إلا أن آل الضحاك كانوا أكثر تلك القوى سيطرة عليها^(٥).

(١) حصن بريس : أحد حصون مخلاف وحافظه (المقحفي : معجم البلدان، ص ٧٠٩). دهران : من قرى اليمن (ياقوت : معجم البلدان، م ٢، ص ٣٢٨). يقوز : من حصون حمير (المقحفي : معجم البلدان، ص ٧١٥). الخضراء : حصن باليمن في جبل وصاب من عمل زبيد (ياقوت : معجم البلدان، م ٢، ص ٢٣٨).

(٢) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٣٣٥ : ٣٣٧.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٥٨؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ط ١، ج ٢، ص ٢٢٩؛ محمد السروري : تاريخ اليمن، ص ٩.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص ٥٨.

أشيخ : اسم حصن منيع عال جدًا في جبال اليمن (ياقوت : معجم البلدان، م ١، ص ١٦٤). مقرى : هو الاسم القديم لما يدعى اليوم (مغرب عنس) من بلاد ذمار ونسبها - كما يذكر الهمداني - مقرى بن سبيع بن الحارث بن زيد الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زبيد بن سدد بن حمير بن سبا الأصغر (ياقوت : معجم البلدان، م ٤، ص ٢٠٠، ٣٠١؛ المقحفي : معجم البلدان، ص ٦٢٤).

(٥) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٦٤، ٦٥؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ج ١، ص ٢٤٢؛ محمد أمين صالح : تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٤٩؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ج ٢، ص ٢٣٠.

- ٩- الأئمة الزيدية : حكموا صعدة^(١) وما حولها.
- ١٠- بنو شاور^(٢) : حكموا مغارب اليمن الأعلى أو مغارب صنعاء.
- ١١- قوم من حراز^(٣) : حكموا حصن مسار.
- ١٢- بنو نجاح : حكموا تهامة وكانوا يوالون الخلافة العباسية^(٤).

وهنا نرى أن بلاد اليمن اتسمت في تلك الفترة بالاضطراب والتفكك والانحدار بخطى واسعة نحو التدهور والانحلال^(٥)، فكانت مجزئة إلى دويلات ومشيخات متنافرة لا يرتبط بعضها بالآخر بأي رابط تسكن معه الأمور، وتستقر به الأحوال غير شن الحروب فيما بينها، وزعزعة الأمن والطمأنينة في منطقتها.

وفي أثناء هذا التفكك السياسي والتعدد المذهبي لليمن ظهرت شخصية تعتق المذهب الشيعي الإسماعيلي، تتمثل في علي بن محمد الصليحي، وذلك في الربع الثاني من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، ليعلن قيام دولة جديدة في اليمن تسمى الدولة الصليحية^(٦)، ويعلن الولاء الإسمي للخلافة الفاطمية في مصر.

-
- (١) صعدة : مدينة مشهورة شمالي صنعاء، وهي أم قرى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاة. الحجري: بلدان اليمن، م٢، ص٤٦٥.
- يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ج١، ص٢٣٤، ٢٣٥.
- (٢) ابن الديبع : قرعة العيون، ص٢٤٤.
- (٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص٥٨.
- (٤) ابن الديبع : نفس المصدر، ص٣٣٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن، ص١٠.
- (٥) محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ج٢، ص٢٢٩؛ أحمد شرف الدين : اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، ص١٩٣.
- (٦) تنسب الدولة الصليحية إلى قبيلة الأصلوح التي تُعد حياً من الأحجار الحاشدية الهمدانية، من بني عبيد ابن أوم بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم الأوسط بن حاشد بن جشم الأكبر بن حيران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. الهمداني : الإكليل، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨هـ، تحقيق : محب الدين الخطيب، ج١٠، ص٩٩؛ حسين بن فيض الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار المختار، دمشق، ١٩٥٥م، ص٦٤؛ العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وإمام، القاهرة، ١٩٣٩م، ص٢٤؛ الواسعي : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة، مطبعة حجازي، ١٩٤٧م، ص١٧٢؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص٢١٣.

شهدت اليمن تحولات مذهبية وسياسية كبيرة^(١) في تلك الحقبة فظهرت الدولة الصليحية بزعامه علي الصليحي بعد أن تحولت الدعوة الإسماعيلية في اليمن من دور الاستتار إلى دور الظهور وذلك في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م على يد علي بن محمد الصليحي^(٢)، وأخذت الدعوة تنتشر سريعاً في أنحاء اليمن لدى أنصارهما الإسماعيلية فأسهم بذلك في الانتقال بالدعوة إلى الدور السياسي.

وفي سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٨م بدأ علي الصليحي يبذل ما بوسعه لتكوين دولة في اليمن فقاد أتباعه الإسماعيلية وصارع القوى المذهبية والسياسية المتعددة في اليمن مثل المذهب الزيدي في شمال صنعاء والتي تركز في صعدة وما حولها، وقوى النجاشيين ممثلي الخلافة العباسية، والتي جعلت تهامة مركزاً رئيسياً لها، والقوى القبلية في كل من صنعاء وما حولها واليمن الأسفل في كل من مخلاف جعفر ومخلاف الجند وعدن، ولم يأت عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م إلا وقد كوّن علي الصليحي دولة إسماعيلية شملت اليمن كله^(٣)، وذلك حدث لم يعهده اليمن في العصرين الجاهلي والإسلامي، لأن اليمن كان مقسماً إلى عدة دويلات مذهبية وسياسية وقبلية.

وعلى الرغم من ميل علي الصليحي إلى مذهب الإسماعيلية وحكم اليمن كلها بهذا

(١) محمد عبده السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٤٨.

(٢) اتصف علي بن محمد الصليحي بالذكاء من صغره وتضلع بمذهب الإسماعيلية على يد آخر دعائها سليمان بن عبدالله الزواحي، الذي استماله إليه وتنبأ فيه الاستعداد لحمل أعباء الدعوة الفاطمية بعد موته، وعندما قرب أجل الزواحي أوصى بجميع كتبه وأمواله التي جمعها من أهل مذهبه، لعلي الصليحي، فعكف علي الصليحي على هذه الكتب لدراستها حتى صار فقيهاً في مذهب الإسماعيلية ومستبصراً بعلم التأويل، وكتب علي بن الصليحي إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله يستأننه في إظهار الدعوة، فأذن له بنشر الدعوة في اليمن وذلك سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م. ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٤٢، ٢٤٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٧٤؛ عمارة اليمنى : تاريخ اليمن، ص ٥٩؛ محمد بن عبدالمك المروني : الثناء الحسن على أهل اليمن، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٢٥٩.

(٣) عمارة اليمنى : المصدر السابق، ص ٦٣، ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ٧٦؛ عبدالرحمن الرافعي، سعيد عبدالفتاح عاشور : مصر في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٧٠، ص ٢٢٣.

المذهب، إلا أنه ترك لأهل اليمن جميعهم الحرية الدينية والمذهبية فيما يعتقدون من مذاهب، ولم يحاول إجبارهم على اعتناق مذهب الإسماعيلية.

ولي المكرم أحمد بعد مقتل أبيه علي بن محمد الصليحي^(١) عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، على أن الدولة الصليحية في اليمن كانت قد اضطربت كل الاضطراب بعد مقتل علي الصليحي، ذلك أن بلاد اليمن لم تألف من قبل الخضوع لسلطة مركزية واحدة، بل جنح زعماء اليمن وشيوخ قبائلها إلى الاستقلال، يضاف إلى ذلك أن كثيرًا من اليمنيين قبلوا الحكم الصليحي كرهاً، لأنهم سُئِنُوا يبغيضون المذهب الإسماعيلي، بل ويحرمونه، أو زيديون يعارضون الإسماعيلية، وخضعت هذه العناصر بقوة السيف للملك الصليحي، وترقبوا الفرصة المواتية للثورة على حكومتهم الإسماعيلية، واستعادتهم استقلالهم، وتعددت الثورات.

غير أن المكرم استخدم أسلوبًا مغايرًا لأبيه في التعامل مع قبائل اليمن^(٢)، محاولاً كسب رضا القبائل اليمنية، وإعطائهم فرصة التخلي عن عداوتها للدولة الصليحية، فأدت هذه السياسة إلى عودة القبائل بنفسها إلى طاعة الدولة الصليحية، دون أن يبذل المكرم أي مجهود حربي معهم، فكان يميل إلى المسالمة فترك محاربة قبائل اليمن الأعلى في هجومهم على صنعاء من غربها وشمالها حتى كادت تسقط في أيديهم، فلم يتشدد في قتالهم على الرغم من وصول قوات الصليحي من بلاد الحجاز إلى صنعاء، إلا أنه بذل مجهودًا في محاربة النجاشيين^(٣) وبعض القبائل حتى ألزمهم لطاعته واستخدام الشدة والقسوة في قتالهم.

لم يلبث أن مرض المكرم، وعجز عن مباشرة شئون الحكم، وأمور الدولة ففوض زوجته أروى بحكم اليمن^(٤) والتي وَهَبَتْ عقلية ذكية مكنتها من حكم اليمن لفترة طويلة،

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن، ص ٦٨؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٤٣، عبدالله الثور: هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م، ط ٣، ص ٢٨٢.

(٢) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ٧٩، عصام عبدالرؤوف: اليمن في ظل الإسلام، ص ١٥٦.

(٣) عمارة اليمني: المصدر السابق، ص ٧٤؛ محمد السروري: تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٩٢.

(٤) عمارة اليمني: نفس المصدر، ص ٧٥؛ الخزرجي: العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط بمعهد المخطوطات، القاهرة، ١/٧٣٦ تاريخ، ورقة ٦١؛ ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ٧٩؛ ابن الديبع: المصدر السابق، ص ٢٦٤.

تذكر معظم المصادر اليمنية أنها كانت تسمى "سيدة بنت أحمد الصليحية" ما عدا الوصابي صاحب تاريخ وصاب ويذكر أن اسمها "أروى بنت أحمد الصليحية". عماد الدين إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ص ١٥٠، ١٥١.

وتولت السيدة أروى حكم اليمن إلى جانب ابنها علي بن المكرم ووقفت الخلافة الفاطمية وجمع كبير من اليمنيين إلى جانبها في ذلك، ولُقِبَ ابنها بعبد المستنصر^(١)، إلا أن عبد المستنصر توفي على الأرجح سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م، فأصبحت بذلك السيدة الحرة هي الحاكم الفعلي لليمن وقبضت على الأمور في البلاد بيد من حديد سنة ٤٨٤-٥٣٢هـ.

وتزوج أبو حمير سبأ الملكة أروى بأمر من الخليفة المستنصر الفاطمي، وبذل كل جهد في تقوية أمر الدعوة الإسماعيلية، والقضاء على الحركات المناهضة للدولة الصليحية حتى وفاته سنة ٤٩٢هـ^(٢). ضعفت الدولة الصليحية بعد وفاة أبي حمير سبأ، وانفصلت الولايات عن الدولة؛ واستولى السلطان حاتم بن الغشم المغلسي الهمداني على صنعاء وأعمالها، فضبط أمورها وأطاعته قبائل همدان^(٣)، كما استقل بنو زريع بعدن.

استعانت الملكة الحرة^(٤) سيدة اليمن ببعض القادة لمساندتها في الأمور العسكرية ومنهم المفضل^(٥) بن أبي البركات لقمع حركات التمرد والعصيان ومنها التي تمثلت في محاولة علي بن سبأ الصليحي للاستيلاء على الحصون التي كانت تابعة لأبيه بالقوة فوقفت السيدة الحرة ضده ووجهت المفضل لمحاربته وانتزاع الحصون منه وانتهت محاولات علي بن سبأ بقتله بالسهم سنة ٤٩٥هـ/١٠٢م^(٦). كما عهدت إليه بولاية حصن التعكر، ولهذا الحصن أهمية كبيرة، ففيه خزائن الصليحيين وذخائرهم^(٧) - التي صارت إليهم من ملوك اليمن - وجعلت الحرة إقامتها في الصيف بحصن التعكر المطل على جبلة، وفي الشتاء في ذي جبلة^(٨)، وكانت الملكة لا تبحث أمراً إلا بعد مشورة المفضل بن أبي بركات، فعظم بذلك شأنه وعلت كلمته، وغزا تهامة مراراً فتارة له وتارة عليه.

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، تحقيق : فؤاد سيد، دار القلم، بيروت، د.ت، ص ١٢٢.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٨٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢٥٠.

(٣) ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٦٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٧.

(٤) كان أهل اليمن يخاطبون الملكة أروى بسيدتنا الحرة حباً وإجلالاً. محمد الحداد : المرجع السابق، ص ٢٤٤.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص ٨٦.

(٦) عمارة : نفس المصدر، ص ٨٥، ٨٦.

(٧) ابن الديبع : المصدر السابق، ٢٦٩؛ عمارة : نفس المصدر، ص ٨٧.

(٨) عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص ٢٨٥.

وفي هذه الأثناء أعلن الفقهاء السُّنِّيُّون^(١) ثورتهم على الملكة أروى واستولوا على حصن التعكر، وعولوا على تحقيق أملهم الذي راودهم منذ زمن طويل، وهو التخلص من هذه الدولة المخالفة لمذهبهم، فبايعوا رجلاً منهم يُعرَف بإبراهيم بن زيدان، وانحازت إليهم قبيلة خولان، فحاصر المفضل بن أبي بركات حصن التعكر، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليه، ولم يلبث أن توفي سنة ٥٠٤هـ، فطلبت الملكة من الفقهاء مغادرة الحصن، على أن تحقق لهم رغباتهم، فأجابوا بشروط وافقت عليها الملكة، وعهدت إلى مولاها فتح بن مفتاح بولاية التعكر.

ازدادت الدولة الصليحية ضعفاً وتدهوراً بعد وفاة القادة والدعاة الأقوياء وانكسرت رقعة الدولة باستقلال البلدان عنها، فأرسل الخليفة الفاطمي^(٢) الأمر بأحكام الله ووزيره الفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م إلى اليمن الداعي علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة، ليعيد الأمور إلى نصابها في الدولة الصليحية، ويقضي على الحركات المناهضة لها، والبطش بالذين أثاروا الشغب في البلاد فأمن منطقة ذي جبلة، وتوقف الخولانيون عن شن الغارات والحملات المناهضة لبلاد الملكة، وساد الأمن وتوقف زعماء اليمن عن انتزاع أراضي الدولة الصليحية.

وبعد أن عززت الخلافة الفاطمية ابن نجيب الدولة بالجند والتفويض على اليمن ازدادت قوته وساعت علاقته مع الملكة الحرة سنة ٥١٩هـ، فاستعانت الملكة بجماعة من سلاطين اليمن مثل المفضل بن زريع وابن أبي الغارات والمنصور بن المفضل ضد ابن نجيب الدولة، فذهب ابن نجيب الدولة ضحية مؤامرة^(٣) سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م دبرها له أعداؤه اليمنيون بعد أن بذل جهوداً مضنية في تقوية الدعوة الفاطمية.

وعملت السيدة الحرة على الحد من سيطرة القبائل على مناطقها بالاستعانة بالقبائل الأخرى، مثل استعانتها بقبيلة جَنْب بقيادة عمرو بن عرفة الجنبى ضد قبيلة الزر الخولاني التي بدأت تسيطر على ذي جبلة وتظلم الرعايا بها.

(١) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ١٦٠.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٩٢، ٩٣؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٤٥؛ الخزرجي : العسجد، ق ٦٨، ٦٩؛ الهمداني : الصليحيون، ص ١٦٨؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٦١.

(٣) أيمن فؤاد : المرجع السابق، ص ١٧٤. وهناك رأي ثالث أن مصيره غير معروف والأرجح أنه سُجِن وقُتِل. الهمداني : المرجع السابق، ص ١٧٣.

وظلت السيدة الحرة وفية للخلافة الفاطمية بمصر وخاصة تجاه الخليفة الأمر بأحكام الله^(١) (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م)، فلما تولى الحافظ الخلافة الفاطمية دون إتباع نظام الفكر الإسماعيلي بتوريث الأبناء السلطة، وأزاح الطيب^(٢) بن الأمر عن الخلافة، انفصلت السيدة الحرة عن مصر وعملت على نشر الدعوة الطيبية في اليمن والهند، يساندها في إدارة القضاء والدعوة الإسماعيلية جماعة من القضاة مثل القاضي لمك بن مالك الحمادي وابنه يحيى بن لمك، يسانده السلطان الخطاب بن الحسن بن الحفاظ ثم الذؤيب بن موسى الوداعي. وبوفاة الملكة أروى في غرة شعبان من سنة ٥٣٢هـ أبريل ١١٣٨م^(٣)، انتهت الدولة الصليحية في اليمن.

تعقيب على الدولة الصليحية في اليمن :

الدولة الصليحية من أجل الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم اليمن، وعلى الرغم من أن مذهب ملوكها هو الإسماعيلية، الذي يعارضه الكثير من اليمانية، إلا أن ملوكها عُرِف عنهم التسامح المذهبي فلم يتعرضوا بسوء للمخالفين لهم في المذهب^(٤).

امتد نفوذ هذه الدولة السياسي على معظم بلاد اليمن^(٥)، بل امتد إلى بلاد الحجاز في بعض فترات تاريخها، وكان الملوك الصليحيون من أكبر دعاة الإسماعيلية، فكانوا يرسلون الدعاة من قبلهم إلى سائر الجزيرة العربية وبلاد الهند وبعض البلاد الإسلامية الأخرى.

وتأتي أهمية هذه الدولة إلى أن أصحابها يمنيون، حرصوا على إصلاح أحوال بلادهم السياسية وإنعاشها اقتصاديًا. كما حرصوا على أن يهيئوا للمواطن اليمني الأمن والاستقرار والرخاء، وهذا ما جعل هذه الدولة تستمر في حكم اليمن لما يقرب من قرن كامل مع

(١) محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٢٢.

(٢) هو ابن الخليفة الأمر وسماء الطيب لطيب عنصره وكناه أبا القاسم. إريس : عيون الأخبار، ١٩٢/٧؛ الهمداني : الصليحيون، ملحق رقم ٩، ص ٣٢١، ٣٢٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٧؛ الهمداني : المرجع السابق، ص ٢٠٧؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص ٢٨٦.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢١؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٧.

(٥) عمارة : المرجع السابق، ص ١٩٢؛ الجندي : السلوك في طبقة العلماء والملوك، تحقيق : محمد الأكوخ، ١٩٨٣م، نشر ج - ع - ي، وزارة الإعلام، ج ٢، ص ٤٨٦، ٤٨٧.

الاستمرار في موالاتها للفاطميين بمصر^(١).

وبسقوط الدولة الصليحية انقسم اليمن إلى دويلات على النحو الآتي :

آل زريع : الهمدانيون في عدن وأعمالها.

آل حاتم : الهمدانيون في صنعاء وأعمالها، وقد اقتطعوا إمارتهم من جسم الدولة الصليحية واستقلوا عنها، بعد موت الملك سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي وكانوا نوابه عليها في حياته.

آل نجاح : في تهامة، وقد استعادوا إمارتهم فيها منذ الأمير جياش بن نجاح في عهد المكرم أحمد علي الصليحي، واحتفظوا بها إلى ما بعد سقوط الدولة الصليحية.

أشراف المخلاف السليماني : شمال تهامة من بلاد عسير.

وأيضًا الأئمة الزيدية في القسم الأعلى من اليمن في بلاد صعده وما جاورها.

آل زريع في عدن :

كان بنو معن^(٢) يحكمون عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت^(٣). فلما استولى عليها علي الصليحي، أبقاهم حكمًا عليها، نظرًا لمعرفتهم إدارة ميناء عدن التجاري، مقابل إعطائه مائة ألف دينار سنويًا.

واستمر ابن معن على ذلك ثم من بعده ولده معن بن علي إلى بعد وفاة الصليحي بتسع سنوات، أي إلى عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م، عندما خرج معن عن طاعة المكرم وأعلن نفسه سلطانًا على عدن^(٤). وفي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م غزا المكرم بن معن وطردهم من عدن وولي عليها العباس والمسعود بن المكرم الياامي الهمداني المعروفين ببني زريع^(٥)، وجعل للعباس حصن التعكر

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٧٥.

(٢) كان بنو معن يحكمون عدن منذ أوائل القرن العباسي الأول، وينسبون إلى معن بن زائدة الشيباني (والي اليمن في عهد الخليفة المنصور) وحكم بنو معن عدن منذ أيام الخليفة المأمون. العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٥٤.

(٣) الخرجي : المسجد المسبوك، ق ٨٣؛ محمد السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص ١٧٩.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٢١؛ ابن عبدالمجيد : المرجع السابق، ص ٨٢؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ٩٩.

(٥) بنو زريع من همدان من جشم بن يام بن أصغى، كان لهم بلاء حسن في قيام الدعوة المستنصرية مع =

مقرًا له وجعل إليه جباية الأموال التجارية القادمة من البر. والآخر المسعود الذي جعل إليه المكرم حصن الخضراء مقرًا له وجعل إليه جباية الأموال التجارية القادمة من البحر، كما جعله متوليًا على أمر المدينة^(١)، وألزم المكرم كل من العباس والمسعود على التعهد بدفع مالية عدن إلى السيدة الحرة وقدرها مائة ألف دينار سنويًا، فيدفع المسعود خمسين ألف دينار والعباس يدفع خمسين ألف دينار^(٢).

فلم يزالا على ذلك حتى سارا مع المفضل بن أبي البركات إلى زبيد لقتال الحبشة (بنو نجاح) فقتلا جميعًا على باب زبيد، فانتقل الأمر بعدن إلى ابن أبي السعود بن زريع وأبني الغارات بن مسعود حتى ماتا فولّي الأمر الداعي سبأ بن أبي السعود ومحمد بن أبي الغارات، وخلال حكم هذين السلطانين توسعا في الاستيلاء على مناطق جديدة، فمن جهة سبأ بن أبي السعود فتوسع في السيطرة على المناطق التي كانت تحت حكم بني الكرندي في اليمن الأسفل، فاستولى على مناطق كثيرة من أعمال الجند والمعافر مثل الرّما^(٣) وسامع^(٤) ومطران^(٥) ويُمّين^(٦) وذُبْحان^(٧) بالإضافة إلى الدملوة^(٨).

= الداعي علي بن محمد الصليحي، ثم مع ولده الداعي المكرم بن علي عند نزوله إلى زبيد وأخذ أمه الحرة بنت شهاب من أسر الأحول سعيد بن نجاح. عمارة : تاريخ اليمن، ص ٩٩؛ ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢١٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٢.

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٢١-١٢٤؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، دار الجبل، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ١١٩؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٦٤؛ الحمزي : كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ١١٨٤ خ، ق ٨٤؛ عمارة : المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) عمارة : نفس المصدر، ص ١٠٠؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص ٢٨٨؛ محمد السروري : تاريخ اليمن، ص ١٣٧؛ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص ١٨١؛ أحمد حسين : اليمن عبر التاريخ، ص ٢٠٥.

(٣) الرّما : من جبال المعافر في ناحية القَيْيْطَة جنوب الدملوة. المقحفي : معجم البلدان، ص ٢٧٣.

(٤) سامع : مخلاف من بلاد المعافر. الحجري : بلدان اليمن، م ٢، ص ٤١٣.

(٥) مطران : من حصون قَنَس بالمعافر. المقحفي : معجم البلدان، ص ٦٠٤.

(٦) يُمّين : حصن في جبل صَنْبِير من تعز استحدثه علي بن زريع. ياقوت : معجم البلدان، م ٤، ص ٥١١.

(٧) ذُبْحان : عزلة من ناحية وقضاء المعافر. المقحفي : معجم البلدان، ص ٢٤٩.

(٨) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٢؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٣٠٦؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص ١١٩.

أما محمد بن المسعود فقد توسع نحو السيطرة على المناطق التي كان يحكمها بنو معن في أبين وأحور^(١)، وبالنسبة لمنطقة لحج فقد تقاسم مناطقها كل من سبأ بن أبي السعد الذي أخذ منطقة بني أبة بلحج، وعلي بن أبي الغارات الذي أخذ منها منطقة الرعارع^(٢).

حاول بنو المكرم في عدن عدة مرات عدم دفع المخصصات المالية المحددة للسيدة الحرة، بهدف الاستقلال عن الصليحيين، ولكنهم لم يتمكنوا في بادئ الأمر، وعندما استولى بنو الزر الخولاني على حصن التعكر في ذي جيلة في شهر ربيع الأول من سنة ٥٠٩هـ — يوليو ١١١٥م استغل بنو زريع في عدن هذه الفرصة، فعمل سبأ بن أبي السعد ومحمد بن أبي الغارات على الاستقلال عن الحكم الصليحي، وامتنعوا عن دفع الخراج بعد تخفيضه إلى خمسة وعشرين ألف إلى الملكة الحرة، ولم تتمكن السيدة الحرة من إرسال جيش إليهما بسبب ضعف قواتها واستيلاء بني الزر على حصن التعكر بذي جيلة وبذلك استقل بنو الكرم (زريع) عن الصليحيين وأعلن حكام عدن بموالاتهم للفاطمييين بمصر بعد أن قدم إليهم (الرشيد أبو الحسن أحمد بن علي الغساني) الأسواني موفداً من الإمام الحافظ لدعوتهم إلى مبايعته والانتماء إليه^(٣).

وبالفعل عمل سبأ على القيام بالدعوة الحافضية في عدن، ولذلك أطلق على سبأ الزريعي اسم الداعي ولقب من الخلافة الفاطمية بعدة ألقاب، هي : " الداعي الأوحـد، المظفر مجد الملك، وشرف الخلافة، عضد الدولة، سيف الإمام، تاج العرب ومقدمها، داعي أمير المؤمنين سبأ بن أبي السعد بن زريع " ^(٤).

ثم جاءت المرحلة الثانية لدولة بني زريع وهي المرحلة التي تظهر آل زريع كأسرة واحدة تحكم عدن وأطلق عليهم حكام عدن، وتواكبت هذه المرحلة مع بداية حكم دولة بني مهدي ٥٣٣-٥٦٩هـ / ١١٣٨-١١٧٤م.

(١) أحور : وادٍ فيه قرى شرق أبين (الحجري : بلدان اليمن، م ١، ص ٦١).

(٢) الرعارع : من بلدان لحج المشهورة وكانت العاصمة لمخلاف لحج حتى أواخر ق ٨هـ. المقحفي : معجم البلدان، ص ٢٧٠؛ عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص ١٠٣؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٣٠٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٣.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ٨٤.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص ١٠٧.

آل حاتم الهمدانيون في صنعاء (٤٩٢-٥٦٩هـ/١٠٩٩-١١٧٤م) :

حكمت صنعاء وأعمالها مستقلة عن الصليحيين — بعد وفاة الملك سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي ٤٩١هـ/١٠٩٨م وموت السلطان سليمان بن عامر الزواحي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م الذي كان يحكم مغارب صنعاء — ثلاث أسر همدانية^(١) فيما بين ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حتى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م، أولهم آل الغشيم، والثانية آل القبيب، والثالثة آل حاتم اليامي، وكان أسلاف هذه الأسر من الهمدانيين هم نواب الصليحيين في المنطقة وأعمالها.

آل الغشيم المغلسي الهمداني (٤٩٢-٥١٠هـ/١٠٩٩-١١١٦م) :

هي الأسرة الأولى من الأسر الهمدانية الثلاث التي حكمت صنعاء وأعمالها مستقلة عن الصليحيين، بل وانفصلت عن الفاطميين، وامتنعت عن الولاء لهم والانتماء إليهم، مخالفة في ذلك الصليحيين أسلافهم في حكم المنطقة، وأول من حكم هذه الأسرة هو السلطان حاتم بن الغشيم المغلسي الهمداني^(٢) سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، الذي وُصِفَ بأنه من أهل الكفاءة وكان مقصودًا مدوحًا وممن قصده إلى صنعاء من مصر القاضي الرشيد الغساني وأنشده قصيدة من نظمه^(٣).

وكان حاتم بن الغشيم يعمل نائبًا لعلي الصليحي بعدن بجانب بني معن، وكان استقلاله بحكم صنعاء سببًا في الخلاف الذي حدث بين الصليحيين والزواحيين بداية عهد السيدة الحرة وتوقف همدان عن مناصرتهم، فسعت كل زعامة من همدان تبحث عن إيجاد سلطة مستقلة بها في مناطق نفوذها.

(١) هذه الأسر الهمدانية ينتمون جميعًا إلى قبيلة يام الهمدانية التي كانت تسكن نجران واعتنقت المذهب

الإسماعيلي وناصرت الصليحيين. عمارة : المفيد، ص ١٧٣.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٧؛ الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ٧١؛ ابن الديبع : قرّة العيون،

ص ٢٨٤؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن العام، ص ٣١٨؛ تاريخ اليمن السياسي، ص ٧١؛ حسن سليمان

محمود : تاريخ اليمن، ص ٢٣٤؛ محمد السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص ١٦٩.

(٣) إذا أجديت أرض الصعيد وأمحت

وقد كفلت لي مارب بماربي

فلست أخاف القحط في أرض قحطان

فلست على أسوان منها بأسوان

وكان لحاتم بن الغشيم ثلاثة أبناء^(١) هم محمد وعبدالله ومعن، فأما محمد بن حاتم بن الغشيم فكان سيفاً مصلتاً في حامية أبيه حيث عمل على جمع همدان وغزا بهم نجران عن طريق مأرب فاستباحها ثم عاد إلى صنعاء^(٢).

استمر حاتم بن الغشيم يحكم صنعاء وكان على علاقة طيبة بهمدان دون أن تخالفه في حكمه حتى وفاته سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وبعد وفاته تولى ابنه عبدالله بن حاتم، وكان يعرف بالشاب العادل كأبيه فاستطاع أن يوحد كلمة همدان ويحول دون تفرقهم أو اختلافهم، ولكنه مات مسموماً بعد ولايته بعامين^(٣)، وخلفه أخوه معن بن حاتم، فلم تستقر الأحوال في عهده، فأثناء حكمه لصنعاء تجبر على همدان وقسا عليهم^(٤)، وحدث منه ما أنكرته رجال همدان، فاجتمعت بقيادة القاضي أحمد بن عمران بن الفضل اليامي وذلك في عام ٥١٠هـ/١١١٦م وقررت عزله عن حكم صنعاء بعد أن حاصروه في مقره فسلم نفسه للقاضي أحمد بن عمران وتنازل عن السلطة مقابل منحه الأمان، وأسكنوه في حصن برّاش^(٥)، وبذلك انتهت أسرة آل الغشيم عن حكم صنعاء.

آل القبيب الهمداني (٥١٠-٥٢٧هـ/١١١٦-١١٣٣م) :

تولى هشام^(٦) بن القبيب اليامي الهمداني — بعد عزل معن بن الغشيم — يساعده أخوه الحماس بن القبيب، وتم اختيار هشام من قبل همدان مجتمعة، والتي دخلت به صنعاء في موكب فخم، وأحسن السلطان هشام بن القبيب الاضطلاع بالمسؤولية، واستمرت همدان تطيعة، إلى أن توفي عام ٥١٨هـ/١١٢٤م.

تولى السلطة بعده أخوه حماس، وكان أعظمهم رئاسة وأقواهم شوكة، فغزا^(٧) قبيلة

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق ٧١؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٣١٨.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٧، ٨٨؛ الخزرجي : المصدر السابق، ق ٧٢، يحيى بن الحسين :

غاية الأمان، ص ٢٨٠؛ محمد الحداد : المرجع السابق، ص ٣١٨، ٣١٩.

(٣) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة.

(٤) يبدو سبب تجبر معن على همدان اتهامهم بقتل أخيه بالسم. محمد السروري : الحياة السياسية، ص ١٧٠.

(٥) برّاش : حصن مطل على مدينة صنعاء على جبل نَقْم. ياقوت : معجم البلدان، م ١، ص ٢٨٩.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق ٧٣.

(٧) الخزرجي : المصدر السابق، ق ٧٣.

جنب الكبرى في بلاد ذمار وعنس وخاض معهم معركة كبيرة وقتل منهم عددًا كبيرًا عند هران، ثم عاد إلى صنعاء.

ولما حضرته الوفاة في رمضان عام ٥٢٧هـ/١١٣٣م، جمع إخوته وهم أبو الغارات وعامر ومحمد وأبو الفتوح وحضهم على الألفة وعدم الفرقة وأن يؤثروا بعد موته أكبرهم أبو الغارات، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم، فاعتزلت همدان عن مناصرتهم وعزلتهم عن تولية صنعاء سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨^(١). وبذلك انتهت الأسرة الثانية عن حكم صنعاء.

آل عمران بن الفضل اليامي الهمداني (٢) (٥٣٣-٥٦٩هـ/١١٣٨-١١٧٤م) :

بعد انتهاء أسرة آل القبيب في صنعاء، أجمعت همدان على اختيار السلطان حاتم ابن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي الهمداني وذلك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م^(٣)، نظرًا لما كان يتصف به من الحكمة والصلاح لتولي أمرهم، واضطلع بمسئوليائه على أكمل وجه، فاجتمع معه سبعمائة فارس من همدان وساروا معه إلى صنعاء فسيطروا عليها، وبدأ حكم حاتم اليامي على صنعاء.

وتعد أسرة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي الهمداني من أهم الأسر التي حكمت صنعاء، كما أنها من أهم الأسر التي ساندت الصليحيين في إقامة دولتهم، فكان عمران اليامي أحد أنصارهم وخاصة في عهد المكرم والسيدة الحرة، حيث تركه المكرم واليًا على صنعاء حينما ذهب إلى ذي جبلة، وظل واليًا عليها فترة طويلة، وخلال ولايته لصنعاء استعان به سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي لقتال آل نجاح في زبيد، فنزل إليها لمناصرة

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق ٧٣؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمان، ص ٣٩٤؛ محمد الحداد: التاريخ

العام لليمن، ص ١٣٢٠؛ تاريخ اليمن السياسي، ص ٧٢؛ محمد السروري: الحياة السياسية في اليمن، ص ١٧٠.

(٢) عمران بن الفضل اليامي، يلتقي نسبه مع الصليحيين عن جشم الأوسط فهو عمران بن الفضل بن علي

ابن أبي زيد بن العمر بن صعب بن الفضل بن عبدالله بن سعيد بن الغوث بن الفز بن مكر بن يام بن

أبي دافع بن مالك بن جشم الأوسط بن جشم الأكبر بن حبران بن نوف بن همدان. حسن سليمان محمود:

تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٣٢.

(٣) الخزرجي : نفس المصدر، ق ٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٨٨؛ ابن الديبع : قرة العيون،

ص ٢٨٨؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص ٢٩٧؛ محمد الحداد : نفس المرجع، ص ٧٢؛ عبدالله

الثور : هذه هي اليمن، ص ٢٩٢؛ محمد السروري : المرجع السابق، ص ١٧١؛ أحمد حسين : اليمن عبر

التاريخ، ص ٢١٠.

سبأ وخاض معه معركة الكظائم^(١) سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م حيث قتل في هذه المعركة.

صادف تولي حاتم الياامي حكم صنعاء ظهور الإمام أحمد بن سليمان الذي دعا لنفسه بإمامة الزيدية في سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م، وأجابه في دعوته كل من الجوف^(٢) وصعدة ونجران^(٣) وبلاد الظاهر^(٤) وعيَّان^(٥) ووَادِعة^(٦) وغيرها من المناطق المجاورة لصعدة. وظل مستمراً في هذه المناطق ينشر الفكر الزيدي ويقضي على المخالفين له، لذلك اصطدمت قوات حاتم بقوات الإمام حول توسيع نفوذ كل منهما في السيطرة على اليمن الأعلى. وكانت حدود حاتم الياامي تمتد من نقيط الغابرة في الحَدَا^(٧) إلى بركة الجوب في البَوْن^(٨) من عَمْران^(٩)، وكان يريد توسيع سلطته نحو مناطق أخرى، بينما كان الإمام أحمد بن سليمان يسعى نحو صنعاء، لذلك نشأ صراع كبير بينهما وزاد من تعميق الصراع اختلافهما المذهبي حيث كان الإمام زيدياً وحاتم الياامي إسماعيلياً.

ومن هنا بدأ الصراع العسكري بين حاتم الياامي والإمام أحمد بن سليمان ... وهذا الصراع السياسي والمذهبي والعسكري يواكب ظهور دولة بني مهدي واشتراكهم في هذا الصراع على السلطة والنفوذ في اليمن.

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص ٨٢؛ إريس : عيون الأخبار، ١٩٤/٧.

(٢) الجوف : ناحية معروفة في الشرق الشمالي من صنعاء. الحجري : بلدان اليمن، م ١، ص ١٩٥.

(٣) نجران : موضع في مخاليف اليمن من ناحية مكة. ياقوت : معجم البلدان، م ٤، ص ٣٧٣.

(٤) بلاد الظاهر : قرية في عزلة بني سعد وأصل خولان بن عامر في صعدة. المقضي : معجم البلدان، ص ٤٠٩.

(٥) عيَّان : بلدة أسفل مدينة حجة من جهة الغرب. الحجري : بلدان اليمن، م ٢، ص ٦١٨.

(٦) وادعة : من قبائل حاشد الهمدانية، وهي وادعة الشام شرقي صعدة من ناحية الصفراء. المقضي : معجم

البلدان، ص ٦٨٧؛ ابن وهب : الكفاية والأعلام، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم

١١٨٢، ق ٥٠.

(٧) الحَدَا : ناحية وقبيلة في الجنوب الشرقي في نمار. المقضي : معجم البلدان، ص ١٥٨.

(٨) البَوْن : حقل واسع في بلاد همدان شمالي صنعاء. ياقوت : معجم البلدان، م ١، ص ٤٠٢.

(٩) عَمْران : مدينة مشهورة من بلاد همدان شمال صنعاء. الحجري : بلدان اليمن، م ٢، ص ٦١١؛

الخرجي : المسجد المعبوك، ق ٧٤؛ الحمزي : كنز الأخبار، ق ٨٦، ٨٧؛ سليمان النقي : سيرة الإمام

أحمد بن سليمان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ط ١، ٢٠٠٢م، تحقيق :

عبد الغني محمود، ص ١٤٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٢٨.

إمارة آل نجاح (٤١٢-٥٥٤هـ/١١٢١-١١٥٩م) :

قامت إمارة آل نجاح^(١) على انقاض إمارة آل زياد في تهامة بمؤسسها نجاح مولى مولى^(٢) (أبى الجيش اسحق بن إبراهيم بن زياد) آخر أمرائهم.

فعندما توفى وزير آل زياد الحسين بن سلامة في صفر سنة ٤٢٦هـ / ديسمبر ١٠٣٤م، وكان المتولي لأمر الدولة الزيادية الأمير علي بن المظفر بن علي بن إبراهيم بن زياد، فقام هذا الأمير بإسناد أعمال الوزارة إلى القائد نفيس^(٣)، إلا أن هذا القائد لم يطعه بعض القادة فحدث صراع بينه وبين أحد القادة المسمى ابن قاسم أسفر عن قيام نفيس بقتل القائد ابن قاسم، فاضطربت الأمور في تهامة واستولى نفيس على زبيد واستقل بالسلطة فيها، وقام بمصادرة الأموال والخزانة التابعة لبني زياد، وأطلق كل من كان مسجوناً في زبيد من سلاطين الجبال وعددهم أربعة وتسعين سلطاناً، وطالب من سلاطين الجبال طاعته فأطاعوه، ثم اتجه بعد ذلك إلى استعادة سلطان مواليه أمراء لحج وعدن وأبين وهو بنو معن، وبعدها عاد إلى زبيد مع السلطان أحمد بن عبدالله الكرندي فاستولى عليها وظل حاكماً بها.

غضب الأمير الزيادي علي بن المظفر من تصرف القائد نفيس بعد قتله لابن قاسم، واستعان بالقائد نجاح الذي كان متولياً لأعمال الكدراء والمهجم ومور والواديين^(٤) والتي كانت

(١) كان نجاح عبداً حبشياً ينتمي إلى قوم من الحبشة يقال لهم الجزل، وهو مؤسس الدولة النجاشية وأطلق على دولته ودولة أبنائه اسم ملوك الحبشة باليمن، وقال عمارة عنهم : " وهم وإن كانوا عبيداً حبشة فلم تكن العرب تفوقهم في الحسب، إلا بالنسب وإلا فلهم الكرم الباهر والعز الظاهر والجمع بين الوقائع المشهورة والصنائع الماثورة ". عمارة : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، مطبعة السعادة، ١٩٧٦م، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، ص ٢٠٩؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥٠٦؛ الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١١٤؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٦.

(٢) بعد موت الحسين بن سلامة سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م انتقلت إمارة بني زياد إلى طفل زيادي اسمه إبراهيم أو عبدالله، فتولت الوصاية عمته، أما الوزارة فانتقلت إلى أحد عبيد الحسين بن سلامة واسمه مرجان وكان لمرجان عبدان أحدهما يسمى نفيساً والآخر يسمى نجاح وكان نفيس يتولى الوزارة، ونجاح يتولى أعمال الكدرا والمهجم والمور والواديين. الوصابي : الاعتبار، ص ٣٠؛ عمارة : المصدر السابق، ص ٨٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٤، ٥٥؛ قرّة العيون، ص ٢٣٢.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٤.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، م ٤، ص ١٢٣، ٣٣٧، ٤٣٤، ٣٤٤؛ عمارة : نفس المصدر، ص ٨٣؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٤٨٢؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٥٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٣٠.

جَلَّ الأعمال الشمالية لزبيد، وتوجه نجاح لمحاربة نفيس بعد الاستعانة بأهل تهامة وأهل الجبال المناصرين للأمير الزيايدي، فدارت المعارك بين نجاح ونفيس ما بين ثلاث سنين وخمس سنين، مرةً ينتصر فيها نجاح ومرةً أخرى ينتصر فيها نفيس، وفي آخر هذه المعارك تمكن القائد نجاح من قتل نفيس والسيطرة على زبيد^(١) وذلك سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، وبعد هذا الانتصار أطلق على نجاح لقب المؤيد، نصير الدين^(٢) وبذلك أصبح نجاح وزيراً لآل زياد.

وبعد وفاة الأمير الزيايدي علي بن المظفر في المهجم أواخر سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م دون أن يكون له وريث يتولى السلطة، استقل الأمير نجاح بالسلطة في تهامة، وجعل المهجم عاصمة له وضرب السكة باسمه^(٣)، وكاتب الخلافة العباسية بالعراق معلناً لها ولاءه بالطاعة، طالباً منها منحة تقليد السلطة في اليمن، وبالفعل قبلت الخلافة العباسية ذلك، وأصدرت له تقليداً على اليمن، وفوضت إليه أمر تقليد القضاء لمن يراه أهلاً لذلك^(٤)، كذلك النظر العام في جميع اليمن فخطب في هذه الفترة بالملك وبمولانا^(٥).

إلا أن نجاح لم يستمر طويلاً، فقد تمكن علي بن الصليحي من قتله بالسم سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م في مدينة الكدرا عن طريق إحدى الجواري التي أهداها له^(٦).

وخلف نجاحاً أولاداً صغاراً لم يبلغوا سن تولي السلطة^(٧)، وهم سعيد، جياش، ومعارك،

(١) ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٥٥؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٦١؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي، ص ١٥٢.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق ١٠٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٣، محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢١٢؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ١٨٧.

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة؛ حسن سليمان محمود : المرجع السابق، ص ١٥٢؛ عبدالله الثور: هذه هي اليمن، ص ٢٧٠.

(٤) الخزرجي : نفس المرجع، ق ١٠٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢١٢؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ١٨٧؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٥٦.

(٥) ابن الديبع : نفس المصدر، ص ٥٥؛ قرّة العيون، ص ٣٣٤؛ عمارة : المفيد، ص ٨٦؛ محمد عيسى الحريري : معالم التطور السياسي في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالفاطميين، دار القلم، الكويت ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٢٤؛ عصام عبدالرؤوف : المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٦) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٣؛ ابن خلدون : العبر، ص ٢١٨.

(٧) ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٥٦.

والذخيرة، ومنصور، فتولى الوصاية لهم أحد مواليه المسمى كهلان وحكم تهامة نيابة عنهم لمدة سنتين، بعدها تمكن علي الصليحي من دخول تهامة والسيطرة عليها، وذلك في حوالي سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، فقتل معارك نفسه وهرب سائر أخوته إلى جزيرة دهلك^(١)، ودخلت زبيد في حوزة الدولة الصليحية.

على أن أولاد نجاح وأنصارهم من الحبش لم يتغاضوا عن سقوط دولتهم وبدءوا يفكرون باستعادة ملك أبيهم علي تهامة، فأما سعيد الأحوال فإنه عاد إلى زبيد على إثر خلاف مع أخيه جياش، فاستتر عند أحد أنصار آل نجاح المسمى ملاعب الخولاني^(٢)، وراسل سعيد الأحوال أنصاره في الحبشة سرًا ودعاهم للتجهز معه لمحاربة الصليحيين، وعمل على تتبع أخبار علي الصليحي^(٣).

أما جياش فأقام في جزيرة دهلك، واستعان على إقامته بها باستخراج وديعة كانت له عند عبدالرحمن بن طاهر العيني، وظل مكثًا على طلب العلم حتى برع فيه^(٤). كما ظل مستعدًا لتجهيز جيشه للقدوم إلى تهامة حين يحين ذلك.

وكانت المراسلات مستمرة بينه وبين أخيه سعيد الأحوال، ولما تجهز علي الصليحي للذهاب للحج، كتب سعيد الأحوال إلى أخيه جياش في دهلك في شهر شوال سنة ٤٥٩هـ/أغسطس ١٠٨٦م يطلب منه القدوم إلى تهامة بجيشه للقضاء على علي الصليحي واستعادة ملكهم^(٥).

فخرج جياش من دهلك بخمسة آلاف حربة وسار بهم في البحر حتى وصل بهم ساحل

(١) دهلك : هي جزيرة في بحر اليمن ومُرْسَى بين بلاد اليمن والحبشة. ياقوت : معجم البلدان، م٢، ص٣٢٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص١١٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٥٦.

(٢) عمارة : نفس المصدر، ص١١٤.

(٣) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق١٠٦؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٥٢، ٢٥٣؛ الفضل المزيد، ص٥٧.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق١٠٦؛ ابن خلدون : اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص٥٨٦؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٢.

(٥) الخزرجي : نفس المصدر، ق١٠٦؛ عمارة : المصدر السابق، ص١١٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص٤٧؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص١٥٣؛ الحريري : معالم التطور السياسي، ص٤٩؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٥٧.

المهجم في تهامة^(١)، فكاتب سعيد الأحول إلى زبيد بوصوله.

ولما علم والي زبيد أحمد بن أسعد بن شهاب الصليحي بقدوم جيشه وأرسل إليهم خمسة آلاف حربة من العبيد في زبيد، ولكنهم لم يتمكنوا من الالتقاء به، لأن جيشه خالفهم في الطريق^(٢).

واستغل سعيد تلك الفرصة فدعا أنصاره للتسلح في زبيد وأمرهم بالقتال معه والثورة على والي زبيد الصليحي وذلك يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ / سبتمبر ١٠٦٧م، فهجموا على دار الإمارة وكان بها أبو السعود وأحمد بن سعد بن أسعد بن شهاب الصليحي، وألقوا القبض عليهما وأخذوا ما في الدار من الأموال والسلاح، واستولوا على زبيد. ثم سار سعيد الأحول إلى ساحل المهجم وهناك التقى بأخيه جيشه وجيشه، فساروا جميعاً نحو المهجم^(٣)، فلما وصلوا هجموا على مخيم علي الصليحي على حين غفلة منه، في منتصف النهار، فقتل الصليحي مع أخيه ومن كان معهما من الصليحيين في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ / سبتمبر ١٠٦٧م، واستولى سعيد الأحول على أموال علي الصليحي وخزائنه التي اصطحبها معه لتقديمها هدية لحاكم مصر الخليفة المستنصر، وهي أموال طائلة، كما أسر أسماء بنت شهاب زوجة علي الصليحي وجمعاً من نساء بني الصليحي^(٤).

ودخل سعيد الأحول زبيد في اليوم الرابع بعد معركة المهجم ومعه ما غنم من أموال والأسرَاء من نساء بني الصليحي وعلى رأسهن أسماء بنت شهاب أم المكرم، وكان ذلك في ١٦ ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ / سبتمبر ١٠٦٧م^(٥).

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٧.

(٢) الخزر جي : العسجد، ق ١٠٦، عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٤؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٥٣.

(٣) خيمت عساكر على الصليحي بضيفة تعرف بأبم الذهبيم وبير أم معبد بظاهر المهجم. ابن الديبع : نفس المصدر، ص ٥٧، عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٥.

(٤) الخزر جي : المصدر السابق، ق ١٠٦، ١٠٧؛ عمارة : المصدر السابق، ص ١١٧، ١١٨؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٤٩؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٢٥٤، ٢٥٥؛ المروني : الثناء الحسن على أهل اليمن، ٢٥١.

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٧؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٨؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٥٥؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٥٩.

وبذلك تمكن أولاد نجاح من الثأر لأبيهم واستعادة سلطانهم، وأصبح لسعيد الأحول مكانة عظيمة تهابها كثير من سلاطين اليمن^(١).

ولكن ظل الصراع مستمرًا بين النجاشيين والصليحيين لعدة أسباب منها :
أولاً : الخلاف المذهبي المتمثل في أن النجاشيين كانوا من أهل السنة ومناصرين للخلافة العباسية والصليحيين كانوا إسماعيلية مناصرين للخلافة الفاطمية،
ثانيًا : محاولة كل طرف الاحتفاظ بسلطانه على اليمن أو بعض المناطق فيها.
ثالثًا : محاولة كل منهما الثأر لقتلاه، وهو ما أخذ شكل العداء العنصري بين العرب اليمانية والأحباش السود.

رابعًا : إصرار المكرم على تخليص أمه أسماء من الأسر من دار شخار في زبيد^(٢).
خرج المكرم من صنعاء إلى زبيد بجيش كبير في ٩ صفر سنة ٤٦٠هـ / ديسمبر ١٠٦٧م، للثأر لأبيه وبني الصليحي وتخليص أمه من الأسر، فوصل إلى زبيد ودارت معركة كبيرة بين الطرفين على باب زبيد الشرقي، قاتل خلالها سعيد الأحول قتالاً شديداً حتى انهزم جيشه وهرب هو نحو المهجم بعد أن قُتل من جيشه ثمانية آلاف رجل^(٣)، ودخل المكرم وجيشه زبيد وسيطر عليها وخلص أمه من الأسر.

وبالرغم من ذلك عمل سعيد الأحول بعد هروبه من المهجم إلى جزيرة دهلك^(٤) على تجمع جيشه وشن الغارات على جيش المكرم، وحاول سعيد الاستعانة بسلاطين اليمن أهل السنة مثل يعفر بن الكرندي ووائل بن عيسى والسخطي والتبعي والكلاعي وخاض المكرم معهم عدة معارك انتهت بانتصاره واستسلام تلك القبائل وسلاطينها له، وملاحقة سعيد الأحول وقتله في قرية (مابه) في الشهر سنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م^(٥).

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٨.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٨.

(٣) ابن الديبع : المرجع السابق، ص ٥٨؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٢٥٦؛ حسن سليمان محمود:

تاريخ اليمن السياسي، ص ١٥٧؛ والشعر: مخلاف مشهور من ناحية النادرة. الحجري : مجموع بلدان

اليمن، م ٢، ج ٣، ص ٤٥٤.

(٤) حسن سليمان محمود : المرجع السابق والصفحة.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص ١١٨؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٦٠.

وبذلك استعاد الصليحيون سلطانهم على تهامة وزبيد واستمرت تحت سلطانهم حتى قدم جيش وأخرجهم منها.

جياش بن نجاح :

تميزت حياة جياش السياسية بأربع فترات، فالفترة الأولى امتدت من سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م حتى سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م وفيها لم يقم جياش بأي دور عسكري لاستعادة سلطانه على تهامة لصغر سنه واختفائه في الهند^(١) لمدة ستة أشهر، باستثناء محاولته مساندة الزيدية، فكان جياش يدفع للشريف الفاضل ألف دينار شهريًا لتقويته على محاربة المكرم ولشغله عن محاربة النجاشيين.

والفترة الثانية استمرت من سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م، وفيها حاول جياش وأنصاره العبيد استعادة سيطرتهم على تهامة، فظل الصراع مستمرًا بينهم وبين الصليحيين لمدة خمس سنوات، فتارة كانت تهامة تحت حكم النجاشيين وتارة أخرى تحت حكم الصليحيين^(٢).

والفترة الثالثة تستمر من سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م حتى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وتعتبر أهم فترة جياش بن نجاح سياسيًا لأنه استعاد فيها سلطانه على زبيد وتهامة وكان ذلك سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م. ويقول عمارة في ذلك : " وعاد بنو نجاح فأخرجوا أسعد بن شهاب من زبيد وملكوها سنة سبع وسبعين وأربعمائة "^(٣).

(١) الكبسي : اللطائف السنية، ص ٣٩؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٠؛ ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٦١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٩؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٠.

(٢) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ٥٤؛ ابن الأنف : نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر ما قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة والأخيار، دار الكتب المصرية، القاهرة، رقم ٢٢٥٣ في ميكروفيلم، ٣١/١ و- ٣١؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٢٧٥.

(٣) عمارة : المفيد، ص ٢٠٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٣؛ ابن خلدون : العبر، ص ٢١٧؛ ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٦٣؛ محمد عيسى الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص ١٦٧؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٦٧؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦١.

وتنتهي الفترة الثالثة بحدوث معركة حاسمة بين النجاشيين والصليحيين وهي معركة الكَظَائِم^(١) التي حدثت أواخر سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وفيها حقق النجاشيون انتصارًا حاسمًا على الصليحيين مما ثَبَّتَ بقاء سلطانهم على تهامة.

أما الفترة الرابعة وتمتد من سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م إلى وفاة جيش سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م^(٢) فتوضح مدى حرص النجاشيين على الاحتفاظ بسلطانهم وتثبيت حكمهم واستقراره على تهامة.

وبعد وفاة جيش ظهرت الفرقة بين أولاده^(٣)، الفاتك ومنصور وإبراهيم وعبدالواحد والذخيرة ومعاركا، فحدث صراع بينهم حول تولي إمرة الدولة النجاشية، وذلك يعود إلى انتمائهم إلى أمهات مختلفات، وانتماء الجند إلى عناصر مختلفة مثل الغز (الأتراك) والحبشة (السودان) واليمنيين.

فتولى الابن الأكبر فاتك بن جيش السلطة بعد أبيه وهو ابن الهندية، حسب النظام الوراثي في أسبقية الابن الأكبر في تولي السلطة، إلا أن أخويه عبدالواحد وإبراهيم خالفاه، وجرت بينهما وقائع وحروب وانقسمت عليهم عبيدهم، إلى أن ظهر فاتك بن جيش، وعفا عن أخيه عبدالواحد بعد أسره، ثم أكرمه وأرضاه^(٤). أما أخوه الآخر إبراهيم فقد هرب إلى المناطق الجبلية ولجأ إلى السلطان أسعد بن وائل بن عيسى الوائلي الكلاعي الوحاضي فأكرم نَزله^(٥). ولم تمض مدة طويلة على حكم فاتك للدولة النجاشية حتى مات في سنة

(١) إدريس : عيون الأخبار، ١٦٤/٧، ١٦٥.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيّد، ص ٦٣؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، دار القلم، بيروت، د.ت، تحقيق : فؤاد سيد، ص ١٠٤؛ ابن خلدون : اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص ٥٩٠؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص ٢٧١.

(٣) ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ ابن الديبع : نفس المصدر، ص ٦٣، ٦٤.

(٤) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ٩٤؛ ابن الديبع : نفس المصدر، ص ٦٤؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢٨١؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ١٩٢.

(٥) عمارة : المفيد، ص ٢٠٧، ٢٠٨؛ ابن الديبع : نفس المصدر، ص ٦٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٤؛ الحرير : معالم تاريخ اليمن، ص ٦٤؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٧٢؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٤.

٥٠٣هـ/١١٠٩م فخلفه في تولي السلطة ابنه الطفل منصور بن فاتك، فعاد الصراع من جديد بين أولاد جياش وابن أخيه منصور، فمن ناحية أخيه إبراهيم الذي لجأ إلى أسعد بن وائل الوحاظي، فإنه حشد جمعًا كبيرًا من قبائل الجبال ونزل بهم لمحاربة ابن أخيه، فلما وصلوا إلى وادي زبيد خرج إليهم جند منصور فالتقوا عند قرية الهويب، وأثناء التقاء الجيشين في تلك المنطقة استغل عبدالواحد فرصة خلو زبيد من جند ابن أخيه منصور، فثار بها واستولى على دار الإمارة ثم استولى على زبيد^(١).

أما عبيد فاتك بن جياش ومولاهم منصور بن فاتك^(٢)، فإنهم لجأوا إلى الملك المفضل بن أبي بركات - صاحب التعكر - والملكة أروى الصليحية فأكرما وفادتهم، وطلب عبيد فاتك من المفضل مساعدتهم في استرداد زبيد مقابل أداء ربع متحصل البلاد لهم، فاستجاب لهم، وأعاد زبيد إلى منصور بن فاتك، وطرد منها عبدالواحد في سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م.

وبعد ذلك حاول المفضل البقاء في زبيد للغدر بمنصور وجيشه وإعادتها تحت نفوذ الدولة الصليحية، إلا أن فقهاء الشافعية في ذي جبلة استولوا على حصن التعكر، وهو الحصن الذي كان مقرًا للمفضل وبه أمواله وحواشيه وجواريه، فعاد مسرعًا نحو ذي جبلة فظل سلطان منصور بن فاتك باقيًا على زبيد وتهامة^(٣).

بعد أن استعاد منصور بن فاتك وجنده السلطة على زبيد بمساعدة الصليحيين، دخلت الدولة النجاشية مرحلة جديدة في نظام الحكم السياسي، وهي أن تكون الإمارة في أولاد فاتك ابن جياش وأن تكون الوزارة في أولاد عبيدهم^(٤).

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق ١٦٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٥؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٣، ١٢٤؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٥؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ١٩٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٥؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٤؛ ابن خلدون : العبر، ص ٢١٨؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٦٤.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق ١١٢، ١١٣؛ الكبسي : اللطائف السنوية، ص ٤٢؛ عمارة : المفيد، ص ٢٠٨، ٢٠٩، تاريخ اليمن، ١٢٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٥٤؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢٨٣؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ١٩٢؛ حسن سليمان : المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٤) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ٩٦؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٦٥.

وهذا يعني تحول الوزارة من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض، والذي يصبح فيه الوزراء أكثر نفوذاً من الأمراء وقد فرض هذا الوضع تولي أمراء الدولة النجاحية السلطة وهم أطفال فلم يعد لأولاد فانتك بن جياش من الأمر سوى مظاهر السيادة وهي الخطبة لهم بعد بني العباس، والسكة والركوب بالمظلة في المواسم والأعياد، وعقد الآراء في مجالسهم، وأما الأمر والنهي والتدبير وإقامة الحدود وإجازة الوفود فلعبيدهم الوزراء^(١).

وفي هذه المرحلة من تاريخ الدولة النجاحية تولى الحكم فيها ثلاث شخصيات هم : منصور بن فانتك وابنه فانتك بن منصور، ثم ابن عمه فانتك بن محمد، وانتهت حياتهم كلهم بالقتل.

أما الوزارة فقد تولاها ستة وزراء، وهم : أنيس الفاتكي (٥٠٤-٥١٧هـ/—/١١١٠م-١١٢٣م) وانتهت حياة هذا الوزير بالقتل بسبب صراعه مع الأمير النجاحي منصور بن فانتك حول السلطة^(٢).

وزارة من الله الفاتكي (٥١٧-٥٢٤هـ/١١٢٣-١١٣٠م) : كان هذا الوزير من أكابر الوزراء وأعيانهم^(٣)، ومن أهم أعماله الدفاع عن الدولة النجاحية وعاصمتها زبيد من هجمات قائد الجيش الصليحي ابن نجيب الدولة، حيث تمكن الوزير من هزيمة القائد الصليحي وجيشه على باب زبيد أواخر سنة ٥١٨هـ/١٢٤م، وكذلك إزاحة بعض القادة المنافسين له عن السلطة في زبيد ومنهم أحمد بن مسعود الجزلي ومفلح الفاتكي صاحبي الحل والعقد في زبيد^(٤).

ولعل السبب الحقيقي لقتل الوزير من الله الفاتكي هو إقدامه على قتل مولاه الأمير

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٥؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٦؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٦٥؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٧٣؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص ٦٥.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق ١١٥؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥٠٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٩٧؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢٨٤.

(٣) هذا الوزير سوّد مدينة زبيد بعد الحسين بن سلامة القائم على إمارة آل زياد في نهاية عهدها. الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١١٦؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٦٨.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٣٥٢.

منصور^(١).

وزارة رزيق الفاتكي (٥٢٤هـ/١١٣٠م) : لم يلبث رزيق مدة في الحكم حتى استقال من الوزارة، فلم يتمكن من تدبير الملك وعدم خبرته بإقامة نواميس السلطنة، وكذلك عدم طاعة العسكر له^(٢).

وزارة مفلح الفاتكي (٥٢٤-٥٢٧هـ/١١٣٠-١١٣٣م) : كان قائدًا ذو شأن في زييد^(٣)، وعندما تولى الوزارة حدث تطورًا في نظام البيت النجاشي وهو التقليل من نفوذ الوزراء، عن طريق إسناد أهم الأعمال لرجال القصور^(٤). كانت الحرة عَلمَ وزوجها منصور بن فاتك قد عملا على شراء العبيد وتربيتهم للخدمة في قصورهما فقسما هؤلاء العبيد إلى فرقتين هم الوصفان والأستاذون مثل صواب الذي كان متوليًا إمرة الزمام، ويمن وريحان وعز، ومن الأستاذين الفحول إقبال وبرهان وسرور فكانوا أكثر طاعة لهما^(٥).

وعندما قتل الأمير منصور أوكلت الحرة علم الوصاية على ولدها الطفل فاتك بن منصور إلى أولئك الوصفان والأستاذين، فأصبح هؤلاء العبيد هم أصحاب الأمر والنهي وهم المسيطرون على أمور الدولة^(٦).

فحدث صراع بين الوزير وهؤلاء العبيد، حيث دبروا له عدة حيل للقضاء عليه، ومنها قيام القائد سرور بمكاتبة قبائل المهجم^(٧) وعلي الزعلي والعمراني وبنو مشعل، وطلب منهم الهجوم على أعمال المهجم ففعلوا ذلك، مما أدى إلى خروج الوزير مفلح بجيشه لمحاربتهم وعندما ساروا على بعد يوم من زييد أشار سرور على الجند الرجوع، ولم يبق مع مفلح إلا

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٨؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٥٥؛ ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة.

(٢) محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٧٧؛ الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص ٦٨، ٦٩.

(٣) ينتمي مفلح الفاتكي إلى قبيلة سحرت الحبشية واتصفت بالشجاعة والكرم والحزم والتفقه في الأدب. ابن

عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٠٣؛ الوصابي : المصدر السابق، ص ٥٦؛ الجندي : السلوك، ج ٢،

ص ٥١٠؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٦٩؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٨.

(٤) محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٧٨.

(٥) محمد السروري : المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٦) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١١٨.

(٧) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٠٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٣٩؛ محمد الحداد : التاريخ العام

لليمن، ص ٢٨٧؛ محمد السروري : المرجع السابق، ص ١٧٩.

قلعة من خواصه، فأسرعوا إلى زبيد واستولوا عليها بقيادة سرور الفاتكي، وتوجه مفلح نحو جبال بُرْع^(١) وذلك سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م واتخذ من حصن الكرش^(٢) بها مقراً له، وبدأ يشن الغارات على تهامة، فقاومه أهلها مقاومة شديدة ثم انتقل إلى حصن دَنَسَان^(٣).

وكاتب مفلح الشريف غانم بن يحيى السليماني صاحب مخلاف بني طرف أو المخلاف السليماني وبني عم الشريف يطلب منهم إعانتة على المحاربة معه للسيطرة على زبيد، ووعدهم بإسقاط ما عليهم من الأموال لصاحب زبيد وهي ستون ألف دينار كل سنة وأنه يضيف إلى ذلك أعمال الواديين وهي واسعة^(٤).

كذلك انضمت إلى مفلح والشريف غانم قبائل العرب من بني مشعل وبني عمران وبني حرام والحكميون في جموع كثيرة تقدر بألف فارس وعشرة آلاف راجل^(٥).

وساروا نحو القائد سرور الفاتكي الذي كان متولياً المهجم، وعندما علم بتجمعهم كاتب أهل زبيد يستنفرهم، فحضر إليه جمع كبير منهم، والتقى الطرفان في المهجم فدارت معركة كبيرة بين الطرفين انتهت بقتل كثير من الناس وانتصار القائد سرور وهزيمة مفلح الفاتكي وهروبه إلى بُرْع للتحصن بها وظل بها يشن الغارات على المهجم إلى أن مات في حصن الكرش سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م^(٦).

وزارة إقبال الفاتكي (٥٢٧-٥٣١هـ/١١٣٣-١١٣٧م) : بعد هروب الوزير مفلح الفاتكي إلى جبال برع، تولى الوزارة الأمير النجاشي فائق بن منصور قائد إقبال الفاتكي سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م، وكان إقبال من فرقة الأستاذين الفحول الذين تربوا في قصر الحرة علم، وبالرغم من ذلك لم يسلك طريق الصواب في سياسته حيث أنه قتل المنصور وأيضاً قتل مولاه

(١) بُرْع : جبل بناحية زبيد. ياقوت : معجم البلدان، م ١، ص ٣٠٥.

(٢) الكرش : قلعة بالمهجم من نواحي مدينة زبيد باليمن. ياقوت : معجم البلدان، م ٤، ص ١٣٠.

(٣) دَنَسَان : حصن في الشرق الشمالي من المهجم. المقحفي : معجم البلدان، ص ٢٤٥.

(٤) الخزرجي : العسجد، ق ١٢٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٠؛ ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٧٠؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٣٩؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٥٩.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص ١٤٠.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٢٣؛ عمارة : المصدر السابق، ص ١٤٠؛ الجندي : السلوك ج ٢، ص ٥١٠، ٥١١؛ ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٧٠؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٠؛ حسن

سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٦٩.

الأمير، فلم يستقم له الأمر فعُزِل ثم قُتل في نفس السنة التي قُتل فيها مولاه^(١).

وزارة سرور الفاتكي (٥٣١-٥٥١هـ/١١٣٦-١١٥٦م) : يعد سرور الفاتكي أهم وزراء الأمراء النجاشيين وآخرهم، وينتسب إلى القبيلة الحبشية أمخرة^(٢). اشترته الحرة علم وربته تربية خاصة، وضُمَّ إلى فرقة الأستاذين الفحول^(٣)، ثم ترقى به الحال فتولى الخطابة وهي الترسل بين الوزراء والسلطان، وعندما تولى مفلح الفاتكي الوزارة تولى سرور الفاتكي المهجم، فدخل في صراع معه، كما دخل في صراع مع الوزير إقبال الفاتكي، تمكن خلاله من إخراج إقبال من الوزارة وتولى سرور مكانه^(٤).

ومن أهم أعماله قبل توليه الوزارة أنه استعاد ملك مولاه فانتك بن منصور ومربيته الحرة علم.

عندما تولى سرور الفاتكي الوزارة، كان يقيم سنوياً في زبيد عشرة أشهر من ذي القعدة حتى شعبان، ثم يتوجه إلى المهجم وقيم بها شهرين هما شهر رمضان وشوال وذلك بهدف القيام بإصلاح أعمال تلك المنطقة، وطيلة شهر رمضان كان يقيم مطبخاً يدعو جميع الناس لحضوره، ويصرف على ذلك مبالغ تقدر بألف دينار يومياً^(٥).

كما اتسعت صرفيات الوزير سرور، فشملت جميع الطبقات وكانت لهم أعطيات أو صدقات أو هدايا أو صلات، فمن الصدقات كان يصرف للفقهاء والقضاء والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثني عشر ألف دينار سنوياً. كما يمنح العساكر أموالاً كثيرة خارجة عن أعطياتهم، وكان يحمل الأموال المنقولة من المهجم والواديين إلى بيت مولاه السلطان في كل سنة ستون ألف دينار وإلى بيت مولاته الحرة علم وحواشيها

(١) الخزرجي : العسجد، ق ١٢٣، ١٢٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٥٩؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١١

عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٤٠؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢٨٧.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٠.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٤٢، ١٤٣؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٧١؛ الجندي : السلوك، ج ٢،

ص ٥١١؛ الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٢٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٦٠؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٣.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٢٤؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة؛ الجندي : السلوك،

ج ٢، ص ٥١٢؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧١.

(٥) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١١٥.

خمسة عشر ألف دينار سنوياً^(١).

كما تغيرت علاقة الوزير سرور الفاتكي مع الحكميين وأميرهم الشريف غانم بن يحيى الحسني وكذلك عرب المهجم من المشاعلة وبني عمران وبني زعل، فبعد أن كان معهم في صراع دائم وكان الانتصار في معظمه لصالح سرور، تمت هدنة فيما بينهم بعد أن أرسل الشريف غانم بن يحيى السليماني رسولاً إلى سرور يطلب منه عقد هدنة وبالفعل انتهت علاقة الحرب بين الوزير سرور وبين قبائل تلك المنطقة وذلك سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م^(٢).

تعامل الوزير سرور الفاتكي مع الرعايا معاملة حسنة، لما كان يتصف به من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة والورع والتقوى. فكان عندما يعود من المهجم إلى زبيد كان الناس بجميع طبقاتها يخرجون لاستقباله، فيصطفون على تل عال مرتبين على حسب طبقاتهم، فأول ما يصافح طائفة الفقهاء المالكية والحنفية والشافعية، وكان يسلم عليهم وهو مترجل ولا يترجل لغيرهم إكراماً وتبجيلاً لهم ثم يصافح التجار، ثم العساكر ثم من حضر من الأفراد، أما بقية الناس الذين لا يستطيعون الخروج لاستقباله فكانوا ينتظرونه أمام مسجده ليستقبلوه ويصافحوه، وكل ذلك لما كسبه الوزير سرور من عطف واحترام من الناس^(٣).

وبعد أن يؤدي صلاته يتوجه للسلام على مولاة السلطان فائق بن محمد ثم يتجه إلى مولاته الحرة علم وكان سرور يخبرها بخطته السياسية لسنة من ولاية وعزل وقتل وغير ذلك.

وفي عهد هذا الوزير، بدأ ظهور دولة بني مهدي سياسياً، حيث تمت البيعة الأولى لعلي بن مهدي من أهل الجبال المطلة على تهامة، والتحالف لنصرته على آل نجاح وذلك سنة ٥٣٨هـ وهذا ما يواكب الأحداث السياسية لدولة بني مهدي وعلاقتها بدولة بني نجاح التي انتهت بمقتل الوزير سرور الفاتكي سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م^(٤).

(١) الوصابي : الاعتبار، ص ٦١، ٦٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١١٥؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٣.

(٤) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ١٥٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٤٨؛ الوصابي : الاعتبار، ص ٦٢؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٢؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧١، ٧٢؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن السياسي، ص ١٧٠؛ محمد السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٨٥؛ محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ص ٢٨٩.

الفصل الأول

الأحوال السياسية

عهد دولة بني مهدي في اليمن

قيام دولة بني مهدي :

تنسب دولة بني مهدي لعلي^(١) بن مهدي بن محمد بن علي الذي ينتهي نسبه إلى ميمون الحميري الرعيني، وكان علي بن مهدي فصيح اللسان واتصف بالفضل ومكارم الأخلاق^(٢)، وكان أبوه وهو من أعيان الغنبرة^(٣) رجلاً صالحاً، متديناً بعيداً عن مخالطة الحكام، ونشأ ولده علي هذا على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالعبادة، والصلاح^(٤).

صفاته العلمية ومذهبه الديني :

تلقى علي بن مهدي علومه بمدينة زبيد، فضلاً عن تعلمه على يد والده وأهل بلدته^(٥)، علوم الدين واللغة، وأجاد الأدب والخطابة والمناظرة، حتى صار فصيحاً حسن الصوت، غزير المحفوظات.

أخذ علي بن مهدي بالفقه الحنفي، إلا أنه كان متحرراً ينزع إلى المعتزلة ونظرياتهم التي توجب الخروج على الظلم^(٦)، والثورة على الظالمين، وكان كما وصفه الخزرجي^(٧)، حنفي الفروع، خارجي الأصول، يكفر بالمعاصي، ويوجب القتل بها، وكذا قتل كل من يخالف اعتقاده من المسلمين واستباحة الوطاء لسباياهم واسترقاق ذراريهم، وجعلهم دار حرب يحكم فيهم حكمه في أهل دار الحرب.

وكان يؤمن بأن الإمامة غير محصورة في قریش ولذا نسبه المؤرخ ابن الذبيعي إلى الأخذ

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢٢٦٥

تاريخ، ق ٢٢٧٤، ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن في تاريخ اليمن، ص ١١٨.

(٢) عبدالله الشماحي : اليمن، الإنسان والحضارة، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٥م، ط ٣، ص ١٣٧.

(٣) الغنبرة : قرية بمواهل زبيد (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٦، ص ٣٧٥)؛ الحمزي : كنز الأخبار في

معرفة السير والأخبار، ق ٨٩؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص ١٠٥.

(٤) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص ١٤٨.

(٥) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١١٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٨٩.

(٦) المعتزلة : ظهوروا في البصرة حوالي عام ١٠٠هـ، كفرقة كلامية على يد واصل بن عطاء. محمد يحيى

الحداد : تاريخ اليمن السياسي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م، ج ٢، ص ٧٨.

(٧) الخزرجي : المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، ق ١٥٦.

في الأصول بنظريات الخوارج، وصعب عليه تسلط النظرية الزيدية والشافعية في الإمامة^(١).
وكما أجاد علوم اللغة والأدب، أجاد العمل بالوعظ والتفسير وشرح طريقته الصوفية^(٢)،
ليس ذلك من أجل التصوف، إذ قال الذهبي : " كان خارجيًا ... " ^(٣)، ويتضح لنا ذلك إذا تمعنا في
ذكر معنى كلمة الصوفية أو التصوف مقارنة بما عمل به علي بن مهدي.

ذلك أن التصوف^(٤) " كتعريف اصطلاحى " هو طريق إسلامي اتبعه كثير من علماء
الإسلام، يقوم على الاجتهاد في التعبد والتقشف في الحياة والبعد عن الشهوات والتعمق في فهم
الأصول الدينية والتفاني في محبة الذات الإلهية وطاعتها^(٥).

على أن التعريف اللغوي للتصوف انحصر فيما يقرب من أربعة اشتقاقات منها ما يرد اللفظ
إلى الصفاء^(٦) من صفاء النفس وطهارة القلب^(٧) والمراد صفو قلوب أهل التصوف وانشراح
صدورهم ورضاهم بما يجريه الله عليهم^(٨)، على أن هناك من يستبعد هذا الاشتقاق ولا يجيزه
ومنهم المقرئزي والقشيري.

وضع أقطاب المتصوفين شروطاً وسمات عامة يجب أن تتحقق في كل من يسلك طريق
التصوف فليس كل من سار في الطريق أصبح متصوفاً، ولكن يجب أن تتوافر فيه أركان وشروط
التصوف.

ولابد أن تتحقق في الصوفي حقائق الإخلاص والصدق والتوكل والزهد وأن يتجرد من كل
ما يشغل عن التفرغ لهذا الشأن عن أي شيء^(٩).

-
- (١) ابن الديبع : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، ص ٣٦٠.
(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٩؛ الجندي : السلوك في طبقات
العلماء والملوك، ص ٥١٦.
(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم
٦٤، ص ٤٩.
(٤) التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة للسلوك يتخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي وعرفانه
بالحقيقة وسعادته الروحية. أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣.
(٥) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف، القاهرة، ١٩٣٣م، ص ٩.
(٦) القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢١٦؛ الكلاباذي : المرجع السابق، ص ٥.
(٧) فرج محمد غنيم : غذاء الباحث في التصوف، طنطا، ١٩٥٣م، ص ٣.
(٨) لويس ماسينيون : الإسلام والتصوف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٣٣.
(٩) ابن علوي الحداد : الدعوة التامة والتذكرة العامة، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٠.

وجدير بالذكر أن التصوف عل نوعيه : أحدهما ديني والآخر فلسفي، كما لكل نوع فرقه وأصحابه وما ينطبق عليهم من تعاليم، ومن هذه الفرق الدينية — وهي ما نحن بصددتها الآن — الإباحية^(١)، وهي فرقة من المتصوفة المبطله، قالوا : لا قدرة لنا على اجتناب المعاصي وإتيان المأمورات، وليس لأحد في هذا العالم ملك رقبة ولا ملك يد، والجميع مشتركون في الأموال والأزواج، وقالوا : لا نبالي ما يصدر منها، سواء كان مع الشرع أو ضده، وأن الشريعة مقصودها ضبط العوام، والإباحية قيل إنهم من المندسين في الصوفية أو المتشبهين بهم، دخلوا التوصف ظاهراً وهم في الباطن غير ذلك.

كان علي بن مهدي على نمط أهل التصوف في المكَاشَفَاتِ^(٢) والإخبار بالمَغِيَّاتِ ولبث على ذلك مدة من الزمن، ثم تغير هذا كله فيما بعد، ولاشك أنه عن طريق هذه النزعة الدينية الصوفية، ومقدرته على الإقناع، تمكن من يجذب إليه الكثير من الناس من أهل تهامة أو المناطق المجاورة لها من أهل الجبال مثل وُصَّاب ورَيْمَة وغيرهما^(٣)، فزودهم بالكثير من المعارف الدينية، ونظراً لغزارة علمه، وقلة المعرفة الدينية والعلمية للناس في تلك المناطق آنذاك^(٤)، صدَّق أقواله الكثير من الأفراد، فازداد عدد من استمال قلوبهم إليه^(٥)، وكان هذا الأسلوب من أقوى عدده في التأثير في الرجال، لتحقيق أطماعه السياسية الكبيرة فيما بعد.

(١) عبدالمنعم الحنفي : موسوعة الصوفية، ٢٠٠٢م، ص ٦٢٤.

(٢) المكاشفة : قيل هي كلمة التوحيد، وقيل هي العدالة، وقيل هي حروف التهجي، وقيل هي العقل الذي به يتم معرفة التوحيد، وتحرِّي العدالة، وتعلم حروف الهجاء والتعليم، وفعل الجميل، وبه يضل الإنسان على كثير من خلقه. محيي الدين بن عربي : شرح معجم اصطلاحات الصوفية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ط ١، ص ٤٢؛ الكبسي : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، ص ٨٧.

(٣) الكبسي : المصدر السابق والصفحة.

وُصَّاب : جبل متسع بالغرب الجنوبي من صنعاء بمسافة ١٨٢ كم ويشمل ناحيتين : وصاب العالي (مركزها نن وصاب) ووصاب السافل (مركزها المصباح). المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص ٦٩٩.

رَيْمَة : من أشهر بلاد اليمن خصباً وغازرة، يقال له ريمة الأشابط وأيضاً ريمة جُبْلان وموقعة بالجنوب الشرقي من الحديدة بمسافة ٧٠ كم وفي الجانب الغربي من صنعاء. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص ٢٨٢.

(٤) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٨٩.

(٥) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص ١٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٩.

بداية النشاط الديني لعلي بن مهدي :

المرحلة الأولى :

مرحلة السلم وفيها بدأ نشاط علي بن مهدي الديني (بساحل زبيد بقرى العنبرة وواسط، والقضيب، والأهواب، والمقتفى وساحل القارة) منذ سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م^(١)، وكان يتنقل في البوادي بين هذه الأماكن يدعو الناس ويعظهم، وخلال وعظه للناس كان يقول : " أيها الناس دنا الوقت وأزف الأمر كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عياناً " ^(٢).

أضاف علي بن مهدي إلى التمسك بالعبادة والتصوف، المداومة المستمرة على الحج وزيارة قبر الرسول (ﷺ) وذلك منذ سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م حتى سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م، وأثناء ذهابه إلى الحج كان يلتقي بحجاج العراق ووعاظها فيباحثهم في علومهم حتى أتقنوها^(٣)، لذلك ساهم حجاج العراق في تحويل علي بن مهدي من رجل متمسك بالدين والصلاح إلى داعية ديني، كما تعرف إلى رجالات اليمن الذين التقى بهم، فهو بذلك ترسم خطا أبي الحسن علي بن محمد الصليحي في التمهيد لحركته، ومع ذلك فقد كانت نزعتها واحدة وهي نزعة الزعيم اليمني الخارج على الإسماعيلية علي بن الفضل نفسه في إقامة حكم يمني موحد يضم جميع أجزاء اليمن، ولكن العناصر الحاكمة في عهودهم وما ساندتها من قوى خارجية تضافرت ضدهم، وقضت على صروح دولهم وهي في مهدها وعلى فترات مختلفة^(٤).

وانتهى به تجواله وتفكيره إلى الاقتناع بتطهير اليمن من حكم الدخلاء الأحباش^(٥) المتمثلين في الدولة التجاحية ومقرها " زبيد " وغيرهم.

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن، ص ٤٩.

واسط : بسواحل زبيد قرب العنبرة، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٨، ص ٣٤٩.

القضيب : بلفظ القضيب من الشجر، واد في أرض تهامة، ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٧، ص ٦٦.
الأهواب : ميناء قديم صغير لمدينة زبيد، وهو بالقرب منها وكان يسمى " البقعة " وقرية من قرى وادي زبيد باليمن. الحجري : بلدان اليمن وقبائلها، ج ١، ص ٩٩.

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٣٦٠.

(٣) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٥٦؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٨؛ عمارة : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، ص ٢٢٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩٠.

(٤) الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٧٨.

(٥) الشماحي : اليمن، الإنسان والحضارة، ص ١٣٧.

وعندما عاد علي بن مهدي إلى اليمن من الحج متأثرًا بحجاج العراق عمل على بدء نشاطه السياسي الديني بطريقة سليمة فاعتزل الحكام، " وأظهر الوعظ والتحذير من صحبة الملوك وحواشيهم وأتباعهم وصحبة العسكر " (١).

وبدأ دعوته بتهيئة الرأي على استتكار ما بلغت الحالة في عهده من — الاضطراب والفساد — وما يجب من إنكار المنكر وبيث روح الاعتزال بما فيها من شدة وتطرف، ومكث وقتًا ليس بالقصير حتى استطاع أن يُثَبِّتَ جذورها ويُمكن أصولها في محيط ذلك العصر الذي تتقاذفه المذاهب والنزعات وتعصف به الأهواء والمطامع شتى (٢).

وسرت دعوته في سرية وانتشرت في تودة وثبات في الجبال والسهول وكان له من الطاعة والنفوذ في أتباعه ما يفوق الوصف.

ترامى إلى مسامع حكام زبيد أخبار ابن مهدي كرجل صوفي تقي صالح ورعاية منهم وعناية كعادتهم في إكرام رجال الدين صدر أمر بإعفائه (٣) من خراج أملاكه هو وأخوته وأصهاره وكل من يلوذ به في طريقته الصوفية، وصدر هذا الإعفاء عام ٥٣٦هـ / ١١٤١-١١٤٢م على عهد القائد سرور الفاتكي الحاكم في دولة بني نجاح بتوجيه من " علم " والددة الأمير فاتك بن منصور، والتي عرفت بالحرّة، الحاجة، الصالحة لا تصافها بالأعمال الخيرية (٤).

وربما كان علي بن مهدي قد وعد مريديه بهذا الخبر مسبقًا عندما عزم وكتب إلى حكام زبيد راجيًا الإحسان إلى جماعته الصوفية أو طالبًا لهم أسوة بفقهاء وعلماء زبيد (٥)، فأجابه حكام زبيد بالإعفاء من الضرائب بدلًا من العطاء أو الصدقات، فصدق وعده وقوله، وأظهر ذلك ابن

(١) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٥٦؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٨؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٠.

(٢) محمد بن أحمد العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني، دار الإمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ، ط ٢، ج ١ ص ١٣٩.

(٣) ابن أسير : الجواهر الفريد، ق ٢٧٤؛ يحيى بن الحسين : أبناء الزمن، ق ٤٩؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٠؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٧٨م، العدد ٢٥، ص ١٢٨.

(٤) هي جارية حبشية يقال لها علم، وكانت مغنية واستولدها المنصور ولذا يدعى فاتكًا وسميت بالحرّة الصالحة الحاجة لأنها كانت تحج بأهل اليمن برًا وبحرًا في خفارتها من الأخطار والمكوس. ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ٩٧؛ الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٧٩.

(٥) محمد أمين صالح : المرجع السابق، ص ١٢٨.

مهدي لأتباعه أنه من كراماته^(١).

جذب هذا الإعفاء الكثير من الناس للانضمام إلى علي بن مهدي للاستفادة من إعفاء أراضيهم من الخراج، كما استفاد علي بن مهدي بزيادة عدد أتباعه، هذا بجانب أنهم أشروا واتسعت بهم الحال، وركبوا الخيل^(٢) وقوى جمعهم أو كما قال المتنبي :

فكأنما نتجت قيامًا تحتهم وكأنما ولدوا على سهواتها

البيعة الأولى لعلي بن مهدي ١١٤٣/٥٣٨ هـ :

اتسعت دعوة علي بن مهدي حتى وصلت إلى الجبال المجاورة لتهامة، وبدأت دعوته تأخذ الطابع العدائي للدولة النجاشية، فلم يكد يمض عامان حتى عقد ابن مهدي حلفاً على النصره مع قوم أتوه من أهل الجبال، وبايعوه البيعة الأولى في منطقة " القضييب " في وادي زبيد سنة ١١٤٣/٥٣٨ هـ^(٣).

أعطت تلك البيعة علي بن مهدي دافعاً لأن يبدأ نشاطه الحربي، فخرج من تهامة نحو الجبال فجمع جمعاً كبيراً من مؤيديه بلغ عددهم أربعين ألف رجل، سار بهم نحو مدينة "الكدراء"^(٤) بوادي سررد في شمال تهامة، فالتقى بها بالقائد النجاشي إسحاق بن مرزوق السحرتي، فنشبت بها معركة كبيرة بين الطرفين في سنة ١١٤٣/٥٣٨ هـ، وانتهت بهزيمة علي بن مهدي وقتل الكثير من أنصاره والعفو عن أكثرهم^(٥).

ويبدو أن السبب في هزيمة علي بن مهدي، أن جيشه كان أغلبه من القبائل وهم غير

(١) محمد عيسى الحريري : دراسات وبحوث في تاريخ اليمن الإسلامي، عالم الكتب والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م، ص ٢٢٥.

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٥٦؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٤٩؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٠؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٢٩٩.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن، ق ٤٩؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٩؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٧٩؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص ١٢٨؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩١؛ محمد الحريري : المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٤) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة نفس المصدر والصفحة؛ محمد أمين صالح : نفس المرجع والصفحة.

(٥) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر، ص ١٢٠.

مدربين التدريب العسكري الكافي للقتال، بينما كان جيش النجاشيين جيشاً نظامياً مدرباً على القتال، فضلاً عن عدم معرفة علي بن مهدي للخطط العسكرية^(١). وبعد أن حلت الهزيمة بعلي بن مهدي اتجه نحو الجبال ومكث بها إلى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م^(٢).

وهنا نتساءل عن الدوافع التي جعلت علي بن مهدي يتخذ هذا المنحى السياسي فيقوم بالتحالف مع أهل الجبال لشن الحرب على مدن تهامة، هل دفعه العنصرية القحطانية ضد حكام زبيد الأحباش؟ أم هي حركة إصلاحية تدعو إلى إزالة المنكرات واجتتاب المحظورات بما ذاع من مفاصد المجتمع في إمارة بني نجاح على عهد الوزراء العظام^(٣)؟

وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين يرى أن الأمر الثاني هو الأقرب إلى الاحتمال، فإن هذا الاحتمال لا يقوى على مواجهة المصادر اليمنية، لأن أيًا من المؤرخين اليمنيين أو غيرهم لم يُشير إلى أية انحرافات، أو مفاصد اجتماعية، انتشرت في مجتمع الدولة النجاشية، في هذه الفترة بصفة خاصة، حيث أشار المؤرخون بحالة الانضباط الكامل في مجتمع الدولة النجاشية الذي كان تحت إدارة الوزير سرور الفاتكي، الذي اجتهد في تحقيق الأمن والعدل والرعاية لجميع المواطنين في الدولة^(٤).

ولدينا نص طويل ورد عن معظم المؤرخين يتحدث عن حالة الاستقرار في الدولة النجاشية، وجهود الوزير سرور في هذا السبيل. يقول ابن الديبع: "كان سرور يخرج من بيته بعد نصف الليل أو ثلثه، وكان من أعلم الناس بالمنازل، وإذا قيل له كيف تخرج في هذا الوقت؟ فيقول: إنما أخرج في هذا الوقت لأجل من لا يقدر على الوصول إليّ من النهار من أهل البيوت، وأرباب الستر، إما لفرط الحياء أو لكثرة الناس، ثم إذا صلى الصبح ركب إما إلى صالح يزوره، أو مريض يعود، أو ميت يحضره، أو عقد نكاح يشهده، وما يخص بذلك أكابر الجند والعلماء^(٥)"

(١) السروري: تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩١.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ٢٢٠؛ عمارة: تاريخ اليمن، ص ١٤٩؛ ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص ١٢٠؛ الجندي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٧؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٢٥٦.

(٣) محمد أمين صالح: دولة الخوارج في اليمن، ص ١٢٨.

(٤) الحريري: دراسات في تاريخ اليمن، ص ٢٢٦.

(٥) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ٧١؛ عمارة: المصدر السابق، ص ١٤٧؛ الجندي: المصدر السابق والجزء، ص ٥١٤؛ ابن عبدالمجيد: المصدر السابق، ص ١١٧؛ الوصابي: الاعتبار، ص ٦١، ٦٢.

والتجار، بل من دعاه أجاب، ويجنو على المنتظم من الرعية، ويفحش له في القول، وهو آمن حميته وعزته وغضبه، ومن استُدعي إلى مجلس الحكم حضر تواضعًا، ويقوم بين يدي الحاكم امتثالاً لأوامر الشرع، ليقّدي به سواه، وكان يحب العلماء والفضلاء"، وكان ذلك يعني أنه كان ينصف الرعايا من الحكام.

وإنما ظهرت هذه الانحرافات والمفاسد في فترة متأخرة، بعد وفاة القائد سرور الفاتكي، وتحديدًا بعد سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، وهي السنة التي قُتل فيها هذا الوزير^(١).

ومن هنا نرجح حركة ابن مهدي إلى الانحياز للعنصر اليمني ضد دولة بني نجاح وتابعيها من الجند والقادة والأحباش، بالإضافة إلى نوعية المبادئ والأفكار التي اعتنقها علي بن مهدي في بادئ أمره، واهتم بنشرها بين أتباعه سواء من أهل تهامة أو من أهل الجبال وألزمهم بها.

ومهما يكن من أمر فإن علي بن مهدي بعد هزيمة الكدراء، اتجه نحو الجبال ومكث بها نحو ثلاث سنوات من (٥٣٨هـ/١١٤٣-١١٤٤م) وحتى سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م)^(٢)، وأنداك أدرك أنه غير قادر على مقاومة الدولة النجاشية، بسبب عدم توافر المال اللازم والمؤن له ولأنصاره، ففضل المهادنة والاتجاه إلى العمل بالزراعة لجمع الأموال^(٣). فطلب من الحرة " علم أم الأمير فأتتك النجاشي العفو عنه وعن أصحابه ومنحهم الأمان كما طلب منها السماح له بالعودة إلى بلده لزراعتها وإعفاءه من الخراج فوافقت الحرة علم على منح علي بن مهدي الأمان وإعفاء أرضه وأرض أنصاره من الخراج، رغم معارضة الكثير من رجال دولتها وفقهاء عصرها لذلك الأمر^(٤).

وعندما منحت الحرة علم ذلك الأمان والإعفاء لعلي بن مهدي وأنصاره، كان شرطه عدم الخروج على دولتها.

لنا أن نقف هنا ... عند مبررات الحرة علم^(٥) في استمرار مساعدتها لعلي بن مهدي

(١) عمارة : المفيد، ص ٢٢٨، ٢٢٩؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٣٥٧؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٨؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن، ص ١٧٠.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٤؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٤٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٤٩، ١٥٠؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٣) ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٦؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٣٦٠؛ الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص ٧٦، ٧٧.

(٥) محمد الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٧٩.

ويظهر ذلك جلياً من تسامح الحرة علم مع علي بن مهدي بالرغم من معارضة آل نجاح لها، وذلك لأنها ترى أحقيته بالملك دون موالي آل نجاح الذين كانوا قد سيطروا على مقاليد الأمور في الدولة، لاسيما وأن ولدها منصور بن فائق توفي مسموماً من قبل وزيره مولاه إقبال الفاتكي، وكذلك لأن الحرة علم هي حرة وليست من الأسرة النجاشية الحبشية، من الدوافع التي أدت لتعاطفها مع الزعيم اليمني الحر علي بن مهدي الرعيني ضد آل نجاح الأحباش.

وهكذا عاد علي بن مهدي إلى بلاده عام ٥٤١هـ/١١٤٦-١١٤٧م، واهتم بأملكه وهي معفية الخراج عدة سنوات فاجتمع له من ذلك مال^(١)، مع التزامه بطاعة الحرة علم وعدم الخروج عليها، واستمر على صلة بأتباعه يعلمهم الدين ويتنقل من قرية إلى أخرى يدعو الناس إلى إتباع مذهبه، حتى توفيت الحرة علم سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م^(٢).

بعد وفاة الحرة علم أم الأمير النجاشي فائق سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م أصبح علي بن مهدي في حل مما قطعه على نفسه من عهود معها، فاتجه إلى محاربة الدولة النجاشية وترك دور الوعظ والتعبد والمسالمة.

ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية، وهي : مرحلة الحرب :

وهذه المرحلة استمرت لما يقرب من عشر سنين بدأت من سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م أخذت في السنوات الست الأولى منها شكل غارات تخريبية على أعمال تهامة القريبة من مواقع تحصنه بالجبال^(٣)، وانتهت بالقضاء على الدولة النجاشية وقيام دولة بني مهدي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م.

وتبدأ هذه المرحلة عند ما تمت لعلي بن مهدي البيعة الثانية^(٤) من أنصاره والتي كانت في منطقة " القضيب " في وادي زبيد، وتتص هذه البيعة على الجهاد معه ضد أهل المنكر وهم الحبشة ومن عاضدهم من العرب وهم الأشاعر وأكثرهم " عك " ^(٥)، وأمرهم بقتل من خالفه وإن

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٠؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٧؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٦؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن الإسلامي، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٣٢٥.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٥؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٤٩؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٠؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٣٩.

(٣) أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص ١٣٠.

(٤) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ الجندي : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ ابن الديبع : قرعة العيون، ص ٢٥٦.

(٥) عك : قبيلة ابن عدنان من أقوى قبائل تهامة وأكثرهم، واستدعاهم علي بن مهدي ووعدهم رفع أيدي النجاشيين عنهم وملك زبيد، وأطلق أيديهم من كبير أو صغير ولا رجل ولا امرأة ولا قوي ولا ضعيف، وقال لهم أن القوم الذين يلقونهم كفار وأن أولادهم كفار مثلهم يجب قتلهم. سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٣٣.

كان من قومه أو قومهم، ولما كملت مبايعته لهم قام فيهم خطيباً، فقال من جملة خطبته^(١) : " والله ما جعل فناء الحبشة إلا بي وبكم وعما قليل إن شاء الله تعالى تعلمون والله العظيم رب موسى وهارون إني عليهم ريح عاد وصيحة ثمود وإني أحدثكم فلا أكذبكم وأعدكم فلا أخلفكم ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلاً لتكثرن أو وضعاء لتشرفن أو أذلاء لتعزن حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٢)، فالأناة الأناة فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخدمكم بنات الحبشة وأخواتهم ولأخولنكم أموالهم وأولادهم ثم قرأ : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٣).

أما عن أسباب ثورة علي بن مهدي على الدولة النجاشية ومحاربتهم فترجع إلى ثلاثة عوامل، وهي كالآتي^(٤) :

الأول : العامل الديني :

وهو من أهم العوامل التي حركت علي بن مهدي وأنصاره ضد الدولة النجاشية، فمن خلال مبايعة القضيبي الثانية نجد أنها أوضحت هدفها المرتكز على جهاد أهل المنكر من رجال الدولة النجاشية ومن ناصرهم من الأشاعر وعك^(٥).

وهذا يعني أن ثورة علي بن مهدي وأنصاره كانت هدفها بالدرجة الأولى دينياً وهو إزالة المنكر والفساد الديني للدولة الحبشية أو النجاشية^(٦)، وهذا ما دفع الكثير من الناس إلى مناصرة علي بن مهدي ومحاربة الدولة النجاشية في تهامة حرباً شديداً من أجل إقامة الدين حسب مفهومهم وإقامة العدل.

الثاني : التأثير بحجاج العراق :

ظل علي بن مهدي مداوماً على الحج سنوياً منذ سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م وأثناء الحج كان

(١) الخزرجي : المسجد، ق ١٥٧؛ ابن الدبيع : قرة العيون، ص ٢٥٦؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٧.

(٢) سورة النجم، آية ٣١.

(٣) سورة النور، آية ٥٥.

(٤) السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص ٢٤١.

(٥) سليمان التقي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٣٣.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

يلتقي بحجاج العراق^(١)، فيباحثهم في علومهم، فأدى ذلك إلى تمكنه من معرفة علومهم والتسليم بها، وكانت العراق من أهم البلدان التي نشأت بها الفرق الإسلامية السياسية الدينية، كما أن تن حجاج العراق في معظمهم يحملون أفكارًا سياسية مخالفة للعباسيين، فتأثر بهم علي بن مهدي، وتحول إلى داعية ديني ثم إلى داعية سياسي، فحضر أصحابه من عدم مصاحبة رجال الدولة النجاشية في تهامة وحواليهم وأتباعهم كما حرض أنصاره على قتالهم.

فمن الطبيعي أن يعتنق علي بن مهدي أفكارًا دينية سياسية مخالفة للدولة النجاشية من أجل القضاء عليهم.

الثالث : الوضع الاجتماعي :

وهو من أهم العوامل التي دفعت علي بن مهدي وأنصاره على مقاومة الدولة النجاشية، فالتميز الطبقي المفروض من قبل الهيئة الحاكمة على المجتمع آنذاك، والوضع الاجتماعي لأهل علي بن مهدي، من حيث وضعهم أسفل السلم الطبقي للمجتمع واستحواذ رجال الدولة النجاشية على الكثير من المناصب والامتيازات وتملك الأراضي وظلم الآخرين، حتى صار أهل علي بن مهدي طبقة متدنية مضطهدة تتولى المهن الصغيرة في المجتمع، وأوضح ذلك عمارة بقوله : "وكان الرجل من أصحاب ابن مهدي يلقى أخاه وقريبه وهو مع الحبشة إما مزارعًا أو حمالًا أو راعي ماشية أو حارس ضيعة"^(٢).

بعد ذلك اتخذ علي بن مهدي من المناطق الجبلية مركزًا لمقاومة الدولة النجاشية فاتجه أولاً إلى حصن " الداشر "^(٣)، من بلاد خولان ثم ارتفع إلى حصن " الشرف "^(٤)، وهو لبعض من خولان وجعله مقرًا له، أي كان الحصنان تابعين لقبائل خولان، ومن حصن الشرف بدأ علي بن مهدي يشن غاراته المتعددة على النجاشيين.

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٤؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٦.

(٢) عمارة اليمنى : المفيد، ص ٢٣٢؛ السروي : الحياة السياسية في اليمن، ص ١٤١، ١٤٢؛ تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩٣.

(٣) الداشر : حصن في وصاب السافل، بطل على مدينة زبيد من شرقها. المتحفي : معجم البلدان اليمنية، ص ٢٣٠.

(٤) الشرف : قلعة حصينة قرب زبيد بين جبال لا يوصل إليها إلا في مضيق لا يسع إلا رجلًا واحدًا مسيرة يوم وبعض يوم، وهذا الحصن لبني حثوان من خولان ويقال له قِلحاح. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٣، ص ١٣٥؛ الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٥٨؛ ابن خادون : العبر، ج ٤، ص ٢٢٠.

وثأكيذا لاستقرار علي بن مهدي في حصن " الشرف " قسم أصحابه إلى فرقتين^(١) :
إحداهما فرقة " الأنصار " وهم أهل الجبال وولي عليهم واليا اسمه سبأ بن يوسف^(٢)، وأطلق عليه
لقب " نقيب " لطائفة الأنصار وكناه بشيخ الإسلام.

والفرقة الأخرى فرقة " المهاجرين " وهم الذين قدموا معه من تهامة وولي عليهم واليا من
العمرانيين اسمه التويني^(٣)، وأطلق عليه لقب نقيب لطائفة المهاجرين، ولقبه أيضا بشيخ الإسلام.
كما جعل علي بن مهدي النقيبين هما الواسطة بينه وبين أتباعه، أي أنه لا يصل إليه أحد
من الأتباع سواهما^(٤)، فاحتجب عن الكثير من أتباعه لكثرتهم والذين كانوا يدعون " بالمهالة "
لكثرة التهليل فيهم^(٥).

ويعلل عمارة أن السبب في ذلك هو سوء ظن علي بن مهدي وعدم ثقته بالكثير من
أصحابه، وخوفاً على نفسه منهم^(٦)، وكذلك خوفه من المتآمرين عليه من قبل النجاشيين، لذلك شدد
الحراسة على نفسه ولم يترك أحداً يدخل عليه إلا من يثق به.

لم يكد علي بن مهدي يستقر في الجبال بعد طلوعه إليها حتى عمل على شن الغارات نحو
الغارات على المنخفضات أو السهول القريبة من الجبال المتحصن بها، فتمكن من تخريبها على
الرغم من محاولة الدولة النجاشية في إقامة المراكز والحاميات المتعددة، لمنع علي بن مهدي من
التقدم، ومواظبة النجاشيين في عمل تبديل تلك الحاميات في المراكز بحاميات أخرى، إلا أن ذلك
لم يحقق للنجاشيين النصر أو منع أنصار علي بن مهدي من التقدم نحو تهامة، فتمكنوا من تخريب
الكثير من المناطق السهلية المجاورة للبلاد^(٧).

اتسمت غارات علي بن مهدي بالسرعة والمباغلة حيث تبدأ الغارة في الصباح على القرى

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٤؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٠؛
Stanleylane – Poole : Mohammadan Dynasties, Paris, 1925, p. 96.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٠؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٣) عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٤) الحمزي : كنز الأخبار، ق ٨٩؛ الخزرجي : العسجد، ق ١٥٨؛ الجندي : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن
الحسين : غاية الأمان، ج ١، ص ٣٠٤؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٦؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة.

(٥) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص ١٧٣.

(٦) عمارة : المفيد، ص ٢٣١؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩٤؛ أحمد المطابع : تاريخ اليمن،
ص ٣٢٦.

(٧) السروري : المرجع السابق، ص ١٩٥.

وتعمل على حرق ونهب كل ما تجده، وتعود بالأنعام والأسرى، مما أشاع الرعب في أهل البوادي وخرب قراهم^(١).

في ذلك الوقت لم يكن بمقدور الدولة النجاشية مطاردة المغيرين حتى مواقعهم بالجبال، أو إرسال جيش كبير للقضاء على ابن مهدي في موقعه بحصن الشرف، وذلك لعدة عوامل أهمها :
أولاً : طبيعة المنطقة التي تحصن بها، فهي منيعة، ومن الصعوبة السيطرة عليها فالوصول إلى حصن الشرف — مركز انطلاق علي ابن مهدي — صعب للغاية فهو واد ضيق بين جبلين مسافة يوم وبعض يوم، وإذا تم الوصول إلى أسفل الجبل، ثم الصعود إلى أعلاه لا يتحقق إلا في مسافة نصف يوم^(٢).

ثانياً : أن الوادي يتصل مسيله بتهامة وهو واد متعرض به " أحراج " ^(٣) عظيمة مليئة بالأشجار، إذا كمننت فيه الجيوش العظيمة الحرارة شهراً لم يعلم بهم أحد^(٤). وهذه المنطقة جعلت الجيش النجاشي غير قادر على المجازفة بدخولها فشكل صعوبة على تمكنهم من القضاء على ثورات ابن مهدي.

استغل علي بن مهدي وأنصاره تلك الأحراج، فكانت غزواته تُغير على بعض أعمال تهامة ليلاً وتحرق ما تجده أمامها، فإذا أدركها الفجر عادت وكمننت في تلك الأحراج فلا يستطيع أحد الوصول إليهم.

ثالثاً : كثرة أنصار علي بن مهدي لاسيما من قبائل خولان. وهذا ما ساعده على استمراره في بعث غاراته على سهول تهامة ليلاً ونهاراً، وامتدادها على معظم تهامة حتى " أجلا جميع البوادي وقطع الحرث والقوافل التجارية " ^(٥)، وكان يأمر أصحابه أن يسوقوا الأنعام والرقيق وما عجز عن السير عقروه^(٦)، فأرهب ذلك أهل تهامة ونشر فهيم الرعب ومضى بخراب معظم

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥١؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨.

(٢) عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٣) أحراج : جمع حرجة، وهي الأرض الملتفة الأشجار. ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة.

(٤) الخزرجي : المسجد، ق ١٥٨؛ عمارة : نفس المصدر، ص ١٥٠، ١٥١؛ المفيد، ص ٢٣١، ٢٣٢؛ الوصابي :

الاعتبار، ص ١٠٦؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩٥.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص ٢٣٢؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ الوصابي : المصدر السابق

والصفحة؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٥٦.

(٦) ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة.

عمال تهامة، وبطلت السفار وعمارة المدن في تهامة، فأثر ذلك اقتصاديًا على الدولة النجاشية. تجار زبيد وتهامة، ومن يتاجر إليها، وأوضح ذلك سارة بقوله : " فانقطع الناس عن السفر من بيده إلى عدن ومن عدن إلى زبيد مدة ثلاثة سنين ففقد ذلك برخص بضائع كل بلد منهما. غلائها في البلد الآخر حتى صار ما يساوي دينارًا وما يساوي دينارًا في البلد الآخر بأربعة نانير" (١).

سلك علي بن مهدي في عداوته للدولة النجاشية ناحية أخرى، فعندما رأى علي بن مهدي طول فترة حربه مع الأحباش حاول الاستعانة لقتالهم بحاكم عدن الداعي محمد بن سبأ بن أبي السعود الزريعي، فذهب علي بن مهدي سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م إلى ذي جيلة للقائد أثناء إقامته بها، وطلب منه أن يساعده في محاربة أهل زبيد والدولة النجاشية، إلا أن الداعي محمد بن سبأ رفض مساعدته، ونفسر هذا الرفض إلى سببين :

أولهما : أن العداء المذهبي بين الصليحيين وبني نجاح لم يعد من القوة التي كانت عليه من قبل، بعد انتقال الحكم من الصليحيين إلى آل زريع الذين حكموا عدن وأقاموا علاقات حسن جوار مع الدولة النجاشية في زبيد (٢).

ثانيًا : تعارض مذهب علي بن مهدي مع بني زريع دعاة الإسماعيلية والذين يدينون بالولاء للخلافة الفاطمية (٣).

بعد فشل علي بن مهدي في الحصول على مساعدة من الزريعيين ضد حكام زبيد، فتآمر على قتل وزيرها وقائدها سرور الفاتكي، مقدّرًا حدوث الاضطراب الداخلي للتنافس المتوقع بين الرؤساء على منصبه.

وبالفعل أرسل علي بن مهدي أحد رجاله والذي ظل يترصد الوزير ويكمن له حتى تمكن من قتل القائد سرور الفاتكي في مسجده في زبيد (٤) عندما كان يؤدي صلاة العصر وذلك يوم

(١) عمارة : النكت العصرية، مكتبة مديونية، القاهرة، ط٢، ١٤٠١هـ / ١٩٩١م، ص٢٦، ٢٧.

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق١٥٩.

(٣) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص١٣١، الحريري : معالم تاريخ اليمن، ص٨٣.

(٤) قاتل سرور الفاتكي من أصحاب علي بن مهدي ويدعى محرم، قتله وهو في الركعة الأخيرة من صلاة العصر فطارده الناس وقتلوه في عشية ذلك اليوم بعد أن قتل جماعة منهم. يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق٥٢.

الجمعة في صفر سنة ٥٥١هـ / مارس ١١٥٦م^(١).

وكما توقع علي بن مهدي من أن عملية قتل القائد الوزير سرور الفاتكي ستشغل رؤساء أهل زبيد بالتنافس والتحاسد على تولي الوزارة وقيادة الجيش بدلاً من سرور " فانفتح على الدولة بعده أبواب الشر المسدود، وانحل العقد المشدود "^(٢). فأدى ذلك إلى محاربة بعضهم لبعض وعدم تمكنهم من صد هجمات علي بن مهدي، فساعد ذلك ابن مهدي على التقدم لحرب النجاشيين.

عندئذ غيّر ابن مهدي من أسلوبه في المعركة، فنزل من حصن " الشرف " إلى حصن " الداشر " الذي كان يبعد أقل من نصف يوم مشياً على الأقدام من زبيد وانضم إلى جيش ابن مهدي عرب ورعايا تهامة^(٣)، الذين كانوا رعايا الدولة النجاشية تأثراً به وخوفاً من بطشه، ولنفورهم من الدولة النجاشية وما يحدث فيها من تنافس على السلطة. فتجمع لدى علي بن مهدي أثناء زحفه على مدينة زبيد أناس لا تحصى^(٤).

حصار زبيد :

زحف علي بن مهدي ومن معه من فلول جيشه حتى وصل إلى باب مدينة زبيد وظل يشن على زبيد غارات متعددة ويفرض عليها الحصار، حتى بلغت غاراته على أهل زبيد فيما يذكر اثنين وسبعين زحفاً^(٥)، قتل فيها العديد من الأفراد من الطرفين، وأصابت هذه الغارات أهل زبيد

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٢؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢١؛ ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢١٨

ويذكر عمارة أن سرور قُتل في رجب من نفس السنة ويؤيده في ذلك يحيى بن الحسين : أخبار القطر اليماني، ص ٣١١؛ وأيضاً ابن الديبع في الفضل المزيّد، ص ٧١.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٢؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٣) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٢؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٢؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر والصفحة؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص ١٣٢.

(٤) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٦؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٥٢؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : الفضل المزيّد، ص ٧٥.

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر والصفحة؛ الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦٣؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢٢؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٧؛ عمارة : نفس المصدر والصفحة؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٥٨؛ يحيى بن الحسين : أخبار القطر اليماني، ص ٣١١، ٣١٢.

ويذكر ابن الحسين أنه لم تصبر أمة على الحصار ومعاودة القتال كصبر أهل زبيد على قتال ابن مهدي؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٤٠.

بالفزع والضر والجوع واشتد عليهم البلاء.

ونتيجة لهذا الحصار حاول أهل زبيد الاستتجاد بالإمام الزيدي أحمد بن سليمان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، والذي تصادف وجوده آنذاك في حصن " أشيخ " وشرطوا أن يملكوه عليهم^(١). عندما وصل الإمام أحمد بن سليمان إلى " أشيخ " أقام بها شهراً، ووصله ابن أحمد بن محمد بن الخضر الخولاني، صاحب حصن قوارير (حصن كبير في وصاب السافل) بوصاب شاكياً ما لحقهم من ابن مهدي حيث تمكن ابن مهدي وجيشه من الحصن فذبخوا من فيه صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أنثى، ولم يبقوا إلا على أربع عشرة امرأة منهم صهرته وبناتها فسباهن، وأخذ جميع ما في الحصن من الأموال^(٢)، وكان مع علي ابن مهدي قوم من رازح (أحد أقضية لواء صعدة ويضم عدة قرى) يقال لهم بنو منبه زادوه جرأة، فغضب الإمام لذلك، وعزم على الانتقام من ابن مهدي فحشد قبائل " جنب " وتآلف رئيسهم زيد بن عمرو وغيره من المشايخ بالمال، وقصدوا زبيد، وتقدموا إلى الجليب تحت حصن قوارير، وأمسوا هناك ولما أصبحوا، أرسل الإمام جماعة للكشف عن ابن مهدي، فتقدمت طليعة إلى محله فوجده في نفر قليل، ولم يكن قد علم بوصولهم، وعادوا إلى معسكرهم يحثون أصحابهم على مباغته الرجال وانتهاز فرصة غفلته، فقال لهم شيخهم جابر بن عبدالله الجنبى : إن كنتم تريدون أموال أهل زبيد، فدعوا ابن مهدي إلى أن تفرغوا من زبيد وهو لكم من بعد، وإن لم تكونوا تطمعون في زبيد، فخذوا ابن مهدي^(٣).

ولكن ابن مهدي انتبه لهم سريعاً، فما استيقظوا إلا مع وقع السيوف، ولكن الإمام ومعه جماعة من أصحابه تصدوا لابن مهدي فانهزم، وقتل جماعة ممن معه، وعندما أراد الإمام أن يقدم إلى موضع ابن مهدي، امتنع عليه أصحابه وأبوا إلا قصد زبيد فساعدتهم وسار إلى زبيد، وضرب باب الشبارق، وقد ظفر جنده في طريقهم بقافلة لابن مهدي تحمل حباً وسمناً، فنهبوها وأدخلوها زبيد، وخرج أهل زبيد من العلماء والقواد لاستقبال الإمام وأصحابه.

وفي مقابل مساعدة الإمام لأهل زبيد طلب منهم قتل مولاهم فانتك بن محمد بن فاتك ابن جياش، الذي تولى الحكم بعد أخيه فانتك بن منصور، لاتهامه بالخروج عن الدين، فقتل على أيدي عبيده سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م^(٤)، ولكن الإمام الزيدي عجز عن نصرتهم ضد علي بن مهدي،

(١) سليمان بن يحيى التقي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٣٤-٢٣٦.

(٢) سليمان بن يحيى التقي : المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٣) سليمان بن يحيى التقي : نفس المصدر، ص ٢٣٥.

(٤) رأى الإمام قتل فاتك بن محمد لأنه يرمي بالأبنة (عيب خلقي أو شذوذ جنسي) والتمكين من نفسه حتى حكى-

فتركهم وعاد إلى نمار^(١).

والتساؤل الذي يفرض نفسه الآن ... لماذا أحجم الإمام الزيدي أحمد بن سليمان عن مناصرة النجاشيين ؟

فبعد قتل فائق بن محمد وصل الإمام وجيوشه إلى زبيد وأقام فيها ثمانية أيام^(٢)، وجعل زبيد المنتصرة بغير قتال، وجعل على زبيد رجلاً من بني جياش يقال له محمد بن نجاح، وكانت قواد النجاشيين تنفق على عسكر الإمام مدة إقامتهم في زبيد، وأما الإمام وخاصته فإنه كان ينفق عليهم من ماله.

وكان بعض قواد الأمير فائق قد اغتصب كمية كبيرة من مال فائق فاستجار بالإمام، فاجتمع قواد النجاشيين، وقالوا إن مع هذا مال ملك زبيد، فقال لهم : " يكون معه مال من كان، فقد أجرته وما معه ". وهذا بالطبع لم يعجب القواد النجاشيين. وكذلك تقاعس قوم من الجنبيين والخولانيين أصحاب الإمام من الاتجاه لمحاربة ابن مهدي بسبب حدوث خلاف بينهم وبين أهل زبيد.

حدث ذلك عندما حاول الإمام الخروج إلى رمع للاتجاه لمحاربة ابن مهدي حيث تأخر بعض أصحابه في زبيد وتقاعدوا عن الخروج للحرب، فأغلق عليهم أهل مدينة زبيد الباب ولم يفتحوه إلا بعد مخاطبة الإمام لهم، وقد أخذوا خيلهم وسلاحهم فهم الإمام لمحاربتهم ولكنه تركهم وعاد إلى نمار.

ونتيجة لذلك تراجع الإمام الزيدي أحمد بن سليمان عن مناصرة النجاشيين^(٣).

= أنه كان يعقد بريماً (حبل فيه لونان مزين بجوهر، تشده النساء على الوسط والعضد) على بطنه تشبهاً بالنساء، فقتله الإمام حداً، بعد أن بُذل له في تركه مال فأبى، وقال : " لو أعطيتهموني في تركه ملك زبيد لم أقبله "، وذلك عندما شعر الأمير الحبشي بالخطر أرسل بعض جواريه بغيره إلى الإمام على أن يعزله ويولي سواه، فلم يقبل من الفدية فكسرت رقبتة، ورمى قومًا كانوا معه يفعلون المنكر بالحرايب.

سليمان بن يحيى الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٣٦؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣١٢؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٤٢.

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٢؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ص ٢٧٦؛ الخزرجي : العسجد، ق ١٦٢؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢، ١٢٣؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٢، ١٥٣؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص ٥٠، ٥١.

(٢) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ غاية الأمان : نفس المصدر، ص ٣١٢؛ سليمان الثقفي : المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٣) الواسعي اليمني : تاريخ اليمن، ص ١٧٤؛ سليمان الثقفي : نفس المصدر، ص ٢٣٨؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩٨؛ المجلة للتاريخية المصرية : دولة حبشية في اليمن، ١٩٥٩م، ٨، ص ١١٦.

استيلاء علي بن مهدي على مدينة زبيد وتوطيد سلطانه عليها :

ازدادت أمور مدينة زبيد تعقيداً بعد قتل أهلها لمولاهم فائق بن محمد، حيث أدى ذلك إلى عدم الاتفاق فيما بين رجال الدولة النجاشية حول تولي الإمارة، فضلاً عن عدم اتفاقهم حول من يتولى قيادة الجيش والوزارة. فبسبب ذلك عدم مقدرتهم مقاومة زحف علي بن مهدي وجيشه على زبيد فأتاح بذلك فرصة لعلي بن مهدي أن يجهز جيشاً جراراً ويتجه به إلى زبيد، حيث تمكن من دخولها في يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رجب سنة ٥٥٤هـ/ يوليو ١٥٩م^(١)، استولى عليها قهراً بالسيف.

وباستيلائه على مدينة زبيد زال ملك آل نجاح وأتباعهم، وانقرضت دولتهم، وبدأ قيام دولة بني مهدي^(٢).

وفي ذلك يقول ابن مهدي^(٣) :

عناق العتاق الصافنات السوابق	الذ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا بالليل فوق ظهورها	الذ إلينا من رقاد النمارق
وما العز إلا في صها كل صاهل	من الخيل لا في صهوتي كل ناهق

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٦؛ الحمزي : كنز الأخبار، ق ٩٠؛ الخزرجي : العسجد، ق ١٦٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص ٥٠؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج ٢٠، ص ٣٢٢؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج ٣، ص ٣٥.

(٢) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : الفضل المزيّد، ص ٧٥؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٣؛ الجندي : السلوك : ج ٢، ص ٥١٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٣؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣١٢؛ ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢١٩؛ ابن الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٨١؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٤٠؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٤٣؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ٢٠٠؛ جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة، جدة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٨٩.

R. Smith : Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, p. 134; The New Encyclopaedia Britannica : Yemen, Volume 13, p. 819.

(٣) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

هذه أجزاء من قصيدة طويلة قالها علي بن مهدي عندما دخل زبيد.

صُها : جمع صهوة وهو من ظهر الفرس مقر سرجة ومقعد الفارس. ابن منظور لسان العرب، م ٧، ص ٢٩٩.

الطُلا : بالضم هو العنق. ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٢٥٨.

وما طلعت أسيفنا من غمودها
أدركنا على درب الحصيب صواعقا
بجيش كجيش العبير عزمهم
صدمنا بجيش الخيل باب سهامها
وسالت نواصيها على باب قرتب
على بابها الغربي كان حصادهم
تركنا عليهم في زييد بوائقا
أنا السيد المهدي والفيلق الذي
له حكم داود وسورة يوسف
فتغرب في الطللا والمقارق
يحساكي صداها موبقات الصواعق
يعم إكسام الأرض مثل السماتق
ودارت على درب الحصيب الغلافق
ولم تال أن حالت بيباب الشبارق
وأسيافنا فيها حصاد المناق
بها نسبوا ما استنسبوا من بوائق
يمزق يوم الروع شمل الفيالق
وحكمة لقمان وملك العمالق

وجدير بالذكر أن نوضح العوامل الهامة التي ساعدت علي بن مهدي في الاستيلاء على مدينة زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م.

أولاً : علاقته بأصحابه أي أتباعه، فقد أطاعوه طاعة عمياء وجعلوه في مصاف الأنبياء^(١)، فكان علي بن مهدي (إذا غضب على رجل من أكابرهم وأعيانهم حبس نفسه في الشمس ولم يطعم ولم يشرب ولم يصل إليه ولد ولا زوجة، ولا يقدر أحد أن يشفع فيه حتى يرضى عنه ابتداءً من نفسه)^(٢).

ثانياً : استغلال علي بن مهدي حب الناس للدين في صورته والتضحية في سبيله فالأزمهم طاعته لتحقيق مطامعه السياسية عن طريق الدين، في حين أن الناس كانوا يعتقدون امتثالاً وطاعة للدين نفسه، فصدقوه بكل ما يقول وأطاعوه طاعة عمياء، فكان يلهب حماسهم بحسن منطقه وبلاغته وسحر بيانه، بأن الحق معهم^(٣).

وبهذا التأثير حقق علي بن مهدي الوصول إلى هدفه السياسي والديني معاً في إسقاط الدولة النجاشية واستيلائه على مدينة زبيد وإقامة دولته منها.

(١) ابن أسير : الجواهر الفريد، ص ٢٧٤؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ٥١٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٦؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٦؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٦٢.

(٢) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة؛ الجندي : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) فما لهم غير الدماء مشارب وما لهم غير النفوس مطاعم

كلن الوغي قد صار في أنفاس الوري هياماً فمن يقتل يمت وهو هائم

أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

كذلك استخدم علي بن مهدي أسلوب الشدة في معاقبة من ينضم إليه لمعرفة من يستطيع أن يتحمل الصعاب معه ويصبر على المتاعب ابتداءً من تدريبه على الوقوف بالشمس لفترات طويلة ولم يطعمه ولم يشربه ولم يصل إليه ولده ولا زوجته^(١)، وانتهاءً بالصمود في المقاتلة المستميتة ضد الدولة النجادية، إذ أنه من يستطيع أن يتحمل حرارة الشمس وعدم وصول ولده وزوجته إليه، يستطيع أن يصمد في المعركة القتالية^(٢).

وكان يفرض على أتباعه من المهاجرين شروطاً عسيرة لإثبات ولائهم له، بأن يأمر الواحد منهم فيطيع، بقتل أبيه أو أمه أو أخيه أو ابنه، تأويلاً منه لقوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾^(٣).

كذلك سيطر على أمور معاشهم بأن ألزمهم تسليم ما تغزل نساؤهم وبناتهم إلى بيت المال والترم هو بكسائهم جميعاً^(٤)،

فأوجد بذلك نظاماً تعاونياً يدفع كل فرد من أصحابه ما لديه من الأموال النقدية والعينية يشرف هو عليه ويتصرف به ويوزعه كيفما شاء^(٥).

ومن الواضح أن هذا النظام الذي كان يطبقه علي بن مهدي أثناء بقائه في الجبال وهو يحارب النجانيين، وعندما سيطر على مدينة زبيد ووطد سلطته عليها، ترك العمل بهذا النظام، إذ أصبح لدولته موارد مالية ثابتة يدفعها الناس إليه سنوياً وأصبح للجند مرتبات وليست له حاجة إلى التبرعات التي كان يدفعها أصحابه إليه، وإنفاقها لمن يحتاجها من أصحابه.

وبعد أن أسس علي بن مهدي دولته في زبيد لم تطل مدة حكمه حيث أنه توفي في ٦ شوال في نفس السنة ٥٥٤هـ / أكتوبر ١١٥٩م^(٦)، أي بعد أن حكم فيها شهرين وواحد وعشرين يوماً.

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٦.

(٢) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ١٩٩، الحياة السياسية في اليمن، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) سورة المجادلة، آية ٢٢.

ويذكر عمارة : " أنه كان يعرف صبيّاً من المهاجرين كان جاراً له، وكان يتفق معه، راحت والدته إليه تزوره فذبّحها ". المصدر السابق والصفحة.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٦، عمارة : نفس المصدر والصفحة.

(٥) السروري : المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٦) ابن أسير : الجواهر الفريد، ق ٢٧٧، عمارة : نفس المصدر، ص ١٥٣، ابن الديبع : الفضل المزيّد، ص ٧٥؛

ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢٢٠، ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢٣.

دُفِنَ علي بن مهدي في موضع كان أوصى به لولده مهدي أن يدفن فيه، وأن يُجعل مسجداً جامعاً يُصلّى فيه الجمعة نظيراً لما فعلته الحرة الملكة بذي جبلة وسُمي ذلك الموضع بالمشهد^(١)، وبنو علي قبره قبة صفحت جدرانها بالذهب والجواهر الثمينة وستائر الحرير^(٢).

تولى مهدي^(٣) بن علي بن مهدي الحكم وقبض على زمام السلطة مع أخيه عبدالنبي، بعد وفاة والده، فتولى مهدي قيادة الجيش والسرايا، وتولى عبدالنبي أمور الدولة^(٤).

طبق مهدي وعبدالنبي أول قوانين عسكرية أنشأها والدهما في اليمن، استطاعا أن يسيطروا على الفوضى العارمة، والقضاء على السلطنات والمشيكات والدويلات التي كانت تعيش نهباً وغصباً واستهتاراً؛ وإن كانت بلغت من العنف والقسوة مبالغ لم يعرف له نظير في تاريخ الشعوب من قبل.

وأخذ مهدي عن والده العناد والتجبر والمذهب أيضاً، فقابل المنكر بالمنكر ونهى عنه بما هو أنكر^(٥).

المرحلة الثالثة :

ولي مهدي بن علي بن مهدي^(٦)، بعد وفاة أبيه وقام بتوسيع نطاق دولته في الاستيلاء على

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٧؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣١٣؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٥٨٣؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٤٣.

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٥٩؛ جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص ٨٩؛ أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، هامش ١٤٥.

خرب بنو مهدي جامع الأهواب — فرضة المراكب الواصلة من عدن — ونقلوا أخشاب الساج التي جلبت من الهند إلى المشهد الذي بنوه لأبيهم في زبيد، وقد خرب المشهد بعد ذلك وجعل اسطبلًا لبعض السلاطين الأيوبيين، ثم سمي معقاب عاتكة جعلت فيه محامل السلطان وغيرها من آلاتهم، ثم خرب ولم يبق منه إلا المنارة التي سقطت على عهد بني رسول سنة ٨٣١هـ "الملك الظاهر الغساني".

(٣) كان مهدي بن علي يلقب بالملك الغشوم، الأجبّة بن الأجبّة والقطب بن القطب وتعني هذه الألقاب أنه ذو سلطان على قومه بنسبه وخطوته وتوارثه للحكم. ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢٢٠؛ أحمد بن محمد الشامي :

(٤) الخزرجي : العسجد، ق ١٦٤؛ Lane, Poole : Mohammadan Dynasties, p. 96.

(٥) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٥١٩؛ ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢٢٠؛ أحمد بن محمد الشامي : تاريخ الفكر اليمني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، السفر الأول، ص ٤٤٦.

(٦) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٢؛ الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٥؛ عمارة : المغيد، ص ٢٣٣.

المناطق التابعة لدولة بني زريع، فجهز جيشاً كبيراً وخاض به حرباً كبيراً في العديد من المناطق، من ضمن ذلك اغار على لحج مرتين أحدهما في شهر شعبان من سنة ٥٥٦هـ/ يوليو ١١٦١م، والثانية في شهر رمضان سنة ٥٥٨هـ/ أغسطس ١١٦٣م، فقتل في هاتين المعركتين أعداد كبيرة من أهل لحج وسبى للحريريم، كما نهب الأموال الكثيرة^(١).

وقال في ذلك الشاعر الهبيني " شاعر بني مهدي " :

أشرب الخمر في ربا عدن والبيض والسم في الحبيب ظمأ
كلا ومهدي فارس بطل وصدر حيزوم يملأ الحزما^(٢)

في ذلك الوقت خافه الداعي عمران بن سبأ الزريعي حاكم عدن فعقد مهادنة مع مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملة بمال محدد يؤديه إليها سنوياً على ألا يتعرض له ولا لبلاده^(٣)، فكانت الدولة الزريعية في ذلك الوقت تعاني ضعفاً في صفوف الجيش الذي كان يعييه عدم التنظيم والتجهز لمواجهة جيش مهدي بن علي، لما كان يضمه لكثير من القبائل الغير مدربة عسكرياً، فمن هنا تظهر عدم مقدرة الدولة الزريعية على مواجهة مهدي بن علي وقواته^(٤).

استمر مهدي بن علي في التوسع والسيطرة على المناطق المتعددة، فاتجه بالهجوم على اليمن الأسفل من الجنوب، وكذلك نحو مدينة الجند فحاصرها ١٤ يوماً ثم دخلها بالقوة في ذي القعدة من سنة ٥٥٨هـ/ أكتوبر ١١٦٣م، بعد أن رفض أهل مدينة الجند التسليم له وطاعة أوامره، فقتل كل من وجد بها من صغير أو كبير ورماهم في بئر المسجد الموجود بها، كما أحرق أغلب دورها، وأحرق المسجد على من فيه من الضعفاء والعجائز والعواكف العزل من السلاح، بعد أن هرب رجالها، وأحرق الكتب والمصاحف والأموال التي كانت في المسجد وتركها خاوية على عروشها^(٥).

(١) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٤؛ ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٧٦؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان،

ص ٣١٥؛ اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م،

ط ٢، ج ٣، ص ٣٢٢؛ العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، ص ٦٣.

(٢) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام وقيل ما استدار بالصدر والبطن. ابن منظور : لسان العرب،

ج ٤، ص ١٠٨؛ الخرما : الفرس. ابن منظور : لسان العرب، ج ٤، ص ١٠٨.

(٣) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨.

(٤) عمارة : المفيد، ص ٢٣٣؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٠١.

(٥) الخزرجي : المضدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ محمد عبدالعال :

الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٦٣.

لم يقدر أحد من الناس على ردع مهدي لحرق المسجد بمن فيه قائلاً لهم : " قد استوجب النار لأنه قد خطب على منبره الإسماعيلية فهم أنجاس ينجس الجامع بذكرهم، وكل من هو نجس طهر وقد طهرناه بالنار "(١).

اتجه مهدي بعد ذلك إلى المغرب أو العربة^(٢) والذنبتين^(٣) القريبتين من الجند، وقتل أغلب أهل العربة، أما أهل الذنبتين، فحاولوا الهرب والتخفي وراء أحد الإكام ذي عراكض^(٤)، إلا أن مهدي وجيشه تبعهم فقتل الكثير منهم. كما استولى بسهولة على بعض الحصون المحيطة بالجند مثل الحرّيم وحلّمة وریشان من السلطان علي بن أبي الفتوح الوليدي^(٥)، وتعرّض وصبر شراء من أحمد بن منصور بن المفضل بن أبي البركات^(٦).

وبعد أن نشر مهدي الخوف بين الكثير من الناس في العديد من المناطق، كان يسعى لتوسيع نفوذه، لولا أن داهمه المرض، فعاد إلى زبيد وقد أصابته طائفة^(٧) تقطر منه جسمه بعد أن ظهرت فيه شبه إحراق النار بحيث أنه لم ينزل تعز إلا بمحفة قد فرشت بالقطن المندوف، وعند وصوله زبيد أقام بها أياماً، ثم توفي في يوم الأحد الثامن عشر من شهر المحرم سنة ٥٥٩هـ / نوفمبر ١٦٣م، وقبر مع أبيه في مشهده^(٨).

بعد وفاة مهدي بن علي بن مهدي تولى أخوه عبدالنبي الأمر^(٩)، ولكن أخاه عبدالله انتقض

(١) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص ١٣٦.

(٢) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٤٨.

العربة : قرية عامرة جنوب مدينة الجند بمسافة قرابة ميلين. المقحفى : معجم البلدان اليمنية، ص ٤٣٧.

(٣) الذنبتين : قرية من بادية الجند. المقحفى : معجم البلدان اليمنية، ص ٢٥٢.

(٤) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٤؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٠٢.

ذي عراكض : قرية كبيرة قبلي الذنبتين. الجندي : المصدر السابق والجزء، هامش ٥١٩.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٢.

(٦) ابن وهام : الكفاية والإعلام، ق ٤٨.

(٧) طائفة : هو ما يسمى بداء الطير وفي الطب الحديث الزهري. الجندي : نفس المصدر والجزء، هامش ص ٥١٩.

(٨) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٢؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٧؛ الخزرجي : المسجد، ق ١٦٥؛

ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٠؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٨٣؛

Derenbourg : Oumara du yemen, vol 2, p. 566.

(٩) ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : بهجة

الزمن، ص ١٢٣؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ص ٥٨٢، ٥٨٣.

عليه، وغلبه على زبيد، وخطب له بالإمامة^(١)، ولكن عبد النبي استطاع إخراجه من زبيد، واستقر بالحكم على زبيد من سنة ٥٥٩هـ - ٥٦٩/١١٦٣ - ١١٧٤م.

كان عبد النبي يُلقب بالفارس الشجاع، الشاعر، الأديب^(٢)، كما اُتُصِفَ بأنه من أنجد الأبطال^(٣)، ويعد من أهم رجالات دولة بني مهدي، حيث أنه ظل عشر سنوات مستقلاً بالسلطة يلتهم المشيخات والسلطنات اليمنية وذاع صيته فيها من الجزيرة العربية إلى بغداد والشام ومصر والمغرب العربي.

فما إن تسلم عبد النبي السلطة بعد أخيه، اتجه إلى التوسع في الاستيلاء على المناطق المتعددة، فسار إلى منطقة " أبين " التابعة لبني زريع، فأحرق أحد قراها المعروفة " بالضربة " في شهر صفر سنة ٥٥٩هـ / ديسمبر ١١٦٣م^(٤)، وقتل الكثير من أهلها ثم عاد إلى زبيد^(٥).

وفي سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م أعد عبد النبي جيشاً كبيراً واتجه به نحو المخلّاف السليماني شمال تهامة، فقاتل أهلها قتالاً شديداً حتى قتل الكثير منهم، ومن ضمن من قتلهم الأمير الشريف وهّاس بن غانم بن يحيى بن حمزة بن وهّاس السليماني^(٦). فضلاً عن ذلك أنه أخذ الكثير من أموالهم وسبى العديد من نسائهم^(٧).

(١) ابن خلدون : العبر، ج٤، ص٢٢٠؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٩؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٦١.

(٢) اليماني : تاريخ اليمن، ص١٧٤؛ الشامي : تاريخ اليمن الفكري، ج١، ص٤٥١.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص١٥٩.

(٤) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق٢٧٧؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ الخزرجي : العسجد، ق١٦٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٧٦؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٩؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٤٩.

(٥) بامخرمة : المصدر السابق، ص١٥٩.

(٦) الشريف وهّاس تم تهديده بالقتل من قبل المهدي بن علي ولكنه لم يُقتل إلا على يد عبد النبي.

ابن أسير : المصدر السابق والصفحة؛ يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة؛ الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٧٧؛ بامخرمة : نفس المصدر والصفحة؛ اليماني : المصدر السابق والصفحة؛ الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص٨١.

R. Smith : Studies in the Medieval history of The yemen, p. 133.

(٧) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص٣١٦؛ الجندي : نفس المصدر والجزء والصفحة؛ اليماني : نفس المصدر والصفحة.

وفي مقتل الشريف وهاس قال عبدالنبي في قصيدته^(١) :

يَمِينٌ طَلَسُوا بِسَالِحِي كَسَانُ كُسَيْنٍ مُعَلَّمَا
يلقي بها المصلما^(٢) والأحقاب المكثما^(٣)

ثم بعد أبيات قال :

لَسَوْتَ بُوَهَّاسٍ ضُحِي فابتدرت به مرحما
يظل من تحت الرخسي مضرجا مرغما

أورد المؤرخون أخبار هذه الغزوة على المخلاف السليمانى وأحداث القتال وأقوال الشعراء وما كان من نتائجها دون أن يذكروا لها سببا. حيث كان بين عبدالنبي والشريف وهاس بن يحيى ابن غانم مهادنة^(٤)، على أن يعطيه ابن وهاس مالا ليأمنه، ولكنه باغت الشريف على غره، وليس معه غير عبيده وأهل المدينة وليس له حصن يلجأ إليه، فانقض ابن مهدي وأصحابه على أهل الساعد^(٥) مدينة الشريف ابن وهاس وكان في مقدمة عسكر ابن مهدي أحمد بن علي الحرامي ورؤساء من الحكميين^(٦) الذين انضموا لابن مهدي.

عندما بلغ الإمام أحمد بن سليمان مقتل الأمير وسبي الحريم ساءه ذلك واغتم غما شديداً، وقال : " لا رحم الله وهاساً لقد كان لنا غمّاً وعاراً في حياته ومماته "، ثم كتب إلى أخيه الأمير قاسم بن غانم يُعزّيه ويؤنبه وبني هاشم كافة بقصيدة أولها^(٧) :

(١) ابن خلدون : اليمى في تاريخ ابن خلدون، ص ٦٠٣؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٠.

هذه القصيدة بلغت ست وأربعين بيتاً في تاريخ الخزر جي، واحتوت هذه القصيدة على معاني كثيرة رثي فيها عبدالنبي والده وأشهد به فضله في تمام قيامه بهذا العمل.

(٢) المصلم : بتشديد اللام مقطوع الأذن أو الأذنين. مادة صلم، ابن منظور : لسان العرب، ج ٨.

(٣) الأحقب : حمار الوحشي. مادة حقب، ابن منظور : لسان العرب، ج ٤، ص ١٧٣.

المكثم : المعضض لأنه مشتق من الكتم الذي هو العض بأدنى الفم. مادة كثم. ابن منظور : لسان العرب، ج ١٣، ص ٣٤.

(٤) المطاع : تاريخ اليمى، ص ٣٤٩.

(٥) الساعد : هي قرية أرض حكم بن سعد العشيرة بتهامة وبنو الحكم من بطون منحج، لهم مواطن بالمخلاف السليمانى. ياقوت : معجم اللدان، م ٣، ص ٩.

(٦) ذهب مشايخ الحكميين مثل أبي بكر وعلي بن عمرو إلى ابن مهدي ووعده بأنهم منه وإليه. سليمان بن يحيى الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٥١.

(٧) سليمان الثقفي : المصدر السابق والصفحة.

هو الدهر يرضي أهله ثم يغضب
ويبني لهم حيثما وحيثما يخرب
ومنها :

كفعل ابن مهدي اللعين وحزبه
وما أظهروا من منكر في تهامة
ومنها :

وصالوا على الوهاس غدراً وبينه
والفوة في قوم قليل وقومه
وبيّنهم عقود ولم يتطّبوا
كثير وهم في أرضهم عنه غيب

والجدير بالذكر أن الأشراف السليمانيين تصدوا بشجاعة لعبد النبي وجيشه بينما هاجمهم عبد النبي وجيشه بعنف شديد وهزمهم شر هزيمة وانتهت هذه الغزوة بقتل الكثير من الأشراف ومنهم الأمير وهاس بن غانم وولده، ومطاردة كثير من الأشراف، وكان لوقع هذه الغزوة صدى كبير في تغيير مجرى تاريخ دولة بني مهدي فيما بعد، حيث أن هذه الواقعة من الأسباب التي أودت بكيان دولة بني مهدي في زبيد.

في غرة شهر ربيع الأول من سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م أرسل عبد النبي أخاه أحمد بن علي ومعه الجيش الكبير إلى الجند لعمارة المدينة ومسجدها، فابتدأ أحمد في عمارتها يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الأول، فأقام يُعمرها إلى آخر الشهر^(١)، وخرج أحمد بن علي بعد إكمال عمارة الجند لمقاتلة بني زريع، حيث اتجه نحو منطقة " الجوة " قرب الدملوة وكان بها جيش الداعي عمران فحاربهم أحمد حتى هزمهم ثم دخل " الجوة " وأحرقها^(٢).

وسبق لأحمد أن أغار على الجوة في بعض الأعياد، وظفر بأهلها، يؤمّنذ قال الشاعر الهبيني في ذلك^(٣) :

بكرت نكل الكماة رافعا
من آل مهدي مما لحازما
وكذلك ليس تروق ابنية الملا
إلا إذا كنتم لهُنّ دعائما
صبحت أكناف الجواة بغارة
شعواء طبقت الحماة جماعما

(١) ابن الديبع : الفضل المزيّد، ص ٧٧.

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٦؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٧؛ بامخرمة : تاريخ نجر عدن، ص ١٦٠؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣١٧؛ السروري : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص ٢٥٢؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٥١.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ المطاع : المرجع السابق، ص ١٥٢.

وحرمتمهم فيها مطاعم غيدهم وتركتمهم للمهنفـات مطاعمـا

اتجه عبدالنبي بعد ذلك نحو عدة مناطق في اليمن الأسفل وذلك في جمادي سنة ٥٦١هـ/ مارس ١١٦٦م، فاستولى على " تعز " وجبل صبر المطل عليها، و" شرياف وتالبة " (١)، ثم عاد إلى مدينة زبيد وفيها استكمل استعداداته العسكري، واتجه لغزو مخلاف جعفر (٢)، متقدماً جيشه على رأس جموعه إليه في سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م، واستولى فيه على حصن المجمعـة في مخلاف الشوافي، كما استولى على مدينة " إب " ثم حصن الشماحي، المطل على مدينة إب من جهة الشرق وغيرهما من الحصون والبلدان الأخرى (٣).

ساعد هذا التوسع عبدالنبي بن علي بن مهدي في ازدياد نفوذه وسلطته ليس على زبيد فقط بل على اليمن بأسره، ما عدا عدن فإن أهلها هادنوه عليها بمال في كل سنة.

وننتج عن هذا التوسع في دولة بني مهدي في عهد عبدالنبي أن غنم الكثير من الأموال فانتقل إليه ملك جميع ملوك اليمن وذخائرها، وبلغ الاتساع أقصاه، حيث أنه حصل في خزائنه (٤) ملك خمس وعشرين دولة من دول أهل اليمن (٥)، ومنها أموال زبيد، وما من عبيد فانتك وجهاته وأعيان دولته، إلا من مات عن أموال جلييلة من العين جلييلة (صار جميع ذلك إليه).

لأنه ملك الذراري والنساء، فأظهروا له كنوز مواليتهم، وكذلك المصوغ، واللؤلؤ والجوهر، واليوافيت الفاخرة، والملابس الجلييلة على اختلاف أصنافها وكانوا كما قال الله تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ (٦) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (٦) كَذَلِكَ وَأَوْزِنْنَاهَا الْقَوْمَا آخِرِينَ (٦) ﴾، صدق الله العظيم.

وانتقل إليهم ملك بني وائل سلاطين وحاطة، وكذلك معاقل من بقي من بني الصليحي، وكل معقل منها له أعمال واسعة، فاستولى على ذخائر الداعي علي بن محمد الصليحي وذخائر المكرم

(١) شرياف : حصن في عزلة بني عيسى من جبل نُحْر في غرب تعز. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص ٣٥٤.

تالبة : جبل وحصن في غرب تعز. ابن الديبع : قرة العيون، هامش ص ٢٦٧.

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٣؛ الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٦.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمان، ص ١٢٣.

(٥) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة.

(٦) سورة الدخان، من الآية ٢٥-٢٨.

ن علي زوج الملكة السيدة، وذخائر الحرة الملكة زوجته، التي أودعت ذخائر وكنوز الصليحيين
حصن التعكر^(١).

كذلك انتقل إلى ابن مهدي حصن المَجعة وأمواله، وحصن التعكر وأمواله، ومدينة ذي جبلة
في مقر الدعوة الفاطمية، وكُرسي الملك لبني الصليحي، وأيضًا مدينة الجند وأعمالها، ومدينة
نبة وشرياف وذخِر وأعمالها، كذلك مُلك بني الزر^(٢)، ومدينة ذي أشرق ومدينة إب وحصون
نولان، وبلادها وحصون ربيعة وهي عَزَّان وحب والشماحي، وأخذ حصن السَّوا لابن السَّبَّائي
لخولاني، واستولى على معاقل الداعي عمران بن محمد، وهي حصن سَامِع ومطران وحصن
مين، وهذه الحصون بإقليم المعافر، وانتقل إليه معقل اليمن، الذي ليس بعد حصن التعكر وحب
سواه، وهو حصن السمَّدان، وهو حصن منيع لم يقدر عليه أحد من قبل^(٣).

كذلك استولى عبدالنبي بن مهدي على بلاد بني المظفر سبأ بن أحمد الصليحي، وإقليم
حراز، وبرع، وبلاد بكيل وحاشد، وحصونهما وأعمالهما، وحلية وادي عنة في العُدين، وأيضًا
وادي زبيد وجبال وادي رَمَع وريمة الأشاعر وحصونها ومعاقلها وقراها والمذيخرة وأعمالها،
ودَمَت ووادي نخلة^(٤).

وهكذا بلغت دولة بني مهدي أقصى اتساع لها في عهد عبدالنبي بن علي : ـ مهدي وأوضح
ذلك عمارة بقوله : " واجتمع لعبد النبي هذا ملك الجبال والتهائم وانتقل ملك أغلب ملوك اليمن
وذخائرها إليه " ^(٥).

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٤.

(٢) يذكر عمارة أنه بعد كل الذي ذكره : " وهذا الذي سميته نقطة من بحر ما ملك ابن مهدي ". المصدر السابق،
ص ١٥٥.

(٣) الخزرجي : العسجد، ص ١٧٣؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٣-٢٣٦؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٨؛ ابن
عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة، ١٢٥؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٩١.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٧٤؛ عمارة : نفس المصدر، ص ١٥٤، ١٥٥؛ ابن الديبع : قرة العيون،
ص ٢٧٣؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٠٤؛ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن،
ص ٢٥٢.

(٥) عمارة : نفس المصدر، ص ١٥٣.

العلاقات السياسية لدولة بني مهدي مع حكام اليمن :

أولاً : مع دولة بني زريع (٥٣٢-٥٦٩ هـ / ١١٣٧-١١٧٤ م) :

بدأت علاقة دولة بني مهدي بالدولة الزيرية بزيارة علي بن مهدي للداعي^(١) محمد بن سبأ بمدينة ذي جبلة سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م^(٢) في وقت كان فيه الداعي عظيم القوة والبأس بعد استيلائه بالقوة والمال على كثير من أنحاء اليمن.

فقد استتجد ابن مهدي بالداعي على أهل زبيد، لكن الداعي رفض التعاون معه في احتلال مدينة زبيد^(٣)، فرجع ابن مهدي خائباً، ولعله رفض مساعدته لإدراكه مدى مطامع ابن مهدي التي كانت أوسع من ذلك، وهذا يعني أنه سيسبب للداعي مشاكل كثيرة في حين أن الداعي كان على علاقة طيبة مع جيرانه من الإمارات اليمينية، وأيضاً كانت علاقته التجارية جيدة مع زبيد.

وبعد كثير من الأحداث تمكن علي بن مهدي من دخول مدينة زبيد وقضى على الدولة الحبشية (النجاحية) في يوم الجمعة ١٤ رجب ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م^(٤)، وبذلك أسس دولة بني مهدي في زبيد، ولكنه سرعان ما مات في ٦ شوال من سنة ٥٥٤ هـ. وذكر في بعض الروايات أنه كان من المسرفين ومن سعوا في الأرض فساداً^(٥).

كانت وفاة علي بن مهدي سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م بدايةً لمرحلة من المشكلات والمتاعب التي أحاطت بالداعي عمران بن محمد بن سبأ، فكان لظهور مذهب ابن مهدي أثره في قيام تلك المشكلات.

كان علي بن مهدي على مذهب أبي حنيفة في الفروع، ثم أضاف لعقيدته التكفير في

(١) هذا اللقب يدل على أنه كان يدعو باسم الفاطميين في عدن وتوابعها من الأجزاء الخاضعة لسيرته وكان هذا اللقب وراثياً عن بني زريع منذ عهد الداعي سبأ بن أبي السعود الذي كان أول داع من بني زريع. ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢١؛ محمد كريم : عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٦ هـ / ١٠٨٣-١٢٢٨ م، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٥ م، ص ١٧٥.

(٢) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٥؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٤) إدريس : نزهة الأفكار، ق ٧؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص ١٠٧؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٥؛ الفضل المزيدي، ص ٧٥؛ ابن عبدالمجيد : نفس المصدر، ص ١٢٣؛

Lane Poole : Mohammedan dynasties, p. 92.

(٥) ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٧٥.

المعاصي وكان على مذهب الخوارج^(١)، ونحن هنا لا نناقش في صحة هذه العقيدة ومدى التزامها بالمبادئ التي جاءت من أجلها، إذ إن المطامع السياسية كانت دائماً تغطي على المبادئ والمثل التي تنادى بها كثير من الجماعات التي اتخذت شكل مذاهب وعقائد دينية، لكننا نود الإشارة إلى خطر هذا المذهب في منافسة بني زريع الذين كانوا يدينون المذهب الإسماعيلي ويدعون لنشرها، وهذا يوضح مدى التأثير في العلاقات السياسية بين دولتين تدين كل منهما بمبادئ تخالف الأخرى.

فكانت علاقة مهدي بن علي مع بني زريع في عدن وتوابعها عدائية، لإغارته على لحج مرتين في شعبان سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، وفي رمضان سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، فقتل في هاتين المعركتين أعداداً كبيرة من أهل لحج وسبي الحريم وهب أموالاً جمة^(٢)، وترك خلفه أثراً عميقاً من الدم، دلالة على عنفه وسفكه للدماء^(٣).

لم يكتف مهدي بن علي بالإغارة على لحج فبعد خروجه من لحج اتجه إلى مدينة الجند التي كانت أيضاً ضمن مملكة بني زريع في عهد الداعي عمران بن محمد بن سبأ فحاصرها أربعة عشر يوماً ثم دخلها^(٤)، فقتل كثيراً ممن وجدهم فيها من صغير وكبير، ورماهم في بئر مسجدها، وأكثر من حريق دورها، كما أحرق مسجدها على من فيه من الضعفاء وخربه^(٥)، فهرب عنها سكانها بعد أن تعرضت لمقتلة عظيمة وذلك سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م.

كانت قوة مهدي بن علي كاسحةً ويبدو أن موقف بني زريع في عهد الداعي عمران بن محمد بن سبأ لم يكن حازماً، ولعل ذلك يرجع إلى عدم توازن القوتين المتنافستين، وأن مهدي بن علي قد أغرى القبائل بالأموال والغنائم من المناطق المفتوحة لذلك استمر في مواجهة أملاك الزريعيين^(٦)، وإشاعة الخراب والدمار والقتل فيها، وامتدت غزواته إلى تعز وإب والجند

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٦.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق ١٦٤؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٦؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ج ١،

ص ٣١٥؛ الحداد : تاريخ اليمن، ص ٣٤٨، ٣٤٩؛ محمد كريم : عدن، ص ١٧٨؛ محمد أمين صالح : دولة

الخوارج في اليمن، ص ١٣٦.

(٣) Bikhazi, Ramzi. J. : Coins of Al-yemen, 132-569, A. H., Al-Abhath, vol. xxiii. Nis. (٣)

1-4 (Beirut - December, 1970), p. 111.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٥٢.

(٥) ابن أسير: الجوهر الفريد، ق ٢٧٧؛ الكبسي: اللطائف السنية، ص ٢٨؛ ابن الديبع: المصدر السابق والصفحة.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦٣، ١٦٤؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨، ٥١٩؛ يحيى بن الحسين : -

والمعافرة، مما سبب إرباكًا وقلقًا شديدًا لأمرء عدن من بني زريع، وخاصةً أن جيش الدولة الزيرية كان يعاني من عدم التنظيم والضعف الذي جعله غير قادرًا على مقاومة مهدي بن علي وقواته^(١).

لذلك عمل الداعي عمران الزيري على مهادنة مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملة بمال محدد يؤديه إليه سنويًا، وذلك سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م^(٢). ولكن مهدي بن علي لم يلتزم بهذه الهدنة وأصبح تهديده متواصلًا لغز وعدن ولكنه لم يستطع ذلك.

ومن الجدير بالذكر أن مهدي بن علي اشترى حصني صبر وتعز من أحمد بن المنصور بن المفضل بعد توليه عليهما إثر وفاة أبيه منصور بن المفضل، وهذا يعني أن بني مهدي سيطروا على معظم أملاك بني زريع التي استولى عليها الداعي محمد بن سبأ بعد انتصاره على منصور بن المفضل وإرغامه على بيع معظم حصونه ومدنه سنة ٥٤٧هـ/١٥٢م، وبذلك حل بنو مهدي محل بني زريع في السيطرة على حصون ومدن الصليحيين.

بعد وفاة مهدي بن علي تولى أخوه عبدالنبي بن علي الحكم واقتضى سيرة أخيه مهدي، لذلك حاول بعد توليه الحكم، غزو عدن ولكنه لم ينجح في محاولته، فأمر أصحابه بالإغارة على أثين وأحرقها سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م^(٣)، كما أحرقوا قرية الضربة في شهر صفر سنة ٥٥٩هـ/ديسمبر ١١٦٣م^(٤)، ولاشك أن تلك الغزوة تؤكد عدم التزام عبدالنبي بالصلح الذي عقد بين الداعي عمران وأخيه مهدي، كما يتضح أيضًا النيات العدائية التي يضرها بنو مهدي حكام زبيد لبني زريع حكام عدن^(٥).

ولم توضح لنا المصادر موقف الداعي عمران من تلك الغزوة وكيفية مواجهتها. كانت خطط عبدالنبي تستهدف تنظيم الغارات على مدن الزيريين بغية إضعافهم فأغار على الجوة في

— غاية الأمان، ص ٣١٥؛ عبدالله الثور : هذه هي اليمن، ص ٢٩٦؛ شرف الدين : اليمن، ص ٢١٤؛ محمد

كريم : عدن، ص ١٧٨ Bikhaz : Coins of yemen, p. 111

(١) محمد كريم : المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) الخزرجي : المسجد، ص ١٦٣؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٣؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨؛ ابن السديع :

قرية العيون، ص ٣٦٥؛ محمد كريم : نفس المرجع والصفحة؛ السروري : تاريخ اليمن، ص ٢٠١.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن، ص ٥٢، ٥٣.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦٥؛ ابن السديع : الفضل المزيد، ص ٧٦؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص ١٥٩.

(٥) محمد كريم : نفس المرجع، ص ١٨١.

ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ/١٦٣م، فقتل من المدينة الكثير وترك وراءه أشلاء قتلاهم متناثرة في كل مكان^(١).

ويتضح لنا من هذه الغارات التي شنّها عبدالنبي على مدن الزريعيين، أنه كان يتمتع بقوة ضاربة لا تقدر الدولة الزريعية على ردّها. ومن هنا بدأت تتقلص أملاك الدولة الزريعية ورقعة نفوذ دولة بني مهدي في ازدياد مستمر متوجة بقوة غاشمة لا يقدر على مواجهتها أحد. وبعد وفاة الداعي عمران بن محمد وتركه أولادًا صغارًا، بدأ بنو مهدي في سلسلة من الهجمات على عدن أثناء إمارة ياسر بن بلال عليها^(٢).

ففي سنة ٥٦١هـ/١٦٦م أغار أحمد بن علي على الجوة، وهي كما نعلم من ممتلكات آل زريع وكان بها جيش الداعي عمران بن محمد بن سبأ، فوقع بينهما قتال شديد، انهزم على إثره جيش الداعي عمران، فدخلها أحمد بن علي وأحرقها^(٣).

استمر عبدالنبي في التوسع والغزو، فغزا مدينة ذي أشرق^(٤) التي كانت خاضعة لبني زريع فاستولى عليها وعلى البلاد التابعة لها، واشترى حصن التعكر من ولاية بني زريع سنة ٥٦١هـ/١٦٦م^(٥).

وفي سنة ٥٦٢هـ/١٦٧م استولى عبدالنبي على حصن المجمع ثم مدينة إب بعد حصار مخلاف جعفر والمجمع في شهر ربيع الأول من سنة ٥٦١هـ/١٦٦م فسيطر عليهما، وبذلك

(١) ياسر بن بلال كان القائم بعدن، أي أميرها والمدير لأمر البلاد، لذلك وصفه المؤرخون بأنه وزير عمران ومدير دولته، وتركزت سلطته بعد وفاة الداعي عمران فأصبح الحاكم الفعلي للبلاد بسبب صغر أولاد عمران (محمد وأبو السعود ومنصور) وعدم مقدرتهم على إدارة البلاد، واستطاع ياسر أن يكون له مكانة وشهرة ووصف بأنه رجل عظيم القدر مشهود الذكر وحازمًا حسن السياسة. ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٧.

(٢) ابن أسير : الجواهر الفريد، ق ٢٧١؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢١٨؛ العرشي : بلوغ المرام، ص ٢٨؛ عمارة : النكت العصرية، ص ٩٢؛ بامخرمة : ثغر عدن، ج ٢، ص ١٨٧؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص ٧١؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن، ص ٢٢٩؛ العبدلي : هدية الزمن، ص ٦٣.

(٣) ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٢٦٧؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٧.

(٤) ذي أشرق : بلدة في سفح جبل التعكر بالجنوب الغربي من إب؛ المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص ٣٢.

(٥) إدريس : نزعة الأفكار، ق ٣٢؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٣؛ محمد الحداد : تاريخ اليمن، ص ٢٣٠.

تكون الدولة الزريعية قد فقدت الكثير من مواقعها المهمة، فتقلصت رقعتها وضعفت كثيرًا^(١). أطمع هذا التوسع عبدالنبي لأن يستولى على عدن، وبالفعل حاصر أهلها مرات عديدة في محاولة للسيطرة والاستيلاء عليها^(٢)، ولكنه لم يوفق، فاتجه إلى بعض الحصون والمدن الزريعية الأخرى وتمكن من الاستيلاء على معقل الداعي عمران بن محمد، وهي : سامع ومطران ويُمّين وهي حصون إقليم المعافر، وحصن اليمن (السمدان) هو من الحصون المنيع^(٣).

إذن استولى عبدالنبي على كل أملاك الدولة الزريعية لاسيما عدن التي تمنعت عليه، والتي كانت تحت حكم ياسر بن بلال في ذلك الوقت، ولم يتضح لنا موقف ياسر بن بلال، حيث كان سلبًا في موقفه من عبدالنبي وهجماته على عدن ونعلل ذلك، بأن ياسر كان لا طائل له بقوة عبدالنبي ونفوذه، فوقف متفرجًا أو مستسلمًا للأقدار.

إذ كانت العلاقة بين دولة بني مهدي وبني زريع تتسم بالعداء الصريح وعدم التساوي في القوة، فدولة بني مهدي الأقوى عسكريًا، ودولة بني زريع الأقوى في النفوذ، مع بداية علاقتهما، وسرعان ما انتهت العلاقة بينهما بانتقال نفوذ الدولة الزريعية بكل أملاكها ومعقلها وحصونها إلى دولة بني مهدي، بعد معارك كثيرة غير متكافئة بينهما عسكريًا.

وتباينت العلاقة بينهما ما بين الحرب والمهادنة المشروطة بمال سنوي والتي لم يلتزم بها حكام بني مهدي، وتهاوى النفوذ الزريعي تدريجيًا مع كل حاكم زريعي إلى أن تقلص في عدن المدينة الوحيدة التي لم يستولى عليها بنو مهدي والتي أصبحت تحت حكم ياسر بن بلال بن جرير المحمدي.

وفي ذي القعدة ٥٦٨هـ / يونيو ١١٧٣م، اتجه السلطان حاتم بن علي بن سبأ الزريعي مستجذبًا بالسلطان علي بن حاتم اليامي حاكم صنعاء لمناصرته على عبدالنبي بن علي بن مهدي الذي عاود الحصار على عدن وذلك سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م.

(١) ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٦٨؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٧؛ ابن سمرّة، طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٣.

(٢) ابن الديبع : المصدر السابق الصفحة؛ الفضل المزيد، ص ٧٧.

(٣) عمارة : المفيد، ص ٢٣٥، ٢٣٦؛ الوصابي : تاريخ وصاب، ص ١٠٨؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن، ص ٢٢؛ الحداد : تاريخ اليمن، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

ثانيًا : دولة بني حاتم (٤٩٢-٥٩٠هـ/ ١٠٩٩-١١٩٤م) :

تمتعت إمارة آل حاتم بقوتها خلال حكم أسرها الثلاث " آل الغشيم " ، " آل القبيس " و " آل عمران " لصنعاء مدعومةً جميعها بقبيلة همدان التي ينتمي آل حاتم إليها نسبًا وعرقًا.

اهتمت إمارة آل حاتم بالسياسة الداخلية لصنعاء والأحداث التي واجهتها في صراعها مع الإمام أحمد بن سليمان " إمام المذهب الزيدي آنذاك " ، وصراعها كذلك مع الدعاة الإسماعيلية، وحرص كل من الجانبين على توسيع مناطق نفوذه^(١).

بعد وفاة حاتم اليامي ورثه في تولي السلطة في صنعاء ابنه علي بن حاتم وهو من أشهر من حكموا صنعاء من أسرة الياميين، إذ إن نفوذه امتد إلى الكثير من مناطق اليمن الأعلى مثل شبام كوكبان، وذيبين، وحرّاز والطويلة، والمحويت، وحصن أشيخ.

لم يبدأ الاحتكاك الفعلي بدولة بني حاتم ودولة بني مهدي إلا بعد أن استتجد السلطان حاتم ابن علي بن سبأ الزريعي بالسلطان علي بن حاتم لنصرته على عبدالنبي بن مهدي وذلك في ذي القعدة سنة ٥٦٨هـ / يونيو ١١٧٣م^(٢).

وعندما وصل الزريعي إلى صنعاء استقبله السلطان علي بن حاتم اليامي وأكرمه وأبدى استعداداه لمناصرته، حمايةً لدولته من التهديد المباشر له وللدولة الزيرية كدولتين شيعيتين من قبل عبدالنبي، ولكنه اشترط عليه اشتراك قبائل جنب ومذحج^(٣)، فإذا وافقت هاتان القبيلتان مع حاتم الزريعي على مناصرته، فسوف يأتي السلطان علي بن حاتم اليامي للمحاربة معهم.

ولعله اشترط ذلك الأمر لتوسيع التحالف القبلي وزيادة عدد قواته من أجل ضمان النصر على دولة بني مهدي، كذلك لأنه خشي على صنعاء من قبيلة جنب إذا هو خرج منها، فلم يتحرك من صنعاء إلا وقد ضمن ذلك.

ذهب حاتم الزريعي إلى ذمار وعنس حيث السلطان عبدالله بن يحيى والشيخ زيد بن عمرو وطلب منهما نصرته فأسرعا إلى إجابة طلبه، ذلك لأن هاتين القبيلتين من القبائل التي انزعجت من زيادة نفوذ عبدالنبي في اليمن والتوسع الكبير الذي وصل إليه. فكتب الزريعي إلى السلطان

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٠١-٣٠٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص ٧٦-٧٨؛ نصاري فهمي : العلاقات المصرية اليمنية على عهد الدولة الفاطمية والأيوبية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٤٦.

(٢) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ص ٣١٩ ؛

Robert W. Stookey : South yemen, Croomhelm, London, 1982, p. 27.

(٣) ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٦٨؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج ٢، ص ١٢٨.

ابن حاتم في صنعاء يخبره بموافقة قبيلتي مذحج وجنب على نصره الزريعيين^(١).

قرر السلطان علي بن حاتم السير بمن معه من الجيش إلى همدان وسنحان وبني شهاب ونهد وغيرهم، ونهض بهم لحرب عبدالنبي، فخرج من صنعاء بجموعه في شهر صفر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، حتى وصل ذمار ثم سار منها قبائل جنب ومذحج إلى التباشع من السحول فعسكر به في انتظار قبائل ذمار وعنس^(٢).

وعندما وصلت القبائل إلى السحول اتجه الجميع نحو جيش عبدالنبي في إب^(٣)، وكان عبدالنبي قد قسم جيشه في مخلاف جعفر إلى ثلاث فرق : إحداهما وضعها في قرية ذي جبلة، والثانية في أكمة الخيالي غرب ذي جبلة، والثالثة وضعها في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة^(٤). أما هو فأقام بحصن تعز.

اتجه جيش التحالف القبلي جميعه نحو أكمة الخيالي غرب ذي جبلة، فقاتل الفرقة الثانية من جيش ابن مهدي، وكان به أفضل عسكر عبدالنبي، وأسفرت المعركة عن هزيمة فرقة ابن مهدي بعد قتل الكثير منها وأسر نحو مائة رجل وغنيمة ما معهم من السلاح وستين فرساً^(٥).

وبات السلطان علي بن حاتم في " الخيالي " تلك الليلة، وفي اليوم التالي، اتجهوا جميعاً إلى مدينة ذي جبلة لمقاتلة الفرقة الأولى من جيش ابن مهدي، فلن تجد أحداً، ويبدو أن الهزيمة الأولى أحدثت أثرها في بقية قوات ابن مهدي هناك فتركت ذي جبلة ليلاً وتراجعت جيوش ابن مهدي لتلحق بعبدالنبي عند حصن تعز في المعركة الأخيرة.

استجارت جماعة منهم بدار الحرة أروى بنت علي بن عبدالله بن محمد الصليحي فأجارتهم^(٦). ولكن السلطان علي بن حاتم استولى على دار الحرة فأجارها، وأجار من لجأ إلى

(١) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق١٦٧؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص٩١.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص٣١٩؛ محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٦٥؛ السروري : الحياة السياسية في اليمن، ص٢٥٣.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص٢٦٨-٢٧٠؛ يحيى بن الحسن : المصدر السابق والصفحة؛ الجرافي : المقتطف، ص٥٣؛ أحمد المطاع : تاريخ اليمن، ص٣٥٢، ٣٥٣.

(٤) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة؛ ابن الديبع : المصدر السابق، ص٢٧٠؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص٣١٩، ٣٢٠؛ السروري : المرجع السابق والصفحة؛ تاريخ اليمن الإسلامي، ص٢٠٥.

(٥) الخزرجي : نفس المصدر والصفحة؛ يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص٣٢٠.

(٦) يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ص٣٢٠؛ المطاع : المرجع السابق، ص٣٥٣.

الدار.

وبذلك استولى التحالف القبلي بقيادة علي بن حاتم والزريعي على ذي جبلة دون قتال. وبعد إقامة قصيرة لجيش التحالف القبلي في ذي جبلة، اتجه نحو " الجند " ^(١)، فوصلها يوم الاثنين السابع من شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٩هـ / أكتوبر ١١٧٣م، ووجدها هي الأخرى خالية من جيش عبدالنبي ومن الرعايا أيضاً، فدخلها بعض العسكر وأقاموا بها لعدة أيام، وأقام السلطان علي ابن حاتم خارج المدينة إلى يوم الأربعاء السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، وبلغه وجود عبدالنبي في حصن تعز متحصناً به، بعد أن سحب جيشه المحاصر لعدن إلى تعز ^(٢).

سار ابن حاتم والتحالف القبلي نحو تعز، ولما وصلوا إليها وجدوا جمعاً من جيش عبدالنبي معسكراً في " ذي عدينة " ^(٣) بالقرب من تعز، فدار بها قتال شديد بين الطرفين في ربيع الأول ٥٦٩هـ / أكتوبر ١١٧٣م، انتهى إلى هزيمة عبدالنبي بن مهدي بعد قتل الكثير من جيشه وعقر من خيلهم شيء كثير وأخذ منها نحو مائة فرس وغنيمة ما معهم من الأموال والسلاح، ونهبت ذي عدينة يومئذ نهباً عظيماً ^(٤). وكان عبدالنبي في أعلى حصن تعز على سطح من سطوحه وراء كتيبة تبرق فقال : إن صدقني ظني فهذا علي بن حاتم فليل له : نعم تلك كتيبة همدان، فأنشد قائلاً ^(٥) :

واعلم بني بآن كل قبيلة ستذل إن نهضت لها قحطان

وفي إثر ذلك رجع السلطان علي بن حاتم إلى الجند في جيشه، وأمر بتخريب دار المملكة فيها، وهي الدار التي بناها الداعي محمد بن سبا الزريعي، وطلب السلطان علي بن حاتم إشاعة الدمار فيها ^(٦). ونتيجة لذلك انتقلت الحرة أروى بنت علي بن عبدالله بن الصليحي إلى حصن

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٢٠؛ الحداد : تاريخ اليمن، ج ٢، ص ٦٧.

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص ١٦٠؛ الحداد : المرجع السابق والجزء والصفحة؛ السروري : الحياة السياسية في اليمن، ص ٢٥٤.

(٣) ذي عدينة : قرية من تعز، وهي سوق ومحل التجار والجم الغفير. محمد كريم : عدن، ص ١٩١.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٦٣؛ يحيى بن الحسين : المرجع السابق والصفحة؛ بامخرمة : المصدر السابق والصفحة؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٨٧؛ محمد كريم : عدن، ص ١٩١؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٠٥.

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر والصفحة؛ المطاع : تاريخ اليمن، ص ٣٥٣.

(٦) أمر السلطان علي بن حاتم بخراب دار المملكة يوم الخميس السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ. ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ٦٨.

قيصان. ووصلت الأخبار بهرب جند عبدالنبي الذين كانوا " بالرعارع " ^(١) محاصرين لعدن، وانسحابهم إلى زبيد ^(٢)، وزوال نفوذ عبدالنبي عن جميع اليمن الأسفل.

في ذلك الوقت عاد جيش التحالف القبلي إلى الجند وعسكر فيه، وأنداك حاول السلطان علي ابن حاتم الاتجاه إلى زبيد لمقاتلة ابن مهدي ولكن قبائل جنب ومذحج برئاسة السلطان عبدالله بن يحيى الجنبي، والشيخ زيد بن عمر اليعبري رفضوا ذلك واكتفت بهزيمة ابن مهدي، وعادت إلى ديارها في اليمن.

وبذلك حقق هذا التحالف القبلي هدفه وهو الانتصار على عبدالنبي وجيشه وتقليص نفوذه، كذلك أنهى خطورته وتهديده لدولة بني زريع في عدن. رجع السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء، رغم رغبته في متابعة فلول عبدالنبي وجيشه المنهزم ^(٣).

وفي رواية ^(٤) أن عبدالنبي جمع الجيوش حين علم بانسحاب القبائل وسلطان صنعاء، وكل من كان معهم من الرجال، وأراد محاربة السلطان علي بن حاتم، لكن السلطان علي جمع رجالاً محاربين من قبيلة همدان وكان معه أخوه " بشر بن حاتم " وقد تحملوا في ذلك عناءً وشدة، لكنهما تميزا بشجاعة ونجدة فائقة، وطلعا إلى نقيض صيد، وأمرًا بضرب الحصار والإنفاق على الجيش، وجمعا الجموع للحرب، وهَمَّ السلطان علي بن حاتم بالعودة إلى ميدان الحرب، فلما أدرك عبدالنبي استعداداه للقتال راسله طالباً منه المصالحة، فوافق السلطان علي بن حاتم على ذلك بشرط أن لا يعترض عبدالنبي بني زريع في عدن وأعمالها والدملوة وحصن حبّ، ثم عاد السلطان علي بن حاتم إلى صنعاء سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ^(٥).

ولنا أن نستعرض الأسباب التي أدت لهزيمة جيش عبدالنبي بن مهدي والنتائج المترتبة على موقعة ذي عُدَيْنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م.

أولاً : الأسباب التي أدت للهزيمة :

١- التحالف القبلي بين همدان وبني زريع في عدن وبني حاتم في صنعاء ومن معهم من قبائل، سحان وبني شهاب ونهد، وانضمام جنب ومذحج بقيادة السلطان عبدالله بن

(١) الرعارع : مدينة كانت عاصمة مخلاف لحج أيام الزريعيين. المقحفي : معجم البلدان اليمنية، ص ٢٦٩.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٩؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٢٠.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ص ٢٤٣؛ محمد كريم: عدن، ص ١٩٢.

(٤) إدريس : نزهة الأفكار، ق ٣٤.

(٥) Paul, Auchterloine: Yemen, Revised Edition, Cliopress, Oxford, 1998, volume 50, p. xvii

يحيى الجنبي والشيخ زيد عمر اليعبري، متسلحين بأعدادهم الكثيرة وقوتهم من سلاح وعتاد. فكان له كبير الأثر في هزيمة جيش عبدالنبي، وتتابع الهزائم الواحدة تلو الأخرى، حتى انسحابه إلى زبيد.

٢- سياسة عبد النبي بن مهدي الحربية في هذه الحرب حيث إنه قسم جيشه إلى ثلاث وحدات أو فرق : إحداهما في قرية ذي جبلة، والثانية في أكمة الأخيالي غرب ذي جبلة، والثالثة في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة. وهكذا واجهت قوات ابن مهدي قوات التحالف، وهي متفرقة مما ساعد على هزيمتها الواحدة تلو الأخرى.

٣- الرغبة الملحة لتقليص نفوذ دولة عبدالنبي بن مهدي من قبل التحالف القبلي ودولة بني زريع ودولة بني حاتم، لتجنب خطورة تهديدها لهم خاصة دولة بني زريع في عدن.

ثانيًا : النتائج المترتبة على موقعة ذي عذينة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م :

١- عودة رئيسي قبيلتي مذحج وجنب وامتناعهما عن متابعة عبدالنبي إلى زبيد، ومتابعة شئون إمارتيهما والعمل على توطيد الأمن والاستقرار في الأجزاء الخاضعة لهما بعد غيابهما.

٢- على الرغم من انتصار حاتم بن علي الزريعي وعلي بن حاتم ومساعديهما من قبيلتي جنب ومذحج وكذلك همدان وبني شهاب ونهد وغيرهم، إلا أن تلك الحروب قضت على كثير من الأبطال المحاربين من كل جانب، وكما عمقت الخلافات فيما بينهم بعد ذلك.

٣- تخلص عدن من خطر عبدالنبي، وعودة الاستقرار إليها بعد فترات طويلة من الحصار والبلبلة وعدم الاستقرار على صعيد كل المجالات سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا.

٤- تقلص نفوذ وسلطان عبدالنبي بن علي بن مهدي، وزواله عن جميع اليمن الأسفل، بعد تراجعته إلى مدينة زبيد، وتكبده خسائر كثيرة من الرجال والأموال والخيول والسلاح.

٥- الصلح المطلوب من قبل عبدالنبي مع علي بن حاتم على ألا يتعرض لدولة بني زريع بعد ذلك.

ثالثاً : المخلاف السليماني :

يقع المخلاف السليماني " منطقة جازان " في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، وتمتد حدودها شمالاً إلى إمارة بـرّك الغِمَاد التابعة لإمارة مكة المكرمة، وجنوباً إلى حدود اليمن، ويحدها من الشرق إمارة عسير، ومن الغرب البحر الأحمر حيث تقع على ساحله الشرقي مدينة جازان^(١).

وامتدت حدود منطقة جازان بعد أن اتخذت وضعها السياسي، إلى أبعد من حدودها بكثير، حيث وصلت من الشمال إلى إمارة حليّ بن يعقوب، ومن الجنوب إلى ما وراء ناحية حَرَض اليمنية.

وكانت تتكون من مخلافيين أو " إقليمين " اثنين هما^(٢) : مخلاف عَثْر أو عَثْر، الواقع إلى الشمال من جازان حتى حدود إمارة حلي بن يعقوب شمالاً، ومخلاف حَكَم ويلي مخلاف عَثْر من الجنوب ويمتد إلى ما وراء منطقة حَرَض جنوباً، وعاصمة مدينة حرَض أو مدينة السَّاعِد بناحية حرَض، فيقال مخلاف السَّاعِد أو مخلاف حَكَم.

وتم توحيد هذين المخلافيين معاً في مخلاف واحد سُميَّ المخلاف السليماني نسبة إلى سليمان ابن طرف الحكمي في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري / أواخر القرن العاشر الميلادي^(٣).
وتقع معظم أراضي المخلاف في تهامة الساحلية المطلة على البحر الأحمر، وتتصل من الشرق بمنطقة الحزون، ثم بجبال السَّراة، ويطلق على هذا الجزء من تهامة " تهامة الشام " وتمتد إلى ما وراء حرَض والسَّاعِد جنوباً، على حين يطلق على الجزء الواقع في اليمن : تهامة اليمن " وتمتد من هذين الموقعين شمالاً إلى عدن جنوباً^(٤).

وبعد انطلاق الدعوة الإسلامية إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية، قدمت إليها الوفود من

(١) العاصمة الإدارية الحالية للمنطقة، ومقر الإمارة، والإدارات الحكومية، وهي غير جازان الداخلية التي كانت، قبل اندثارها، عاصمة للمنطقة في عهد الأشراف الغوانم. انظر الخريطة الخاصة بهذا الموضوع؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ج ١، ص ٣.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٧٥، ٧٦، ٢٥٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٣٩؛ العقيلي : المرجع السابق، ص ٨٠، ٨١.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

(٤) ابن الحسين : غاية الأمان، ص ٢٢٠، ٢٨٨؛ ٣١٦؛ العرشي : بلوغ المرام، ص ١٢٠؛ الواسعي : فرجة الهموم والحزن، ص ١١٣؛ الزيلعي : جازان المخلاف السليماني، ص ١٣.

قبائل شتى معلنة إسلامها، ومن بين هذه الوفود، وفود تهامة، شاميها ويماينيها، على رأسهم وفد عبد الجَد بن ربيعة الحكمي، زعيم مخلاف حَكَم بتهامة الشام^(١).

وكان آل عبد الجَد الحكميين ملوك الجزء الجنوبي وهو مخلاف حكم، وبنو مخزوم من قريش ملوك الجزء الشمالي وهو مخلاف عثر^(٢).

ظلت منطقة المخلاف السليماني متمسكة بالولاء الإسمي لخلفاء بني العباس، وحققت منذ عهد مبكر، استقلالاً داخلياً على أيدي حكام محليين من أبنائها كانوا يتوارثون حكمها كابراً عن كابر.

وبعد أن دخلت سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م، برز من هؤلاء الحكام سليمان بن طرف الحكمي الذي تمكن من توحيد مخلاف عثر وحكم في مخلاف واحد سمي بالمخلاف السليماني، نسبةً إليه واستقل بشئونه الداخلية تحت النفوذ الإسمي للخلافة العباسية التي كان اتصاله بها مباشراً^(٣).

وتمتد الأسرة السليمانية الحاكمة في المخلاف السليماني، من فروع، وفخوذ كثيرة استوطنت بمرور الزمن، مناطق متفرقة في العراق، والشام، والحجاز، وأطراف اليمن، وإيران، وأحد هذه الفروع فرع الطيب داوود بن عبد الرحمن بن أبي الفاتك عبدالله بن داوود بن سليمان بن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون وهذا هو الفرع الأدنى الذي يصعد إليه معظم أشراف المخلاف السليماني بمن في ذلك أفراد الأسرة الحاكمة، ومنهم : وهَّاس، وبنو علي، وبنو شَمَّاخ، وبنو مُكْثَر، وبنو حَسَّان، وبنو هَضَام، وبنو قاسم، وبنو يحيى. وأعقب وهَّاس بن أبي الطيب من ستة رجال : محمد وحازم ومختار ومكثَر وصالح وحمزة. وحمزة بن وهَّاس هو الجد الأقرب للأسرة السليمانية التي حكمت المخلاف السليماني في القرن السادس الهجري^(٤) (فترة الدراسة).

آل حُكَم المخلاف بعد وفاة حمزة بن وهَّاس إلى ولديه عيسى ويحيى، حيث ولي الأول عثر وأعمالها، ولي الثاني أمور حَرَض وبلاد حَكَم^(٥). ثم آلت زعامة بني سليمان بعد وفاة يحيى بن

(١) ذكر الهمداني شعراً يعدد فيه من أفرشهم رسول الله (ﷺ) رداً فذكر " عبد الجَد " في بيت منه :

(وعبد الجد نال مناله) أكرم بعبد الجد من متعجند)

الأكيل، ج ٢، ص ٢٤٢؛ عبد الرحمن الشجاع : اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨/١٩٨٧م، ط ١، ص ١٨٠، ١٨١.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٩.

(٣) الزيلعي : جازان " المخلاف السليماني "، ص ٢١.

(٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤٧.

(٥) عمارة : المفيد، ص ٢١٧؛ الزيلعي : المرجع السابق، ص ٤٩.

حمزة إلى ابنه غانم بن يحيى الملقب بأبي الغارات^(١)، ثم آلت إلى ابنه وهّاس.

علاقة دولة بني مهدي بالمخلاف السليماني :

لم يكن تغيير النظام في زبيد يعني شيئاً بالنسبة لبني سليمان، فلن تكن تلك هي المرة الأولى التي تسقط فيها زبيد في حوزة نظام مُعادٍ لبني نجاح، الحلفاء التقليديين لبني سليمان، ولم يغير ذلك من وضعهم، ربما لأنهم فرسان يعتمدون على الغارات والانتقال، ويساعدهم في ذلك عمق جغرافي يمتد إلى الشمال حتى أطراف الحجاز الذي تسيطر عليه فئات من بني عمومته، فهم بالنسبة لبني سليمان ربما ينجحون إليها كلما آنسوا ضغطاً عليهم من الجنوب^(٢).

وقد ساعدتهم هذا الوضع، بالإضافة إلى سيطرتهم على طريق الحج اليمني^(٣)، على احتفاظهم بزعامة المخلاف على الرغم من سقوط كثير من جيرانهم، من الأسر الحاكمة في الحجاز واليمن، ثم سقوط مدينة زبيد نفسها أكثر من مرة في أيدي الصليبيين^(٤)، ثم بني مهدي.

إذن كان وضع بني سليمان في المخلاف السليماني حتى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، قائماً على ما كان من قبل دون منازع. لم يتجاوز نفوذ بني مهدي حدَّ حَرَض من الجنوب، أما في الشمال من ذلك حتى نهاية حدود المخلاف، فكان خاضعاً لنفوذ بني سليمان بزعامة الأمير وهّاس بن غانم السليماني^(٥).

وتجدر الإشارة إلى أن مناطق بني سليمان بزعامة وهّاس بن غانم، بقيت بمنأى عن غارات ابن مهدي حوالي خمس أو ست سنوات، ولم تطلها أيدي بني مهدي إلا في عهد عبدالنبي بن مهدي الذي جاء إلى السلطة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م وحتى بعد مجيء عبدالنبي إليها، فإنه

(١) الخزرجي : العسجد المسبوك، ق ١٦٥.

(٢) الزيلعي : جازان " المخلاف السليماني "، ص ٦٤.

(٣) يقطع البلاد الخاضعة لسيطرة بني سليمان، طريقان من طرق الحج اليمنية إلى مكة المكرمة، أحدهما : الطريق الأوسط ويعرف باسم الجادة السلطانية، وهو الذي يجتاز المخلاف السليماني من المهجم. والثاني : الطريق الساحلي، وهو الذي يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر مروراً بأهم مدن المخلاف الساحلية مثل : الشرجة، وعثر، وبرك الغماد. العمري : مسالك الأبصار، قسم اليمن، ص ٤٤.

(٤) سقطت زبيد أكثر من مرة في يد الصليبيين وذلك سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧-١٠٦٨م، على يد المكرم الصليحي، وأيضاً سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨-١٠٨٩م بعد مقتل سعيد الأحول بن نجاح، ولم يغير ذلك من وضع السليمانيين في المخلاف. ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٦٠.

(٥) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ الكبسي : اللطائف السنوية، ص ٥٢؛ ابن الحسين : غاية الأمان، ص ٣١٦؛ الزيلعي : المرجع السابق، ص ٦٥.

لم يتجه في سنى حكمه الأولى إلى تهامة الشام، وإنما بدأ يتهيا لذلك في أواخر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م^(١). ولم يَقم بالغزوة إلا سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والتي وُصِفَت بالغزوة الخاطفة.

لعلنا نقف هنا عن الدوافع أو الأسباب التي هيأت عبد النبي لهذا الغزو :

أولاً : علاقة الشريف غانم بالدولة النجاحية، والتي كانت جيدة، وهذا ما حمل عبد النبي للاستيلاء على المخلّاف السليماني وسحق أسرة الغوانم بعد أن استأصل أبوه علي بن مهدي جذور النجاحيين من زبيد^(٢).

ثانياً : الإتاوة التي كان يدفعها السليمانيون لحكام زبيد، وقدرها ستون ألف دينار سنوياً، والتي سقطت بموجب هدنة بين النجاحيين والسليمانيين في عهد فانتك بن نجاح والشريف غانم السليماني^(٣).

ثالثاً : لم يحاول الأشراف السليمانيون التقرب إلى دولة بني مهدي وخاصة في عهد عبد النبي لما تقرر لديها من عداوته وقصده السيئ للبلدان اليمنية^(٤).

قام عبد النبي بالغزوة، فتصدى له الأشراف السليمانيون بشجاعة فائقة، وجرت بين الجانبين عدة وقائع، ولكن بني مهدي هاجموا الأشراف بعنف، فهزموهم، ثم طاردوهم إلى الشمال، فقتلوا الشريف وهّاس بن غانم وسبى عبد النبي حريم وهّاس، واصطفى أمواله، وعاد إلى اليمن، ربما دون أن يضم منطقة المخلّاف السليماني " جازان " إلى ملكه، وإنما اكتفى بتأديب أهلها، والتكيل بحكامها^(٥).

كان لهذه الغزوة صدى كبير، وأهمية قصوى في تاريخ المنطقة، لما ترتب عليها من نتائج ذات مغزى بعيد في تحديد مصير دولة بني مهدي.

أولاً : عمل الأشراف على لم شتاتهم وتوحيد صفوفهم، بعد الهزيمة، واختاروا الشريف

(١) الخرجي : المسجد، ق ١٦٥؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص ٥٢؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٦؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص ١٥٩؛ الزيلعي : المخلّاف السليماني، ص ٦٤؛ الحداد : تاريخ اليمن السياسي، ص ٨١.

(٢) الزيلعي : المرجع السابق، ص ٥٨.

(٣) محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص ١٣٧.

(٤) العقيلي : المخلّاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٥.

(٥) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٦؛ بامخرمة : المصدر السابق، ص ١٢٧؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن،

ص ١٨٣؛ Smith : Studies in the Medieval History of the Yemen, p. 134.

قاسم بن غانم، أخا الأمير السابق وهّاس، ليكون أميراً عليهم بعد أخيه الأمير^(١).

ثانيًا : كان على الأمير قاسم أن يعمل على استتباب الأمن والنظام في بلاده، وأن يثأر لمقتل أخيه من عبدالنبي بن مهدي. فقام الأشراف ببعض المحاولات للثأر من بني مهدي، ولكنهم أخفقوا ولم يقدروا على هزيمة خصومهم، أو على الأقل منازلتهم^(٢).

ثالثًا : استعانة الأمير قاسم السليماني بجهة أخرى يستمد منها العون ضد قاتل أخيه، ومنتهك حرّمات أرضه وعرضه^(٣).

اتفق الأمير قاسم مع من نجا من الغوانم على إرسال الأمير منصور بن أحمد ليُعلم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨٠م)^(٤) بما وقع لهم ويستجدوه.

ولكن لماذا الخليفة العباسي تحديدًا ؟ الإجابة هي أن أمراء المخلاف السليماني كانت لهم صلات سياسية بالخلافة العباسية من خلال تبعية دولتين الزيادية ثم النجاشية السنييتين المذهب، أي أن المخلاف السليماني لم يخرج عن محور فلك إمارة زبيد التابعة للخلافة العباسية^(٥).

ومع أن الخلافة العباسية لدى وصول هذا الأمير إلى بغداد كانت خلافة ضعيفة، إلا أنها جرت لها انتعاشة مؤقتة بعدما قام صلاح الدين الأيوبي بالدعوة لها في مصر، ورغبة في أن يُري الخليفة صلاح الدين أن مركز الخلافة لا يزال الموثل الأول لكل مظلوم، وأيضًا لِمَا بَلَغَ الخلافة العباسية أن عبدالنبي بن مهدي قطع الخطبة العباسية^(٦)، لأنه كان باطنيًا اسماعيليًا من دعاة الفاطميين ومعتقي مذهبهم^(٧)، وكان يُلقب بالمهدي

(١) الزيلعي : المخلاف السليماني، ص ٦٦.

(٢) ويستدل على تلك المحاولات من إشارة عابرة يوردها الخزرجي بقوله : " إنما دخل الملك المعظم نجدة للشريف بن غانم السليماني، وذلك لأنه لما قتل أخوه وهّاس بن غانم وكان الذي قتله بنو مهدي، فقام أخوه القاسم بن غانم بحربهم، فآلحوا عليه بالغارات حتى عجز عن مقاومتهم، فخرج إلى الديار المصرية مستجدًا بالملك الناصر صلاح الدين على ابن مهدي ". العسجد المسبوك، ق ١٧٦، ١٧٧.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦٥؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣١٦.

(٤) B. Ahmed : Imams, Notables et Bé douins du Yemen, Siécle, 1992, xviii, p. 8.

(٥) العقيلي : المخلاف السليماني، ص ٢٠١.

(٦) محمد بهجت مختار : الصلات السياسية والحضارية بين مصر وبلاد الحجاز، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٧٨.

(٧) ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الدكن، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م، ج ٨، ص ٢٩٩؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٥١، ٥٢.

ويسمى الإمام^(١).

فكتب الخليفة إلى صلاح الدين ليعت جيشاً إلى اليمن للاستيلاء عليه باسم الخلافة العباسية والأخذ بنصرتهم والقضاء على بني مهدي^(٢).

هكذا سلم الأمير منصور إلى صلاح الدين كتاب الخليفة المستضيء بأمر الله، يأمره فيه بأن يجرّد جيشاً لقتال ابن مهدي، والحد من أفعاله المشينة تجاه أهل البلدان اليمنية^(٣).

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٠هـ، ج٤، ص٢٣٤؛

ابن كثير : البداية والنهاية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ج١٢، ص٢٧٣.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق١٧٥، ١٧٦؛ ابن الحسين : غاية الأمان، ج١، ص٣٢٢؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص٢٧٦؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ص٢٠٦.

(٣) بامخرمة : تاريخ نجر عدن، ج١، ص١٢٧، ١٢٨؛

Michael Jenner : Yemen, London, 1983, p. 50.

الفصل الثاني

الفتح الأيوبي

وسقوط دولة بني مهدي في اليمن

(٥٦٩هـ / ١١٧٤م)

الفصل الثاني

الفتح الأيوبي وسقوط دولة بني مهدي في اليمن (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)

كانت بلاد اليمن قبيل الفتح الأيوبي مجزأة ومفككة سياسيًا، فظهرت بها وحدات سياسية متعددة فيما بينها مذهبياً ومتعادية سياسياً ومتحاربة عسكرياً، فكان بنو زريع وهم إسماعيلية "قاطميون" يحكمون عدن ولحج وأبين وبعض مناطق من تعز، مثل حصون منيف والسوا والسمدان والدملة، وامتد سلطانهم إلى حصن "حب" في بعدان وقيظان ونقيل سمارة في مخلاف جعفر، وحكم سلاطين جنب مدينة ذمار ومخاليقها، بينما حكم بنو حاتم وهم إسماعيلية كذلك حصن أشيخ في آنس وصنعاء وما حولها، ووصل سلطانهم إلى بلاد الظاهر في البون من حاشد شمال صنعاء، أما بنو مهدي مختلفو المذهب فحكموا تهامة من حرص حتى تعز وذو جبلة في مخلاف جعفر، وبعض مناطق من تعز مثل الجند ومدينة تعز نفسها وجبل صبر وجبل حبشي. كذلك حكم الشريف قاسم بن غانم بن وهّاس، المخلاف السليماني، وحكم الإمام الزيدي أحمد بن سليمان، صعدة والجوف وما حولها^(١).

وكانت العلاقة بين بني مهدي وهذه الدويلات عدائية، فقد حاولوا التوسع على حساب دولة بني زريع في الجنوب ودولة الشريف قاسم في الشمال، وحاول كل من بني زريع وبني جنب وبني حاتم تكوين تحالف قبلي ضد بني مهدي، فنجحوا في هزيمتهم وصدهم عن التوسع في مناطقهم الأخرى.

بينما تأرجحت علاقة الإمام أحمد بن سليمان بسلاطين بني حاتم، فتارة سادها العداء والحرب وتارة أخرى سادتها المصالحات^(٢).

(١) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٣؛ محمد زبارة : أئمة اليمن، تعز، ١٩٥٢م، ج ١، ص ١٠٨.

B. Ahmad : Imams, p. 8.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٢؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٩١-٢٩٤، ٣٠١؛ سليمان الثقفي : سيرة الإمام

أحمد بن سليمان، ص ١٥٨-١٦٠؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٠٨؛ محمد كريم : عدن،

ص ٢١٦.

الفتح الأيوبي لليمن :

تعددت آراء المؤرخين في أسباب ودوافع الفتح الأيوبي لليمن؛ ومنها الآتي :

أولاً : خوف صلاح الدين من مولاة نور الدين محمود زنكي أن يعزله عن ولاية مصر^(١)، باعتباره تابعاً له، بسبب ظهور خلاف بينهما حول تباطؤ صلاح الدين لتنفيذ أوامر نور الدين بالذهاب إلى " الكرك " لمحاربة الصليبيين^(٢).

وحاول نور الدين مراراً الاتجاه إلى مصر، ولكن الصليبيين شغلوه عن ذلك، ولما كان صلاح الدين متوقعاً وصول نور الدين إليه، وأنه لا طاقة له به، فقد سارع إلى عقد اجتماع ضم كبار رجال أسرته وقادته، وشاورهم في أمر نور الدين فأشاروا عليه بمقاومته والتصدي له إذا حضر مصر^(٣).

واستقر رأي صلاح الدين على امتلاك بلاد النوبة أو اليمن لتكون ملجأً له ولأسرته إذا ما حاربهم نور الدين وفكر في عزله^(٤).

ثانياً : من المعروف أنه كان للفاطميين نفوذ في اليمن وكان صلاح الدين الأيوبي يرى أنه الوارث لأمالك الفاطميين، ليس في مصر فحسب، بل في كل البلاد التي امتد نفوذهم إليها، ولذلك رأى أن الاستيلاء على اليمن ضرورة ملحة لاستكمال نفوذه، وتثبيت أركان دولته في مصر^(٥).

اقتنع صلاح الدين بضرورة إخضاع مصر لنفوذه وخاصة بعد أن قامت مؤامرات عسكرية

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م، ط٢، ج٦، ص٢١، ٢٢؛ رزق الله منقريوس : تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ج٢، ص٢٢٤؛ سامي الصقار : مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٩م، م٦، ص٣٩٨.

(٢) محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٧٠.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص٢٣٧؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص٢٨٦؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٨٢؛ ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٥، ص٣٥٧؛ المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م، تحقيق: مصطفى زيادة، ج١، ص٥٢؛ ابن العديم : زبدة الحلب، نشر سامي الدهان، ١٩٥٤م، ص٣٤٠.

(٤) الحمزي : كنز الأخبار، ق٩١؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١١، ص٤٥؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥٢٦؛ عبدالعال : دراسة عن أسباب الفتح الأيوبي لليمن، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، م١٣، ج٢، ص٣١٩.

(٥) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ١٩٧٧م، ط١، ج٧، ص٤٥٨؛

Malcolm, Cameron Lyons : Saladin, Cambridge, 1982, p. 66.

ترمي إلى مناهضة حكمه وإعادة الحكم الفاطمي في مصر.

ولا يُستبعد أن تشارك اليمن الخاضعة للنفوذ الإسماعيلي إلى إعادة سلطتهم إلى مصر وخاصة أن الرأس المدبرة كانت شخصية يمنية لها شأن عظيم هو الشاعر الفقيه عمارة اليمني، الذي قدم إلى مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م سفيراً من أمير مكة إلى القاهرة^(١)، وكان الخليفة بها يؤمّنذ الفائز بن الظافر^(٢)، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك^(٣). فلما ذهب للسلام عليهما أنشدهما قصيدة عصماء في مدح البيت الفاطمي، فخلعت عليه الخلع الفاخرة، ودفع له الصالح خمسمائة دينار، والسيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى. وأطلقت له من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد من قبله، وخصه الصالح بمجالسته، وكان عمارة من جانبه يوالي نظم الشعر في مدح الخليفة ووزيره حتى اشتهر بين رجال الدولة^(٤).

استمر عمارة اليمني ينعم بالعيش الرخي وهدوء البال في ظل الخلافة الفاطمية من ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م إلى شوال من نفس السنة، ثم عاد إلى الحجاز ومنها إلى اليمن، وقبل أن يبرح عمارة القاهرة حمله الصالح بن رزيك كتاب إلى صاحب عدن الداعي عمران بن محمد الزريعي. وفي أوائل سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م قدم عمارة مصر مرة ثانية سفيراً^(٥) من أمير مكة، وصادفت هذه السفارة هوى في نفس عمارة، حيث طاب له المقام بمصر، فاستوطن الديار المصرية، وفيها قربه الوزراء والخلفاء والعظماء لأدبه وسمو مواهبه. فصار جليساً لهم وموضعاً لأسرارهم، ولهذا اندفع مع تيارهم، وحذا حذوهم وتأثر في حياته بما كان يصيبهم من حلو الحياة ومرها^(٦).

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٠.

(٢) هو أبو القاسم عيسى تولى الخلافة في مستهل صفر سنة ٥٤٩هـ، وتوفي في ١٧ رجب سنة ٦٦٦هـ.

ابن خلكان : وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، تحقيق: إحسان عباس، ج ١، ص ٣٩٥.

(٣) هو الملك الصالح طلائع بن رزيك، ولد سنة ٤٩٠هـ وتوفي في ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ وتولى الوزارة من ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ إلى رجب سنة ٥٥٥هـ. الزركلي : الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٠؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٤) عمارة : نفس المصدر، ص ١٢.

(٥) Paul E. Walker : Exploring an Islamic Empire, (Fatimid history and Its Sources), London, 2002, p. 150.

(٦) كان عمارة شافعي المذهب، شديد التعصب للسنة، واحتفظ بمذهب أهل السنة إلى آخر لحظة في حياته، ولكن كان بالوفاء سجيناً للفاطميين، وظل على ولائه لهم حتى بعد زوال دولتهم، وكان دائماً يردد : " ذكر الله أيامهم بحمد لا بكل نشاطه، ولا يطوي بساطه، فقد وجدت ققدم، وهنت بعدهم ". عمارة : نفس المصدر، ص ١٠؛ أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

وكان للأحداث المصرية الداخلية والخارجية صدى عظيم في نفس عمارة وفي طرائق تفكيره وأسلوب حياته، ومما حز في نفسه الأحداث التي شهدتها الدولة الفاطمية، التي بدأت بقتل شاور في سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م^(١)، وتولى أسد الدين شيركوه قائد الجيوش النورية الوزارة بأمر العاضد، وكان أسد الدين سني المذهب يتبع نور الدين زنكي السني صاحب دمشق ولم يطل به الأجل فمات، وتولى الوزارة بعده ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بأمر من العاضد أيضاً، فقامت المكائد في وجهه ومن أخطرها مكيدة نجاح كبير الخصيان وما تبعها من ثورة الجند السودانيين، ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء عليهم، وما لبث أن قطع الخطبة الشيعية وأحل محلها الخطبة السنية، وتبع ذلك موت العاضد في محرم سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م فصار صلاح الدين سلطان مصر^(٢).

رأى عمارة اليمني أن هذه الحوادث المتلاحقة قد هزت دعائم الخلافة الشيعية^(٣) التي كثيراً ما تغنى بها تنهار أمام عينيّه، ووجد في صلاح الدين قوة كبيرة لا يقاومها إلا مثلاً، فلجأ إلى "التقية" التي أقرها الشيعة وعملوا بها في مختلف العصور. فلم يكن بد من استعمال اللين ومسايرة تيار الحوادث في الظاهر، وفي الوقت نفسه يتآمر سرّاً للقضاء على الدولة السنية، ويعمل جاهداً لإرجاع الدولة الفاطمية من جديد، فدبر مؤامرة سرية واسعة النطاق، امتدت إلى داخل البلاد وخارجها، وضمت رجالاً من أتباع الفاطميين^(٤)، برئاسة هبة الله بن كامل قاضي القضاة، وداعي الدعاة وكان ينادي بإعادة ملك الفاطميين بمصر، وكان يلقب بفخر الأمناء، كذلك الداعي عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي^(٥).

وضمت المؤامرة بعض الناقمين من أتباع صلاح الدين، ومنهم العويرسي ناظر الديوان، وشبريا كاتب السر، وعبد الصمد الكاتب وهو أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجلاً

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٢١.

(٢) عمارة : المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) لم يكن عمارة شيعياً في يوم من الأيام، بل لقد عرض عليه الفاطميون أكثر من مرة أن يعتنق مذهبهم فكان جوابه الرفض البات، فلماذا حزنه الشديد على الخلافة الفاطمية ؟ لقد ضاقت في وجهه سبل العيش وكان يأمل أن يحصل على عطف صلاح الدين كما كان مع الفاطميين، ولكن ذلك لم يكن له صدى عند صلاح الدين، فأصبح ناقماً على الدولة الجديدة " الأيوبية ".

(٤) عمارة : نفس المصدر، ص ١٢٢ محمد كامل حسين : مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة،

مايو ١٩٥٣م، م ١٥، ج ١، ص ٦٤.

(٥) علي أحمد البيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١٢١.

مُنْجَمًا نصرانيًا كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم^(١)، كما انضم إليهم جماعة من بني رزيك وآخرون من أسرة شاور. وكل يجمع هؤلاء الحقد على الدولة الجديدة — دولة صلاح الدين — وقطعها لأرزاقهم ومناصبهم.

اتفق رأي المتآمرين على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر، ومنهم وليم الثاني ملك صقلية، وسانان رئيس الحشيشية^(٢) وهو زعيم الإسماعيلية النزارية في الشام، وأموري ملك بيت المقدس^(٣).

احتاط عمارة اليمني — رئيس الجماعة — للأمر فشجع توران شاه أخا صلاح الدين على فتح اليمن، حتى يأخذ جانبًا كبيرًا من الجنود معه، فيضعف جانب صلاح الدين^(٤).

أخذ عمارة يُحَسِّنُ للملك المعظم تورانشاه قصد اليمن، ووصف بلادها، وعظَّمها في عينيه، واصفًا له أموالها مع ضعف حكامها مما يسهل عليه الفتح^(٥)، ولما كان تورانشاه كثير النفقات ولم يكن إقطاعه بمصر كافيًا للوفاء بمتطلباته، فلقي إغراء عمارة استجابة منه.

استأذن تورانشاه أخاه صلاح الدين بالخروج بالحملة التي جهزها للاستيلاء على اليمن فأذن له^(٦)، فشرع تورانشاه يتجهز ويعد العدة، ويجمع الأجناد ويحشد الحشود.

وكان لعمارة مدائح في تورانشاه، امتدحه بها، وحرضه فيها على ملك اليمن منها قصيدة طويلة جاء فيها^(٧).

وكان هدف عمارة من ذلك إخراج عدد كبير من الجيش الأيوبي عن مصر، ليسهل له بعد

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص٦٦١.

(٢) الحشيشية : هي فرقة باطنية منسوبة إلى الحسن بن الصباح الإسماعيلي الملقب بالعباد. الشهرستاني : الملل والنحل، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ط١، ص١٥٣-١٥٩.

(٣) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٧٤.

(٤) أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٢١٦.

(٥) Lane, Poole : Saladin, Cooper Square, Press, 2002, p. 125.

(٦) أبو شامة : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص٢٣٨؛ عبدالعال : المرجع السابق، ص٧١؛ أحمد بيومي : الدولة الأيوبية في مصر، ص١١٧.

(٧) أمامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤس الخيل باللجم
فاخلق لنفسك ملكًا لا تضاف به
إلى سواك وأور النار في القلم

نصارى فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص٦٢.

ذلك لأتباعه^(١) التآمر على صلاح الدين، والقضاء عليه، وإعادة الدولة الفاطمية إلى مصر. وفي ذلك يقول : " وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن، خوفاً أن يسد مسده، وتجتمع الكلمة عليه بعده " ^(٢).

وهكذا يخرج تورانشاه إلى اليمن، وصلاح الدين بعيد عن مصر (في الشام)، ومن ثم يتولى المتآمرون في الداخل القيام بثورة في القاهرة وقت الغزو الخارجي، ولا تستطيع القوات الأيوبية التصدي - في وقت واحد - للعدوان الخارجي والثورة في الداخل^(٣)، وبذلك يمكن إعادة الدولة الفاطمية من جديد.

وبذلك حبكت المؤامرة، ولم يبق إلا تنفيذها، ولكن السرّ انكشف وظهرت الخبايا سافرة أمام صلاح الدين، عندما أخبره بها الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ^(٤)، فأمر بإعدامهم جميعاً وعلى رأسهم عمارة اليمني الذي صُلب في الثاني عشر من رمضان سنة ٥٦٩هـ / ١٦ أبريل ١١٧٤م^(٥)، قبل وفاة نور الدين بشهر واحد^(٦).

ثالثاً : خاف صلاح الدين من إخوته لكثرتهم، وخاصة من أخيه الأكبر تورانشاه^(٧) الذي كان يحترمه ويرجحه على نفسه^(٨)، وكان في نفس تورانشاه الملك، ويرى أنه أحق من أخيه، وتصدر منه كلمات في سكره ضد أخيه صلاح الدين، وبلغ ذلك صلاح الدين فأغراه بلاد النوبة

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٥٣، ٥٤؛

Lane, Poole : A history of Egypt in the Middle Ages, pp. 197-188.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق والجزء، ص ٥٤.

(٣) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٦٥.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٦٦٠.

(٥) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٤؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٨٨م، ص ٢٤١؛ المقرئزي : السلوك، ج ١، ص ٥٧؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣م، ج ١، ق ١، ص ٢٤٠؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٩٦.

(٦) Lane, Poole : Saladin, p. 128.

(٧) الحمزي : كنز الأخبار، ق ١٨٦؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٠؛ ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ٤٤.

الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين، كان ملكاً ضخماً شجاعاً شهماً فارساً مقداماً غشماً صمصاماً. ابن خلكان : وفيات الأعيان، م ١، ص ٢٧١؛ الصنفدي : الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر فيسبادن، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ط ٢، ج ١٠، ص ٤٤١؛ الحنبلي : شذرات الذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٨) الذهبي : سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ج ٢١، ط ٢، ص ٥٣.

في جمادي الأولى سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م ليفتحها، فوجدها لا تساوي التعب، وعاد منها بغنائم كثيرة^(١). ومن ثم بعثه صلاح الدين إلى اليمن، عندما علم بسوء سيرته وإيقاعه في كلامه عند سكره، ليكون له مملكة في منطقة أخرى بعيدة عنه^(٢).

وبالفعل عندما تم استيلاء تورانشاه على اليمن، خطب لنفسه بعد الخليفة العباسي وتلقب بالملك المعظم، ولم يغضب صلاح الدين لذلك، بل تركه يُشبع أطماعه^(٣).

رابعاً : غضب صلاح الدين من أمر عبد النبي بن مهدي، ومدى سيطرته على اليمن وسفكه لدماء أهلها ونهب أموالهم، وتغلبه على مناطقهم وخروجه عن طاعة الخلافة العباسية وزعمه انتشار ملكه بأن دولته تطبق الأرض، وأن ملكه يسير مسير الشمس^(٤).

وخاف صلاح الدين من أن يستولي ابن مهدي على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة لما أشيع عنه من قوة ونفوذ، فضلاً عن أن ابن مهدي منع الناس من الحج إلى الكعبة وإجبارهم على الحج إلى قبر أبيه^(٥).

خامساً : أراد صلاح الدين بإرسال حملة إلى اليمن للقضاء على ما بها من مذاهب مخالفة لمذهب الخلافة العباسية، كمذهب الإسماعيلية الفاطمية، ومذهب الخوارج والزيدية، ونشر مذهب أهل السنة بها^(٦)، بعدما قضى على الخلافة الفاطمية الإسماعيلية وعلى مراكز الدعوة بمصر، وفتح المدارس لتعليم الفقه السني ومبادئ السنة المختلفة^(٧).

-
- (١) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ٤٣؛ أبو مخرمة : ثغر عدن، ج ٢، ص ٨٩؛ الحداد : تاريخ اليمن، ص ٢٢٠؛ العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، ص ٥٥؛ محمد كريم : عدن : ص ٢١٧.
- (٢) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٥٥١؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٧٠؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين، ص ٤٦؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٩٧؛ السروري : تاريخ اليمن، ص ٢٠٩؛ محمد كريم : المرجع السابق والصفحة.
- (٣) المقرئزي : السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣؛ جميل حرب : المرجع السابق والصفحة.
- (٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٩؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٢؛ أبو شامة : المصدر السابق والجزء، ص ٢١٦؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٧٣، ٢٧٤؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٧؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص ٤٦.

Malcolm, Cameronlyons : Saladin, p. 65.

- (٥) الخزرجي : العسجد، ق ١٦٣؛ جميل حرب : نفس المرجع، ص ٩٧.
- (٦) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٧٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢١٠؛ مجلة الخليج العربي، لسنة ١٩٨٨م، المجلد ٢٠، العدد ٢، ص ٢٧.
- (٧) جميل حرب : نفس المرجع، ص ٩٨.

سادسًا : ما أورده الجندي من أن رسالة ابن النساخ^(١)، إلى الخليفة العباسي للشكوى من ابن مهدي، كانت سببًا في إرسال حملة تورانشاه إلى اليمن، فهذا القول بعيد عن الصواب، إذ إنه من الثابت تاريخيًا أن رسالة ابن النساخ التي أشار إليها كانت سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، أي بعد أكثر من أربعين عامًا من الفتح الأيوبي لليمن، وفي وقت لم يكن فيه صلاح الدين ولا تورانشاه على قيد الحياة، وكانت الشكوى من الإمام الزيدي عبدالله بن حمزة لاضطهاده المُطَرِّقِ، وهي فرقة خارجة على الزيدية ينتمي إليها ابن النساخ، وكانت من أسباب إرسال حملة المسعود ابن الكامل سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، ولم تكن للشكوى من ابن مهدي كما ذكر الجندي^(٢).

سابعًا : ما أورده بعض المصادر^(٣) من أن الحملة كانت نجدةً للشريف قاسم بن غانم صاحب المخلاف السليماني ضد ابن مهدي، الذي هاجم المخلاف السليماني وقتل الشريف وهاس ابن غانم وعدداً من أهل حرّض سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، فكان على أشرف المخلاف باعتبارهم علويين، أن يلجأوا للخليفة الفاطمي بمصر وليس إلى الخليفة العباسي في بغداد.

نرى^(٤) أنه لا يوجد ما يمنع من أن يستجد هؤلاء بالخليفة العباسي المستضيء بالله، بعد علمهم بأن الدولة الفاطمية كانت في أيامها الأخيرة وتعاني من الضعف، وفي ذلك الوقت كان أشرف الحجاز ومكة والمدينة وهم علويون يخطبون للخليفة العباسي ولصلاح الدين السُّنِّيِّين، إذن لا مانع من أن يستجدوا به ضد عدوهم المشترك ابن مهدي الذي كان بأرائه ومعتقداته يعمل على هدم الدين الإسلامي، خصوصًا وأن عبدالنبي كان يقتل سنة وشيعة دون تفرقة.

ثامنًا : وهو سبب أمني، خوف صلاح الدين أن يستغل الصليبيون وجود مملكة الحبشة المسيحية في الجزء الجنوبي الغربي للبحر الأحمر^(٥)، فيتحالفا معها، ويدفعوها للسيطرة على الجزء الجنوبي الغربي للبحر الأحمر. وبذلك تسيطر على مفتاح البحر الأحمر، وتسيطر على

(١) ابن النساخ : هو الحسن بن محمد النساخ، رجلاً من أهل اليمن، كان نابغة دهره ونادرة عصره متفوقاً في النظم والنثر وفنون الأدب، كما كان فقيهاً فاضلاً. الخرجي : العسجد، ق ١٧٥؛ ابن النبيع : قرة العيون، ص ٢٦٦.

(٢) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٧٦.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٤؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص ٢٧؛ أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٢١٧.

(٤) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٩٨.

(٥) سامي الصفار : مجلة كلية الآداب، م ٦، ص ٣٩٨.

لاشك أن الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر كبيرة، فهو قناة الوصل بين البحار المفتوحة في المحيطين الهندي والأطلسي عبر البحر الأبيض المتوسط، وباب المندب وهو أحد الممرات الرئيسية للملاحة والتجارة. نصارى فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص ٥٧.

تجارة البحر الأحمر وتجارة الشرق وبذلك تغلق البحر في وجه التجارة الإسلامية، بعد إنشائهم ميناء " أيلة " على البحر الأحمر وأصبحوا ينافسون مصر السيطرة على الطرق التجارية، كما كان يخشى إن سيطر الصليبيون على تلك المنطقة أن يهاجموا الحجاز ويستولوا على الأماكن المقدسة^(١)، بعد أن شددوا الحصار البحري على مصر وتهديد السواحل المصرية.

وبذلك أصبح البحر الأحمر مجالاً للصراع بين صلاح الدين والصليبيين الذين اتخذوا من الدين ستاراً لإخفاء ما تنطوي عليه مطامعهم الاقتصادية والسياسية.

رأى صلاح الدين أن ميناء أيلة سيكون قاعدة انطلاق للصليبيين لتنفيذ أغراضهم التوسعية، فهب ليدفع عن البحر الأحمر الخطر، فاستولى على أيلة في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ثم حصنها^(٢).

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه للسيطرة على مفتاح البحر الأحمر الجنوبي وتأمين القوافل التجارية القادمة من الهند والصين إلى مصر عبر اليمن. وكذلك أن يضمن لمصر استمرار ورود تجارة الكارم من عدن إلى عيذاب، فيحصل على الذهب من حصيلة الرسوم التي تجبى من الثغور المصرية واليمنية (المخا - زبيد) على السواء^(٣).

إذن كان الفتح الأيوبي لبلاد اليمن ضرورة اقتصادية لمصر، وأيضاً إستراتيجية في مواجهة القوى الصليبية والحد من أطماعهم التوسعية في البحر الأحمر^(٤).

بتضح لنا من كل ما سبق أن الأسباب الحقيقية في اتجاه صلاح الدين الأيوبي لفتح اليمن، حتمية فكرة وحدة الجبهة العربية الإسلامية، من أجل التصدي للخطر الصليبي، الذي شكل جبهة ضد المسلمين جمعت كل أوروبا واتجه لغزو العالم الإسلامي، فشكّل ذلك خطراً على المسلمين،

(١) كان الصليبيون يفكرون في حشد أساطيل عظيمة من البحر الأحمر - عن طريق أيلة - بقصد الإغارة على الحجاز وقبر الرسول (ﷺ). عبدالعال : دراسة حول أسباب الفتح الأيوبي، ص ٣٣٠؛ جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٩٦.

(٢) أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ٣٥-٣٧.

(٣) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٨٠؛ محمد أمين صالح : دولة الخوارج في اليمن، ص ١٤٢؛ عبدالله سعيد الغامدي : صلاح الدين والصليبيون، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٥٧، ٥٨؛ محمد كريم : عدن، ص ٢١٨.

(٤) نشطت التجارة البحرية عبر اليمن منذ العهد الفاطمي بمصر، وبدأ يقل نشاطها في العهد الأيوبي فأثر ذلك على دخل مصر المالي. السروري : تاريخ اليمن، ص ٢٠٩.

الذين افترقوا وانقسموا إلى عدة دويلات مختلفة سياسيًا ومذهبيًا^(١)، فكان لابد من توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة هذا الخطر.

على أن هذا التوحيد لم يكن هدفه الاقتصار على القضاء على الدويلات السياسية ذات المذهب الواحد، بل القضاء على جميع المذاهب الإسلامية التي ظهرت آنذاك في العالم الإسلامي من شيعة وخوارج، وتوحيدهم في دولة واحدة ذات مذهب ديني واحد هو مذهب أهل السنة أو مذهب الخلافة العباسية^(٢).

حملة تورانشاه إلى اليمن ٥٦٩هـ/١١٧٤م :

استأذن صلاح الدين موله نور الدين لفتح اليمن، بجيش يقوده أخوه الأكبر شمس الدولة تورانشاه الذي تحمس لهذه المهمة^(٣)، وجهزه بحملة عسكرية كبيرة فيها العديد من الأمراء والقادة وجمع كبير من العساكر بلغ عددهم ثلاثة آلاف فارس وراجل، وجهزه بالكثير من الأموال التي يحتاجها لهذه الحملة، فأطلق له صلاح الدين خراج " قوص " لمدة سنة^(٤)، وهو ما يقدر بمائتين وست وستين ألف دينار، وهي مالية قوص للسنة التي خرج فيها تورانشاه إلى اليمن^(٥). كما أعد له الأزواد والسلاح وغير ذلك من آلات الحرب^(٦)، وزوده بأكثر مما كان يريد.

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٦٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م ٥، ص ٥١٠؛ Malcolm : Saladin, p. 66.

بدأ صلاح الدين فكرة توحيد المذهب السني ابتداءً بمصر حين قطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمي وإقامة الخطبة والدعاء للخليفة العباسي المستضيء بالله وذلك سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بأمر من الملك العادل نور الدين محمود.

(٣) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٤؛ الذهبي : تاريخ الإسلام، وفيات ٥٦١-٥٧٠هـ، ص ٥١؛ أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٢١٧؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ٢٨، ص ٣٧٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٢٩؛ بيوتروفسكي : اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٥٨؛ محمود شاكر : التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ٦.

Michael, Jenner : Yemen, p. 50.

(٤) أبو شامة : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٨١، ٨٢؛ السمروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢١٢.

(٥) المقرئزي : الخطط، ج ٣، ص ٥٩.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٥٢.

غادرت الحملة الديار المصرية في مستهل رجب سنة ٥٦٩هـ/ فبراير سنة ١١٧٤م^(١)، وكان سيرها من القاهرة عبر طريق النيل إلى قوص ومنها بطريق البر إلى ميناء عيذاب^(٢)، ثم عبرت البحر الأحمر إلى جدة، ومنها سارت إلى مكة لأداء مناسك العمرة^(٣)، ولم يبق بها تورانشاه طويلاً إذ تركها إلى اليمن عن طريق البحر.

وبعد أن اعتمر شمس الدولة تورانشاه وجيشه في مكة، خرج منها في مستهل رمضان من نفس السنة متجهاً إلى اليمن عبر طريق الحبيج.

وما إن وصلت حملته إلى حَرَضَ من أرض اليمن حتى أسرع إليها الأشراف السليمانيون على رأسهم الأمير قاسم بن غانم بن يحيى السليماني مرحباً بها ومعلنًا الطاعة والولاء لقائدها^(٤)، ومبدئياً استعداداً لمناصرته ضد ابن مهدي، الذي قتل أخاه وهاس ونهب حرَضَ وقرأها وأراق الدماء، وطلب منه أن يكون أول دخوله اليمن نجدة لبني سليمان ضد ابن مهدي، فاستجاب له تورانشاه^(٥).

رأى تورانشاه في اصطحاب الأمير قاسم كحاكم لإحدى دويلات اليمن، سيسهل عليه معرفة مسالك الطريق، وكيفية التعامل مع القوى اليمنية الداخلية، وييسر عليه فتح اليمن.

فتح زبيد :

خرجت حملة شمس الدولة تورانشاه والشريف قاسم من حرَضَ في أواخر شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ/ مارس سنة ١١٧٤م، متجهة إلى زبيد، فوصلت إليها في السابع من شهر شوال

(١) الخزرجي : العسجد، ق ١٧٥؛ ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٥٢؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، مجلة المشرق، ١٢٨٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٨٩؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص ٦٩؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٨٢؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢١٢.

(٢) السبب في سير الحملة عبر عيذاب وليس عبر السويس أو العقبة هو تأمين الحملة من التعرض للصليبيين، فذلك الطريق كان أكثر أمناً من الطريق البري الذي يبدأ من أيلة والذي لم يكن في الإمكان استعماله طوال الحروب الصليبية. عبدالعال : المرجع السابق، هامش ص ٨٢؛ السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٦٥٩؛ Lane, Poole : Saladin, p. 126.

(٤) يذكر الخزرجي أن الشريف قاسم استقبل القائد الأيوبي في أبي تراب بوادي بيش.

الزليعي : المخلاف السليماني، هامش ٥ ص ٧٤.

(٥) ابن حاتم : السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، لندن، ١٩٧٤م، ص ١٦؛ الزليعي : المرجع السابق، ص ٧٣.

سنة ٥٦٩هـ / مايو سنة ١١٧٤م^(١).

وما إن علم عبدالنبي بن مهدي بوصول الجيش الأيوبي، وتعاون الشريف قاسم بن غانم معه انتقاماً لمقتل أخيه، حتى سارع في الخروج لقتالهم خارج أسوار زبيد، لمباغثة الحملة مستغلاً تعب الحملة من جراء سيرها في الطرق، بالإضافة إلى المدافعة عن أسوار زبيد من خارجها خوفاً من نصب السلاالم عليها.

وحاول عبدالنبي بث الحماس في جيشه بقوله لهم " كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا، وما هم إلا أكلة رأس "^(٢).

ودارت رحى الحرب بين الطرفين ولم تتمكن قوات ابن مهدي من الصمود أمام القوات الأيوبية، فانهزمت واتجهت نحو زبيد للتحصن وراء أسوارها، وتفرقت القوات في كل اتجاه أما الجيش الأيوبي فقد ظل يتابع مطاردة جيش ابن مهدي نحو زبيد فحاصروهم بها، ونصب السلاالم على أسوارها، وتسلفت بعض قواته وتمكنت من فتح الأبواب، لعدم وجود حراسة عليها، وظلت الحرب قائمة بين الطرفين لمدة ثلاثة أيام، انتهت بتمكين الأيوبيين من دخول زبيد عنوة غروب شمس يوم الاثنين التاسع من شوال سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م^(٣).

وما إن دخلت قوات الأيوبيين زبيد حتى أسرعوا لأسر حكامها من بني مهدي ونهبوا ما بها من الأموال والخيول وسبوا الكثير من نسائها^(٤).

بعد ذلك غادر الشريف قاسم السليماني زبيد عائداً إلى حرص^(٥)، بعد أن كافأه تورانشاه على تعاونه معه، بأن أقره على حكم المخلاف السليماني، وأشرف معه في الحكم ابن أخيه ويدعى منصوراً، وقسم المخلاف بينهما، بحيث أصبح ما بيد منصور يمتد من وادي عَين جنوباً وإلى

(١) الحمزي : كنز الأخبار، ق ٩١؛ الخزرجي : العسجد، ق ١٢٧؛ يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٤؛ ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٧؛ ابن حاتم : السمط الغالي الثمن، ص ١٦؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٨٤؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢١٣؛ الحياة السياسية في اليمن، ص ٢٦٤؛ محمود ياسين التكريتي : الأيوبيون في اليمن، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، ١٤١٠هـ / ١٩٨٠م، العدد ١٢، ص ١١٥؛ سقاف على الكاف : حضرموت، مكتبة أسامة، بيروت، د.ت، ص ٥٠.

(٢) أي أنهم قليلي العدد ولا يستطيعون تحمل الحرب في حر تهامة. ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٥٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٩؛ ابن الأثير : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٢١.

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) الزيلعي : المخلاف السليماني، ص ٧٥.

الساعد شمالاً، وما يلي ذلك إلى الشمال حتى نهاية المخلاف بيد عمه الشريف قاسم^(١). عاد الأشراف إلى بلادهم في الثالث عشر من شوال من السنة نفسها^(٢)، أما تورانشاه فقد أقام في زبيد لضبط أمورها وإراحة جنده حتى شهر ذي القعدة^(٣). بذلك تمكن الجيش الأيوبي من السيطرة على زبيد والقضاء على حكامها، فانتهت بذلك دولة بني مهدي في اليمن.

بعد استيلاء تورانشاه على زبيد خرج منها للسيطرة على بقية مناطق اليمن، وولي عليها أحد الأمراء الأيوبيين وهو المبارك بن منقذ^(٤)، وأوكل إليه أمر تعذيب بني مهدي واستخلاص الأموال منهم^(٥)، وخاصة عبدالنبي وزوجته الحرة، فأمره أن يستخرج منه الأموال، فأعطاه عبدالنبي منها شيئاً كثيراً ودلهم على قبر أبيه وله هناك دفائن كثيرة، فاستخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار، أما الحرة فإنها أيضاً دلتهم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيراً^(٦). اتجه تورانشاه في مطلع ذي القعدة نحو تعز، وكانت تابعة لابن مهدي، فسيطر عليها دون مقاومة من أحد، وذلك بسبب اتجاه حامياتها للتحصن بالجبال المجاورة لها لخوفهم من الجيش الأيوبي.

(١) عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٨٦؛ الزيلعي : المخلاف السليماني، ص ٧٥.
(٢) تشير المصادر أن الشريف قاسم لم يطل به العهد بعد عودته من زبيد، حيث أنه توفي بعد شهر واحد من عودته، ومما تذكره هذه المصادر عنه أنه قال : " من عاش بعد عدوه يوماً فقد نال المنى ". فعاش بعد ذلك شهراً ومات، أي حوالي الثالث عشر من شهر ذي القعدة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م. وجدير بالذكر أن الشريف قاسم ثار من القبائل التي ساعدت عبدالنبي في مهاجمة بني سليمان ونهب أموالهم وسبى نسائهم، وذراريهم، فقد جمع رجاله وهاجم وادي العين والمهجم قبل وفاته.

الخرجي: العسجد، ق ١٦٩؛ الزيلعي: المرجع السابق والصفحة؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢١١.
(٣) الخرجي : المصدر السابق، ص ١٧٧؛ ابن حاتم : السمط الغالي، ص ١٦؛ ١٧؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص ٦٩.
(٤) هو الأمير سيف الدولة أبو ميمون مبارك بن منقذ الكناني، يروي ابن واصل وأبو مخرمة، أن إقامته لم تطل كثيراً باليمن، إذ كان يهوى الشام لأنها وطنه، كما أصابه المرض، فلما عزم تورانشاه على العودة إلى مصر، استأذنه أبو ميمون في صحبتته، وأن يستنيب على عمله في زبيد أخاه خطاب فأذن له بذلك، فكانت مغادرته لها سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٩م.

ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٠٢؛ بامخرمة: المرجع السابق، ص ٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٢.
(٥) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥٢٠.
(٦) ابن الأثير : المصدر السابق والجزء، ص ٥٣.

بعد ذلك حاول تورانشاه السيطرة على جبل صبر وجبل تعز، ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها لمناعة حصونها وظهور المقاومة بهما من حاميات ابن مهدي^(١)، وعدم توافر الوقت الكافي لتورانشاه والجيش الأيوبي لاستمرار فرض الحصار على تلك الحصون، ففضلوا تركها واتجهوا نحو الجند، فسيطروا عليها هي الأخرى دون حرب أو مقاومة^(٢).

ثم توجه تورانشاه نحو عدة مدن في اليمن للسيطرة عليها مثل مدينة عدن وذي جبلة، فضلاً عن السيطرة على ذمار، ومروراً على صنعاء، ثم عاد إلى زبيد^(٣).

القضاء على نفوذ بني مهدي في اليمن :

أقام شمس الدين تورانشاه في زبيد إلى شهر جمادي الأولى سنة ٥٧٠هـ / ديسمبر ١١٧٤م، ثم عزم على الاتجاه نحو " الجند " فلما وصلها أسرع إليه متولي حصن " صَبْر " من قبل ابن مهدي، معلناً ولاءه وطاعته لتورانشاه وتسليمه الحصن، فكان ذلك فرصة لشمس الدين أن يتسلم الحصن دون قتال^(٤).

توجه تورانشاه بعد ذلك إلى الحصون الواقعة غرب مدينة تعز، وكانت تابعة لبني مهدي أيضاً، فسيطر الأيوبيون على حصن " بادية وشرياق "، أما حصن عزان ذخر الذي كان متولياً عليه علي بن الحجاج صهر عبدالنبي بن مهدي، طلب مصالحة الأيوبيين حينما حاصروه، على أن يسلم لهم الحصن وما بحوزته من أموال لابن مهدي والتي كانت تقدر بعشرة آلاف دينار ذهباً، وأن يخلوا سبيله ومن معه، فقبل بذلك تورانشاه، وتسلم الحصن منه^(٥).

بعد ذلك سيطر تورانشاه على عدة حصون هامة تابعة لبني زريع في عدن، مما أدى إلى سقوط حصون الزريعيين وتقلص نفوذهم وانقضاء دولتهم، ثم توجه إلى ذي جبلة^(٦).

(١) الخزرجي : المسجد، ق١٧٧؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٨٧.

(٢) ابن حاتم : السمط الغالي، ص١٧.

(٣) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق٤٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص١٢٩؛ ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٥٣؛ ابن الديبع : الفضل المزيد، ص١٧٩؛ ابن حاتم : المصدر السابق، ص١٧؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص٢٧؛ أبو شامة : الروضتين، ص٢١٧.

(٤) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ص٥٤؛ الكبسي : المصدر السابق والصفحة.

(٥) ابن حاتم : نفس المصدر، ص١٩؛ ابن الديبع : قرة العيون، ص٢٦٩؛ عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص٢٢٠؛ السروري : تاريخ اليمن، ص٢٢٠.

(٦) ابن حاتم : نفس المصدر، ص٢٠؛ محمد بن علي مسفر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٢٦هـ) دار المدينة، جدة، ١٤٠٥/١٩٨٥م، ص٨١.

أقام تورانشاه في ذي جبلة مدة، ثم غادرها إلى مدينة زبيد لما بلغه وقوع خلاف في تهامة، من قبل أهلها المناصرين لبني مهدي، فأمر بقتل عبدالنبي وأخويه أحمد ويحيى، فقتلوا في رجب سنة ٥٧٠هـ/ فبراير ١١٧٥م^(١). واستقر في زبيد حتى قضى على هذه الثورة وبذلك يكون تورانشاه قد تمكن من السيطرة على اليمن الأسفل وتهامة، والقضاء على دولة بني مهدي وبني زريع ثم لقب بالملك المعظم وخطب له في هذه المناطق كما خطب للخليفة المستضيء بالله العباسي^(٢). كما أنه أمن مفتاح البحر الأحمر الجنوبي من محاولات سيطرة القوة المسيحية والصليبية عليه.

وعندما اطمأن تورانشاه على دولته في تهامة، أرسل أطباءه والخبراء، يرتادون له مكانا مناسباً يخطط فيه مدينة تكون مقرّاً رئيسياً له وعاصمة للملوك الأيوبيين، فوق اختيارهم على ذي عُدَيْنة، فاخُتِط بها مدينة تعز^(٣).

استقر تورانشاه في اليمن سنة كاملة^(٤)، من شعبان ٥٧٠هـ/ مارس ١١٧٥م وحتى شهر رجب ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، دون أن يتجه لمحاربة أي قوى بها، وذلك بسبب تركه للكثير من جنده حاميات في كل من زبيد وتعز وعدن وذي جبلة.

فعهد إلى أبي ميمون مبارك بن منقذ الكناني حكم زبيد^(٥)، وولي ياقوت التعزي على تعز ونواحيها، ومظفر الدين قايماز على ذي جبلة^(٦)، وعثمان الزنجبيلي على عدن ونواحيها^(٧).

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٧١.

(٢) المقرئزي : السلوك، ج ١، ق ١، ص ٥٣؛ مسفر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، ص ٨٢؛ دائرة المعارف الإسلامية، م ١٤، عدد ١، ص ٢٦٨.

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٦٤٧؛ نصارى فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص ٧٩؛ السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٢١.

(٤) ابن الأثير : الكامل، ج ١٠، ص ٥٣؛ حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٥٠.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٦) الكبسي : اللطائف السنية، ص ٢٧، ٢٨؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٣١.

(٧) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق والصفحة.

هو عثمان بن عمر بن علي الزنجبيلي الذي اهتم كثيراً بعمران عدن وما حولها حتى "لُخِبَت" التي تبعد عن عدن مسافة فرسخين إلا ربع وذلك ما بين ٥٦٩-٥٧٦هـ/ ١١٨٠-١١٨١م.

حمزة بن لقمان : تاريخ القبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٥١؛ مجلة الخليج العربي :

م ٢٠، ع ٢، ص ٢٨؛ Malcolm : Saladin, p. 159.

أحسن تورانشاه إلى أهل اليمن، واستصغى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن بعد خرابها^(١). إلا أن تورانشاه فكر في العودة إلى الشام لأنه كره اليمن ولم يستهوه الإقامة بها، وجرت مراسلات بينه وبين أخيه صلاح الدين انتهت بأن سمح له صلاح الدين بالعودة.

قرر تورانشاه السير نحو الشام محملاً بالغنائم، فسار إليها من الجند في رجب ٥٧١هـ / يناير ١١٧٦م، وأثناء سيره أمر بشنق ياسر بن بلال وزير بني زريع، والسدوسي، فشنقا على باب الخان في زبيد في نفس رجب ٥٧١هـ / ١١٧٦م^(٢).

إذن استغرقت فترة إقامة تورانشاه في اليمن منذ قدومه، سنتين من رجب ٥٦٩هـ / أبريل ١١٧٤م حتى رجب سنة ٥٧١هـ / يناير ١١٧٦م.

أسباب انتصار الجيش الأيوبي علي بني مهدي :

أولاً : الظرف السياسي والاجتماعي الذي كانت تعيشه اليمن، وتمزقها إلى طوائف ودويلات تتطاحن وتتصارع فيما بينها، فأدى ذلك إلى ضعفها جميعاً، حيث قامت حروب كثيرة بين عبدالنبي بن مهدي ودولة بني زريع ودولة بني حاتم، وكان الصراع بينهما متواصلاً، مما أدى إلى انتشار الفوضى، والاضطراب، كما أدى الصراع بين هذه الإمارات إلى زوال بعضها، وقيام البعض الآخر على أنقاضها.

ثانياً : الفرع والقلق الذي أثاره عبدالنبي بن مهدي بالإغارة على المدن اليمنية بغية الاستحواذ عليها وإخضاعها لنفوذه.

ثالثاً : كره أهل اليمن لعبدالنبي بن مهدي، وتخوفهم منه، بسبب شدة تطرفه وفتكه بكثير من الأهلين في مواضع كثيرة لمدن كثيرة في اليمن.

رابعاً : مهما كانت أسباب الانتصار الأيوبي فلا بد أن يكون هناك تعاون وتخطيط مسبق مع عناصر وطنية من اليمن نفسها لتسهيل هذا الانتصار، وتجلي هذا العنصر في الشريف قاسم بن غانم السليماني حاكم المخلاف السليماني، وتعاونه مع تورانشاه، كونه من القوى اليمنية التي ستسهل له مسالك الطريق وكيفية التعامل مع القوى اليمنية الأخرى وأيضاً للنار من ابن مهدي الذي قتل أخاه الشريف وهاس بن غانم.

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ١، ص ٥٣.

(٢) ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٣١٨.

خامسًا : ظهور الضعف والانهزام على قوات ابن مهدي منذ بداية ٥٦٩هـ/١١٧٤م حيث وقفت ضده قوات اليمن القبلية من بني زريع وبني جنب وبني حاتم، حيث أسفر هذا التجمع القبلي عن هزيمة ابن مهدي في ذي جبلة وتعز.

سادسًا : عدم سحب ابن مهدي لقواته في المناطق التي سيطر عليها في اليمن للدفاع عن زبيد أو الهروب إلى الجبال والتحصن بها، وذلك لعدم معرفته لقدرة الجيش الأيوبي القتالية.

سابعًا : قوة كثرة الجيش الأيوبي فكان الجيش الأيوبي كله معدًا للقتال ومدربًا تدريبيًا عسكريًا عاليًا، جعل مقدراته القتالية أكثر فعالية، مع كثرة عدده واستخدامه لأسلحة لم يقدر عليها جيش ابن مهدي، أما جيش ابن مهدي كان عكس ذلك، فكان أغلب الجيش قبليًا لم يكن على مستوى عالٍ من التدريب العسكري والمقدرة القتالية.

ثامنًا : استخدم الجيش الأيوبي لطرق حربية لم يعرفها جيش ابن مهدي من قبل ولم يستخدمها، منها فكرة استخدام السلام، فلم يكن جيش ابن مهدي في حاجة إليها وذلك لطبيعة اليمن الجبلية، وتحصن جيشه بهذه الجبال، ولكن فكرة السلام سهلت على الجيش الأيوبي الوقت الكثير في مهاجمة المدن من أسوارها بدلاً من حصارها الذي سيكلفهم الكثير من الوقت والمال، وهو ما لا يرغب فيه الأيوبيون.

إضافةً إلى ذلك خبرة الجيش الأيوبي في القتال في المناطق المفتوحة مثل مدينة زبيد، وليس في المناطق الجبلية، فكان من السهل فتح البلاد اليمنية عن طريق الهجوم المباغت من أسوارها، وذلك ما حقق النصر للأيوبيين على عبدالنبي بن مهدي.

تاسعًا : عدم تمكن حاميات الحصون اليمنية من مقاومة الجيش الأيوبي أو تحمل الحصار لفترة طويلة، لتفوق القوى الأيوبية عليهم، والتي تمكنت من تحقيق الانتصار عليهم والسيطرة على المدن اليمنية الأخرى، والتي سرعان ما أعلن أصحابها استسلامهم.

عاشرًا : وأخيرًا التصارع المذهبي الذي كان قائمًا في اليمن بين البلدان والإمارات فكان هناك اختلاف وانشقاق مذهبي، فكان بنو مهدي خوارج، وأصحاب المخلاف السليماني سُنَّة، وحكام عدن وصنعاء إسماعيلية، وحكام صعدة زيدية، فأدى ذلك إلى تطاحن وتصارع مذهبي وسياسي أودى بأمن وأمان الحالة السياسية والاجتماعية باليمن في تلك الفترة.

أما عن نتائج الفتح الأيوبي لليمن فهي كالآتي :

أولاً : نهاية دولة بني مهدي بالقضاء على نفوذها في اليمن، وتتبع أفراد أسرة بني مهدي

وقتل معظمهم.

ثانيًا : أسر زوجة عبدالنبي بن مهدي وتسمى " الحرة " والتي كانت ذات ثراء هائل، وكانت امرأة صالحة، كثيرة الصدقات، وكان لها دور كبير في إرشاد تورانشاه إلى ممتلكات دولة بنسي مهدي وكنوزها في الأنحاء المتفرقة من الحصون اليمنية.

ثالثًا : إجبار عبدالنبي وهو في الأسر من قبل الأمير سيف الدولة مبارك بن منقذ أن يستخرج الأموال التي لديه، وكانت أموالاً جلييلة المقدار، وإرشاده عن الأموال والكنوز التي كانت مدفونة في قبر أبيه علي بن مهدي، والذي يسمى " بالمشهد "، فتم هدم قبة المشهد وأُخْرِجَت الأموال منه والتي كانت بمقدار ستمائة حمل.

رابعًا : فتح تورانشاه بلدان اليمن وحصونها، والتي قُدِّرَت بثمانين حصناً ومدينة، واستيلاءه على أموالها وذخائرها.

خامسًا : السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وتأمين حدود الدولة الأيوبية في الجنوب ضد حملات الصليبيين.

سادسًا : إعادة الخطبة في اليمن للخليفة العباسي المستضيء بالله، والعمل على إصلاح أحوال اليمن ليعود لها الأمن والرخاء

سابعًا : القضاء على مظاهر الانقسام الداخلي، والعمل على أن تكون بلاد اليمن جزءاً من الدولة العربية الموحدة التي يهدف إليها صلاح الدين الأيوبي.

كان لتكوين الجيش والإستراتيجية العسكرية لدولة بني مهدي أثر كبير في سقوط هذه الدولة وانتهائها، ونحاول في عجلة التركيز على أهم العناصر الخاصة بالجيش وسياستهم العسكرية لتوضيح أثرها في سقوط الدولة.

عناصر الجيش :

اعتمد الجيش في دولة بني مهدي على العنصر القبلي، باعتبار أن هذا العنصر من سمات أي جيش في دويلات اليمن الإسلامية، مع الاختلاف، فكانت بعض القبائل اليمنية تعتبر الدخول في رسوم الجندية، واستخدام غاراتها، فيه إهانة لها وترفض قبول الأعطيات من خلالها، وكانت بعض القبائل تحب أو ترحب بالدخول في رسوم الجندية، وتفضل العمل بها على غيرها من الأعمال، وتطلب المزيد من أعطياتها، وتعتبر قبيلة همدان وملوكها من أهم القبائل اليمنية التي كانت تفضل الدخول في رسوم الجندية، ولا تعتبره سُبّه، مما جعلها تلقى شهرة لدى بعض

الدويلات اليمينية، حتى أصبحت تلك الدول تهابها وتقبل المسالمة معها وتعطيها الغنائم والأموال. كما كانت تأخذها للحرب معها، من ذلك حكام مدينة زبيد الذين كانوا يهادنوها ويبيعون إليها بالأموال، ويرسلون إليهم بدعوتهم للعطاء والخروج معهم لحرب بعض أعدائهم، ذلك كان يحدث منذ نشأة مدينة زبيد في عهد بني زياد إلى عهد الدولة النجاشية، ولكن قبائل همدان وغيرها انقلبت على حكام زبيد في عهد بني مهدي، وأخذت الجانب الآخر لمحاربتهم، فخسرت دولتهم عنصراً هاماً في الجيش، إلا أن انضمام أهل الجبال مثل وصاب وريمة^(١)، وأيضاً أهل القرى مثل العنبرة، وواسط والقضيب، والأهواب، والمقتفي، وساحل القارة^(٢)، كان لها كبير الأثر على جيش دولة بني مهدي من حيث القوة والعدد.

الوحدات العسكرية :

كانت الوحدات العسكرية القتالية في جيش بني مهدي تشابه الوحدات التقليدية والتي كانت تتكون عادة من الفرسان، والرجالة أو المشاة، والرماة بأنواعهم، أي رماة الرماح، ورماة السهام، ورماة الأقواس، بالإضافة إلى رماة النار وغيرهم.

الفرسان أو الخيالة :

كانت الفرسان أو الخيالة من أهم الوحدات القتالية آنذاك في جيش بني مهدي بحيث لا تخلو معركة منهم، وخاصة في الأماكن السهلية المفتوحة كزبيد، وتعد الخيول من أهم عناصر الهجوم والانسحاب السريعين، فكانت تستخدم للمطاردة، والاستطلاع والتطويق، والالتفاف لسرعتها في الحركة، ويظهر لنا جلياً دور الفرسان في زحف علي بن مهدي على زبيد، وعدم مقدرة الجيش النجاشي للمقاومة، مما نتج عنه استيلاء علي بن مهدي على زبيد قهراً بالسيف، والسيطرة عليها وتوطيد سلطانه عليها سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(٣).

وكذلك كان اعتماد مهدي بن علي بن مهدي في كل غاراته الاستكشافية على الفرسان والتي دائماً ما كانت تنتهي بالتخريب ومنها غارته على الجند سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م.

(١) الكبسي : اللطائف السنية، ص ٨٧.

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٤٩.

(٣) قال علي بن مهدي واصفاً مفتخرًا بخيله وفرسانه الذي تقدمهم في الاستيلاء على زبيد :

عناق العناق الصافنات السوابق	الذ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا بالليل فوق ظهورها	الذ إلينا من رقاد النمارق
وما العز إلا في صها كل صاهل	من الخيل لا في صهوتي كل ناهق

ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

وكذلك اعتماد عبدالنبي بن علي بن مهدي على الخيالة أو الفرسان في كل حروبه ولاسيما في مقدمة جيشه لاستطلاع مدى قوة الجيش المعادي له، ويتجلى ذلك في خروجه بجيش جرار إلى جهة أثين سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣-١١٦٤م.

وهذا كله بجانب اهتمامهم بالخيال والإبل التي كانت من أهم الوسائل لدى الفارس في المعركة، وخاصة في مناطق السهول التهامية.

الرجالة أو المشاة :

كان الرجالة أو المشاة أداة فعالة في المعارك التي خاضها جيش دولة بني مهدي في مراحلها المختلفة بدءاً من علي بن مهدي وانتهاء بعبدالنبي بن مهدي، وكان الرجالة أو المشاة يشكلون الغالبية العظمى للجيش، ومن ذلك أنه عندما هاجم علي بن مهدي مدينة الكدراء سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م^(١) كان جيشه يضم ٤٠ ألف راجل، مما ألقى الرعب والفرع في قلوب منافسيه، بغض النظر عن نتيجة هذه الهجمة والتي مَنِيَّ على أثرها ابن مهدي بالهزيمة.

الرماة :

الرماة بأنواعهم، كرماة الرماح والحراب والسهام والمنجنقات، وكانت فرقتهم تتكون من المشاة والفرسان، وكان لهم دور بارز في المعارك، فقد تدار المعركة بكاملها بالرماة، فمثلاً كانت أغلب غارات وغزوات حكام دولة بني مهدي تهدف إلى حرق الأماكن والبلدان اليمنية وتخريبها فترمى بالمنجنق والنفط حتى تُخرب تماماً.

أنواع الأسلحة :

استخدم جيش دولة بني مهدي أنواع الأسلحة المعروفة آنذاك في العالم الإسلامي، مثل السيف^(٢)، والرمح، والسهم، والحرية^(٣)، والخنجر^(٤) وهم من أهم ما يميز الجيش اليمني عموماً.

(١) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ٢٧٤؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٤٩؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٩.
(٢) ابن هذيل الأندلسي : حيلة الفرسان وشعار الشجعان، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ط ١، ص ٢٦٥.
(٣) الحراب : اسم من أسماء الرمح ولكن تختلف تسميتها باختلاف طوله فالقصير وهو ما دون الأربعة أذرع يسمى الحرية، ويتكون من عود من شجر صلب مثل النبع أو القصب الهندي المجفف، ويركب في رأسه نصل من حديد فيسمى رمحاً.
عبدالرحمن عميرة : الإستراتيجية الحربية في إدارة المعارك في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٩٨، ٩٩.
(٤) الخنجر: يسمى الجنبية في التاريخ اليمني، ويسمى بالجنبية لأنه يوضع على جنب الفارس حتى أصبح جزءاً -

ومن الأسلحة أيضاً المنجنيق والعرادة :

والمنجنيق آلة تُرمى بها الحجارة، ويعد من الأسلحة الهامة في كسب الحرب وتحقيق الانتصار، والعرادة أصغر من المنجنيق ترمى بالحجارة المرمى البعيد أو منجنيق صغير كان يستعمل في السهام الكبار دفعة واحدة، إلى مسافات وأهداف بعيدة لا تصل إليها القسي العادية. واستخدم مع المنجنيق والعرادة النفط لإحراق الأماكن ونحوه^(١).

وممن استخدم المنجنيق مع العرادات والنفط، مهدي بن علي بن مهدي، عندما شن سلسلة من الحروب على اليمن الأسفل في الجنوب، وإحراقه سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م لمدينة الجند ومسجدها بمن فيه من أهلها وودائعها وكتبها ومصاحفها، وتركها خاوية على عروشها^(٢).

وكذلك إحراق عبدالنبي القرية تسمى " الضربة " سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م، وهي تابعة إلى منطقة " أبين " وقتل الكثير من أهلها^(٣).

وأيضاً استخدمها أحمد بن علي بن مهدي، عندما ذهب للجوة سنة ٥٦١هـ / ١١٦٤م وأحرقها^(٤).

كما اصطحب بنو مهدي عند خروجهم للمعارك ما يلزمهم من المؤن والمعدات، مثل الزاد والمياه والخيام، خاصة إذا ما كان بنو مهدي في سبيلهم لحصار بعض المناطق والمدن لمدة طويلة تصل أحياناً إلى أسابيع وشهور.

أيضاً استعانوا برواحل لحمل الجنود والمؤن مثل الحمير والبغال والجمال التي استخدمت في المناطق السهلية التهامية.

= منه لا يفارقه طوال حياته، حتى أن الفارس عندما يُقتل في المعركة يرثه ابنه في الجنبية ولا يفرط فيهما، وهو إرث يفخر به الأبناء، كجزء من الشجاعة والفروسية، ومن أشهر أسمائها هي الزبيدية نسبة إلى مدينة زبيد.

زيد يحيى المحبشي : الجنبية اليمنية في العصر الإسلامي، تراث مجمع الفنون اليدوية والانتماء الاجتماعي، ٢٠٠٩م، ص ٣.

(١) Oman : C. W. C. : " Ahistory of The art of war in the middle ages ", London, 1982, p. 219.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق ١٦٤؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨، ٥١٩.

(٣) ابن أسير : الجوهر الفريد، ق ١٦٥؛ ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٧٦؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٩.

(٤) ابن النديع : قرّة العيون، ص ٢٦٧؛ بامخرمة : ثغر عدن، ص ١٦٠.

ضرب الطبول والأبواق :

كان الجيش في اليمن يستخدم ضرب الطبول والأبواق، وقد استخدمت لعدة أغراض منها، إشعار الجند بالاستعداد للتجمع، والاستعداد لبدء الحرب والاستعداد للرحيل، وإعلاناً بالفرحة والنصر واستقبالاً للجيش العائد من المعركة أو المنتصر، ومن أمثلة ضرب الطبول والأبواق، عندما تمكن علي بن مهدي من الانتصار على دولة بني نجاح في زبيد والسيطرة عليها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، فكانت فرحة أتباعه وأصحابه كبيرة، حتى أن علي بن مهدي أنشد الشعر في ذلك اليوم^(١) فرحاً باستيلائه على زبيد وتوطيد حكمه عليها، وإيذاناً ببداية دولة بني مهدي كدولة مستقلة رسمياً وشرعياً.

الإستراتيجية العسكرية لحكام بني مهدي :

أولاً : علي بن مهدي :

تمتع علي بن مهدي بأهم الشروط التي لابد وأن يتسم بها مؤسس الدولة، وهو القيادة، حيث إن القائد لابد أن يكون قوة دافعة، متحمساً للغرض الذي يحارب من أجله، كما يجب أن يكون ذا عقل متحمس^(٢)، كثير المعرفة، مرناً، سياسياً، ذا صبر لا ينفذ، وقادراً على الإقناع وقوة البيان ويُبعد النظر، وأن يُحسن اختيار معاونيه، ويجيد توجيههم، وهذا ما فعله علي بن مهدي عندما اختار شيخي الإسلام، أحدهما سبأ بن يوسف لطائفة الأنصار، والآخر التويني لطائفة المهاجرين كمساعدين له وهمزة الوصل بينه وبين جنوده وشعبه عموماً^(٣).

وكان من طبع علي بن مهدي كقيادي صفة الحذر والقوة والاحتراس، فلا يحتك بأتباعه أو أصحابه مباشرة، مما كان يطبق عليه قول : " اجعل الحذر رأس مكيدتك، لكن في الحيلة والحذر وسوء الظن مُعْظِماً لأمر عدوك فوق قدره، من غير أن يظهر منك، أو يصدك عن أحكام شيء من أمرك " ^(٤).

جاء مذهب علي بن مهدي في إخضاع كل أتباعه عن طريق العقيدة الدينية — متمثلة في الزهد والورع والتصوف عن أطماع الدنيا والتي أتت ثمارها معه، وكان لها كبير الأثر في التفاف

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) شوقي محمد بدران : العسكرية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ٩.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٠.

(٤) الهرثمي : مختصر سياسة الحروب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤م، تحقيق عبدالرؤف عون، مراجعة محمد مصطفى زيادة، ص ١٩.

عشرات الآلاف حوله من المؤمنين به إيماناً راسخاً ببيادته، وبشخصه أيضاً^(١)، وكان من أهم نتائج اقتناع أتباع علي بن مهدي، أنه أوجب عليهم الطاعة المطلقة له ولكل أوامره.

ومن هنا وضع علي بن مهدي نظاماً عسكرياً لجنوده، وهو نظام جديد يتمثل في ملكية الدولة لكل ما يحتاجه الجندي من سلاح وعدة وغيره، والدولة هي التي تقوم بكفاية الجندي بكل ما يحتاجه من غذاء وملابس له، ولأسرته وأهله. وما على الجندي إلا الطاعة الجبرية لكل التعاليم التي يصدرها علي بن مهدي ومن هذه التعاليم العسكرية^(٢) :

- يحمل الجندي كل ما تغزله زوجته وبناته إلى بيت المال.
- يقوم ابن مهدي بكسوة الجندي وأهله ومن عنده.
- ليس لأحد من عسكريه فرس يربطه في داره، ولا عدة ولا سلاح وغيره، تظل مع الجندي في وقت غير الحرب، بل الخيل تظل في اصطبل ابن مهدي، والسلاح في خزانته أوزردخاناته^(٣)، وعندما تحدث الحرب يُخرج لهم الخيل والسلاح.
- كذلك من التعاليم العسكرية الصارمة لعلي بن مهدي^(٤) :
- قتل المنهزم من عسكريه، فيضرب عنقه ولا سبيل لحياته.
- قتل من شرب الخمر.
- قتل من سمع الغناء.
- قتل من يزني.
- قتل من يتأخر عن صلاة الجمعة.
- قتل من يتأخر عن مجلس الوعظ يومي الاثنين والخميس.
- قتل من يتأخر عن زيارة قبر أبيه.

وهذه التعاليم العسكرية الصارمة لابن مهدي كانت سارية على عسكريه فقط دون الرعايا من

(١) نتساءل هنا هل من علاقة للدين بالقيادة ؟ نعم .. فالقائد الذي لا يتحلى بالفضائل الدينية لا يكون موضع

إعجاب كثير من الناس. ابن عميرة : الإستراتيجية الحربية، ص ٥٩.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق ١٧٠؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٧.

(٣) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٩٠.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٦، ١٢٧.

الأمة^(١)، فالأمر فيهم ألطف من أمر العسكرية^(٢).

على أية حال فإن هذه التعاليم المشددة التي اتبعها علي بن مهدي في بداية اقامة دولته، لم يُستمر في تطبيقها طويلاً، فألغى العمل بها بعد ذلك، وأوضح ذلك عمارة بقوله : " وقد بلغني في هذا الوقت وهو سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م أن الأمر قد هان مما كان عليه من هذه الشدة "^(٣).

البداية الحربية لعلي بن مهدي :

بدأت سياسة علي بن مهدي العسكرية منذ سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م، بغارات تخريبية لمدة ١٠ سنوات على أعمال تهامة القريبة من مواقع تحصنه بالجبال، والتي تميزت بداية بعدم التنظيم نظراً لأنه كان يسكن الجبال، ثم بعد ذلك، بدأ الجيش في التنظيم والتكتيك الحربي بعد انضمام قبائل كثيرة له ورعايا دولة بني نجاح، الذين ضموا الكثير من الجنود، مما ساعدهم على التنظيم العسكري.

كان علي بن مهدي يُغيّر أسلوبه في المعركة حسب الظروف التي تُفرض عليه، فيتبع أحياناً السير مشياً على الأقدام، وكان ذلك عندما نزل من حصن " الشرف " إلى حصن " الداشر " والذي يبعد أقل من نصف يوم عن زبيد، والهدف من ذلك بعد الاستيلاء على مدينة زبيد، أولاً : بث الرعب والفرع في قلوب عرب ورعايا تهامة التي انضمت إلى جيشه خوفاً من بطشه، فبذلك تجمع لديه عدد لا يحصى من الجنود. ثانياً : الطريق الذي كان يسلكه طريق جبلي، أنسب طريقة للنزول والسير فيه هي المشي على الأقدام، فيوفر ذلك من طاقة خيول جنده.

اتسمت هجمات علي بن مهدي العسكرية ببدايتها ليلاً مستخدماً الأحراج للاختباء فكان يهجم بجيشه من حصن الشرف الذي يعد مركز انطلاقه إلى وادي مسيلة تهامة، وهو وادي متعرج مليء بالأشجار الكثيفة، فكان يخرج ليلاً مغيراً على الدولة النجاشية في زبيد آنذاك مُحرقاً ما يجده أمامه، وإذا ما أدركه الفجر، يعود مع جيشه إلى تلك الأحراج متأكداً من عدم قدرة الجيش النجاشي ملاحقته في هذه المنطقة.

سياسة المصالحة التي اتبعها علي بن مهدي في بداية تكوين دولته مع الدولة النجاشية على

(١) الخزرجي : المسجد، ق ١٧٠، عمارة : المفيد، ص ٢٣٧.

(٢) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٧؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٧، عمارة : المصدر السابق والصفحة؛ حسن سليمان : تاريخ اليمن، ص ٢٤١.

(٣) عمارة : نفس المصدر والصفحة. بل أصبح بعد ذلك لكل جندي راتبه وأعطياته المستقلة، وأيضاً مكافأته بعد كل انتصار.

عهد القائد سرور الفاتكي بتوجيه من الحرة " علم " والددة الأمير فانتك بن منصور، وذلك سنة ٥٣٦هـ/١٤١-١٤٢م، فكان لتلك المصالحة كبير الأثر على علي بن مهدي ورعاياه في ذلك الوقت مما أفاده بإعفاء أراضيهم من الخراج وزيادة عدد أتباعه، كما أنهم أثروا واتسعت بهم الحال، مما ساعدهم فيما بعد بالاستيلاء على زبيد والقضاء على الدولة النجاشية.

سياسة المباغثة، حيث اتسمت غارات وحروب علي بن مهدي بالسرعة والمباغثة حيث تبدأ الغارة أو الحرب في الصباح الباكر على القرى، وتعمل على حرق ونهب كل ما تجده، وتعود بالأنعام والأسرى مما أشاع الرعب في أهل البوادي وأخرب قراهم^(١).

ولعلنا نذكر أن المباغثة مبدأ هام من مبادئ الحرب، بل أقوى أسلحة الحرب، فعنصر المباغثة من أقوى العناصر وأبعده أثراً في إدارة المعارك والحروب وتأثيره المعنوي في إنهاء المعركة، وهذا ما كان يحرص عليه علي بن مهدي ويكاد يكون النصر مؤكداً وحاسماً^(٢)، ويتجلى ذلك عندما استمر علي بن مهدي يبعث غاراته إلى سهل تهامة ليلاً ونهاراً وامتدت غاراته حتى شملت معظم تهامة المقابلة للجبال التي تحصن بها، حتى " أجلا جميع أهل البوادي وقطع الحرث والقوافل التجارية "^(٣)، وبطلت الأسفار وعمارة المدن في تهامة، أي انقطع الناس عن السفر من زبيد إلى عدن ومن عدن إلى زبيد مدة ثلاث سنين^(٤).

إن كان علي بن مهدي رجلاً زعيماً، قيادياً، ذا عزم عظيم، وإن كان يتسم بالعنف والقسوة لتحقيق مبادئ سعى إليها في توطيد سلطانه على زبيد، وتأسيس دولته وإخضاع كثير من القرى وأهلها له، واتباعهم له عن طاعة مطلقة.

ثانياً : مهدي بن علي بن مهدي :

كانت سياسة مهدي بن علي العسكرية^(٥)، تعتمد على تطبيق أول قوانين عسكرية أنشأها والده للسيطرة على الفوضى والقضاء على السلطنات والمشيكات والدويلات التي تعيث نهباً

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٢١؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥١؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨.

(٢) عبدالرحمن عميرة : الإستراتيجية الحربية، ص ٢٥٢.

(٣) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٦.

(٤) عمارة : النكت العصرية، ص ٢٦، ٢٧.

(٥) قيل في مهدي بن علي كفاراً شعراً منه :

كلا ومهدي فارس بطل وصدر حيزوم يملأ الحزما

الخزرجي : المسجد، ق ١٦٤؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٥٩.

غصبًا واستهتارًا، وكان مهدي عسكريًا متجبرًا عنيدًا بلغ من العنف والقسوة مبلغًا عظيمًا والتي نهزت كالاتي :

- القيام بغارات استكشافية تخريبية للمدن والقرى اليمنية، فكانت من الأسس العسكرية لمهدي ابن علي، بل ومن الضرورات الحيوية، مثل إشعال الحروب، وعند قيام المعارك ليعرف منها مدى قدرات عدوه، وحتى يدخل رجاله المعركة بخطى ثابتة واثقة من النصر.
- فمبدأ مهدي ألا يلتقي بجيش خصمه ويحاربه في موقف يلفه الغموض والجهل، لكي لا تهتز كفاءته القتالية، فضلاً عن تعرضه للخسائر الكثيرة أو الهزيمة في النهاية.
- فقد كانت غارات مهدي الاستكشافية من عوامل القوة، التي توضح لجيشه نقاط ضعف الجيش الآخر، وكيفية التعامل معها، وتدارك كل عناصر المفاجأة والمباغنة.
- اعتاد مهدي بن علي في سياسته العسكرية أن يغزو ويغير على البلاد، والقرى أكثر من مرة، وحدث ذلك عندما أغار على "لَحْج" مرتين أولهما سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، والثانية سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، وكلاهما بهدف واحد هو حماية للظهر وتهديد عدن تكتيكياً.
- عنفه في إدارة المعارك، حيث أنه كان دائماً يستخدم المنجنيق والنفط في كل غاراته، فكان لا يترك قرية أو مدينة أو أي مكان أغار عليه دون أن يحرقه، ولعل أظهر مثال لنا، ما فعله في مدينة الجند حينما دخلها بالقوة في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م وقتل كل كبير وصغير فيها وأحرق مسجدها على من فيه من ضعفاء وعجائز وعواكف وعزل من السلاح، بجانب المصاحف والكتب وتركها خاوية على عروشها.
- حرصه الشديد بعد كل معركة أو إغارة على جمع ما يقدر عليه من الغنائم والأموال الجزيلة، وسبي الحريم.
- إتباعه نهج أبيه في سياسة المصالحة، حيث إنه عقد مهادنة بينه وبين الداعي عمران بن سبأ الزريعي حاكم عدن على مدينة "عدن" و"الدملوة" بمال محدد يؤديه إليه سنوياً على ألا يتعرض له ولبلاده^(١)، ولكنه كان ينقض العهود.
- استيلاؤه على بعض الحصون المحيطة بالجند مثل الحُرَيْم وحَلَمَة وریشان من السلطان

(١) الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٨.

علي بن أبي الفتوح الوليدي^(١)، واشترى حصن تعز وصبر من أحمد بن المنصور بن المفضل بن أبي بركات^(٢)، وذلك تعزيزاً لقوته.

إذن كانت شخصية مهدي بن علي العسكرية تسعى لتأكيد انتصاراته لأكثر من مرة واستمتاعه بتطبيق مذهبه الذي يوجب تطهير كل ما هو نجس بالنار، وبالتالي وسيلته هنا هي النار، لتطهير المدن والقرى وأهلها، ومن ثمّ يستولى هو عليها فيهدأ بالاً، وتتسع رقعة نفوذه جغرافياً.

ثالثاً : عبدالنبي بن علي بن مهدي :

كانت الصفات الشخصية لعبدالنبي سبباً رئيسياً في سلوكه الحربي، حيث إنه كان فارساً شجاعاً، سفاكاً للدماء، متعطشاً للقتل، وولع بجو المعارك وأحداث القتال، ولا ييأس من الهزيمة أبداً بل يتابع الإغارة على البلدان اليمنية إذا ما استعصت عليه أكثر من مرة ليستولى عليها.

اكتسب عبدالنبي خبرة وثقة عسكرية، مع مشاركته لأخيه مهدي في غزواته، حيث كان عبدالنبي يقوم بمهمة إعداد السرايا للغزو، فتعلم خبرة عسكرية قبل توليه الحكم، وبعد توليه الحكم اهتم كثيراً بالغزو وما يتبعه من قتل ودمار.

ومن العوامل التي ساعدت عبدالنبي بانتشار واتساع نفوذه في اليمن، طول فترة حكمه " عشر سنوات " وهي أطول فترة لحاكم من دولة بني مهدي.

سياسة عبدالنبي العسكرية :

استهدفت سياسة عبدالنبي منذ توليه الحكم سنة ٥٥٩هـ - ٥٦٩هـ / ١١٦٣-١١٧٤م إلى التوسع في نفوذ دولة بني مهدي من حيث :

١- امتلاك الأراضي اليمنية والاستيلاء على البلاد شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، وبالفعل بلغ الاتساع أقصاه في عهده، وملكت زبيد أموالاً طائلة في خزائنها. ولا نبالغ إذ نقول أن ملك دولة بني مهدي في عهد عبدالنبي بلغ اليمن بأسره ما عدا عدن.

٢- امتلاك الكثير من الحصون وشرائها، فكانت الحصون من أهم المواقع العسكرية التي تكسب أصحابها النصر أو المقاومة لمناعة مواقعها الطبيعية، حيث لا يستطيع الجيش المهاجم اجتيازها بسهولة، لذلك كان من الضروري على عبدالنبي الاستيلاء على

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٢.

(٢) ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ٤٨.

الحصون أو شراؤها لأن ذلك أحسن وأسهل وسيلة للمقاومة في الحرب. ومن هذه الحصون على سبيل المثال، حصن المَجْمَعَة، وحصن التعكر، وحصون خَوْلان، وحسن السّواء، وحصني سامع ومطران، وحصن يمين، وهي من معاقل الداعي عمران بن محمد، وحصن سمدان وهو معقل اليمن، وكذلك حصون بلاد بكيل وحاشد، وحصون جبال وادي رَمَع وريمة الأشاعر.

ومما يؤكد وجهة نظر عبدالنبي في قوة الحصون وأهميتها، حصاره لعدن على فترات طويلة ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها لقوة حصونها ومناعتها.

٣- تمتع عبدالنبي بن مهدي بقوة ضاربة واتسمت غاراته بالقسوة والعنف والنهب، فكان يشن الغارات المتعددة المنتظمة على المدن والقرى اليمنية بغية إضعافها، وإضعاف حكائها عسكريًا وماديًا.

٤- كان يبيت السرايا والجنود في كل جهة من الحرب، أي عملية إطباق على الجيش الآخر، فكان يوزع جيشه جغرافيًا، وهو ما يسمى بالتوزيع الإستراتيجي، وهو أمر حيوي، لكي تستطيع قواته مواجهة ضربات المفاجئة للعدو، وعدم إعطاء الفرصة للجيش الآخر في الفرار من المعركة حتى يُمنّيه بالهزيمة الساحقة، وظهر ذلك جليًا عندما تحالف السلطان علي بن حاتم وبني زريع مع بعض القبائل ضد عبدالنبي وخرجوا بجمعهم في صفر سنة ٥٦٩هـ / سبتمبر ١١٧٣م فقسم عبدالنبي جيشه لمواجهة هذا التحالف إلى ثلاث فرق إحداها : وضعها في قرية ذي جبلة، والثانية : وضعها في أكمة الخيالي غرب ذي جبلة، والثالثة : وضعها في حصن المسود وحول زلال شرق ذي جبلة، وهذا التنظيم يتناسب مع مناطق اليمن وطبيعة وعورة مسالكها.

٥- كان يتبع أسلوب المباغته في أوقات الحرب، وغير أوقات الحرب، ذلك عندما انقضّ على أهل الجوة في صبيحة أحد الأعياد، تحديدًا في ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م، فاتاهم على حين غرة وهم يحتفلون بالعيد ولم يستعدوا لهذه الغارة، فأحال فرحهم إلى حزن وتركهم أشلاء متناثرة معبرًا عن ولعه بالقتل وسفك الدماء، فكان لا يراعي الشعائر الدينية أو المناسبات الدينية وحرمة الحرب فيها، ولا يكتفي بالغارة الواحدة، بل يكررها.

٦- اتبع عبدالنبي بن مهدي أسلوب المصالحة مع عدن، فهادن أهلها عليها بمال في كل سنة، وكان في ذلك مُجبرًا، حيث لم يقدر على غزو عدن والاستيلاء عليها.

٧- غير أن عبدالنبي بن مهدي كان يجنح دائماً إلى الحرب النفسية في كل حروبه وغزواته لإيمانه بمبدأ أن الحياة بكل أبعادها ليست سوى صراع وحرب، ومحاولة لنقض الصراع، والصراع الذي يليه، وهذا ما يعبر عنه مفهوم دينامية الصراعات النفسية^(١)، فالحرب ليست حرب سلاح وقتال فقط، ولكن هناك أساليب أخرى لهزيمة العدو، قد تكون أخطر من حرب السلاح، وهذا ما يطلق عليه الحرب النفسية والتي غالباً ما كان يتبعها عبدالنبي، وذلك بالتمثيل بأشلاء قتلاه مما ييث الرعب في قلوب أهل البلاد، وعدم إقدامهم على حربه مرة أخرى، وكذلك كل مدينة يترامى إلى مسامعها سياسته في الحرب .. تأبى مواجهته وبالتالي تُقدم على التسليم أو المصالحة .. أيضاً ما كان يُمتع عبدالنبي ما يشاع عنه بأنه لا يقدر على مواجهته أحد.

إذن كان عبدالنبي يهدف من الحرب النفسية، بث اليأس في نفوس القوات المعادية، عن طريق المبالغة بالتمثيل بأشلاء قتلاه، والمبالغة في وصف قوته، ووصف انتصاراته وأنه قوة لا تقهر، مما يجعل القوات المعادية تشعر باستحالة مواجهته وتطلب مصالحته.

ومما سبق يتضح أن أهم معالم الإستراتيجية العسكرية لحكام دولة بني مهدي تركزت في أهداف دينية لتثبيت قوة نفوذهم في اليمن، واعتراف الدول اليمينية بدولة بني مهدي، كدولة مستقلة، مركز حكمها زبيد، واحترام حكامها ومبادئهم، بداية من مؤسسها علي بن مهدي وانتهاءً بعبدالنبي بن مهدي. وأهداف هجومية في التوسع والاستيلاء على البلدان اليمينية والأراضي والحصون والمعازل، وما بها من كنوز ومال وجوهر، وكذلك السبايا من جوار، والغنائم من متاع وخيول.

وأيضاً أهداف دفاعية في توطيد سلطانهم لمدينة زبيد، وحمايتها من الإغارة عليها وإشاعة الخوف والرعب في نفوس رعايا البلدان اليمينية وحكامها، من قوة بني مهدي العسكرية التي لا يُستهان بها والتي لا تقهر.

(١) جوردن البورت وليو بوستمان : سيكلوجية الإشاعة، ترجمة مخيمر وعبد مبخائيل، دار المعارف، مصر،

الفصل الثالث

الأحوال الاقتصادية

عهد دولة بني مهدي في اليمن

الفصل الثالث

الأحوال الاقتصادية دولة بني مهدي في اليمن

الزراعة :

عرف اليمني حياة الاستقرار منذ القدم في المدن والقرى، وتميز باشتغاله بالزراعة أو الصناعة.

فللمزارع اليمني خبرة تامة بأساليب الزراعة ومواسم البذر وغرس الأشجار ويحسب بدقة لفصول السنة وأوقات بذر الحبوب وزراعة الخضروات، والبقول، وغرس الأشجار المثمرة، والغير مثمرة مثل أشجار الظل، ومتى تقطع، كما كان لهم إلمام بالأمراض التي تصاب بها الثمار، من الحشرات والهوام، فضلاً عن تسميد الأرض وإدخالها بالدمال " الزبل " وكيف تُثري وتقلب، ولهم أيضاً معرفة بمطالع النجوم، ومهاب الرياح، وما تحمل من ضرر ونفع، ودوران الشمس ومنازلها التي يقال لها " العلامة " وكذلك منازل القمر.

العوامل المؤثرة في الزراعة :

تضافرت عدة عوامل مع المزارع في مدينة زبيد لتساعده على الزراعة، ومنها :

أولاً : العوامل الطبيعية :

١ - التضاريس :

لما كان التكوين الجغرافي لليمن يتكون من سهول وهضاب وجبال، لذلك أثرت على حياة اليمنيين عامة والفلاحين خاصة، لكنه حاول أو يُستخر العوامل الطبيعية و يُطوِّعها لصالحه، فعمل على الاستفادة من التكوينات الجبلية وجريان السيول بينها، فأقام بين هذه الجبال سدوداً لحجز المياه لاستخدامها وفقاً لاحتياجاته.

كان موقع زبيد في منطقة السهل الساحلي الغربي لليمن، وهو عبارة عن شريط يمتد على طول المنطقة المطلّة على البحر الأحمر، والواقعة فيما بين الساحل ومناطق الهضاب والجبال التي تحده شمالاً، وتتراوح عرضها ما بين ٣٠ إلى ٧٠ كيلو متراً ويطلق على هذا السهل اسم تهامة اليمن^(١).

(١) محمد متولي : جغرافية شبه الجزيرة العربية (اليمن الشمالي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م،

ط٢، ج٣، ص١٥٢.

يقطع هذا السهل من الشرق إلى الغرب عدة مجاري سيول تصب من المناطق الجبلية إلى السهل وتكون أودية متعددة في تهامة اليمن، أشهرها على الترتيب من الجنوب إلى الشمال : موزع، رسيان، نخلة، زبيد، دماع، سهام، سرّدد، موز، حرض، خلّب، جازان، ضمّد، بيش، وغيرها من الأودية الصغيرة^(١).

كما يمر على زبيد طريقان تجاريان إلى خارج اليمن على امتداد السهل مما أدى إلى وجود العديد من المحطات التجارية المتعددة.

٢ - المناخ :

يسود زبيد مناخ موسمي حار، وتعرض إلى سقوط الأمطار الموسمية عليها، إلا أنها تعتبر من أخصب مناطق اليمن، تربة ونماء، وأكثرها صلاحية لإنتاج الغلات المدارية الحارة مثل الذرة والدخن^(٢) والقطن والموز وغيرها.

وتسقط الأمطار على زبيد صيفاً، وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك وقال : " إن المطر ببلاد الهند واليمن (ومنها زبيد) والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ "^(٣)، أي شهر يونيه (حزيران) ويوليه (تموز) وأغسطس (آب) وجزء من سبتمبر (أيلول) "^(٤). في حين يذكر ابن رسته أنهم : " يمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً وفي الخريف تمام أربعة أشهر ثم تنقطع الأمطار عندهم "^(٥).

أما ابن المجاور فيذكر أن نزول المطر في اليمن عموماً أكثر من تلك المدة بقوله : " وينزل الغيث في جبال اليمن ستة شهور "^(٦). وهو الأقرب إلى الصواب^(٧)، حيث يوجد موسمان للأمطار أحدهما : رئيسي ويمتد من شهر يوليو حتى شهر سبتمبر، والآخر ثانوي يتركز خلال شهري أبريل ومايو.

(١) حسين بن علي الويسي : اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٨-٢٢؛ السروري : مظاهر الحضارة في الدول المستقلة باليمن، ص ١٣٥.

(٢) الدخن : نوع من الحبوب صغير الحجم.

(٣) ابن بطوطة : مذهب رحلة ابن بطوطة، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج ١، ص ٢٢٨.

(٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، مطبعة بريل، لندن، ١٨٨٩م، ص ١٥٢.

(٥) ابن رسته : الأعلام النفيسة، مطبعة بريل، لندن، ١٨٩١م، ص ١٠٩.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٦٠.

(٧) السروري : المرجع السابق، ص ١٣٨.

ثانيًا : أساليب الزراعة :

١ - التسميد :

استخدم الفلاح اليمني عمومًا والزبيدي خاصة السماد الطبيعي في تسميد أرضه، وأجود أنواع السماد هو زبل الحمام وسرقين الطير — ما عدا طير الماء مثل البط — ثم أفضل أنواع السماد مرتبة هو سرقين^(١) الخيل والبغال والحمير ثم الضأن والماعز ثم البقر^(٢).

وإذا خلط السرقين أو ما يسمى بالدمان بعضه ببعض كان سمادًا جيدًا، وإذا خلط السرقين بثلاثة أمثاله من التراب صار صالحًا للزراعة، وكانت الأراضي الزراعية الخاصة بزراعة القمح تسمد بالسماد الجيد قبل الحرث ثم يحرق عليه، وذلك بأن ينثر (الدمان) السماد على طول الجربة ثم تحرق^(٣).

٢ - الحرث :

تحرث الأرض المسمدة عادة في غير وقت الندى، وذلك عندما تضربها الشمس وتجف منها المياه، وتحرث بحسب نوعية التربة من جودة وضعف، وعلى قدر صلابتها ولينها، وعلى حسب نوعية المحاصيل الزراعية، فمثلاً في زراعة البر تحرث أرضه جيدًا، ما بين ثلاث مرات أو أربع أو أكثر وذلك حسب نوعية التربة، وفي الدخن تحرث الأرض مرتين أو ثلاث مرات، وفي السمسم^(٤) تحرث أربع أو خمس مرات، وفي زراعة الفوة^(٥) تحرث الأرض مرات كثيرة قد تصل إلى عشرين مرة، وأحياناً مرة واحدة في المناطق الجيدة التربة ثم تبدأ عملية الزراعة بها^(٦).

ويستمر الحرث في أثناء الزراعة لبعض المزروعات مثل الذرة الرفيعة والدخن، فبعد أربعين يومًا من البذر تحرث الأرض المزروعة، بأن يمر المحراث وسط الزرع في المكان الذي جعله فارغًا من الزرع، بحيث يشكل كل خط للحرث شقًا أو انخفاضًا، ثم يوضح خط الحرث

(١) السرقين : هو ما يسمى بالدمان وهو روث الحيوانات وتتمل به الأرض. ابن منظور : لسان العرب، ج٧، ص ١٧٥.

(٢) الأشرف عمر بن رسول : كتاب ملح الملاحه في معرفة الفلاحه، تحقيق محمد عبدالرحيم حازم، نشر ضمن مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، السنة الثالثة، صنعاء، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص ١٧٨-١٨٤.

(٣) السروري : المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٤) يعرف السمسم في زبيد بالجلجلان أو الجلجل. ابن منظور : لسان العرب، ج٧، ص ٢٦٣.

(٥) الفوة / نبات عشبي له عروق حمراء دقاق طوال يصنع به. حسن شهاب صالح : عدن فرضة اليمن، ص ١٢٢.

(٦) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق، ص ١٨٧، ١٨٨.

الثاني بجانب الزرع من الجهة الثانية، حتى يصبح الزرع على ارتفاع يسمى (كفل) وشق الحرث يسمى (التلم) ويكون فارغ من الزرع، ويسمى هذا الحرث في الجبال (بالكحيف) وفي تهامة يسمى (الشناه)، وبعد شهرين من الحرث المسمى (الكحيف) تحرث الأرض المزرعة مرة ثانية في المناطق الجبلية، أما تهامة فتكتفي بحرثة واحدة، فيوضع شق الحرث (التلم) مكان شق الحرث السابق، لأن التراب قد ردمها (غطاها) بحيث يرفع الذرة مرة ثانية كما عمل في المرة الأولى، وتسمى هذه الحرثة الثانية في الجبال (بالخلفة أو الجلاب) والحرث أثناء الزراعة يساعد على عملية ري الزراعة والاحتفاظ بالماء من خلال الشق (التلم) كما يساعد على تنقية الأرض من أنواع الحشائش والأشجار فتجود الزراعة في الأرض وتنتج أكثر^(١).

وتستخدم الثيران أو غيرها للحرث بأن تتركب آلة الحرث يجرها ثوران أو جمل، وعند الحرث يوضع خط الحرث بجوار الخط الآخر بحيث تكون مقاربة بعضها إلى بعض أي أن تراب الحرث الثاني ينقلب على شرق الخط الأول، فإذا حرث الحرثة الأولى بالطول يحرث الحرثة الثانية بالحرث مقاطعة للحرثة الأولى، وذلك كي يسمح بتقليب التربة وتصفية الحشائش منها وتوزيع السماد عليها^(٢).

٣ - البذر :

تتم عملية البذر بحسب نوعية المحاصيل المزروعة، وحسب نوعية الأرض فالبر أو القمح يبذر (يسفح) والأرض ندية من المطر، ليست ملطمة من شدة المطر، ويكون البذر متوسطاً بحيث يقع في موضع وطأة القدم بقدر سبع حبات أو ما يقاربها، ويحرث على البذر حتى يغطي بالتراب، وإذا كانت الأرض جيدة يكتف بذرها ولا يخفف.

أما الأرض المتوسطة الخصوبة، فيوسط بذرها ولا يرق (يخفف)، وفي الذرة يبذر والأرض متوسطة بين الرطوبة والجفاف^(٣). وفي الطهف يبذر قبل أن يجف الماء من على وجه الأرض^(٤).

وطريقة البذر من الذرة بأن يوضع خط الحرث (التلم) مستقيماً مستوياً، كل خط مستقيم بجانب الخط السابق له غير منطرح بحيث يشكل ما بين الخطين ارتفاع (كفل) ثم يبذر الحب

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحه في معرفة الفلاحة، ص ١٨٢، ١٨٣.

(٢) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق والصفحات.

(٣) الأشرف عمر بن رسول : نفس المصدر، ص ١٨٧-١٩٢.

(٤) الطهف : حب أصفر من الدخن. الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣١٧.

داخل الشق أو خط الحرث، بأن ترمى ثلاث أو أربع أو خمس حبات من بين الأنامل، في كل خطوة، في أثر آلة الحرث (المحراث) حتى يغطي الحب بالتراب، وإذا لم يغطه التراب يطاء البادر بقدمه حتى يغطي الحب، وتعتمد وطأة البادر على الحب بقدمه أو عدم وطأته لها على خفة التراب وثقله من حيث تغطية الحب أو عدمه^(١).

٤ - الري :

استفاد الفلاح في زبيد من مياه الينابيع والعيون وحفر الآبار المتعددة لري أرضه، بجانب مياه السدود والأمطار، وعلى ذلك يوجد في زبيد أربعة طرق للري، هي :

أ- الري بمياه الأمطار.

ب- الري بمياه السدود.

ج- الري بمياه الينابيع والعيون.

د- الري بمياه الآبار.

وأوضح ابن رسته طرق الري بقوله : " وضياهم أجل ضياح وأكثرها فاكهة وأحسنها عمارة، وهي على ثلاثة أصناف، صنف منها اعزاء، وصنف منها العيون، وصنف على الآبار يسقى منها بالإبل والبقر وصنف هي أسراها وأكثرها قيمة على ماء السد " ^(٢).

أ - الري بمياه الأمطار :

يؤدي سقوط الأمطار على الجبال والمرتفعات إلى إنشاء مجار لمياه السيول، وتعتبر هذه المجاري ملكاً عاماً لجميع من يملكون الأراضي على مجاري هذه السيول في أودية زبيد، ولا يجوز لأحد أن يملك مجرى هذه المياه أو المياه نفسها منفرداً دون الآخرين^(٣)، كما لا يجوز للحكام إقطاعها لأحد من الناس أو امتلاكها دون الآخرين.

والقاعدة العامة في ري أراضي المزارعين من مياه السيول، أن يتم ذلك حسب الدور بحيث يروي المزارع أرضه الأول ثم الذي يليه حسب دوره، حتى يروي جميع المزارعين أراضيهم،

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحه في معرفة الفلاحة، ص ١٨٢.

(٢) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١١٢. المقصود بأسراها هو أثرها.

(٣) حسين الأهدل : كشف القناع في معرفة أحكام الزراعة، مجلة الإكليل، العدد الأول، ١٩٨٠م، تحقيق عبدالله الحبشي، ص ١١٦.

وليس لأحد حق أن يحجزها أو يحل في الدور قبل غيره^(١).

وفي حالة قلة مياه السيول وعدم غزارتها أو كفايتها، تروى الأراضي الزراعية الأولى، فالتالية لها بحسب دور كل واحد إلى حيث تنتهي مياه السيول، فتوضع علامة عند انتهاء ري الأراضي الزراعية، وعندما تأتي سقطة المطرة التالية، يبدأ الري من حيث انتهى ري مياه المطر الأولى، وهكذا حتى ينتهي سقي الوادي كله، وهكذا يجري في كل مرة تقديم الأعلى فالذي يليه، بحسب دور كل واحد منهم^(٢).

تلك الطريقة في حالة تتابع سقوط المطر قبل أن يبدأ ضمور زرع المطرة الأولى، أما إذا تأخر جريان مياه المطر على المجاري وبدأ يضمّر زرع المطرة الأولى، يبدأ سقي أعلى أراضي الوادي ثم الذي يليها بحسب دورها إلى حيث ينتهي جريان مياه الأمطار أو السيول، بدلاً من التتابع من حيث انتهت المطرة الأولى وذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الزرع.

ب - الري عن طريق السدود :

تقام السدود على فتحات جبال تتجمع إليها المياه من منحدرات متعددة، وتكون هذه السدود قريبة من الضيعات، وفي موضع مرتفع عنها، حتى يسمع بانحدار المياه إليها بسهولة، وبوضع أسفل هذه السدود فتحة لكل سد تغلق حتى يمتلئ السد بالمياه ثم يفتح ليخرج منها الماء وتسير إلى الأراضي الزراعية عبر المجاري المعدة لها، وعادة ما يتعاون في بناء السد أصحاب الأراضي التي أسفل ذلك فالسد ملكهم جميعاً.

ويوضح ابن رسته أن الري عن طريق السدود هو أكثر أنواع الري المستخدمة في زبيد واليمن عموماً^(٣).

ج - الري عن طريق الغيول والينابيع :

يوجد في زبيد الكثير من الغيول^(٤)، وهي عبارة عن عيون تخرج منها المياه في موسم المطر وتنضب في انعدامها، والنظام المتبع في ري الأراضي الزراعية أسفل هذه الغيول والينابيع، هو أن يبني المزارعون بالتعاون فيما بينهم على كل قدر حصته سدّاً أو خزاناً أو بركة

(١) الأهل : كشف القناع في معرفة أحكام الزراعة، ص ١١٦.

(٢) الأهل : المصدر السابق والصفحة.

(٣) ابن رسته : الأعلق النفيسة، ص ١١٢.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٤٨. وذكر ابن المجاور أن أمام الباب الغربي لمدينة زبيد وجِدَ طاحونين وكانت تستخدم كرافعات للماء.

بالحجر قريبة من مياه العين، ويكون مستواها أسفل من مستوى مخرج مياه العين لكي يتجمع إليها المياه الخارجة من العين، ويصنعون لهذه البركة فتحة أسفلها تسمح بخروج المياه منها، وتوضع لهذه الفتحة صمام تحكم يفتح ويغلق عند الحاجة، ويوجد أسفل البركة قناة رئيسية لتوصيل المياه تمتد عبر الأراضي الزراعية المراد سقيها^(١).

ومن أهم العيون الجارية في زبيد، تلك العيون الغزيرة الماء التي تأتي من شرقيها^(٢)، فسي سرب تحت الأرض حتى تقرب من المدينة، ثم تظهر فتسقي جميع البساتين التي من خارج المدينة والتي داخلها.

ويعد المجرى الرئيسي ملكاً عاماً للمزارعين، أما المجاري الفرعية فهي عادة ما تكون ملكاً خاصاً لأصحاب الأراضي، وإذا كانت هناك أراضي داخلية تسقى عن طريق أراض أخرى فإن المجاري الفرعية عبرها قد تشتري أو تستأجر أو يسمح لهم بها وذلك حسب العادة أو الإتفاق^(٣).

كان نظام توزيع المياه للغيل على المزارعين هو نظام الحصص أو الأسراب، وهو النظام الذي يتحصل بموجبه كل مزارع على نصيبه من المياه على قدر حيازته للأراضي الزراعية^(٤)، وعادة ما تملأ البركة^(٥) أو الخزان على قدر غزارة مياه الغيل، فتارة يمتلئ بنصف نهار، وتارة بيوم كامل، وتارة أخرى بأقل أو أكثر، وقد تُحسب حصص أو أسراب المزارعين بالأيام أو بعدد مرات امتلاء البركة^(٦).

ويتولى الإشراف على توزيع المياه رجل له خبرة في حصص كل أراضي وأوقات امتلاء البركة بالمياه، ويختاره المزارعون، ويقوم بمراقبة حصص كل فرد، وترتيبهم في أخذ المياه وفق النزاع الذي ينشأ بين المزارعين بشأن أحقيتهم في المياه وترتيبهم^(٧).

(١) الأهل : كشف القناع في معرفة أحكام الزراعة، ص ١٢٧-١٣١.

(٢) أول من جرى العين المذكورة وعمل المجرى لها وأدخلها هو القاضي الرشيد أبو الحسن بن القاضي ابن الزبير الغساني، الشاعر والكاتب الأسواني، وكان أوجد عصره في علوم الهندسة، فأتقن هذا المجرى وأحكمه وجره إلى المدينة، وكانت وفاته بمصر سنة ٥٦٣هـ. ابن الديبع : الفضل المزيج، ص ٤٨.

(٣) الأهل : المصدر السابق، ص ١٢٧-١٣١.

(٤) الأهل : نفس المصدر، ص ١١٦.

(٥) البركة : جمع برك، وهي شبه حوض يحفر في الأرض ويتجمع الماء فيها. ابن منظور : لسان العرب، ج ٢، ص ٧٢.

(٦) محمد متولي : جغرافية اليمن الشمالي، ص ٢٤٨-٢٥١.

(٧) محمد متولي : المرجع السابق، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

وفي حالة ري الأرض سواء من الغيول أو السدود، فإن الأرض تسوى تسوية جيدة بحيث تعمل الأرض أحواضًا، وطريقة وضع الأحواض أن تقسم الأرض أقسامًا تشبه الأحواض، وذلك بأن يضع خطأ بالمحراث (التلام) خطأً أو تلمًا مستويًا، ويزيد بجانبه خطأً أو تلمًا آخر، بحيث يكون ما بين الخطين مرتفعًا، وهو ما يسمى عريماً أو كفلاً أو زبيراً، ثم يترك بعده مسافة حسب رغبته في تقسيم الأرض من حيث قوة المياه التي يروى بها وضعها.

وبعد ترك المسافة تضع تلمًا أو خطأً بالمحراث وبجانبه خطأً آخر حتى يكون له ارتفاع بالطريقة نفسها يعمل في الطرف الثالث والرابع حتى تتكون له أحواض إما مربعة أو مستطيلة وذلك بحسب المسافة التي تركها^(١).

ويختلف ري الأرض من محصول إلى آخر، ففي بعض أنواع الزرع قد تفرغ الأحواض مجرد امتلائها بالماء في نفس اليوم مثل زراعة الذرة، وبعض أنواع الزراعات تسد الأحواض ليستقر الماء فترة طويلة وتظل بها حتى تجف، مثل زراعة الأرز^(٢).

د - الري من الآبار :

وصف المقدسي مدينة زبيد بأنها مليئة بمياه الآبار وتستخدم طواحين الهواء كرافعات لمائها^(٣). لذلك اعتمد الفلاح في مدينة زبيد على الآبار في ري كثير من أراضيها، وترفع مياه الآبار عن طريق الحيوانات المختلفة مثل الإبل والبقر والحمير^(٤)، وذلك بواسطة ربط الدلو المصنوع من الجلد بطرف حبل طويل، والطرف الآخر يربط في الحيوان فينزل الدلو في البئر ثم يجره الحيوان ويفرغه في أحواض أو صهاريج بجانب الآبار ويستمر الإنزال حتى يتجمع فيها المياه، ثم ترسل إلى الضيعات عن طريق سواق معدة لري الأرض. وأوضح ذلك ابن بطوطة بقوله : "إنهم يعتمدون في ري أراضيهم على آبار شديدة العمق، ولكي يقوموا بهذا العمل فإنهم يربطون دلوًا كبيرًا بعدة حبال ويشدون أطرافها الأخرى إلى حزامات عبيد أو خدام فيجر هؤلاء الدلو متسلقين عمودًا من خشب أقيم حول البئر ثم يصبون الماء في صهريج ينطلق منه الماء لري الأرض"^(٥).

(١) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحه في معرفة الفلاحه، ص ١٧٨-١٩٢.

(٢) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق، ص ١٧٨-١٨٤.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م، ص ٨٤، ٨٥.

(٤) ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١١٢.

(٥) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ٢٣٦.

ووصف ابن بطوطة زبيد بكثرة مياه آبارها^(١)، كما يذكر ابن الديبع أن أهل زبيد، يفضلون مياه الآبار عن مياه العيون، واصفاً أن كل بيت في مدينة زبيد به بئر، أي وقت أحبوا نزعوا منه الماء^(٢).

إذن تميزت مدينة زبيد بل أراضي تهامة بأن أكثر أرضها يروى عن طريق الآبار^(٣).

ثالثاً : الزرع والحصاد :

اختلفت مدة نمو الحاصلات الزراعية، فالذرة البيضاء، والصفراء تستغرق مدتها في النمو ثلاثة أشهر، وبعضها يستغرق أربعة أشهر وسبعة أشهر، وهكذا تختلف مدة بقاء المحاصيل في الأرض بحسب التربة والهواء ونوع الزرع، وقد يزرع المحصول الواحد في بعض المناطق مرتين أو أكثر في أوقات مختلفة، في حين يزرع في بعض المناطق مرة واحدة، فمثلاً البر المسمى الوسني يزرع في المناطق المعتدلة مع اعتدال درجة الحرارة وتكون زراعته في أول تموز، وأيضاً في نصف تشرين أول إلى نصف تشرين الثاني وأيضاً يزرع في كانون أول إلى كانون الثاني^(٤).

وكذلك الذرة في زبيد تزرع لعدة مرات في أوقات مختلفة، فتزرع في آب وأيلول، وفي ٢٩ آذار، وتزرع في تشرين أول، و ١٦ تشرين الثاني، والعشرين من كانون أول، وهكذا تتعدد زراعة المحصول الواحد في المنطقة الواحدة^(٥).

كذلك تتعدد المزروعات في الحقل الواحد، فتزرع عدة أنواع دفعة واحدة مختلطة مع بعضها البعض، مثل السمسم " الججلان " والقثاء والبطيخ، فينبت كل محصول ويحصد حسب زمان استغراقه في الأرض، الأول فالأول^(٦)، ومن أمثلة المزروعات التي تزرع عدة مرات في زبيد، العنب^(٧)، ويحصد في السنة مرتين، وكذلك الموز، فهو يحصد كل أربعين يوماً.

(١) ابن بطوطة : مذهب ابن بطوطة، ج ١، ص ٢٢٤.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٤٨.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٥٩.

(٤) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحه في معرفة الفلاحه، ص ١٨٠.

(٥) الأشرف عمر بن رسول : المصدر السابق، ص ١٨١.

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٧) العنب (يفتح العين وسكون الباء) هو نوع من الفواكه يعرف بعنب الفلفل تقريباً له عن عنب العظام المعروف بالمانجو، لأنهن العنب يشبه المانجو في لونه وطعمه، ما عدا بذوره وحجمه الذي يكون أكبر من المانجو. عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٨.

من هنا نستطيع القول بأن أراضي زبيد كانت تتميز بتنوع محاصيلها بتنوع خصوبة تربتها وتنوع مواعيد حصادها سواء كانت بالأيام و بالأشهر كما يلي^(١) :

اسم الشهر	عدد أيامه	مقابله	اسم الشهر	عدد أيامه	مقابله
كانون الثاني	٣٢	يناير	تموز	٣١	يوليو
شباط	٢٨	فبراير	آب	٣١	أغسطس
آذار	٣١	مارس	آيلول	٣٠	سبتمبر
نيسان	٣٠	أبريل	تشرين أول	٣١	أكتوبر
آيار	٣١	مايو	تشرين الثاني	٣٠	نوفمبر
حزيران	٣٠	يونيه	كانون أول	٣١	ديسمبر

رابعاً : المحاصيل الزراعية :

تتعدد أنواع المحاصيل الزراعية في زبيد، فبعض محصولاتها أساسية لا يُستغنى عنها وبعضها محاصيل ثانوية، ففي وصف المقدسي^(٢) المدينة زبيد وقرأها قال إنها كثيرة المزارع والبساتين ويخبرنا بأن طعام الناس يعتمد على الدُّخْن والذرة، بينما كان الثمار لديهم قليلة، والذرة منها الصفراء والبيضاء والحمراء والغبراء^(٣).

وكان محصول السمسم من المحاصيل الأساسية لزبيد، بل وأجودها، وكان يعرف باسم الججلان أو الججل، فكان يعصر ويستخدم زيتته لأغراض عدة^(٤).

كما كان القطن^(٥) والعدس من المحاصيل التي لا تقل أهمية عن استخدامها في زبيد، ومن النباتات الهامة التي كانت تزرع هي شجرة (النَبَق) حيث أن الشجرة الواحدة تغل وقر خمسة أباير (جمال) وتستخدم لدبغ الجلود^(٦).

(١) اعتمد الفلاح في مدينة زبيد في زراعته على الأشهر الشمسية وأسمائها ع مع يقابلها بالرومانية كالموضح أعلاه. الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاحه في معرفة الفلاحه، ص ١٧٧.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٨٤، ٨٥.

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣١٧؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٦.

(٤) الهمداني : المصدر السابق، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٥) يوحنا أبكار يوس : قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٩٨، ط ٤، ص ٦.

(٦) يذكر ابن المجاور أن هذه الشجرة من نَبَق العراق لأنه بلا أشواك. عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٦٧.

درس الحبوب وخبزها :

كان أهل زبيد يستخدمون أسلوب درس الحبوب وخبزها^(١)، فبعد الحصاد للبر يجفف بالشمس ثم يكون بحيث يكون ثماره من أعلى متجمعة، وجذوعه من أسفل مفتوحة على شكل هرم، ولا يكوم إلا وهو مجفف ليس به شيء من رطوبة المطر أو الندى، حتى لا يفض أو يتلف، وبعد ثمانية أيام من تكويمه يفك ويداس بالمدواس بواسطة الثيران، يربط حجر من المدواس وذلك بأن يكون بالحجر ثقب أو به خط دائري محفور يربط بهما الحجر، ويستمر الدرس حتى يخلص الحب من التبن، ثم تدرى الحبوب على الرياح حتى يطير منها ما بقي من التبن، وعندما تدرى يمسح بين الفترة والأخرى وجه البر المذري بشجرة تشبه المكنسة، حتى يزول ما بقي من ركب التبن ومن السنابل التي لم تدرس ثم يكون كومه واحدة، ثم يكال، ثم يرفع ليخزن، وذلك بعد أن يبرد من حر الشمس حتى لا يصيبه السوس، ثم يخزن بمخازن كوتها (فتحاتها) مقابلة للشمال، بحيث لا تكون المخازن بجانب المسكن، أو المطبخ أو نار أو ضوء، أو دمان (سماد) أو قرب دواب، أو تبن، ولا تكون فتحاته إلى المشرق أو الجنوب حتى يسلم من السوس^(٢).

أما الذرة، فيقطع سنابلها من عيدانها، ثم يداس وإذا كان قليلاً يخط بالمخابط وعادة ما تكون مخازنه محفورة في الصفاء الأملس^(٣).

ويذكر ابن المجاور^(٤) أن بعض أرباب البيوت كانوا يخزنون الحبوب لديهم، أي أن تقريباً كل بيت لديه ما يعرف في زبيد بمدافن الطعام، وتشبه صوامع الغلال، ولكنها تخالفها بكونها تحفر في الأرض وليست على شكل بنايات على ظهر الأرض^(٥).

وكان المزارع إذا أراد إعداد البذر للسنة القادمة، يختار من السنابل أحسنها، وأكثرها حباً وأجودها، أي أنقى حباً فيضعها منفردة إلى أن تنتشف رطوبتها ثم يخطها بالمخابط وينظفها من القش أو السنابل بعد تخليص الحب منه، ثم يحفظها في مكان جيد الخواء لا يناله حر الشمس ولا الرطوبة حتى لا تسوس، إلا أن يحول عليها الحول، ويأتي موسم الزرع فيخرجها ويذرها في

(١) السروري : مظاهر حضارة اليمن، ص ١٥٨.

(٢) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٣) الأشرف عمر بن رسول : ملح الملاح في معرفة الفلاحة، ص ١٧٩-١٨٣.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٨.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٨؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٦٨.

رض^(١).

إذن توفرت العوامل التي ساعدت الزراعة على الازدهار والتنوع، ومنها كثرة مياه في زبيد والتربة الخصبة والمناخ ... إلا أن بعض الأراضي تعرضت في فترات حكم بني مهدي لضرر شديد وقحط بسبب ظروف طبيعیه كالحطمة العظيمة في نهبانة سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م^(٢)، وأيضًا كثرة الحروب المتتالية بين آل مهدي وبعض حكام البلدان اليمنية الأخرى.

الخضروات والفواكه :

ويوجد في زبيد كثير من الخضروات والفواكه، مثل الرمان، والتين، والبَلَس وهو يشبه التين ويوجد بكثرة، والعنب، وشجر النارجيل وهو جوز الهند، وهذا الشجر يشبه النخل، والعنباء، الباذان، والعنب بأنواعه الكثيرة^(٣) مثل العنب الملاحى، والدوالي، والأشهب، والدرانج، التواسي، والزبادي، والأطراف، والعيون، والقوارير، والحرشي، والتشاني، والنايكى، والرازقي، الضرورع، والرومي، والوادي. ويوجد أيضًا البطيخ ويسمونه البرطيخ أو الحب حب، والموز الذي يوجد بكثرة، والليمون والنانج الحلو والحامض^(٤)، والنخيل المبسوطة على كل لون، أصفر وأحمر وأخضر وتوتي ومقصاب^(٥)، وتبلغ أنواعه في زبيد خمسين نوعًا، ومن فصيلته شجرة المقل، ويقال لها الدوم، وهي تشبه النخل إلا أنها دونه وثمرها يقال له البَهش^(٦)، وتعتبر مدينة زبيد أهم وأشهر مناطق زراعته وما حولها، وذلك لتوفر مياه الآبار فيها^(٧).

النباتات العطرية والطبية :

ومن النباتات العطرية في زبيد^(٨)، الفل الأبيض، والياسمين، وزهر النانج، وزهر الكاذي

(١) الأثراف عمر بن رسول : ملح الملاحه في معرفة الفلاحه، ص ١٨٣.

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٥. ويذكر الخزرجي : لم يتحرك عبدالنبي بن مهدي إلى جهة من الجهات أثناء هذه الحطمة، ولما وقع المطر وأخصب البلاد أغار على المخلاف السليماني.

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣١٤.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٤٨.

(٥) الواسعي اليمني : تاريخ اليمن، ص ٦١، ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة.

(٦) محمد بن علي الأكوع : اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٧١م، ج ١، ص ٦٩.

(٧) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٨٨؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٧، ص ٥٢٤٦.

(٨) ابن الديبع : نفس المصدر والصفحة.

وهو أحمر اللون، وزهرة اللينوفر، والغافية (الحنون) والأترج الأصفر، والريحان، والوزاب، والسنب، وكان يستخرج من سائر هذه الأزهار العطور والأدهان^(١)، والتي كان من أشهرها زيت جوز الهند والذي يصنع من ثمرة النارجيل، فكان يؤخذ بعد نضجه وسقوطه عن شجره، وتزال القشرة ويقطع قطعاً، ويترك في الشمس حتى يذبل، ثم يطبخ في القدور ويستخرج زيتته، الذي يستخدم للشعر^(٢).

ومن النباتات الطبية، نبات الصبر^(٣)، كما وجد العسل الدباسي^(٤) المشهور في مدينة زبيد كغذاء وعلاج في نفس الوقت بجانب عسل النارجيل.

الحرف وأهم الصناعات :

كان الحرفيون يتعلمون الحرفة عن طريق الوراثة، فظهرت أسر متخصصة بالحرف المتنوعة، وكان الفرد يتعلم الحرفة عن طريق التدريب عليها، وذلك بالمشاهدة والملاحظة والممارسة للعمل بجانب السابقين له في الحرفة، وغالباً ما كانت الحرفة تتعرض للهزات التي تهددها بالإنقراض، في فترات الحروب لآل مهدي، ففي بعض الأحيان لا يستطيع الأبناء مواصلة حرفة آبائهم نفسها، فقد يموت صاحب الحرفة قبل أن يُعَلِّم ابنه أو التابع له حرفته وتجربته، ومن جهة ثانية تأثرت الصناعة بالصراعات القبلية المتكررة أو نتيجة اشتراك الحرفيين في الحروب التي يجبرهم حكام بني مهدي على الاشتراك فيها.

ومارس أهل زبيد أنواعاً مختلفة من الحرف والصناعات مثل صناعة المنسوجات، وما يقوم عليها من صباغة وزخرفة، وصناعة الجلود، والعطور، والصناعات الغذائية المعتمدة على الإنتاج الزراعي، وأيضاً الصناعات المعدنية مثل الحدادة والصياغة، وصناعة أدوات القتال وما يقوم عليها من النجارة وغيرها من الصناعات.

والجدير بالذكر أن أهل زبيد استعانوا بالمواد الخام المختلفة للمعادن من البلدان اليمنية الأخرى لتصنيعها وفقاً لاحتياجاتهم، ومن هذه البلدان، المذيخرة، صعدة، جزيرة دهلك، عدن، بلاد خولان، رُغَافَة، جبل نغم قرب صنعاء.

(١) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٤٨.

(٢) ابن بطوطة : المهذب : ج ١، ص ٢٤١.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٧، ص ٥٢٤٦.

(٤) العسل الدباسي نسبة لجبل دُبَاس التابع لزبيد. الحجري : بلدان اليمن، م ١، ج ٢، ص ٣٨٧.

صناعة المنسوجات :

اشتهرت مدينة زبيد بصناعة الملابس الحريرية والقطنية وأشهرها الملابس القطنية التي كانت تصدر لجميع أنحاء اليمن، فضلاً عن أن هذه المدينة تعد مركزاً هاماً لحياكة الملابس^(١)، والصناعات القائمة عليها كالصبغة.

انتشرت صناعة المنسوجات في مناطق كثيرة من اليمن، واشتهرت مسميات هذه المنسوجات باسم مكانها التي صنعت فيه ومن ضمن هذه المنسوجات التي صنعت في زبيد، البرود :

من أهم صناعة المنسوجات في زبيد^(٢) البرود الزبيدية، وكانت غالية الثمن، حتى بلغ الثوب من البرد حوالي خمسمائة دينار^(٣)، وهذا المبلغ المرتفع يدل على أن البرود الزبيدية كان لا يستطيع شراؤها سوى الطبقة الحاكمة أو أهل الثراء، وكان يبلغ طول الواحد منها ثمانية أذرع، ويصدر منها على الجمل الواحد ١٢٢ برذاً وغالباً ما تصنع من الكتان، وكان يستعمله الناس لإكساء أجسامهم به خلال النهار وغطاءاً أثناء الليل^(٤).

وفي ذلك يذكر ابن المجاور بعض المنسوجات اليمنية في زبيد فيقول : " وتخرج من زبيد البردة ثمانية أذرع باليد ويشد حملها مائة واثنين وعشرين بردة ... وشقق الحرير والبيض طول الشقة عشرين ذراعاً بالحديد، ... وهي صنفان أحدهما حرير صرف والثاني خلط حرير وكتان في عرض أربعة أذرع والملايات والجراب وفوط سوسي"^(٥).

الثياب :

صنعت أنواع كثيرة من الثياب، ومنها الثياب السعيدية، نسبة إلى سعيد بن الأخويل النجاشي حاكم زبيد^(٦)، والملاية^(٧) وهي الملحفة وتصنع من القطن والكتان ويلبس هذه الملاية بعض

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ١٤٩، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٤، ص ٣٤٥.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩ ؛

R. B. Serjeant : Islamic Textiles in the Yemen, Lebanon, 1972, p. 31.

(٣) ابن رسته : الأعلام النقيصة، ص ١١٢.

(٤) كانت اليمن — بصورة خاصة — مشهورة بحياكة الأقمشة التي كانت تصنع منها البرود.

رجب عبد الجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الافاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٥٤.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة.

(٦) ينسب هذا الثوب للنجاحيين الذين أزالهم علي بن مهدي من زبيد، ولكن ظل استخدام هذا الثوب في زبيد بعد

ذلك وينسب لسعيد بن الأحول النجاشي. السروي : مظاهر الحضارة في اليمن، ص ١٧٥.

(٧) رجب عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٤٧٦، ٤٧٧.

الرجال وأغلب النساء، فيتشبح بها الرجال فوق الكتفين أو حول البدن، وهم يغطون الذراع اليسرى بإحدى الزوايا، ويطرحون الثوب إلى الوراء، ويجعلونه يمر تحت الذراع اليمنى ثم فوق الصدر وعلى الجسم ويرمي سائره على الذراع اليسرى، بحيث يجعلونه يتدلى على الظهر والذراع اليمنى تبقى مكشوفة بغية استعمالها بحرية، أما ملاية المرأة فهي من المعاطف يشبه من ناحية الشكل الحبرة، ويتألف من شقتي قطن منسوجتين تربيعات زرقاء وبيضاء، أو على هيئة خطوط مائلة منحرفة، مشوبة باللون الأحمر، تستر بها النساء الجسم كله.

كما وجدت " الجراب " و " الفوط " التي كانت تصنع من المنسوجات القطينية^(١)، فبالنسبة للجراب فهي قفطان ذو كمين قصيرين، أما الفوط^(٢) فتكون أحياناً مخلوطة من الحرير مع القطن أو الكتان ويتضح ذلك من خلال قول ابن بطوطة : " وأخرج من البقشة ثلاث فوط؛ إحداها من خالص الحرير، والأخرى من حرير وقطن، وأخرى من حرير وكتان " ^(٣).

والفوطه هي شقة والتي تكون من البزأ والقطن توضع على الظهر للتوقي من حرارة الشمس عند أهل اليمن، ويتضح ذلك من قول ابن بطوطة : " وأكثرهم يشد فوطه في وسطه، وتجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر " ^(٤).

كما كانت زبيد تنتج المنسوجات الحريرية والتي صنَّعَ منها " شقق الحرير " ^(٥) والذي منه الحرير الأبيض، وطول الشقة عشرون ذراعاً، وأيضاً وُجِدَ " البَيْرَم " ^(٦) وهي ثياب من الحرير والقطن، لا نظير لها في الحسن، وطول الواحد ستة أذرع، وكذلك " السباعيات " وهي أردية طول الواحد سبعة أذرع في عرض أربعة أذرع وكانت على صنفين من نوع الحرير الخالص ونوع

(١) حامد خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ط١، ص١٧٢.

(٢) رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٣٦٤.

والفوطه : بضم الفاء وفتح الطاء كلمة هندية الأصل، دخلت الفارسية، وعرفت في العربية عن طريق الفارسية، ومعناها الإزار.

(٣) ابن بطوطة : مذهب رحلة ابن بطوطة، ص٢٣٧.

(٤) ابن بطوطة : المصدر السابق، والصفحة.

(٥) شقق الحرير : وهي جمع شقة تكون نوع من الثياب قد يتعم بها. رجب عبدالجواد : المعجم السابق، ص٢٧٠.

(٦) البَيْرَم : بفتح الباء وسكون الياء وفتح الراء، منسوبة إلى جزيرة بَيْرَم التابعة لبلاد الهند. رجب عبدالجواد : المعجم السابق، ص٨٥.

آخر ممزوج بالكتان^(١).

كما وُجِدَ " النقب " ^(٢) وهي التي تستر بها المرأة وجهها، أو الخمار ويكون من القماش الأسود الخفيف، وكذلك " الشروب " وهي منسوجات رقيقة من الكتان ويدخل في نسيجها خيوط من الذهب^(٣).

ومن الآلات التي ارتبطت بصناعة النسيج في زبيد وساعدت على تطورها، أداة الغزل وهي المنوال أو المنسج، والوشيجة وهي قصبه في طرفها قرن يدخل الغزل في جوفها وتسسم السم، ومنها أيضا الثناية وهي التي يثنى عليها الثوب كلما ازداد طولاً أثناء عملية الغزل والنسيج، أما الصيصة وتدبر بها فهي شوكة النساج التي يسوى بها السدادة واللحمة، وأيضا النير وهو الخشبة المعترضة التي فيها الغزل والمداد وهي عصا في طرفيها صنارتان يمدد بها الثوب المنسوج بينما كانت الصنار هي رأي المغزل، والكفة هي الخشبة المعترضة في أسفل السدى، والحماران وموضعهما أسفل السدى لرفعها عن الأرض والشفشقة وهي قصب يشق ويوضع في السدى عرضاء، والدعائم خشبات تنصب ويمد عليها السدى^(٤).

وجدير بالذكر أن مدينة زبيد كانت تزخر بالمصانع اليدوية في عهد بني مهدي، استمرارا من العهد النجاشي وذلك منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، حيث بلغت مصانعها مائة وخمسين مصنعا، ومن إنتاجها القماش والمحشا بالحريز، والقطن والفوط وتصدير ذلك إلى جميع أنحاء اليمن وغيرها من البلدان الغير يمنية كالهند والصين^(٥).

الصباغات والزخرفة :

اشتهرت زبيد بصناعة الأصباغ المستعملة في صبغ الملابس المتنوعة وكان صبغ زبيد لا يساويه غيره في الحسن والجودة^(٦).

اعتمد النساجون في زبيد على الأصباغ النباتية سواء كانت المحلية أو المستوردة

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩.

(٢) النقب : جمع نقاب ومنه يسمى بنقاب المرأة لأنه يستر نقابها أي لونها، بلون النقاب. رجب عبدالجواد : معجم الملابس، ص ٥٠٠.

(٣) حامد خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية، ص ١٧٢.

(٤) الألويسي : بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٤٢٧، ٤٢٨.

(٥) حامد خليفة : المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٦) الحجري : مجموع بلدان اليمن، م ١، ج ١، ص ٣٨٧.

فاستخرجت مادة الصباغة من بعض الأشجار لاستخدامها في صباغة المنسوجات وتلوينها وأيضًا في تلوين الأواني الفخارية، وتزيين المرأة، وكانوا عادة ما يخلطون الأصباغ بالعطور لتفوح الملابس بالرائحة العطرية الجميلة، ومن أشهر النباتات التي استخدمت في الأصباغ والتلوين :

أ - " النيل " ^(١) : أو النيل، وكان يصبغ بها البز الأبيض في المصانع المسماة " بالمصايبغ " ثم يرسل إلى المناطق الجبلية، حيث أصبحت صناعة وذمار وحجة وصعدة مراكز تجارية لزبيد ^(٢).

وكانت الأقمشة البيضاء تغمس عدة مرات في قدور ضخمة مصنوعة من الطين وتترك لتجف في الشمس وتكرر هذه العملية أربع مرات ينتج عنها لون قاتم وبعد الصباغة تُطرق الأقمشة بواسطة مطارق خشبية ثقيلة لإعطاء المنسوجات لمعة زرقاء داكنة، وأخيرًا تُختم الأقمشة بختم الصانع الذهبي، ويباع الإنتاج الجاهز إلى سماسرة يقومون ببيعه ^(٣).

ب - الزعفران ^(٤) : هو نبات يشبه السمس، يعطي اللون الأصفر، وكانت جمال اليمن التي تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحمالها الغالية. ويقال عن المنسوجات في زبيد واليمن " زعفرت " أي صبغت بالزعفران، وأصفر لونها ^(٥).

ج - الورس : وهو أنواع، منه الأسود، ويخرج صبغتين أصفر خالص الصفرة، ومنه الأحمر وهو الأجود.

ويصف ابن حوقل الورس في اليمن بقوله : " وفيها ينبت الورس وهو نبات أحمر في معنى الزعفران يباع متوان بدينار فيصبغ به " ^(٦).

أما الإدريسي فيقول عنه : " والورس نبات أصفر يشبه الزعفران تصبغ به الثياب " ^(٧).

(١) النيل هو مادة زرقاء تستخدم للصباغة وكان يؤخذ على القطعة منه أربعة دنانير وربع دينار عند خروجه من ميناء عدن. ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٤٠، المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٨.

(٢) حامد خليفة : الفنون الزخرفية، ص ١٧٣.

(٣) حامد خليفة : المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٤) الزعفران : نبات بصلي معمر من الطيب من الفصيلة السوسنية، من أنواع برية ونوع صيفي طبي مشهور. ابن منظور : لسان العرب، ج ٧، ص ٣٢.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة لليمن، ص ١٧٧.

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٣٧.

(٧) الإدريسي : نزهة المشتاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ج ١، ص ٥٣.

ويلون به المنسوجات مثل الحرير والقطن والكتان، وكان النساجون في زبيد يجلبونه من منطقة " المذخرة " والتي تعد من أهم مناطق وجود الورس في اليمن^(١).

د - العصف^(٢) : استخدم النساجون في زبيد العصفر لصبغة الملابس، وهو نبات يستخرج منه اللون الأحمر، لصبغة الحرير والقطن ونحوه ... ويقال عن المنسوجات التي تصبغ به " عصفرت " أي صبغت بالعصفر.

هـ - القوة^(٣) : كان من أهم السلع اليمنية التي تأتي من عدن إلى زبيد ثم تصدر إلى الهند أو يتم استعمالها محلياً في صبغ المنسوجات، فهو نبات له عروق حمرة دقاق طوال في رأسه حب أحمر شديد الحمرة كثير الماء، يصبغ به الثياب فتعطي لون شديد الحمرة، ويكتب بمائه وينقش أيضاً^(٤).

وكان هذا النبات زراعته مربحة بسبب ما تلقاه من رواج كبير في الهند، وكانت مواعيد زراعته وموسم حصاده يوافق موسم سفر المراكب إلى الهند سواء في عدن أو زبيد^(٥).

احتوت المنسوجات في زبيد على زخارف مطبوعة باليد بماء الذهب، حيث كانت تزين بالزخارف المنقوشة فوقها والمطبوعة بالأحمر والبني وغيرها من الألوان، وكانت بعض مصانع النسيج تنفش شعاراتها على المنسوجات باللون الذهبي، وذلك تقادياً لعدم التزييف^(٦).

كما كانت بعض المنسوجات تزين بالزخارف عن طريق الطبع بواسطة القالب، وعادة ما تحفر الزخارف على هذه القوالب حفراً بارزاً وغائراً ثم تغمس هذه الزخارف في الأصباغ أو ماء الذهب ويختم بها على المنسوجات، فضلاً عن تنفيذ الزخارف أحياناً بالرسم والطبع باليد بواسطة الفرشاه^(٧).

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٨٣؛ الإصطخري : المسالك والممالك، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٢٤.

(٢) العصف : نبات صيفي من الفصيلة المركبة، منه ريفي ومنه بري، يستخرج منه صبغ أحمر. ابن منظور : لسان العرب، ج ١٠، ص ١٧٤.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن منظور : لسان العرب، ج ١١، ص ٢٤٦.

(٤) حسن شهاب : عدن فرضة اليمن، ص ١٢٢؛ ابن منظور : لسان العرب، ج ١١، ص ٢٤٦.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٦) حامد خليفة : الفنون الزخرفية اليمنية، ص ١٦٣.

(٧) حامد خليفة : المرجع السابق، ص ١٦٢.

الصناعات الجلدية :

من الصناعات التي اشتهرت بها زبيد دباغة الجلود، فوجد بها مدابغ الجلود لتوفر شجرة " النبق " ^(١) التي تستخدم في دبغ الجلود، وكذلك وجود شجر القرظ الذي تأتي به زبيد من صعدة، وأيضاً وجود جلود النمر بكثرة والتي تستوردها زبيد من جزيرة دهلك ^(٢)، والتي يُصنَّع منها المعاطف والدروع والملبوسات الجلدية، ويؤكد على ذلك المقدسي فيجعل من زبيد مدينة مشهورة بصناعة الأديم (الجلد) فيقول : " اشتهرت زبيد بالأديم ونيله الذي لانظير له كأنه لا زورد " ^(٣).
أما ابن المجاور فيؤكد على أن الأديم يُصنَّع في زبيد والذي ذاع صيته في مختلف الأنحاء ^(٤).

ومن العوامل المساعدة أيضاً لقيام صناعة الجلود، توافر الحيوانات التي تؤخذ منها الجلود للدباغة ومنها البقر والإبل والأغنام، وكان أجودها وأكثرها تصنيعاً جلود الماعز.

ولعل اشتهار زبيد بإنتاج الجلود ارتبط باستخداماتها اليومية في حياة الناس مثل استخدام السروج الخاصة بالخيول والبغال والإبل وتسمى القربوس، وحقيبة حمل السهام وتسمى الكنانة، والوعاء الذي يحفظ فيه السيف ويعلق في الرحل ويسمى القراب، وكذلك وعاء أدوات الرعاية ويسمى الكنف، وأيضاً المسك وهي حقيبة حمل الدنانير والدرهم، والصفف وهي كالوسائد توضع على ظهر الدواب تحت الراكب، هذا فضلاً عن بعض أنواع النعال وما ارتبط بصناعتها ^(٥).

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٩٧.

(٢) هي جزيرة في بحر اليمن ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة، خضعت لأمراء زبيد في اليمن بداية من بني زياد في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وحتى إمارة بني نجاح في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، الذين لجأوا إليها هرباً من الصراع بينهم وبين الصليبيين على السلطة في زبيد، وفي عهد بني مهدي كانت العلاقات التجارية بين جزيرة دهلك وزبيد طيبة، وكان مالك ابن شداد حاكماً عليها وقتئذ.

ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٩؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج ٢، ص ١٦١؛ عمارة : المفيد، ص ١٩٢؛ محمد كريم إبراهيم : جزر دهلك في البحر الأحمر، أهميتها وعلاقتها باليمن خلال العصور الإسلامية، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، السنة السابعة عشرة، المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول، سنة ١٩٨٩م، ص ١١٨، ١١٩، ١٢٢، ١٣٣-١٣٦، ١٤٠.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٨.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٩.

(٥) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة؛ ابن منظور : لسان العرب، ج ١٢، ص ٥٦؛ ج ١٣، ص ١٢١؛ محمد عبدالله زغلول : المصنوعات الجلدية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م، ص ٤، ١٢-١٤.

وكذلك المصنوعات الجلدية التي اشتهرت بها زبيد " الأنطاع الصُّت " التي لا ينفذ منها الماء لمتانة صنعها^(١).

وقد زخرت الجلود بزخارف ورسوم ملونة وجميلة، كما أنها ذُهِبَت بعض صناعة الجلود^(٢). ويحدثنا ابن المجاور عن الوسائل المستعملة في صناعة الجلود فيقول : " أن طواحين القرص وهو (نوع من الشجر يستعمل لدبغ الجلود، وُجِدَ في زبيد لكثرة هذه الصناعة، فالتواحين تطحنها وتعدّها للعمل " ^(٣).

ويتضح لنا ضخامة ما تنتجه زبيد من جلود من خلال ما يدفع عنها لخزينة الدولة، حيث يدفع الضامن للمدبغة ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً^(٤).

صناعة العطور :

اشتهرت زبيد بصناعة الطيب والعطور ومنها ما يرش على الثياب أو يدهن به الجسم والوجه أو ما يتبخر به لرائحته الطيبة، وهناك إشارة في حديث ابن المجاور تقول : " هناك أنواع من العطور لا تستخدم إلا للرجال، وأنواع لا تستخدمها إلا النساء " ^(٥). وهذا يوضح مدى المستوى الرفيع لزبيد في صناعة العطور.

صناعة النبيذ :

صنع النبيذ بكثرة من التمر والبر والرطب ويسمى " الفضيح " ويستغرق عمله يوماً وليلة، ويشرب منه الناس في زبيد جميعاً من النساء والرجال^(٦).

وكان من الآبار الهامة التي يستخرج منها الماء لتصنيع النبيذ هو بئر زعفران في عدن، فمنها يستخرج الماء ويوضع عليه ثمرة الكاذي ذو الرائحة العطرية النفاذة ويترك في الشمس لمدة عشرة أيام، يتحول بعدها إلى نبيذ كامل لا يحتاج إلى عسل وتأتي زبيد منه بالماء شأنها شأن كل البلدان اليمنية^(٧).

(١) عبداللطيف سيف : الصناعة في الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م ١٢، عدد ٢، ١٩٨٥م، ص ٣٣٧، والأنطاع الصُّت هي قرب الماء.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ١٧٠.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٩٧.

(٤) عبدالرحمن شجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٦٩.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٧.

(٦) السروري : المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص ١٣١.

ومن النبيذ التي اشتهرت به زبيد ما يعتمد على الكروم لكثرة أنواعه بها.

الصناعات الغذائية :

وجدت في زبيد أنواع من الصناعات الغذائية الهامة لديهم ومنها " المربي "، حيث كانوا يصنعون مربى الزنجبيل في نوعين مميزين : نوع يعرف بالمقصوص، وهو قليل العسل، ونوع يعرف بالمطحون، وهو أكثر جودة من الأول^(١).

كما وجدت في زبيد صناعة عسل النارجيل أو جوز الهند، وعن كيفية تصنيعه، كان خدام النخل ويسمون " الفازانية " يصعدون إلى النخلة صباحًا ومساءً، إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل، وهم يسمونه " الأطواق " فيقطعون العزق^(٢) الذي يخرج منه الثمر، ويتركون منه مقدار إصبعين ويربطون عليه قدرًا صغيرًا فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العزق، فإذا ربطها صباحًا، صعد إليها مساءً ومعه قدحان من قشر جوز الهند، أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العزق في أحد القدحين، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر، وينجر من العزق قليلًا ويربط عليه القدر ثانية، ثم يفعل ذلك مساءً، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك طبخه كما يطبخ ماء العنب فيصير عسلًا طيبًا، تصنع منه الحلوى^(٣).

وترتب على وجود العسل بكثرة في زبيد، صناعة الشهد الحضوري الجامد، الذي يقطع بالسكاكين، وكانت تصدره إلى الحجاز والعراق وسائر البلدان^(٤)، كما يصنع من السكر أحجام كبيرة على شكل قوالب.

وعلى ذلك تفنن أهل زبيد في صناعة الحلويات واكتسبوا في ذلك شهرة وخاصة فيما أطلق عليه معقدات الفاكهة، والذي يصنع من فواكه الخوخ والأترج مع الجزر والقرع وغيرها، فلهم طريقة خاصة في عمله، حيث يتم تسخين معقدات الفاكهة في الشمس حتى يصير في عقود قصب اليرع، ثم يوضع في مظروف وفي مكان بارد ويترك حتى يجمد مع ختم أفواه المظروف بالقصة، وطريقة إفراغه بأن يكسر المظروف ثم يقدم للموائد فيقطع بالسكين على طيفورية أو رغيف^(٥).

(١) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٧٠.

(٢) العزق : مكان قطع الغصن الذي يلتصق بالثمر. ابن منظور : لسان العرب، ج ١٠، ص ١٣٧.

(٣) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣٥٨.

(٥) الهمداني : المصدر السابق، ص ٢٥٥.

صناعات أخرى :

كما اشتهرت زبيد ببعض الصناعات الأخرى التي تعتمد على الإنتاج الزراعي، مثل صناعة الأقفاص من جريد النخل وكذلك القفاف، والمكاثل والأطباق من الخوص^(١)، وكذلك الليف والحبال من شجر النارجيل وهو الأكثر احتمالاً لماء البحر، فيضعون منه حبال المراكب^(٢). كما تصنع أسقف المساجد والمنازل والأبواب والنوافذ وسفريات الطعام، من جريد النخل وأخشاب الأشجار، كذلك بعض الأثاث المنزلي، والأقداح وبعض الرماح كالسهم والنبال والأقواس^(٣). كما وجدت صناعة الأواني المتنوعة، سواء المستخدمة للمكايل، وهي غالباً من المعدن أو الخشب، أو المستعملة في المنازل ومعظمها من الفخار مثل " الجرة " وهي الزير الصغير و" الجملة " وهو إناء كبير من الفخار يستخدم لحفظ السمن والعسل وغيرها من السوائل^(٤).

الصناعات المعدنية :

اشتهرت زبيد ببعض المعادن الثمينة، منها معدن البردخر أو اللازورد والزمرد العالي الجودة^(٥) اللذان تقوم عليهما الصياغة، فتصنع منهما الخرز والفصوص مع الاستعانة بمعدن الذهب من منطقة خولان، والذي يعد من أجود أنواع الذهب. وكذلك من أهم المعادن الموجودة معدن العقيق والجزع، الذي تعددت أنواعه وأجودها البقراني المثلث الألوان الذي يكون وجهه أحمر، فوق عرق أبيض، فوق عرق أسود، ويعمل من هذا المعدن الفصوص الثمينة^(٦)، ومن أنواع الجزع " المعرق " الذي كانت تتخذ منه الأواني لكبر وعظم حجمه^(٧)، وكانت زبيد تأتي به من أهم مناطق استخراج جبل نقم قرب صنعاء. وكان يصنع من الجزع ألواح صفائح وقوائم سيوف ومقابض سكاكين ومداخن وقحفلة^(٨). كما كانت زبيد تستعين بمعدن اللؤلؤ من مدينة عدن لتزيين الحلبي^(٩).

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٦٣.

(٢) ابن بطوطة : مذهب رحلة ابن بطوطة، ص ٢٤١؛ ابن منظور : لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٦٧.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٨.

(٤) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٧٠.

(٥) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص ١١١.

(٦) ابن رسته : الأعلام النفيسة، ص ١١٢.

(٧) ابن الفقيه : البلدان، ص ٣٦؛ عبدالله سيف : الصناعة في الجزيرة العربية، ص ٣٢٩.

(٨) قحفلة : القدح. ابن منظور : لسان العرب، ج ١١، ص ٣٠.

(٩) الاصطخري : المسالك والممالك، ص ٢٦.

وكان الصياغ في زبيد يستخدمون رمل الشمينة الأحمر أثناء عملهم^(١) وتميزوا بصناعة الحلي من الذهب والفضة وغيرها من المعادن، كالأساور والخلاخيل والخواتم.

كما كان للحكاكين^(٢) دور بارز في صناعة الحلي، فهم من ينحت الأحجار الكريمة، ويحسنون قطعها وصقلها قبل تزيين الذهب بها.

ولا شك أن صناعة الأسلحة تعتبر من أهم الصناعات الحديدية، فكانت السيوف والخنجر أجودها وأشهرها على الإطلاق، فكان الحديد يأتي إلى زبيد مواد خام يقوم بتصنيعه الحرفيون، وأحياناً كان يأتي نقياً مسبوکاً من "رُغَافَة"^(٣) في اليمن حيث كان بها خمسة عشر كيراً لسبك الحديد^(٤).

ومن أهم ما تميز به الحدادون في زبيد صناعة الأدوات التي تعتمد عليها الفلاحة مثل المساحي والفؤوس والمحاريث والمناجل.

التجارة في زبيد لدولة بني مهدي :

نشطت التجارة في زبيد نشاطاً كبيراً لاسيما في بعض الأوقات التي اضطربت فيها الأحوال السياسية وكثرت الحروب، ولكن زبيد كانت ذاتية النشاط، حيث كان تجار زبيد يذهبون إلى عدن والبلدان اليمنية الأخرى، بمنتجاتهم ويجلبون منها أنواعاً من البضائع من القطن والعطر والفولاذ "الهندوان"^(٥).

كذلك كانت الحركة التجارية بين القرى والمدن اليمنية نشيطة، فكانت القرى القريبة من ساحل زبيد تصدر للمدن الأصناف العديدة من منتجاتها سواء الزراعية أو الصناعية أو المواد الخام.

وكانت زبيد تباع الأخشاب التي تستخدم في العمارة إلى جميع أنحاء اليمن^(٦)، ويُبَاع في

(١) عبدالله سيف : الصناعة في الجزيرة العربية، ص ٣٣٠.

(٢) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص ١١١.

(٣) رُغَافَة : قرية على مرحلة من صعدة باليمن. الحجري : بلدان اليمن، م ١، ج ٢، ص ٣٦٩، عبدالله سيف : المرجع السابق، ص ٣٢٨.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٢، ج ٤، ص ٤٠٩.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٩٢.

(٦) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٦٣، ٩٢.

زبيد أيضًا الخضر والبقول مع الغلال^(١)، منها ما تنتجه نفسها ومنها ما يُجلب إليها من القرى المجاورة.

الأسواق :

هي مركز الحركة التجارية وهي يومية أو أسبوعية أو موسمية لحصاد بعض المنتجات الزراعية، وتقسم الأسواق عادة إلى صغيرة متخصصة^(٢)، في بعض المحاصيل الزراعية لأهميتها، فأنفردت أسواق خاصة في زبيد لبيعها مثل سوق البر (القمح) التي كانت تقام بعد صلاة ظهر كل يوم^(٣)، وفيه يقدم إلى السوق أهل القرى والمدن المجاورة، بإنتاجهم في أول النهار لبيعونه، وتستمر عملية البيع لبضائعهم إلى وقت الظهر، وبعد صلاة الظهر يتجهون إلى السوق لشراء ما يحتاجونه، فكان أغلب الناس آنذاك لا يملكون نقودًا عند انعقاد السوق، لذلك يتجهون إلى بيع أحد منتجاتهم لشراء منتجات أخرى بثمنها.

وتسمى بعض الأسواق باسم اليوم الذي تُعقد به، مثل سوق الخميس، وسوق الجمعة، وسوق الأحد، وكل سوق تميز بسلعة معينة مثل الحبوب والماشية والبز^(٤).

وفي ذلك اليوم كان أرباب الصناعات والبضائع يخرجون بضائعهم وسلعهم على اختلافها وتبدأ السوق في الصباح الباكر ويستمر إلى آخر النهار، وتزدحم طوال اليوم براغبى الشراء والبيع، وكل قبيلة تقام السوق على أرضها، تتولى حمايتها من أي اعتداء وتوفير الأمن والراحة للتجار ومرتادي الأسواق^(٥). وكانت معظم السلع في الأسواق تعرض على الأرض، فيفرش البائع لها قطعة من القماش، وأحيانًا تكون على الأرض بدون أي فرش^(٦).

وكانت الأسواق التي تقام في القرى عادةً ما تقام في منطقة متوسطة بين مجموعة من القرى بحيث يستطيع أهل القرى الوصول إليه والعودة منه في نفس اليوم، وأحيانًا يسافر بعض التجار إلى أسواق أخرى بعيدة تستغرق في الذهاب إليه والعودة منه عدة أيام لأن الأسواق القروية

(١) السروري : مظاهر الحضارة لليمن، ص ١٩٩.

(٢) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٧١.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٨.

(٤) السروري : المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٥) غيثان بن علي : دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيط، (ق ١ -

ق ١٠ هـ / ق ٧ - ق ١٦ م) جامعة الملك خالد، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ط ١، ص ٣٧٠.

(٦) غيثان بن علي : المرجع السابق والصفحة.

لا تحوى عادةً كل أنواع البضائع، فهي عادة ما تتوافر بها متطلبات القرى الخاصة والضرورية التي يحتاجها أغلب الأفراد مثل الملابس والحبوب والمنتجات التي تشتهر بإنتاجها هذه المنطقة^(١). ومن الأسواق التي تعامل معها تجار زبيد، سوق صنعاء التي يُجلب لها القطن والزعفران والأصباغ، ويجلب منه البز والحريز والجلود والبرود، وسوق الشحر الشهير ببيع اللبان والعنبر والأدم والصبر، وأيضاً سوق خيوان التي تجلب منها الزبيب الطيب المذاق^(٢)، ولا تغفل سوق عدن لأهميتها التجارية فكان محطة تجارية لكثير من المدن اليمنية^(٣) وغير اليمنية مثل مصر والعراق وعمان والبحرين والحبشة والصين والهند والسند، فكان تجار زبيد يأتون إليها فيجتمعون مع كثير من التجار غيرهم في سوق عدن التجارية التي تقام على شاطئ البحر ومن أهم التجارة فيه العطور والطيب بأنواعه والأدم واللؤلؤ والبرود^(٤).

كما تميزت أسواق عدن الداخلية وأهمها سوق العطارين بمنتجاتها العالية الجودة، ويذهب إليها تجار زبيد للتبادل التجاري^(٥). وكان لكل سوق أسبوعي مشرف عليه يسمى صاحب السوق، وهو الذي يقوم بجباية الأموال من السوق وعادة ما كانت الضرائب " الجبايات " يأخذها مشرفو الأسواق عن طريق الضمان^(٦).

ومن الأسواق الموسمية سوق تقام في زبيد في موسم حصاد النخيل^(٧)، وهذا النخيل عبارة عن عشر قطع في زبيد كل قطعة طولها وعرضها ربع فرسخ، وفي كل قطعة ثلاث أصناف من الرطب، حماري، وخضاري، وصغاري، وعندما يحين نضج الرطب فيها يتقبل الأفراد النخيل كل على قدر طاقته، ويحضر إليه الناس من أنحاء اليمن، من أطرافه. أتبين، إلى أطرافه حرض، كما ينزل إليه الكثير من أهل الجبال، ويقوم الناس في هذا الموسم مدة شهرين أو ثلاثة بسودهم، فريح وطرب واحتفال كبير، ويقوم فيه الناس بأعمال ترفيهية كثيرة مثل اللعب والضحك والشراب^(٨).

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٠١.

(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق، ج ١، ص ١٤٧.

(٣) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، المعهد الفرنسي، القاهرة، د.ت، ص ١٥٥؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠.

(٤) القلقشندي : المصدر السابق والجزء، ص ١١.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٢٦-١٣٠.

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص ١٣٤.

(٧) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٧٩.

(٨) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة.

ولم تكن وظيفة الأسواق تقتصر على مزاولة البيع والشراء، وإنما كان الناس يتداولون فيها الآراء، ويتناقلون الأخبار، ويتم فيها الوعظ والإرشاد، أو الإعلان عن خبر معين أو حادثة ما^(١). وجير بالذكر أنه مما ضمن الحركة التجارية الداخلية والخارجية بين مدينة زبيد والبلدان المجاورة لها في اليمن والجزيرة العربية ومصر وغيرها من بلاد الحبشة والهند والصين هو اختلاف أقطارها في المحصول الصادر والوارد، وما أحسن قول ابن الفقيه : " ولولا أن الله خص بلطفه كل بلد من البلدان، وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرب أحد ولا سافر أحد " ^(٢).

التجارة الخارجية :

تحتل زبيد موقعًا هامًا بين شمال تهامة وجنوبها، باعتبارها امتدادًا طبيعيًا لميناء غلافة فرضة عدن، لتكون هذه هي فرضة اليمن كما قال البيروني^(٣)، أي أن الجبال تتصل بزبيد لتستورد منها حاجياتها من التجارة الواردة عليها عبر المنافذ المتعددة التي تصب في هذه المدينة التهامية المشهورة.

وجعل هذا الموقع التجارة في زبيد، من أهم نشاط سكان المدينة والقادمين إليها أيضًا، فالمقدسي^(٤) يصفها تارة بقوله : " بها تجار كبار " وتارة يقول : " بها تجار وتجارات وفيها أسواق وإن كانت ضيقة إلا أن الأسعار بها غالية ".

ووصفها الإدريسي^(٥) الذي عاش في القرن السادس الهجري بأنها : " مدينة كبيرة وأهلها مياسير أهل ثروة ومال، والمسافرون إليها كثيرون، وبها مجتمع التجار من أرض الحجاز، وأرض الحبشة، وأرض مصر، الصاعدون من مراكب جدة وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إليها ويخرجون منها ضروب الأفاوية الهندية والمتاع الصيني وغيره ".

كما ذكر القلقشندي^(٦) : " أن زبيد فرضة اليمن وبها مجتمع من التجار من الحجاز، ومصر، والحبشة، ومنها تخرج بضائع الهند والصين ".

(١) غيثان بن علي : دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ص ٣٧٠.

(٢) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص ١٨٠.

(٣) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٨٩.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٨٥.

(٥) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ١، ص ٥٣.

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠.

من هذين الوصفين نجد أن زبيد كانت تعتبر مركزاً تجارياً هاماً يقوم بعملية التصدير والاستيراد، وأهم البلدان التي تصدر إليها وتستورد منها هي الصين والهند والحجاز ومصر والحبشة. وتصدير التجارة من زبيد أو الاستيراد إليها عن طريقين أحدهما :

أ - الطريق البري :

وهو الطريق الموصل من زبيد إلى الحجاز ومصر، فهو الطريق الذي تسلكه قوافل الحجاج من مصر إلى مكة ومن مكة إلى مصر، والعكس. ولقي الطريق البري اهتماماً من قبل الأمير الحسين بن سلامة آخر أمراء الدولة الزيادية في زبيد في القرن الرابع الهجري^(١)، فأصلح الطريق على طول اليمن، من حضرموت إلى عدن وطوله حوالي شهر، ومن عدن إلى مكة وطوله كذلك حوالي شهر، وأنشأ في كل مرحلة المساجد ووفر مياه الشرب على طول طرق الحجيج والتجار^(٢)، فانتفع به التجار والحجيج بعد ذلك في نقل البضائع المختلفة عبره إلى أماكن متعددة، وكذلك الجيش في انتقاله من مكان لآخر.

والطريق البري أو الساحلي لزبيد تسير القوافل التجارية مروراً به والذي يبدأ من عدن إلى موزع وحيس وزبيد وفشال والقحمة والكدراء والمهجم ومور وجيزان والساعد وعثر والهجر ثم السرين ومنها إلى جدة أو مكة^(٣).

ويقدر سير القوافل على هذا الطريق حوالي شهر^(٤)، ومن المعلوم أن هذا الطريق زاد نشاطه التجاري في القرن السادس الهجري.

ب - الطريق البحري :

وطريق البحر يبدأ من ميناء " غلافقة " ^(٥) وهو مرسى زبيد ويبعد عنها حوالي خمسة عشر ميلاً، وتقصده السفن التي تحمل البضائع والتجار إلى زبيد، خاصة من مصر الواقعة على البحر الأحمر. ويسير الطريق من ميناء غلافقة إلى مصر، إلى بلاد الحجاز، وخاصة ميناء جدة ثم إلى بلاد الحبشة والصومال ثم إلى الصين والهند والعكس. وتصل إلى ميناء غلافقة السفن القادمة من

(١) عمارة : المفيد، ص ٧١.

(٢) حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن، ص ١٠٥.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص ٧٨-٨٠.

(٤) الاصطخري : المسالك والممالك، ص ٢٨.

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١١٤؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٤؛ اليعقوبي : البلدان، ص ٣١٩.

الشرق وخصوصًا من الصين والهند.

لذلك كان لزبيد دور بارز في التجارة، عندما سلك أهلها الطرق البحرية المؤدية إلى الهند والصين، وشرق أفريقيا والبحر الأحمر، واشتغلوا بالتجارة فيما بين مناطقها المتعددة.

وكان بعض التجار أصحاب المراكب في زبيد يقصدون الحجاز بتجارته في موسم الحج فهو فرصة كبيرة للنشاط التجاري مع التجار المسلمين من الأقاليم الإسلامية الأخرى مثل مصر والشام وخراسان والمغرب الذين يفدون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فيستنفذون بضائعهم وتعظم أرباحهم، وينتظرون ذلك من العام إلى العام^(١).

وكان حتميًا لمن يسلك طريق البحار أن يكون خبيرًا بها، عارفًا بمواسم الصلاحية للرحلات البحرية وطرقها المسلوكة، من ارتفاع الأمواج، وشدة الريح ووجود الصخور والخلجان^(٢).

وكانت الرياح هي العامل الحاسم آنذاك في دفع المراكب الشراعية وانتقالها من مكان إلى آخر، وكان لها مواعيد محددة يجب على كل ملاح مراعاتها، كما يجب على الملاح أن يكون عارفًا بمواسم الرياح الصالحة للإبحار وغير الصالحة، واستطاع البحار في زبيد أن يعرف الرياح الموسمية الصيفية والتي تساعد على الاتجاه جنوبًا، والرياح الموسمية الشتوية التي تتجه شمالية شرقية، فاستفاد منها برحلاته المتجهة عبر مختلف البحار، والرياح الأصلية شمال وجنوب وقبول ودبور، وما بينها رياح هوجاء ضارة بالمراكب المسافرة^(٣).

وأول رياح الدبور أو الكوس ما يوافق ١١ مايو ويسمى " غلق الموسم " لأن السفر يتوقف، أما آخره فيسمى " مفتاح البحر " لأن السفر يبدأ فيه، وعلى ذلك فإن بدء السفر من المراسي الغربية والجنوبية إلى المراسي الشرقية والشمالية في موسم الصيف وهو ما يسمى " الدبور "، ويبدأ موسم السفر من المراسي الشمالية والشرقية إلى المراسي الجنوبية والغربية في الشتاء وهو ما يسمى " القبول " ^(٤).

وكانت أقصى نهاية السفر لتجار زبيد عن طريق البحر من ناحية الشرق هي زتيون "كانتون" بالصين حيث لا يسلك بعدها، أما المسافة من جزيرة العرب إلى الهند، فهي تستغرق

(١) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص ١٥٨.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة لليمن، ص ١٧٩.

(٣) سيدة إسماعيل الكاشف : علاقة الصين بديار الإسلام، حولية كلية البنات، العدد ٣، يولييه، ١٩٦١م، ص ١٣٣.

(٤) حسن شهاب صالح : فن الملاحة عند العرب، ص ١٨٨-١٩٢.

شهرًا، ثم تستغرق من الهند إلى الصين حوالي شهرين^(١)، وبعد التوقف في المراسي وانتظار الموسم فإن الرحلة تستغرق من الجزيرة العربية إلى الصين حوالي ستة أشهر، ورحلة العودة تستغرق نفس الفترة وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك^(٢).

واستخدم بحارة زبيد واليمن عمومًا في ارتيادهم البحر طريقين، أحدهما : السير قرب الشواطئ لعدة أسباب إما لصغر المراكب أو لأنهم كانوا يتاجرون عبر مراسي هذه الشواطئ أو للتزود بالمياه والطعام، أو بسبب الرياح أو هروبًا من قراصنة البحر وكذلك لأمان من هياج البحر. والآخر : السير وسط البحر مباشرة، وكان للسفن الكبيرة التي تحمل بضائع ضخمة عبر المسافات الطويلة والبعيدة التي لا تحتاج للتوقف.

ووصف بامخرمة^(٣) خروج التجار من مراكبهم بعد رحلة شاقة عبر البحر وكانوا يلاقون من الشدائد والأهوال نقلًا عن ابن المجاور بقوله : " وخروج الإنسان من البحر كخروجه، من القبر، والفرصة كالمحشر فيه : المناقشة، والمحاسبة، والوزن والعدد، فإن كان رابحًا طاب قلبه وإن كان خاسرًا اغتم، فإن سافر في البحر، فهو من ذات أهل اليمين، وإن رجع في البحر فهو من ذات اشمال، وإذا كان هذا حال المخلوق في عالم الكون والفساد مع مخلوق كذا، فكيف حال المخلوق بين يدي الخالق غداً ".

الصادرات والواردات :

أ- الصادرات :

كانت زبيد تصدر أنواعًا متعددة من المصنوعات والمنتجات التي اشتهرت بها إلى كثير من المدن المختلفة. فكانت تصدر الأحجار الكريمة الجزع واللازورد^(٤)، ومن المنسوجات أنواع البرود^(٥) التي اشتهرت بها لجودتها، وأصبغ الملابس^(٦) إلى مختلف الدول. فتصدر إلى مصر ملابس الوشي " وهو نوع من الملابس الحريرية "، والعمود والبخور،

(١) جعفر كرار أحمد : العلاقات التاريخية بين شبه الجزيرة العربية والصين منذ ظهور الإسلام وحتى أوائل القرن العشرين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٩٢، يناير - فبراير - مارس ١٩٩٩م، ص ١٤٤.

(٢) جعفر كرار أحمد : المرجع السابق والصفحة؛ محمد يوسف : علاقات العرب التجارية بالهند، مجلة كلية الآداب، القاهرة، م ١٥، ج ١، مايو ١٩٥٣م، ص ٤.

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج ١، ص ٤٨.

(٤) الأصبغري : المسالك والممالك، ص ٢٦.

(٥) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٩٤، ٩٦.

(٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٧١.

وكذلك السيوف والخناجر المطعمة بالعقيق، وكذلك الخواتم المطعمة بالأحجار الكريمة^(١). وكانت تصدر إلى الحجاز التمر والدخن والذرة، وأيضًا المربي منه المقصوص من قليل العسل، والمطحون وهو الجيد، والتمر هندي الذي أجوده المقلس وأيضًا الجلود^(٢). وتصدر إلى بلاد الحبشة الجزع^(٣). وكانت زبيد تصدر إلى الصين^(٤) المنسوجات الغالية المصنوعة من الحرير والتيل والقطن والصوف، وخام الحديد، وسبائك الذهب والفضة والعمود^(٥)، كما تصدر إلى الهند أنواع الطيب^(٦).

ب- الواردات :

كانت زبيد تستورد منتجات متعددة من البلدان المختلفة، بعض هذه الواردات مواد خام تصنع للاستهلاك المحلي والآخر للتصدير.

وأهم البضائع التجارية التي كانت تستوردها زبيد من البلدان المختلفة، فمن مصر تستورد الكثير من المنتجات الزراعية منها، الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون والعمارة وزيت الزيتون والزيت الحار، والزيتون المملح، والقليل من النقل وعسل النحل^(٧)، وأيضًا تستورد من مصر المنسوجات^(٨).

وكذلك تستورد من الصين الحرير^(٩)، والخزف والمسك والعود والخولجان^(١٠)، والسروج

(١) بدر عبدالرحمن : النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٢١، ١٢٢.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٩.

(٤) سيدة إسماعيل الكاشف : علاقة الصين بديار الإسلام، ص ١٤٣.

كان الصينيون يطلقون على تجار اليمن والعرب كلمة "تاشي" وهي محرفة من كلمة تاجر العربية لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين كانوا تجارًا.

(٥) سيد إسماعيل الكاشف : المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٦) محمد يوسف : علاقات العرب التجارية بالهند، ص ٢٧.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص ١٤٢.

(٨) بدر عبدالرحمن : المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٩) ابن الديبع : نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية وشرحه نثر اللؤلؤ السنية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢م/١٤١٣هـ/ ط ١، ص ٨٠؛ جعفر كرار أحمد : العلاقات التاريخية بين شبه الجزيرة العربية والصين، ص ١٤٧.

(١٠) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص ٧١.

والدار الصيني والذهب والفضة واللؤلؤ والدار فلفل واللاهليلجات والأبنوس^(١).

وتستورد من الهند الأحجار الثمينة والأفاوية وأنواع الطيب التي تجئ على رأس القائمة للمنتجات الهندية، ومن الأحجار الثمينة الياقوت بألوانه والماس والسنبانج الذي يعالج به الجوهر^(٢). ومن الأفاوية البهار والتوابل والفلفل والقرنفل، ومن الطيب، الكافور والماكافور والجوزبوا والمسك والعنبر والعود الهندي والزنجبيل، ومن العقاقير الهليلج والبلادر المعالج لأعراض البرد والرطوبة ولفساد الذهن^(٣)، أيضاً التارجيل والسسم والصابون وأنياب الفيل^(٤). كما استوردت زبيد من الهند الثياب المتخذة من الحشيش^(٥) والثياب العظيمة المخملة، وأيضاً النعال الكنباتية^(٦)، كما تستورد العاج والغلمان أو الرقيق من الحبشة^(٧).

النظام المالي " الإيرادات " :

تنوعت الموارد المالية في زبيد شأنها في ذلك شأن البلدان اليمنية الأخرى، وتتقسم تلك الموارد إلى قسمين أحدهما : موارد شرعية اقتصرت خلاله على عشور الأراضي الزراعية " الخراج " و " عشور التجارة "، وثانيهما : موارد غير شرعية مثل المكوس والمصالحات والغنائم.

الموارد الشرعية :

أ - عشور الأرض " الخراج " :

اعتبرت أرض اليمن من البلاد التي أسلم عليها أهلها فهي أرض عشرية فيقول أبو يوسف : " وكل أرض أسلم عليها أهلها فهي أرض عشرية، وأرض الحجاز والمدينة ومكة واليمن وأرض العرب كلها أرض عشرية " ^(٨).

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق، ج ١، ص ٥٤.

(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك، ص ٧٠.

(٣) محمد سيف : علاقات العرب التجارية بالهند، ص ٢٩.

(٤) ابن خرداذبه : المصدر السابق، ص ٧١.

(٥) الحشيش : نوع من التيل غليظ القوام. ابن خرداذبه : نفس المصدر، ص ٧١.

(٦) نسبة إلى كنبات في الهند، وكانت في الجودة والحسن، بحيث أنها كانت تعتبر هدية فاخرة من العشاق إلى عشيقاتهم. محمد يوسف : المرجع السابق، ص ٣٢.

(٧) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص ١٧٨.

(٨) أبو يوسف : كتاب الخراج، بيروت، ١٠٤٥هـ / ١٩٨٥م، ط ١، ص ١٧٣.

والمقصود بالأرض العشرية هي ما فرض على ما تخرجه هذه الأرض من زروع وثمار بقيمة العشر أو نصف العشر حسب سهولة الري أو صعوبته^(١).

ومع كل فإن كلمة خراج في زبيد ارتبطت بالنخيل، فخراج النخيل في زبيد في عهد بنسي مهدي يقدر بحوالي سبعين ألف دينار كل سنة، ويؤخذ الخراج عيناً وليس نقداً^(٢).

كان هناك بعض الحالات التي يكون فيها الخراج، عبء على صاحب الأرض، خاصة إذا كانت ظروف الأرض غير مواتية لتحصيل هذا الخراج، وذلك ما حدث مع علي بن مهدي وأنصاره في بداية تأسيسه لدولته وهو مقيم في الجبال، فكان خراج أرضه وأراضي أخوته وأصهاره وأتباعه، يمثل عبء كبير عليهم، فالتمس من الحرة علم أم الأمير النجاشي فاتك بن منصور إعفاءه من الخراج، وكان له ذلك سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م^(٣)، فانتسعت بهم الحال، بعدما أعفيت أرضهم من الخراج، مما ساعدهم على الاستمرار في مناهضة الدولة النجاشية بعد وفاة الحرة علم ٥٤٥هـ/١١٥٠^(٤)، والقضاء عليهم وإقامة دولته في زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٥).

ب - عشور التجارة :

هي ضريبة تقدر بعشرة في المئة، تفرض على غير المسلمين من التجار الأجانب القادمين بتجارهم إلى دار الإسلام، كما أخذت بمقدار نصف العشر من تجار أهل الذمة وبمقدار ربع العشر من تجار المسلمين وأول من فرضها في الإسلام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٦).

وكان للعشور عدة مسميات منها : الضريبة أو الجباية التي تشمل ضرائب أو رسوماً أخرى علاوة على العشور. وكانت زبيد من أهم المناطق في اليمن بعد عدن في تحصيل العشور على

(١) محمد أمين صالح : النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ط١، ص ٩٣.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٠؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ج ١، ص ١٨٨.

(٣) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٥٧؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٦؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٩.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ص ١٥٥؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٦.

(٥) الكبسي : اللطائف السنية، ص ٥٠؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٣٠٩.

(٦) أبو عبيدة بن سلام : الأموال، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، تحقيق د. محمد عمارة، ط١، ص ٦٤٠.

البضائع التجارية.

وهناك من المواد الغذائية لا يؤخذ عليها عشور وخاصة الواردة من مصر والهند مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح^(١)، وعسل النحل إن كان قليلاً، وحطب القرنفل، والنعال إن كانت بدون شراك. وفيما يلي قائمة بمقدار العشور على بعض البضائع الواردة إلى ميناء غلافة في زبيد والتي كانت تؤخذ مرة واحدة في السنة.

أولاً : ضرائب البهار " البهار = ٣٠٠ رطل " (٢) :

اسم الصنف	مقدار العشور
بهار الفلفل	٨ دنانير
بهار قشر المحلب	$\frac{1}{2}$ دينار
بهار الطباشير	$\frac{2}{3}$ ديناراً
بهار الهيل	٧ دنانير
بهار الكتان	$\frac{1}{2}$ دينار
بهار الحمر " التمر هندي "	ثلاث جور
بهار السليط " زيت السمسم "	٥ دنانير
بهار الأنكزة " الحليت أو الصمغ " (٣)	٨ دنانير

ثانياً : ضرائب الفراسلة : الفراسلة = ٢٠ رطلاً :

اسم الصنف	مقدار العشور
فراسلة القرنفل	١٠
فراسلة الزعفران	$\frac{1}{2}$ دينار
فراسلة الكافور	٢٥ ديناراً ونصف وسدس

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٤٠-١٤٣.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ١٤٠-١٤٥.

كان البهار يوزن بالقبان وهو ميزان كبير توزن به الكميات الكبيرة الثقيلة من السلع. حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن، ص ١٢٥.

(٣) ابن منظور : لسان العرب، ج ٤، ص ١٩٣.

ثالثًا : القماش :

اسم الصنف	مقدار العشور	
شقق الحرير	$\frac{1}{2}$ دينار وجائز	الشقة ٢٠ ذراعًا
الثوب الظفاري	$\frac{1}{4}$ دينار وجائز	
قطع السباعي	ديناران ونصف	الكورجة ٢٠ قطعة
قطع الأحواك	ديناران ونصف	الكورجة
قطع المحابس	٤ أربعة دنانير	الكورجة
المقاطع	ديناران ونصف	العشرة
فوط السوسي	ربع وجائز	
سواسي الكتان الكبار	جائزان وقيراط	
سواسي الكتان الصغار	جائزان وفلسان	
الشقة البيضاء	ثمان دينار	

سلع لا تؤخذ عشورها بمقدار وزنها بل كانت تقدر من قبل القائم بأمر تحصيلها في الميناء:

اسم الصنف	مقدار العشور
الحصان الخارج من الفرضة	٧٠ سبعون دينارًا
قفعة ذرة، وهي كيس ينسج من الخوص	$\frac{1}{8}$ ثمن دينار
قطعة النيل (للصباغة)	$\frac{1}{4}$ دينار
الرقيق الخارج	٧٠ دينارًا
العوبلي (إناء مملوء بالنبيذ من سندابور بالسند)	$\frac{1}{2}$ نصف دينار
بهار القوة ^(١) " نبات للصباغة لونه أحمر "	ديناران

(١) القوة : عروق نبات، لونها أحمر يستعملها الصباغون. ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٤٠-١٤١.

الموارد غير الشرعية :

تأخذ الموارد غير الشرعية مسميات مختلفة مثل الضرائب والرسوم والمكوس وتضطر أي دولة لفرضها بسبب حاجتها للأموال.

وعن مقدار مبالغ المكوس في مدينة زبيد، ليس لدينا ما ينفي عدم ممارسته في الواقع إلا ما قيل عن أن بني مهدي " ما كانوا يستحلون أخذ المكوسات من أحد ما خلا الحاج، وأنهم كانوا يأخذون منهم مقام الدرهم ثلاثة دراهم ^(١) .

كما وجدت في زبيد موارد مالية مؤقتة هي ضمن الموارد المالية غير الشرعية، مثل المصالحات وغنائم الحرب.

المصالحات :

كانت المصالحات تشكل إحدى موارد الدولة المالية المؤقتة لبني مهدي، ومن ضمن المصالحات المالية التي كانت بين دولة بني مهدي في زبيد، ودولة بني زريع في عدن، عندما هادن الداعي عمران الزريعي، مهدي بن علي عن مدينة عدن والدملة بمال محدد يؤديه إليه سنوياً ^(٢) .

ومن المصالحات التي أصر بنو مهدي على استمرارها وخاصة في عهد عبدالنبي بن مهدي، التي كانت بين النجاحيين حكام مدينة زبيد والشريف غانم بن يحيى حاكم المخلاف السليماني وكانت تقدر بستين ألف دينار سنوياً ^(٣) ، ولكن الأحداث أتت بغير ذلك.

الغنائم :

الغنيمة هي الفوز بالشيء، وفي الحرب الظفر بمال العدو، ونتيجة لاستمرار الصراع بين بني مهدي والبلدان اليمنية، ظلت عملية الاستيلاء على الغنائم ظاهرة بارزة وشكلت بذلك مورداً مؤقتاً غير شرعي لمالية دولة بني مهدي والتي بلغت مبالغ ضخمة في كثير من الأحوال.

ومن أمثلة ذلك ما غنمه بنو مهدي، وخاصة في عهد عبدالنبي بن مهدي (٥٥٩-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م) فقد غنم الكثير من أموال دويلات اليمن والتي يوضحها ابن الديبع

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٥٠.

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٣، ١٦٤.

(٣) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١١٠؛ عمارة : المفيد، ص ٢٢٢.

بقوله^(١) : " وانتقلت إليه جميع أموال اليمن وذخائرها، يقال أنه حصل في خزائنه ملسك خمس وعشرين دولة من دول اليمن، أموال الحبشة (النجاحيين) ووزرائها وأموال عبيد فانتك وأموال بني سليمان الشرقاء وملك بني وائل ومعقل بني الصليحي وذخائر علي الصليحي وولسده المكرم وذخائر الحرة للسيدة ومدينة الجند وأعمالها ومعقل الداعي عمران بن محمد بن سبأ وحصن السمدان الذي لم يقدر عليه أحد ". كما ملك الذراري والنساء والمصوغ واللؤلؤ واليواقيت الفاخرة والملابس الجليلة على اختلاف أصنافها^(٢).

طريقة تحصيل الأموال :

كانت أهم طريقة لجباية الأموال في زبيد هو نظام الضمان^(٣)، وهو تحصيل الموارد المالية مثل العشور التجارية والزراعية والضرائب، وهو عبارة عن التزام شخص ما مسبقاً بدفع مبلغ محدد للدولة لما ضمته من مورد مالي، ثم يتولى الضامن من تحصيل الأموال المقررة، وفي هذه الحالة يلجأ الضامن أو الملتزم إلى استغلال الموقف، وذلك بفرض ضرائب أكثر من المبلغ المقترح بكثير فهو بحاجة إلى الصرف على الموظفين المكلفين بالتحصيل، وبحاجة إلى مبالغ خاصة به، بالإضافة للمبلغ المطلوب إيراده للدولة.

وبدلنا العمل بهذا النظام على نوعيات الإيرادات المختلفة، فمثلاً نقاط التفتيش والتحصيل للمقامة على أبواب زبيد، فكان التاجر يدفع عن الحمل من السلع غير الضرورية ديناراً أما السلع الضرورية فيدفع نصف دينار^(٤). والقوافل الصادرة من زبيد إلى عدن كان عليها ضمين يدفع كل عام ألف ومائتين دينار^(٥).

وفي زبيد تعدد الضمان بها المحاصيل الزراعية وأنواع البضائع التجارية، فكان يؤخذ بها قبالات أي ضمان عن عشور التجارة عن جميع ما يدخلها ويخرج منها .. فيوجد ضمين أو متقبل لكل ما يتحصل عن بعض الأنواع المباعة في الأسواق، مثل ما يبيعه الباعة المتجولون من

(١) ابن النبيع : قرة العيون، ص ٢٧٣؛ ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) عمارة : المفيد، ص ٢٣٣، ٢٣٦؛ الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٨؛ ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٢.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ١٠٥. السلع الضرورية مثل الأقمشة وغير الضرورية مثل الطيب.

(٥) ابن الجبور : صفة بلاد اليمن، ص ٩٩، ١٠٠؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٦٠.

الخضرة والبقول والغلال وكل ما يدخل من باب زبيد^(١)، وعليه أن يدفع للخزينة من ذلك كله تسعين ألف دينار ملكي^(٢).

وكذلك ضمان خراج النخيل، الذي ركز عليه المتولون لزبيد لاعتباره من المحاصيل الأساسية، فكان بنو مهدي يدفعون هذا النخيل إلى ضمين أو متقبل نظير سبعين ألف دينار يدفعها كل عام للخزينة^(٣).

وأيضًا ضمان دار النبيذ ومنه النبيذ المشهور في زبيد، وهو ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعيرة وغير ذلك^(٤)، إثنا عشر ألف دينار^(٥).

كما كان ضمان سنابيق^(٦) الصيادين الذاهبة من زبيد إلى عدن والقادمة من عدن إلى زبيد، بأن يدفع كل سنابق شهرًا سبعين دينارًا^(٧).

وكذلك ضامن سوق السمك بزبيد يتحصل كل يوم ثلاثة عشر دينار ملكي، وعلى ذلك يصبح ضمان سوق السمك في زبيد في السنة يساوي حوالي أربعة آلاف وسبعمائة وخمسون دينارًا^(٨).

وهناك نوع آخر من الضمان على المدايع للجلود في زبيد، وما يستخلص منها، ويقدر بثلاثة عشر ألف دينار سنويًا^(٩)، وكذلك ضمان دار الضرب، حيث يدفع ضمانها ثلاثة عشر ألف دينار^(١٠).

ويذكر المقدسي صرامة هذا النظام وما يتعرض له التجار من خلال المراسد أو نقاط

(١) ابن الجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩.

(٢) الدينار الملكي نسبة إلى الملك المكرم الصليحي. عمارة : المفيد، ص ١٣٥.

(٣) ابن الجاور : المصدر السابق، ص ٨٠، ٩٠.

(٤) ابن منظور : لسان العرب، ج ١٤، ص ١٧٤.

(٥) ابن الجاور : نفس المصدر، ص ٩٠.

(٦) سنابيق : من المراكب البحرية التي تستعمل لأغراض النقل في الخليج العربي والبحر الأحمر والهندي. زين

العابدين بن شمس الدين : كتاب معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء كمبيوتر للطباعة والنشر،

القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ط ١، ص ٣٢٨.

(٧) ابن الجاور : نفس المصدر، ص ٩٩، ١٠٠.

(٨) ابن الجاور : نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(٩) ابن الجاور : نفس المصدر، ص ٨٩.

(١٠) ابن الجاور : نفس المصدر والصفحة.

التحصيل^(١)، اتبعت دولة بني مهدي هذا النظام في زبيد على الرغم من أنه غير مرغوب فيه عند بعض الفقهاء وغير جائز عندهم، ومنهم من يشترط له شروطاً، وعلى الرغم من ذلك، حرصت بل وأصررت دولة بني مهدي على إتباعه، وذلك رغبة في مصلحتها التي تقتضي عدم التكلفة في التحصيل المباشر، فهذا النظام (الضمان - نظام التقبل) لا يكلف الدولة شيئاً بل تتسلم ما يخصها من المتقبل دون تكلفة تذكر، وتتاست مصلحة أهل زبيد لأنها أعطت المتقبلين الحق في أن يفرضوا على أهل زبيد ما يشاؤون من الضرائب، لأنهم يريدون تحصيل ما يورد للدولة وما يكفي موظفي التحصيل، هذا بالإضافة إلى ما يخص المتقبل نفسه، ولا بد أن يكون مجزياً.

وعلى ذلك فإن نظام الضمان شمل جميع موارد بيت المال من الأراضي الزراعية وأنواع البضائع التجارية، فلم يبق شيء يدور عليه اسم وحرف إلا وقد رجع فيه الضمان ما خلا الماء^(٢).

المصروفات :

تعددت أنواع المصروفات لدولة بني مهدي وأغراضها، كما تنوعت أهدافها وأساليبها فشملت مرتبات الموظفين والجند^(٣)، وذلك بعد وفاة علي بن مهدي^(٤)، أي في عهد أبناء مهدي بن علي وعبد النبي بن علي بن مهدي.

وكذلك إنفاق الأموال الطائلة على تسليح الجيش لأغراض الحرب والقتال، نظراً لكثرة المواقع الحربية بين دولة بني مهدي وكثير من البلدان اليمنية وقراها، ورغبة بني مهدي في إخضاعهم عسكرياً. فشملت المصروفات شراء السلاح وشراء الحصون وتجديدها، كما شملت مكافآت الجند بعد الانتصار في المواقع الحربية المختلفة^(٥).

المعاملات المالية :

استخدمت في زبيد عدة أنواع من العملات ضربت من معادن الذهب والفضة والنحاس منها

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ١٠٥.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٤٨.

(٣) عمارة : المفيد، ص ٢٢٧.

(٤) كان علي بن مهدي يتبع نظام ملكية الدولة لكل ما يحتاجه الجندي من سلاح وعتاد، والدولة تقوم بكفاية الجندي بكل ما يحتاجه من غذاء وملابس له ولأسرته وأهله. عمارة : المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٥) عمارة : نفس المصدر، ص ١٣٣.

العملات الكبيرة، وهي الدينار والدرهم الكبير، ومنها العملات الصغيرة وهي الدرهم الصغير والفلس، فضرب الفلّس والدرهم والدينار، وكان يضرب الدرهم على عدة أجزاء منها الدرهم الكامل ويسمى الدرهم الكبير^(١)، ونصف الدرهم وربع الدرهم ويسمى الدرهم الصغير، كذلك ضرب الدينار على عدة أجزاء منها الدينار الكامل ذهبًا ويسمى الدينار الكبير أو المتقال، وضرب منه نصف الدينار، وثلث الدينار، وربع الدينار، ويسمى الدينار الصغير، ويوزن الدينار متقالاً من الذهب أي ٤,٢٦٥ من الجرامات أو ٧٢ حبة من الشعير^(٢).

وتنسب العملة إلى الشخص الذي ضربها، فوجد في زبيد " الدينار السعيدية " نسبة إلى سعيد الأحول بن نجاح^(٣)، و" الدنانير الملكية " نسبة إلى الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي^(٤).

كما راجت في الأسواق الدراهم الفضية وكانت تعرف بالدراهم العباسية^(٥)، بجانب الدراهم الفضية لعبد النبي بن مهدي آخر حكام دولة بني مهدي^(٦)، وكل هذه العملات ضربت بدار الضرب بزبيد لكونها العاصمة ومركزاً للحكم^(٧).

فضرب " الدينار الملكي " بزبيد سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م^(٨) نسبة إلى المكرم أحمد بن محمد الصليحي وكتب عليه :

في أحد وجهيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله.

في الوجه الآخر : الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين^(٩).

درهم عبد النبي مهدي : ضرب في زبيد عام ٥٦٦هـ/١٧٠م، وهو ثاني درهم يضرب

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩.

(٢) سيدة إسماعيل الكاشف : دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤-١٩٦٥م، ص ٦٦، ٦٧.

(٣) حسن سليمان محمود : الصليحيون في اليمن، ص ٥٠.

(٤) عمارة : المفيد، ص ١٣٥.

(٥) يحيى بن الحسن : غاية الأمان، ج ١، ص ٣٨٨.

(٦) أحمد بن عمر الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة ضرب زبيد ٥٦٦هـ في زمن عبد النبي بن مهدي، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الأول، ٢٠٠٥م، ص ١.

(٧) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٩٠.

(٨) عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٩) محمد أبو الفرج العث : المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس، ١٩٨٥م، ص ٢٦٢؛ مجلة الإكليل، عدد ٥ سبتمبر ١٩٨١م، ذو القعدة ١٤٠٤هـ، ص ٤٣.

في زبيد خلال فترة حكم عبدالنبي بن مهدي، بل خلال فترة حكم الأسرة على مدة خمسة عشر عامًا وثلاثة أشهر (٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م) ووجد هذا الدرهم في حالة لا يمكن وصفها بأنها جيدة^(١)، وكتابتته على درجة كبيرة من الوضوح، وبه زخارف قليلة تتمثل في وجود دائرتين مفرغتين في أعلى مركز الوجه تحفان بحرف (ع) وكذلك أربع دوائر أخرى مطموسة تقع في أسفل مركز الظهر تحت كلمة الإسلام، أما حرف العين الواقعة بين الدائرتين الأوليين ويعتقد أنها كانت ترمز للحرف الأول من اسم عبدالنبي بن مهدي نفسه، أو اسم الضراب، أو متولي السكة في زمانه وهو طراز فريد، ويختلف في كثير من الوجوه من طراز الدراهم اليمنية المضروبة قبله وأيضًا عن تلك التي ضربت بعده ويقرأ على النحو التالي^(٢) :

الوجه : تقع كتاباته داخل دائرتين متوازيتين.

المركز : دائرة بداخلها الكتابات الآتية :

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

علي ولي الله

الهامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم بزبيد سنة ست وستين وخمسائة.

الظهر : تحيط بكتاباته دائرة بداخلها.

المركز : دائرة بداخلها الكتابات الآتية :

الإمام

شمس

شريعة

الإسلام

الهامش : لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره

الوزن : ١,٦١ جرام

(١) هذا الدرهم من الدراهم النادرة التي تحتفظ بها مؤسسة النقد العربي السعودي وينشر عنه لأول مرة. أحمد بن عمر الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد عام ٥٦٦هـ، ص ٢. رقم تصنيف الدرهم في المؤسسة هو م ٣/ح/٧/٢٤.

(٢) أحمد بن عمر الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد عام ٥٦٦هـ، ص ٢.

القطر : —

" الدراسة التحليلية الدرهم " وتنضم قضيتين^(١) :

القضية الأولى : ما يعتقده كثير من أن بني مهدي على مذهب الخوارج وتعارض هذا الاعتقاد مع عبارة " علي ولي الله " التي تظهر بجلاء على وجه هذا الدرهم.

القضية الثانية : ظهور " لقب الإمام شمس شريعة الإسلام " في مركز الظهر وهذا يفتح نقاشاً حول حقيقة لم تكن واضحة كثيراً في المصادر التاريخية ونادرة في البحوث والدراسات الحديثة، وذلك أن نظام دولة بني مهدي، هل كان إمامه أم خلاف ذلك.

فبالنسبة للقضية الأولى، وهي أن بني مهدي كانوا على مذهبهم " الخوارج " ومن المعلوم أن نشأة الخوارج وأصل تسميتهم في سبب خروجهم على طاعة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حينما قبل التحكيم الذي عرضه عليه خصمه معاوية بن أبي سفيان، وكانوا من أشد الناس خصومة للإمام علي وأكثرهم حرباً وعداوة له^(٢)، فكيف نوفق بين القول بأنهم خوارج، وبين عبارة (علي ولي الله) التي تظهر بوضوح في السطر الثالث من مركز الوجه في هذا الدرهم، وهي عبارة تؤيد أحقية الإمام في خلافة رسول الله (ﷺ) عند أصحاب الرأي، وتتعارض جملة وتفصيلاً مع مبدأ الخوارج في الإمامة وهو " لا حكم إلا لله "^(٣).

ومن أقوال عمارة اليمني الذي كان معاصراً لفترة بني مهدي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) أنه لم يذكر كلمة خوارج في وصفه لمذهب بني مهدي، وإنما قال أن علي بن مهدي على مذهب أبي حنيفة في الفروع، ولكنه يكفر بالمعاصي ويقتل من يرتكبها^(٤).

ولي عمارة في ذكر مذهب ابن مهدي الجندي (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) التي أتى على تفاصيل كثيرة مما ذكرها عمارة دون أن يذكر أنه أو أحد أبنائه كان خارجياً، وإنما خلص إلى قول : " وبالجملة فكان علي بن مهدي ممن يسعى في الأرض فساداً ودلائل ذلك ظاهرة "^(٥).

(١) الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد ٥٦٦هـ، ص ٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م ٣، ص ٢٠٢.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق، والمجلد، ص ٢٠٤.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٥.

(٥) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٩.

أما عن لفظة خارجي فعند الخزرجي^(١) في مخطوطة المسجد المسبوك، وسار على سيرته ابن الديبع الشيباني^(٢) في القول بخارجية ابن مهدي في الأصول دون أن يذكر صراحة المعنى الذي نعرفه عن طائفة الخوارج، والذي يعد التكفير بالمعاصي والقتل سمة اشتهروا بها^(٣).

وهناك من المؤرخين لم يعرض لمذهب ابن مهدي، ومنهم ابن سمرة الجعدي^(٤) وهو معاصر لدولة بني مهدي، ولد عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م وتوفي ٥٨٦هـ/١١٩٠م. كذلك سليمان بن يحيى الثقفي، وهو معاصر أيضًا لتلك الأحداث حيث ولد عام ٥٣٢هـ-١١٣٧م/٥٦٦هـ-١١٧٠م) وهو مؤلف سيرة الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، فلم ينعت ابن مهدي بمذهب الخوارج وإنما نعتة بالقرمطي ويصف ما هو عليه بأن ظاهره النسك والزهد وباطنه الزندقة والباطنية^(٥).

وهكذا يتضح من أقوال المؤرخين أنهم لم يذهبوا إلى أن بني مهدي على رأي الخوارج وأنهم تبرأوا من عثمان وعلي رضي الله عنهما، وإنما هم سلكوا مسلك الخوارج في الأصول من التكفير بالمعاصي لمن يخالفهم واستحلال دمائهم ونسائهم وأموالهم.

وبعد اكتشاف هذا الدرهم، الذي يمثل وثيقة رسمية مباشرة لدولة بني مهدي وما يشتمل عليه من عبارة (علي ولي الله) تتعارض جملة وتفصيلاً مع مبدأ الخوارج وتؤكد أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة^(٦)، ولعل التفسير الوحيد لتوضيح ذلك أن علي بن مهدي مؤسس الدولة كان على مذهب الخوارج وابنه مهدي من بعده أما عبد النبي وكان آخر حكام هذه الدولة والذي سك في عهده هذا الدرهم كان على مذهب الفاطميين.

القضية الثانية : وهي ظهور لقب "الإمام شمس شريعة الإسلام" في مركز الظهر دون ذكر اسم هذا الإمام أو صفته، ودون ذكر لاسم الأمير أو السلطان الذي سك هذا الدرهم في عهده، كما هي عادة الأمراء والسلاطين والوزراء في وضع أسمائهم جنباً إلى جنب مع أسماء الأئمة أو الخلفاء الذي تضرب السكة بأسمائهم، فمن هو هذا الإمام الملقب بشمس شريعة الإسلام ؟

(١) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٧٠.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٦.

(٣) الزيلعي : دولة بني مهدي من خلال درهم فضة في زبيد ٥٦٦هـ، ص ٣، ٤.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٣، ٢٣٣.

(٥) الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٣٢.

(٦) الزيلعي : المرجع السابق، ص ٥.

الأئمة أو الخلفاء في ذلك الوقت ثلاثة، أولهم الخليفة العباسي المستنجد بالله أو المستضيء بالله في بغداد، والثاني الإمام العاضد بالله خليفة مصر الفاطمي في القاهرة المعزية، والثالث الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان إمام الزيدية في شمال شرق اليمن، ومن المؤكد أن الإمام شمس شريعة الإسلام ليس من هؤلاء الثلاثة لأسباب منها :

١- أن لكل إمام لقبه المعروف به وليس من بينهم من لُقِبَ بـشمس شريعة الإسلام الذي يظهر لأول مرة على السكة الإسلامية^(١).

٢- أن أيًا من هؤلاء الأئمة لثلاثة لم يعترف بدولة بني مهدي، ولم يفوض أيًا من حكامها الأربعة حكم ما تحت يده من البلاد^(٢)، فقد كان هؤلاء الأئمة يضمرون العداء لبني مهدي لتعارض مصالحهم مع وجود هذه الدولة التي اتسع نفوذها وقويت شوكتها في ذلك الوقت وبالتالي تهديد مصالحهم في منطقة اليمن^(٣).

وعلى ذلك فإن هذا اللقب لعبد النبي بن مهدي، فهو ووالده وأخوته كانوا يتصرفون على أنهم أئمة أو خلفاء ولم يعترفوا بإمامة غيرهم من أئمة زمانهم، ومن دلائل ذلك اعتقاد عمارة اليمني وابن سمرة الجعدي من أن عبد النبي بن مهدي كان يعرف على السنة العوام بالسيد والإمام^(٤)، ويعتقد فيه ما يعتقد في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين^(٥).

كما يذكر ابن خلدون وهو أكثر تفصيلاً حينما يقول : " وكان يخطب له بالإمام المهدي أمين المؤمنين، وقامع الكفرة والملحدون "^(٦).

ومن الشواهد الشعرية بتلقب بني مهدي بلقب الإمامة أو الخلافة ما قاله الشاعر محمد بن عمر بن محمد العمراني (٥٢٥-٥٧٢هـ/ ١١٣٠-١١٧٦م)^(٧) :

وضحت شمس الحق بعد أقوله	ورست هنالك قاعدات أصوله
أحيا الإمام ذمائه بسيوفه	ورماحه ويرجله وخيوله

(١) الزيلعي : دولة بني مهدي، ص ٦، ٧.

(٢) الثقفى : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٣٣-٢٣٦.

(٣) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨؛ عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٥٠-١٥٦.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٣.

(٥) عمارة : المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٦) ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٧) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٩٣.

كما قال الشاعر ابن الهبيني^(١) (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) :

سير الأنعام قديمها وحديثها	أشهر من لاء الزلال على الظما
فالיום يحتج الخليفة بعده	شبلية سببية للذين إليهما
فرح القلوب وروضه التنزه	والذ من عصر الشباب الأمره
بالقائمين الهادين وزهرة	شرف الإمامة والخلافة ينتهي

ويتجلى مما سبق أن نظام الحكم لدى بني مهدي كان يمثل إمامة مستقلة، وزعماء هذه الدولة تلقبوا بلقب " إمام " وأيضًا باللقاب " السيد الإمام " و " السيد المهدي " ^(٢).

بيان بالعملات وما يساويها في دولة بني مهدي^(٣) :

الدينار الذهبي	:	يساوي أربعة دنانير ونصف.
الدينار	:	يساوي أربعة دراهم.
الدرهم	:	يساوي أربعة وعشرين فلسًا.
الفلس	:	يساوي أربعة دواس.

فكانت النقود الذهبية تمثل العملة الرئيسية في المعاملات والصفقات التجارية الكبيرة، والنقود الفضية تجرى بها عمليات البيع والشراء في الأسواق الداخلية لزبيد لاسيما السلع الغذائية، والنقود النحاسية أو الفلوس^(٤) بمثابة الوحدات النقدية المساعدة وتستخدم للتعامل في الأمور الصغيرة، كأن يشتري أحدهم رغيف خبز بفلس أو قطعة حلوة بأربعة فلوس.

وعرف نظام الدفع بالأجل^(٥) في المعاملات المالية في زبيد، فكان بإمكان التاجر الصدوق أن ينال الثقة لدى التجار الكبار، فيأخذ ما يشاء من البضائع دون مال حتى يبيع ثم يسدد ما عليه من أثمان البضائع من عملية البيع طالما لا يستطيع الدفع نقدًا، وأحيانًا يقوم هؤلاء الباعة الصغار بدفع ما عليهم من ديون لتجار الجملة بالتقسيط ويحدد يوم معين من أيام الأسبوع، يتم الاتفاق عليه بين الطرفين موعدًا للسداد، وشاعت هذه الطريقة في بيع صفقات التمور.

(١) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٦.

(٢) ابن خلدون : العبر، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٠.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٩.

(٥) غيثان علي : تاريخ تهامة والسراة، ص ٣٨٦.

الموازين والمكايل والمقاييس :

اختلفت الموازين والمكايل في زبيد من منطقة إلى أخرى، بل ومع غيرها من المدن المجاورة، فمثلاً معيار وزن سنجة زبيد أقل من سنجة عدن بشيء يسير^(١). كذلك اختلفت الموازين والمكايل من زمن إلى آخر، كما اختلفت الموازين والمكايل ووحدة القياس من سلعة إلى أخرى من حيث نوع السلعة من حيث الصلابة والسيولة والعد، وسميت باسم الوعاء الذي يحتويها، فمثلاً كان السمن يقاس " بالجمّة " والشيريج " بالجرة " وهما الوعاءان أو الظرفان اللذان يحفظ بهما السمن والشيريج لسيولتهما^(٢).

ومن ضمن الموازين والمكايل والمقاييس في زبيد الآتي :

الموازين : استخدم " الرطل " ^(٣) و " المن " و " الزبدي " لوزن بعض السلع، واستخدم " البهار " لوزن بعض السلع مثل الفلفل والهيل والكتان، والبهار يساوي ثلثمائة رطل^(٤). واستخدمت " الفراسلة " ^(٥) لوزن بعض السلع مثل الكافور والزعفران والقرنفل.

المكايل : تعددت أنواع المكايل وأسمائها التي استخدمت في زبيد في التعامل مع الحبوب والغلل والتمور ومنها " المد " واستخدم لكيل بعض السلع مثل أنواع الغلال والتمور وكان المد يساوي ٣٢ ثمن والثن ٣٢ زبدي، والزبدي من والمن رطلين، والرطل ١٢٠ درهم والدراهم ١٣ قيراط^(٦).

كما استخدم في المكايل الربيعية، الأوقية، والوساق، والوساق يساوي ٦٠ صاعاً، والصاع أربعة أمداد، والمد ٣٢ ثمن، والثن ١٠ أصيع، والصاع يساوي ربيعة، ثم صار يساوي أربع ربيعات، والربيعية ١٨ أوقية، والصاع يساوي ٧٢ أوقية^(٧)، ووجد للصاع وزنين أحدهما ٥ أرطال وهو المستعمل في سوق زبيد والآخر يزيد ٨ أرطال ويستعمل لكفارة اليمين.

(١) السنجة : سبحة الميزان، ما يوزن به كالرطل والأوقية. ابن منظور : لسان العرب، م٧، ص ٢٧٠.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد أهل اليمن، ص ٨٩، ١٤٤.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٨، ٩٩. الرطل المستخدم لدى أهل زبيد هو الرطل البغدادي.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٩.

(٥) الفراسلة : تزن عشرون رطلاً. حسن صالح شهاب : عدن فرضة اليمن، ص ١٢٨.

(٦) ابن المجاور : المصدر نفسه، ص ٨٩، ١٤٠، ٤٤١. وحدد ابن المجاور الأوقية بـ ٢١ درهم.

(٧) الأهل : كشف القناع في أحكام الزراعة، ص ١٥٣، ١٥٤.

وهذا جدول توضيحي لذلك :

" مقدار المد وما يساويه أو يعادله "

المكيال	وما يعادله	
المد ^(١) =	٣٢ ثمن =	الزبدى = رطلين الرطل = ١٢٠ درهم لدرهم = ١٣ قيراط

" مقدار الوساق وما يساويه أو يعادله "

المكيال	وما يعادله	
الوساق ^(٢) =	٦٠ صاعًا	المد = ٣٢ ثمن الصاع = ٤ أمداد الثلث = ١٠ أصبع

" مقدار الصاع وما يساويه أو يعادله "

المكيال	وما يعادله	
الصاع ^(٣) =	ربيعه ثم صار يساوي ٤ ربيعات	الربية = ١٨ أوقية

المقاييس :

وكانت أهم وحدات قياس الأطوال المستخدمة في أسواق زبيد هي الذراع^(٤) : ويختلف طوله حسب نوعه فهناك الذراع اليدوي الذي يستخدم كوحدة قياس في بيع وشراء الأقمشة كالبرود وشقق الحرير ويتراوح طوله ما بين ٤٨,٥٤ سم إلى ٥٠,٣ سم. والذراع الحديدي، وكان يستخدم في قياس وبيع ألواح الساج وأيضًا بعض الأقمشة كالبرز وطوله حوالي ٥٨,١٨٧ سم.

(١) المد : مكيال من معدن النحاس الأصفر وهو ملئ كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه يسمى مداً. سامح عبدالرحمن فهمي : المكيال في صدر الإسلام، المكتبة الفيسالية، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٣٠، ٣١، ٥١.

(٢) الوساق أو الوسق : هو حمل بعير. ابن منظور : لسان العرب، ج ١٥، ص ٢١٢.

(٣) الصاع : مكيال من معدن النحاس الأحمر. سامح عبدالرحمن : المرجع السابق، ص ٥١.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩.

كما استخدم في القياس المعاد لقياس مساحات الأراضي الزراعية^(١)، كما عرف الميل لتقدير مسافات الطرق بين زبيد والبلدان اليمنية الأخرى، بل ومعرفة المسافات بين زبيد وطرق التجارة البرية وطرق الحجيج^(٢).

وهناك وحدات أخرى متعددة في القياسات منها استخدام العد لبعض السلع القابلة للعد، واستخدام كل من الكلمات الآتية كوحدة قياس وهي " قطعة " و " قفة " و " كورجة " ^(٣)، فالذرة تقاس بالقفة، والقماش يعد بالقطعة، والكورجة عشرون قطعة من أي ثوب.

وبعض السلع توزن بعدة معيارات مثل السمن الذي يوزن بالرطل والمن، ويقاس بالظرف الذي يُعبأ به، والحرير يوزن بالمن ويقاس بالذراع، ويُعد بالقطعة^(٤).

وهناك بعض المعيارات تستخدم كوزن وكميكيال مثل السمن والزبدى والأوقية ففي الوزن يساوي من والمن يساوي رطلين. وفي المكيال الربعية الزبيدية تساوي ثمانية عشر أوقية والمد يساوي ربعة^(٥).

وهكذا تنوعت وحدات القياس حسب نوع السلعة في الأسواق.

معوقات التجارة :

رغم النشاط التجاري الذي شاهده زبيد، فإن نشاطها تأثر سلبًا ببعض المعوقات ومن الملاحظ أن هذه المعوقات لم تلق بظلالها على التجارة فقط، بل أيضًا على جوانب أخرى من الأنشطة في تلك المنطقة، ومن أهم هذه المعوقات :

- ١- المناخ الحار وارتفاع درجة الحرارة في زبيد، يعرقل حركة النقل والتجار، ويقلل حركة الإنتاج، وينشر الأمراض في بعض الأوقات من السنة.
- ٢- حروب بني مهدي العديدة والمتكررة، أثارت الخوف في نفوس التجار في زبيد وما يجاورها من المدن الأخرى والقبائل التي تنزح إليها من الجبال، وذلك خوفًا على حياتهم وتجارتهم لغياب الأمن في زبيد في كثير من الأحيان.

(١) ابن الديبع : الفضل للمزيد، ص ١٣.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣٣٨، ٣٤٠.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٩.

(٤) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة.

(٥) الأهدل : كشف القناع في معرفة أنواع الزراعة، ص ١٥٤.

٣- تهديد طريق التجارة والحج وهو الطريق البري الذي يبدأ من زبيد وينتهي في مكة فقطاع الطرق واللصوص يهددون التجار والحجاج من بلادهم إلى بلاد الحجاز، فأحياناً يعتدون عليهم وأحياناً أخرى يقتلونهم ويأخذون أموالهم^(١).

٤- صادر أمير مكة مالك بن فليته أموالاً للتجار الذين قدموا من زبيد واليمن إلى جدة عن طريق البحر الأحمر^(٢) وذلك سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م في شهر ذي القعدة، فكان في ذلك الوقت أمراء مكة وخاصة الهواشم يلعبون بمصالح البلاد والمسلمين جرياً وراء المال، حتى أنهم لم يتورعوا عن نهب التجار من أهل البلاد والحجاج، مما أدى إلى حدوث بعض الأزمات^(٣).

وعلى الرغم من وجود معوقات للتجارة، إلا أن مدينة زبيد كان لها مكانتها التجارية وتعددت نشاطاتها الداخلية والخارجية، وكان لها دور ملموس في تنشيط الحركة التجارية في اليمن وشبه الجزيرة العربية.

(١) غيثان بن علي : تاريخ تهامة السراة، ج ١، ص ٣٩٤.

(٢) عطية طه عبدالعزيز : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز، ص ٢١١.

(٣) عطية عبدالعزيز : المرجع السابق، والصفحة.

الفصل الرابع

الأحوال الاجتماعية

عهد دولة بني مهدي في اليمن

الفصل الرابع

الأحوال الاجتماعية عهد دولة بني مهدي في اليمن

عناصر السكان :

تعددت العناصر التي تكون منها المجتمع الزبيدي، أهمها القبائل العربية التي شكلت الغالبية العظمى لسكان اليمن، وإلى جانبهم استقرت عناصر أخرى متعددة، منهم الأحباش والفرس وغيرهم.

القبائل :

لم تتغير الحياة القبلية في اليمن بعد الإسلام؛ فالقبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع اليمني، وهي التنظيم البدائي الذي يقوم على رابطة الدم والقربى والسلطة الأبوية حيث تتكون القبيلة من عشائر وعائلات وأسر، وهي دائماً ما تنتمد على السلطة ولا تخضع إلا عن ضعف أو مصلحة، وسبب وجود ظاهرة القبيلة وأهميتها، يرجع إلى أن طبيعة اليمن لا تحتل وجود جماعات بشرية كبيرة تمتد لمسافات طويلة، فتسكن القبيلة الواحدة عدة قرى متجاورة داخل زبيد وخارجها، مرتبطة بالأرض بهدف الزراعة والرعي^(١).

اقتضى وجود نظام القبيلة احتياج الإنسان للعيش في جماعة والتوحد في كيان أكبر يكون قادراً على توفير الأمن والطمأنينة وحماية مصالح أفراد القبيلة في مواجهة القبائل الأخرى^(٢). وسميت المناطق في زبيد واليمن بأسماء القبائل وأهمها حمير وكهلان ويتفرع منها عدة بطون، ومن سكن زبيد من حمير قبائل خولان^(٣)، وأما كهلان فمن أهم بطونها همذان^(٤) والتي انقسمت إلى بكيل وحاشد وتفرعت إلى قبائل كثيرة في أنحاء اليمن ومن أهمها الأزد^(٥) التي سكنت زبيد مع همذان وانتشرت في أنحاء ربوعها.

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١١، ١٢.

(٢) أحمد الحاج : وهم القبيلة وخداع السياسة في اليمن، مجلة الحكمة، العددان ٢٢٤-٢٢٥، ٢٠٠٣م، ص ٢٢.

(٣) خولان : من القبائل اليمنية الكبرى، وهي ثلاثة أقسام (١) خولان صنعاء، (٢) خولان صعدة، (٣) قضاة.

ياقوت : معجم البلدان، م ٢، ج ٣، ص ٢٦١، المقحفى : معجم البلدان اليمنية، ص ٢٢٢.

(٤) همذان : هي من أمت القبائل الكهلانية اليمنية وأكثرها عدداً، وتحتل رقعة واسعة من اليمن تبدأ من شمالي صنعاء وتنتهي بصعدة شمالاً ومن مأرب شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً. وتأخذ قبيلة بكيل القسم الشرقي من هذه الرقعة، بينما تأخذ قبيلة حاشد القسم الغربي. المقحفى : معجم البلدان اليمنية، ص ٦٨١.

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٣، ج ٥، ص ٣٤.

Kay : Yaman; its Early Medieval History, London, 1882, pp. 215-218.

كما سكن زبيد واستقر فيها قبيلة الأشعر^(١) " الأشاعرة " وهي قبيلة مشهورة من ولد الأشعر ابن أدد الذي ينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ، ومساكنهم شمال شرق زبيد في " القحمة " والتي شاركهم فيها قوم من خولان وهمدان^(٢). كما خالط الأشاعر في زبيد جزء من قبيلة بني وافر من ثقيف، وقد سيطر على كثير من القبائل في زبيد واليمن صراع حربي متعدد في أغراضه وأسبابه، منها الصراع حول السيادة والسلطة بمحاولة بعض القبائل والسيطرة على القبائل الأخرى سياسيًا إما السيطرة على أراضيهم الزراعية أو بسبب العداوات القديمة القائمة فيما بين القبائل وبعضها البعض^(٣).

ومن القبائل التي تطلعت للسلطة قبيلة همدان، التي استغلت بطونها الكثيرة خاصة في صنعاء^(٤)، واستولت على السلطة فيها وخلعوا على أنفسهم لقب السلطان، وتداولت السلطة بين ثلاث أسر، هم بنو حاتم المغلس وبنو القبيب وبنو اليامي^(٥)، وأصبح الهمدانيون يمثلون قوة سياسية في ظل حكم السلطان حاتم اليامي (ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م)^(٦) يسيطرون على مناطق من شمال اليمن بصورة مستقلة متحالفين مع الزيديين في صنعاء، وبنو زريع في عدن في محاربة دولة بني مهدي في زبيد، وذلك على الرغم من اختلاف دولة الهمدانيين مع الأئمة الزيديين مذهبياً، ولكنهم كانوا على اتفاق مع دولة بني زريع في مذهبهم الإسماعيلي^(٧).

(١) اسم الأشعر " النبت " وسمي بالأشعر لأنه ولد على نراعيه شعر، وهو أخو مذبح وطئ ومرة جد كندة. القرطبي : التعريف في الأنساب والتتويه لذوي الأحساب، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م، تحقيق : سعد عبدالمقصود ظلام، ص ١٩٨.

(٢) ابن الديبع : فضائل اليمن وأهله، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم رقم ١١٦٢، ق ٤، ١٠، ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٤، ج ٧، ص ٢٢.

(٣) الهمداني : الإكليل، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، تحقيق : محمد الأكوع، ج ١، ص ٢٠٨، ٢٠٩، ج ٢، ص ١١٩.

(٤) تسكن بطون كثيرة من همدان في المنطقة الممتدة من شمال صنعاء إلى صنعاء. إيمان أحمد شمسان : اليمن في العصر العباسي الأول، دار الثقافة العربية للنشر، جامعة عدن، ٢٠٠١م، ص ٥٤.

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ص ٢٩٧ ؛

Smith : The Political history of The is Islamic Yemen, p. 134.

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٧) R.B. Searjant and Ronald : Sana and Arabian Islamic city, world of islam Festival trust, 1983, p. 50.

اعتمدت بعض القبائل في بسط سلطانها على المذهب الديني^(١)، ويتضح ذلك جلياً في دولة بني مهدي (٥٣٣-٥٦٩هـ/١١٣٨-١١٧٤م)، فهي دولة قبلية ذات مذهب حنفي الفروع^(٢)، وكون ابن مهدي قبلياً ويعرف طبائع القبائل، أراد من خلال دعوته الدينية أياً كان مذهبه، من السيطرة على القبائل ليقود بتحالف منهم دولته، حيث خرجت معه بعض بطون خولان وأهل الجبال، وكان على علم بنزعتهم الانفصالية فشدد على طاعتهم له طاعة عمياء باسم الدين^(٣)، فكان ذلك يمثل خطراً من القبيلة على الدولة أياً كانت قبلية أم مذهبية.

ودان لدولة بني مهدي خمس وعشرون دولة من أهل اليمن^(٤)، وهذا ما يؤكد أن كل دول قبيلة صغيرة تمثل بطوناً صغيرة لها حكومتها المحلية وقوانينها الخاصة الاقتصادية والمذهبية التي تعتمد عليها في استقلالها السياسي، أي أنها دولة داخل دولة، ويعتبر هذا النظام امتداداً لنظام الأقيال والأذواد الذي كان متبعاً في اليمن قبل الإسلام^(٥).

ومن العوامل التي أدت إلى استمرار هذا النظام، العامل السياسي ويتمثل في غياب دولة مركزية واحدة قوية، وضعف الدويلات القائمة في أحيان كثيرة وعدم الاستقرار لفترات تاريخية طويلة نتيجة للحروب والتمردات بين الدويلات والطوائف الدينية المختلفة، مما دفع رجال القبائل إلى الاحتفاء بالعصبية القبلية والتضامن القبلي للدفاع عن أنفسهم واللجوء إلا الأعراف لحل مشاكلهم اليومية، كما أن الأئمة والحكام الطامحين إلى السلطة غالباً ما كانوا يلجأون إلى طلب الدعم القتالي من رجال القبائل،

(١) قال ابن خلدون : " الصبغة الدينية (لأي مذهب ديني) تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية ". المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١٥٨.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٦.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.

(٤) وهي مدينة ذي جبلة، مقر الدعوة الفاطمية، مدينة الجند وأعمالها، ثالبة وشرياق، وذخر وأعمالها، وملك بني الزر، مدينة ذي أشرق، ومدينة إب، إقليم المعافر وحصونه سامع ومطران، بلاد بني المظفر سبأ بن أحمد الصليحي، إقليم حراز، برع، بلاد بكيل، بلاد حاشد، ووادي عنه، ووادي زبيد، ووادي رمع، ريمة، والأشاعر وحصونها ومعقلها وقراها، والمذيخرة وأعمالها، ووادي نخلة، ودمت، ووحظة وأعمالها، وحصون خولان وبني ربيعة. عمارة : نفس المصدر، ص ١٥٤، ١٥٥.

(٥) عبدالرحمن بشير : من تاريخ اليمن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م، ص ٣١.

وأكثر ما ينطبق هذا على المناطق الشمالية والشرقية من البلاد^(١).

كما يظهر لنا جلياً آفة التحاسد والتنافس والإنقسامات الداخلية بين القبائل اليمنية في جميع أنحاء اليمن^(٢)، التي أتت بالغرباء ليحكموا البلاد — متمثلين في الدولة الأيوبية — بالقوة فأصبح اليمن شبه موحد، يخضع لسيطرة الأيوبيين سياسياً واقتصادياً^(٣).

العناصر الأجنبية :

استقر بزيد بجانب سكانها الأصليين عناصر أجنبية متعددة منها الفرس، والأحباش، وأهل النوبة، والبجة^(٤) والسلاجقة وغيرهم ... فوجد في زبيد جماعات من الأبناء وهم بقايا أبناء الفرس المستولدون في اليمن^(٥).

وحاولت جماعة الأبناء أن تحافظ على وجودها في زبيد، بل كل أرجاء اليمن وذلك بأن اهتموا بالتجارة وأصبح لا يعنيههم الحكم أو السلطة، فكونوا الأموال العظيمة وقام بعضهم بالأعمال الخيرية كبناء المساجد^(٦).

كما استقر في زبيد الكثير من الأحباش والنوبيين والبجة، جُلبوا إليها كجند أو رقيق^(٧) وذلك

(١) قائد الشرجبي : القرية والدولة في المجتمع اليمني، دار التضامن للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠م، ط١، ص٢٠٩.

(٢) يذكر ابن خلدون : " أن العرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلبة والأنفة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم ". المقدمة، ص ١٥١.

(٣) Smith : The Political history of the Islamic yemen, p. 132; The Ayyubids and Rasulids the Transfer for Power in 7th / 13th Century yemen, Islamic culture, vol. xliii, No. 2, 1969, p. 175.

(٤) البجة : بضم أولها، وهم يضمون قبائل البشارية الآن، وبلادهم على سواحل البحر الأحمر مما يلي صحراء عيذاب إلى بلاد الحبشة، تزوجوا وصاهروا من العرب ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم بالعرب واشتدت شوكة العرب بهم بعد الإسلام، على من ناوهم وجاورهم من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار. وتتميز بلادهم بأنواع الزمرد الأخضر النفيس ومعادن الذهب. المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ط١، ج٢، ص١٥؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص١٨؛ أمين واصف بك : معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٢.

(٥) Yosef Tobi : The Jews of Yemen, Leiden, 1999, p. 34.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٤٧.

(٧) عمارة : المفيد، ص٩٧.

لموقع بلادهم القريب من بلاد الحبشة، ونشب الصراع بين العناصر الثلاثة في زبيد منذ القرن الرابع الهجري ولكنه حُسم لصالح الأحباش أو النجاشيين الذين كانوا عبيدًا لآل زياد وبمجرد أنهم تسلموا السلطة صتبوا جام غضبهم على من حولهم من الأجناس الأخرى حتى العرب أنفسهم^(١)، فكانت هذه الدولة "حبشية بكل ما تعني هذه الكلمة من معان، حبشية بسلطانها، وحبشية بوزرائها، وحبشية بجنودها وعدتها، وحبشية بنظامها وتقاليدها"^(٢)، فقضت على المعارضين لها ومنهم الحسين بن سلامة الذي خلف آل زياد في الحكم والذي كان نوبي الأصل^(٣).

واستمدت دولة بني نجاح في زبيد قوتها من الأحباش الذين استوطنوا اليمن منذ القدم مهاجرين وغازين وكذلك من خلال الهجرة المباشرة بعد الإسلام إلى اليمن فقد أراد نجاح مؤسس الدولة النجاشية أن يرتكز على عصبية من السود تُعَضِّد دولته مثلما كانت الدولة القبلية في اليمن تعتمد على العصبية، حيث استكثر منهم واسكنهم في مدينة خاصة بهم وهي مدينة حَيْس^(٤) القريبة من زبيد والتي لم يكن فيها بيت من العرب^(٥)، وأصبحت وحدة إدارية تتبع ولاية زبيد منذ عهد النجاشيين (٤١٢-٥٥٤هـ/٢١-١٠٢٢-١١٥٩م) وحتى نهاية دولة بني مهدي (٥٦٩هـ/١١٧٤م)^(٦).

كما كان النجاشيون يجلبون الأحباش من الحبشة لاستخدامهم في الحرب، ومن ذلك أن سعيد الأحول النجاشي أرسل إلى الحبشة لشراء عدد من الجنود يجيدون فن الرمي بالحراب فاشترى له عشرين ألف منهم، لذلك كان الأحباش في عهد النجاشيين هم أهم الجند المدافعين عن زبيد وأعمالها، وأصبحت السيطرة الفعلية في زبيد وتهامة بأيديهم بجانب توليتهم إمارة الدولة^(٧). ثم ما لبث النزاع بين أبناء جيش بن نجاح بعد وفاته سنة ٤٩٨هـ/١٠٦م، وتحالف بعضهم مع أعدائهم من الصليحيين الذين كان بينهم وبين النجاشيين حروب كثيرة، فأصبح الطريق ممهدًا لعلي

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٢٤٧.

(٢) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٨٥.

(٣) الكبسي : اللطائف السنية، ص ٢١.

(٤) حَيْس : بلد من نواحي زبيد باليمن، وتبعد عن زبيد ٣٥ كم إلى الجنوب وهي نسبة إلى الحيس بن ذي رعين

بن حمير. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٢، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٦) عبدالله عبدالسلام الحداد : مدينة حيس اليمنية (تاريخها وآثارها الدينية)، دار الآفاق العربية، القاهرة،

١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ط ١، ص ٥١.

(٧) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٧٧، ٧٨، ٩٢.

ابن مهدي فقضى على الدولة الحبشية النجاشية في زبيد سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م^(١)، ولكن ظلت آثارها الاجتماعية في زبيد متمثلة في بعض الصفات الجسمية والشكلية، وبعض أنماط المعيشة^(٢)، وفي ذلك أورد عمارة قول : " اعلّموا أن عرب التهاّم يستولدون الجوّاري السود "^(٣).

كما استقر بزبيد جماعات من الغز السلاجقة^(٤) منذ عهد الدولة النجاشية، التي استعانت بهم لتدعيم جيشها في تصديها مع الصليحيين، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف وأربعمائة فارس، لم يبق منهم سوى أربعمائة فارس، استمروا في خدمة النجاشيين وأولادهم فترة طويلة، تم منحهم خلالها وادي ذوّال إقطاعاً لهم^(٥). وهكذا اختلطت هذه العناصر الأجنبية جميعاً في المجتمع الزبيدي واليمني وذاب أكثرها بفعل عامل الزمن^(٦).

أهل الذمة :

أولاً: النصارى :

سكن النصارى اليمن ولهم فيها تاريخ طويل قبل الإسلام، وكانوا بعد الإسلام يزاولون أعمالهم في حرية كاملة ويدفعون الجزية^(٧)، إلا أن أعداد النصارى الذين سكنوا اليمن في العصور الوسطى بدأ في التناقص بسبب اعتناق الإسلام أو الهجرة إلى جوار إخوانهم في الدين خاصة تلك الجماعات النصرانية التي لا ترتبط بعصبية في البلاد^(٨)؛ فكانوا قليلين في مدن اليمن الداخلية، بالمقارنة مع تواجدهم في المدن التجارية والبحرية حيث إنهم شاركوا في تجارة زبيد وتجارة عدن التي جذبت الكثير من الأجناس ذات الملل والأديان المختلفة سعياً وراء التجارة التي ازدهرت فيها منذ أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، فقد كان المسلمون مع النصارى قبل هذا التاريخ يشاركون بنصيب وافر في التجارة الخارجية ما بين زبيد وعدن والهند،

(١) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٩٢-١٠٢.

(٢) عبدالرحمن بشير : من تاريخ اليمن، ص ٤٣.

(٣) عمارة : المفيد، ص ١٣٤.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٥) ذوّال : من أودية زبيد، يصب في البحر الأحمر وبلدة القحمة وهو في الشرق الشمالي أو شمال شرق مدينة زبيد. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٢، ج ٤، ث ٢٧١؛ المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص ٢٣.

(٦) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٣٤.

(٧) عبدالرحمن بشير : المرجع السابق، ص ٤٩.

(٨) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٢٠٩.

فارتاد النصارى زبيد — مع غيرهم من الذميين — كمدينة كبيرة بحثاً عن العمل التجاري الذي ظلّ له صدى حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي^(١).

واتسمت علاقة النصارى بالسلطة بالحذر، وابتعدوا عن المشاركة في التنازع عليها لضعف قوتهم وقلة حيلتهم ورأوا أن عملهم بالتجارة والحرب هو طريقهم للعيش داخل المجتمع الزبيدي.

ثانياً : اليهود :

تهوّد بعض عرب اليمن زمن أسعد بن كرب الحميري الذي حكم فيما بين سنتي ٣٨٥-٤٢٠م، فهو أول من أخذ بدين اليهودية^(٢)، فظلت اليهودية هي الدين الرسمي للدولة اليمنية ما يزيد عن قرن من الزمان، ولم يترك يهود اليمن هذا الدين إلا قسراً عندما غزا الأحباش النصارى اليمن سنة ٥٢٥م^(٣).

وكان اليهود عند ظهور الإسلام، في المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب، وانشصر عملهم في التجارة والربا والزراعة وفي بعض الصناعات التي تخصصوا بها، وهي أمور جعلت لهم نفوذاً عند سادات القبائل والأمراء والملوك^(٤).

والتزم اليهود بدفع الجزية لحكام البلاد^(٥)، مما أتاح لهم التمتع بالحماية من قبل النظام القبلي، حيث عاش اليهود في جوار القبائل وذمتها اليمنية فوفر لهم هذا النظام الحرية في شراء الأراضي الزراعية وجعلهم أعضاء نشطاء في المجتمع اليمني^(٦)، وكانت الحماية القبلية لهم مقابل بعض الأمور الشكلية وأهمها عدم حمل أي نوع من السلاح والقيام بتمييز أنفسهم بارتداء زي معين غالباً ما كان لونه أسود، وأن يميزوا أنفسهم أكثر بواسطة " الزنانير " وهي عبارة عن خصلتين طويلتين من شعر الرأس متسدلتين على جانبي الوجه^(٧).

(١) Werner Daum : From Aden to India and Cairo, : Jewish world trade in the 11th and 12th centuries, in Yemen 3000 years of art civilization in Arabia Felix, Frankfurt, 1987, p. 169.

(٢) ابن خلدون : العبر، ج٢، ص٦١.

(٣) الهمداني : الإكليل، ج٨، ص٢٢٦.

(٤) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م، ص٥٣.

(٥) مجهول : التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، معهد المخطوطات العربية، مخطوط رقم ١٥٢٩ تاريخ، ق٧، ٨.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص٢٠٩.

(٧) فضل علي أحمد غانم : البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٢٤٥.

أساءت دولة بني مهدي معاملة اليهود^(١)، كما أساءت لغيرهم من أهل البلاد المسلمين^(٢)، وكان ذلك نتيجة لما لاقاه اليهود من حرية سياسية واقتصادية ومذهبية من قِبَل الدولة الصليحية الموالية للفاطميين، خاصة أن موقف الدولة الفاطمية تجاههم، أدى إلى زيادة مكاسبهم الاقتصادية، وتَقَرَّبوا من أصحاب السلطة، مما أوغر صدر علي بن مهدي عليهم، ونجا من هذا الموقف يهود عدن الذين يتبعون دولة بني زريع الشيعة، وكذلك الشمال الذين تمتعوا بحماية الزيديين، فهرب معظم اليهود من العرب الذين سكنوا زبيد وأنحاء متفرقة من اليمن إلى مدينة عدن^(٣)، واستقروا بها وتمتعوا بحرية الجوار، حتى أصبح يشار إلى يهود عدن بالعَدَنِي، وكان اتصال يهود اليمن مع غيرهم من المجتمعات اليهودية الأخرى يتم عن طريق يهود عدن، بواسطة التجارة^(٤) حينئذٍ والعلاقات الدينية حينئذٍ آخر^(٥).

وتبوأ يهود عدن قيادة اليهود في أنحاء اليمن لقربهم من أصحاب السلطة وكذلك سيطرتهم على النواحي التجارية في المدينة والتبادل التجاري بين عدن وزبيد داخلياً وبين الهند^(٦) والصين خارجياً، فتغير وضعهم الاجتماعي من ضعفاء يندرجون تحت حماية القبائل إلى أقوياء يتمتعون بحماية حاكم المدينة واختلطوا بأهلها^(٧)، وتمتعوا بحق المواطنة والمساواة مع أهل المدينة فاجتمعت لهم السلطة والثروة^(٨).

وأصبحت الأوضاع السياسية والاقتصادية مواتية لليهود في عدن، فالجماعات التي تركت زبيد منهم، اندمجت في المجتمع الجديد، واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وتعلمت اللغة العربية كونها

(١) Yosef Tobi : The Jews of Yemn, p. 41.

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ج ٢، ص ١٢٨.

(٣) Joseph B. Schecht man : The Jews of Aden The Jewsh social, vol.13, 1931, p.133.

(٤) عبدالرحمن بشير : من تاريخ اليمن، ص ٩٤.

(٥) Herbert S. Lewis; After The Eagles Landed The Yemen ites of Israead, London, 1989, p. 17.

(٦) استعمل اليهود الدنانير الذهبية في تجارتهم مع الهند، ومنها الدنانير الزبيدية والمالكية، والتي لاقت قبولا في الهند. الدنانير المالكية نسبة إلى الصليحيين، وضربت في عدن منذ سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م وحتى سنة ٤٥٦هـ / ١١٣١م وكان يتعامل بها في عدن حتى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م.

Bikhzi, Ramzi : Coins of Al-Yaman, Al-Abhath, vol., 23, 1970, p. 100.

(٧) Goitein : Jews and Arabs, Their Contacts Through The ag, New York, 1974, p. 74.

(٨) Eliyahu Ashtor : The Jews and Mediterranean Economy 10th – 15th Centuries, London, 1983, p. 165.

لغة البلاد مع الحفاظ على لغتها العبرية، فدرّسوها لأبنائهم في المعابد باعتبارها مهمة مقدسة^(١). فازدادت العبرية فصاحة بمجاورتها اللغة العربية في الأرض اليمنية^(٢).

وتضخمت ثروات اليمنيين اليهود، فأصبح يهود زبيد وعدن يصدرون البضائع اليمنية، واحتكروا مهنة الدباغة وتصديرها إلى الهند^(٣)، وتظهر المصنوعات الجلدية كثيرًا في أوراق الجينيزا لأنها الغطاء الرئيسي للمسافرين على ظهر السفن التجارية^(٤).

مما سبق نستطيع القول، أن العمل بالتجارة أعطى اليهود فرصة للحراك الاجتماعي والانخراط داخل الطبقة العليا من المجتمع، خاصة في المدن التجارية كزبيد وعدن، فعلى الرغم من كراهية اليمنيين المسلمين لليهود، كان يهود اليمن راضين بالحياة في أحيائهم الخاصة، حيث يوجد بها المعابد، ويمارسون داخلها شعائرتهم وخاصة يوم السبت، وهذا الإنزواء كان من فوائده تسهيل أداء الفرائض الدينية^(٥) مع التمتع بحق الجوار من قبل القبائل اليمنية.

طبقات المجتمع اليمني :

كان المجتمع الزبيدي في اليمن مقسم إلى قسمين أحدهما : الطبقات الخاصة، والثاني : الطبقات العامة.

أولاً : الطبقات الخاصة :

طبقة الحكام :

وتشمل عدة فئات هم : الملوك والولاة وزعماء القبائل والقادة وأرباب السيوف وكبار الموظفين وكل من يشترك معهم فيما يتعلق بالحكم.

تعددت عناصر الحكام في زبيد منذ القرن الثالث الهجري، وما بعده بدايةً من آل زياد ثم النجاشيين ثم الصليحيين ثم بني مهدي وأخيرًا بني أيوب^(٦).

كما كانت الزعامات القبلية من أهم العناصر التي تولت السلطة في زبيد، واليمن كله، وذلك

(١) Aviva Klein – Franke; The Jews of Yemen, Frankfurt, 1987, p. 267.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٩٧، ٩٨.

(٣) Goitein : A Mediterranean Society, Jewish Communities of Arab world as Partrayed in Documents of the Cairo Geniza 969–1250, university of California, 4, p. 129.

(٤) Goitein : Jews and Arabs, pp. 74–75.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ١٤٣؛ عمارة : المفيد، ص ٦٧.

(٦) عبدالرحمن الشجاع : المرجع السابق والصفحة.

بتأييد من الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية، وبعضها بواسطة القوة وعدم التبعية لإحدى الخلافتين مثل بني مهدي من قبيلة حمير^(١).

فنهج مهدي نهجًا آخر بعيدًا عن اتجاه أهل السنة الموالين للخلافة العباسية أو الإسماعيلية الموالين للفاطمية أو الزيدية، فكونوا لأنفسهم سلطة بعيدة عن تلك الاتجاهات جميعها^(٢).

من هنا استند أغلب الحكام في المقام الأول على العصبية القبلية بجانب المذاهب الدينية، ولما كان لطبقة الحكام تأثير في المجتمع، فكان لهم دور كبير إلى استقرار الحكم لفترة طويلة أو انهياره، مثلما حدث مع دولة بني مهدي الذين حكموا زبيد منذ سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، والتي اتسمت سياستهم بالقوة والعنف^(٣)، والقتل والتخريب في كثير من الأحيان، فلم تستمر سلطتهم سوى خمسة عشر سنة وشهرين وأربعة وعشرين يومًا من سنة ٥٥٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٤م^(٤).

تصدر الحكام في دولة بني مهدي أعلى فئات المجتمع، فتمتعوا بسلطات واسعة والحكم بشكل فردي مطلق، له كل الصلاحيات، مثل فرض الضرائب أو إلغائها، وإصدار الأحكام على عامة المجتمع، مهما كانت هذه الأحكام إلى حد القتل والتعذيب^(٥).

وحصل هؤلاء على ميزات كبيرة في المجتمع من حيث بناء وسكن القصور الكبيرة، والمتعددة ومن ذلك ما اشتهر بني مهدي من استيلائهم على القلاع، وأهما قلعة زبيد التي أصبحت مركزًا للحكم، بجانب الحصون والقصور كغنائم من أعدائهم والسكن والتحصن بها مثل حصن تعز الذي عسكر فيه عبدالنبي بن مهدي في بعض مواقعه الحربية^(٦).

احتوت قصور الحكام في زبيد على العديد من الجواري، بجانب الثروات الكبيرة من أموال، وكنوز ومصوغ ولؤلؤ ويواقيت فاخرة وملابس جليلة على اختلاف أصنافها، والتي تم

(١) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة؛ عمارة : المصدر السابق والصفحة.

(٢) عمارة : المفيد، ص ٢٣٦؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٧٣.

(٣) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨، ٥١٩؛ عمارة : المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٣٦.

(٤) الخزرجي : المسجد، ق ١٧٤؛ ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٣٩٧؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص ٦٩.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٠، ١٤٠؛ قائد الشرجبي : القرية والدولة في المجتمع اليمني، ص ١٨٥.

(٦) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦٨.

الاستيلاء عليها ممن سبق من حكام زبيد، النجاشيين^(١)، وبلدان اليمن الأخرى^(٢).

كما اتسم الحكم في مدينة زبيد بجعله وراثيًا متمثلًا ذلك في أسر الحكام، منذ بداية الدولة المستقلة في عهد بني زياد، وكذلك كان الأمر بالنسبة للدولة النجاشية، والدولة الصليحية ثم دولة بني مهدي، وكانت الوراثة تنتقل ما بين الأبناء أو الأخوة. فمثلاً دولة بني مهدي جرى التوريث لها في زبيد، فبعد أن تولى علي بن مهدي السلطة في زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، لم يمكث غير ستة أشهر في الحكم، تولى بعده ابنه مهدي بن علي ثم تولى بعد أخوه عبدالنبي بن مهدي وأحمد بن مهدي، ولكن عبدالنبي استأثر بالحكم لنفسه، واستمر في الحكم إلى أن قدم الأيوبيون إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م^(٣).

والجدير بالذكر أن أي دولة مستقلة في زبيد أو اليمن يرتبط التوريث فيها بموافقة الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية، وتوثيق ذلك برسالة من الخليفة بالموافقة على ولاية العهد لهذه الأسرة^(٤). ولكن دولة بني مهدي لم تتبع أو تتطلع إلى هذا النظام في التأكيد الشرعي لسلطانها وحكمها لمدينة زبيد لعدم اتباعها لأي من الخلافتين سواء كانت العباسية أو الفاطمية، واعتمادها على إحكام سيطرتها بالقوة على زبيد وغيرها من البلدان اليمنية.

وإلى جانب السلطان أو الملك أو الإمام هناك عدد من مساعديه الذين يقومون بالوصل بينه وبين أتباعه وشعبه، فكان لعلي بن مهدي نقيبان على طائفتي المهاجرين والأنصار والذين لقبوا بشيخي الإسلام، فلا يخاطبه أحد من أتباعه أو شعبه إلا عن طريقهما^(٥).

غير أن الشرائح الحاكمة التي سبقت دولة بني مهدي في زبيد، لم تنقرض من المدينة بمجرد إزالة سلطانها بل كان يبقى منها أجزاء أصبحت جزءاً من المجتمع كمجاميع بشرية أو كقبائل أو كآسر، تؤثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية^(٦).

(١) عمارة : نفس المصدر، ص ١٥٨، ٢١١، ٢١٣.

(٢) الوصابي : الاعتبار، ص ١٠٨، حسن سليمان : تاريخ اليمن، ص ٢٤٢.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق ١٦٣، ١٧٤.

(٤) الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص ٦٥، ٩٦، محمد جمال الدين سرور : سياسة

الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٨٤.

(٥) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٨٦.

(٦) فضل علي أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص ١٩٥.

زعماء القبائل :

أو مشايخ القبائل، كانوا يستمدون مرتبتهم الاجتماعية من الزعامة السياسية التي تنتقل من جيل إلى آخر، ومن ثم فإن ألقابهم وتسمياتهم بالمشايخ تعتبر ألقاباً وأسماء متوارثة عبر السنين^(١). ويضاف إلى النسب المستقل لشيخ القبيلة، بعض الصفات الأخرى التي يجب أن تتوافر فيه، ومنها كرم الأخلاق والشجاعة في القول والرأي والترحيب بالضيف وإكرامه، وإعانة المغلوب وتأمين الخائف، والعمل على حل المشكلات والمنازعات بين أفراد القبيلة والحفاظ على حقوق ومصالح القبيلة، والمسؤوليات والنفوذ الذي يتمتع به شيخ القبيلة لا يتجاوز حدود القبيلة أو القسم الذي يتزعمه.

ونجد أن زعماء القبيلة لم يكونوا يتميزون عن رجال القبيلة الآخرين عن طريق ارتداء ملابس معينة، كما أنهم كانوا يشتركون مع بقية رجال القبائل من خلال أحد المظاهر الذي يميزهم عن بقية الفئات الاجتماعية الأخرى في المجتمع ويتمثل في وضع " العسيب " ^(٢) و " الجنبية " أي الخنجر مستقيماً في أحزمتهم وسط البطن^(٣)، مرتدين عليه الخِرقة^(٤).

ومن المهام الرئيسية لشيخ القبيلة أو زعيمها أن يتحمل الالتزامات المادية والأدبية، للأشخاص اللاجئين من القبائل الأخرى طالباً للحماية والإقامة في القبيلة أو أشخاص القبيلة نفسها لتعرضهم لبعض النكبات فيحتاجون تقديم المساعدة والمعونة، بالإضافة إلى مساعدة بعض أفراد الفئات الضعيفة خارج القبيلة وداخلها ممن لا مورد ثابت لهم سوى ما يمنح لهم من هبات أو مساعدات في أوقات الحصاد^(٥).

إذن كان زعيم القبيلة يتمتع بالسلطة والقوة على مجمل العلاقات الخاصة بالقبيلة والمنطقة التي يتولى الزعامة فيها مستنداً إلى هيئته ومكانته الاجتماعية والسياسية بالدرجة الأولى وكذلك الثروة التي تأتي في المرتبة الثانية لتساعده على إتمام مهامه تجاه القبيلة^(٦).

(١) فضل علي أبو غانم : المرجع السابق والصفحة.

(٢) العسيب : أو العصيب، وهو مشتق عن عَصَبُ الشيء أي شدته والمقصود به الحزام. ابن منظور: لسان العرب، م ١٠، ص ١٦٨.

(٣) فضل أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص ١٩٥.

(٤) الخِرقة : هي نوع من الأردية الغليظة تستعمله القبائل في شبه الجزيرة العربية. اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقطن، ج ٣، ص ٣٥٥؛ رجب عبدالجوا إبراهيم : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص ١٤٧.

(٥) فضل أبو غانم : المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٦) فضل أبو غانم : نفس المرجع، ص ٢١٠.

وأبلغ مثال على مكانة زعيم القبيلة ورئيسها، ما حدث في عهد عبدالنبي بن مهدي، عندما تحالف السلطان حاتم الياامي حاكم صنعاء مع السلطان الزريعي حاكم عدن ضد دولة بني مهدي، واستعاننا ببعض القبائل ومنها قبيلة جنب، ومذحج وهمدان وسنحان وبني شهاب ونهد، بقيادة زعماء القبائل ومنهم عبدالله بن يحيى، والشيخ زيد بن عمرو، وكان لذلك أثره في هزيمة عبدالنبي ابن مهدي في ذي جيلة وتعز سنة ٥٦٩هـ/أكتوبر ١١٧٣م^(١).

طبقة العلماء :

تشمل هذه الطبقة طوائف الفقهاء والقضاة والمحدثين والقراء والمفسرين بالإضافة إلى الأدباء والشعراء واللغويين وكل من يشترك معهم في الصفة العلمية.

يعتبر العلماء من أهم الطبقات نفوذاً وإجلالاً عند الحكام، وخاصة طبقة القضاة والفتوى لما لهم من إجلال ديني، وهم يشكلون شريحة هامة في المجتمع، لها تقاليدها واهتماماتها وأجوائها الاجتماعية المختلفة^(٢). على أن سياسة حكام دولة بني مهدي إزاء العلماء اختلفت كل الاختلاف عن الحكام السابقين لمدينة زبيد^(٣)، فاتخذت موقفاً عدائياً من علماء أهل السنة وفقهائهم، حتى اضطروا إلى الفرار خوفاً من القتل^(٤).

كان العداء الصريح سمةً من سمات دولة بني مهدي مع القضاة والفقهاء لمدينة زبيد في بداية الدولة آنذاك، ومنهم بنو أبي عقامة^(٥)، المنسوبون إلى القاضي محمد بن هارون التغلبي الذي

(١) بامخرمة : ثغر عدن، ص ١٦٠؛ ابن الديبع : قرّة العيون، ص ٢٦٨.

(٢) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٨٧.

(٣) كانت الدولة النجاشية ذات اسهامات واضحة لمدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بما أغناهم عن سواهم من الأراضي والمرافق، فكان الوزير مَنّ الله الفاتكي يتصدق على هذه المدارس، كذلك كان سرور الفاتكي يصرف لهم سنوياً اثني عشر ألف دينار ويوضح ذلك عمارة بقوله : " رأيت جريدة الصدقات التي يدفعها عند دخوله إلى زبيد للفقهاء والقضاة والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثني عشر ألف كل سنة ". عمارة : المفيد، ص ٢١٠، ٢٢٧.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٩، ١٨٧؛ محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٦٣.

(٥) بنو أبي عقامة جماعة منهم يسكنون وادي سهام بقرية تنسب إليهم فيقال لهم أبيات القضاة، ومنهم جماعة يسكنون بلاد المعافر، توارثوا القضاء في زبيد حتى أزال أغلبهم ابن مهدي. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٢، ج ٤، ص ٤٦٨؛ اسماعيل بن الأكوخ : هجر العلم ومعاقلة في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، ج ١، ص ٤٩.

قدم مع ابن زياد من بغداد، وكذلك كان بنو عقامة هم قضاة زبيد في عهد الصليحيين والنجاحيين أيضاً^(١).

وفضائل بنو أبي عقامة مشهورة فهم "الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي، وقدموا لهم جهروا ببسم الله الرحمن الرحيم في الجمعة والجماعات، ونسبهم في تغلب"^(٢). وولي منهم الحسن ابن أبي عقامة القضاء في أيام الصليحيين ثم ولي لني نجاح، لأنهم على مذهب الإمام الشافعي وهو مذهبه، فرأى أنهم أولى بالملك من الصليحيين، مع أن النجاحيين من الأحباش، وكان هذا من أحد الأسباب لعودة الملك إلى جياش بن نجاح، لما بذله من جهد وعون صادق لجياش — السذي كان يبجله ويوقره ويلقبه بالنصير المؤتمن^(٣) — حتى تغلب على دولة بني الصليحي في تهامة^(٤).

وكل ذلك يوضح مدى التوقير من قبل آل نجاح مقارنة ببني مهدي وعلاقتهم بالفقهاء والقضاة في زبيد، ثم تولى قضاء زبيد لبني نجاح بعد الحسن ابن أخيه القاضي أبو الفتوح عبدالله ابن محمد بن علي بن أبي عقامة^(٥)، وجاء بعده ابن عمه القاضي محمد بن عبدالله بن علي بن أبي عقامة المعروف بالقاضي الحفائي، وكان له رئاسة مذهب الإمام الشافعي في زبيد، وكان قتله على يد علي بن مهدي عند استيلائه على زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٦).

وقد أدى اعتداء دولة بني مهدي على علماء الشافعية في زبيد إلى فرار كثير من العلماء والقضاة والفقهاء إلى الجبال والبلدان اليمنية الأخرى مثل ذي أشرق وبعضهم هرب إلى عدن والبعض الآخر إلى مكة^(٧). ومن الذين هربوا إلى الجبال الفقيه أبو العباس أحمد بن خمرطاش، خوفاً من بطش ابن مهدي وتوفى ولم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره وذلك سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٨).

(١) الجندي : السلوك، ج٢، ص ٢٩١، ٢٩٣.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٢٤١.

(٣) أحمد بن محمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ، السفر الثاني، ص ٨٥.

(٤) إسماعيل بن الأكوع : هجر العلم ومعاقلة في اليمن، ج ١، ص ٥٠.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٤٠.

(٦) إسماعيل بن الأكوع : المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢.

(٧) ابن سمرة : المرجع السابق، ص ١٧٩؛ الأهل : تحفة الزمن، ص ٢٤٠.

(٨) أحمد الشامي : المصدر السابق؛ السفر الأول، ص ٥٦٧.

وبعد هجوم مهدي بن علي بن مهدي على الجند وبواديها سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م، خرج الفقيه الإمام يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني^(١) من "ذي أشرق"^(٢) متجهاً إلى قرية "ضراس"^(٣) مبتعداً عن ساحة الشقاق الديني وبطش ابن مهدي، ثم توجه إلى "ذي السفال"^(٤) فاستقر بها، ولكن لم يلبث أن توفي في ربيع الآخر سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م.

كما هرب الفقيه علي بن أحمد وكان يسكن اليهاقر بادية الجند، متوجاً إلى الأنصال وهي قرية من قرى العوادر سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م، بعد أن دخل مهدي بن علي الجند وقتل أهلها وحرق مسجدها^(٥).

كما هرب القاضي طاهر بن يحيى بن أي الخير بن سالم العمراني الذي كان شافعي الفروع أشعري العقيدة على عكس والده، الذي كان حنبلي العقيدة^(٦)، فهاجر إلى مكة بأولاده الرجال والنساء، فراراً من حكم ابن مهدي سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م، فأقام بمكة سبع سنوات ثم عاد إلى اليمن في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ومراً بزبيد فظفر به عبدالنبي بن مهدي وأحضره إلى مجلسه، وأحضر القاضي محمد بن أبي بكر المدحج وتناظرا بين يديه، فاستظهر عليه القاضي طاهر، فسأله ابن مهدي أن يخطب على منبر زبيد^(٧)، ثم ولّاه قضاء إب وذي جبلة من سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م إلى بعض أيام شمس الدولة توران شاه الأيوبي، وكانت وفاته سنة

(١) الموطن الأصلي للفقيه يحيى بن أبي الخير هو سَيْر وسَيْر تقع في الشمال الشرقي من الجند. ابن سمرة: نفس المصدر، ص ١٧٩.

(٢) ذي أشرق : قرية كبير بالوادي المعروف بنخلان على نصف مرحلة من الجند. ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٣١٥.

فر كثير من علماء الشافعية في زبيد إلى ذي أشرق بعد اعتداء علي بن مهدي عليهم، واختلفوا مع فقهاء ذي أشرق الذين ناصبهم العداء وكفروهم، لأن فقهاء زبيد شافعية الفروع أشعرية الأصول، بينما فقهاء ذي أشرق شافعية الفروع حنابلة الأصول لا يتأولون المتشابه من صفات الله، ولكنهم يحملونها على ظاهرها، من غير تأويل ولا تحريف. إسماعيل بن الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج ٤، ص ٢٠٦٤.

(٣) ضراس : قرية من عزلة نخلان من ذي السفال من أعمال إب. ابن سمرة : نفس المصدر، ص ٣٢٠.

(٤) ذي السفال : بلدة على مرحلة من قبلي الجند عن سفح جبل التعكر. ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ٣، ٤.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٨٧؛ إسماعيل بن الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج ٤، ص ٢٠٦٨.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٨٨؛ إسماعيل بن الأكوخ : المرجع السابق والجزء، ص ٢٠٦٩.

٥٨٧هـ/١١٩١م^(١). كما طلب الشيخ الأجل عبدالله بن عبد الوهاب العريقي، الأمان من عبدالنبي، ورجع إلى الظُفر^(٢)، وذلك سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م.

وعندما غزا عبدالنبي بن مهدي مخلاف جعفر وحاصر حصن الجمعة واحتله يوم الاثنين ٢ من ربيع أول سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م، قضى على كل ما كان بالحصن، وكان بينهم الشاعر يحيى بن أحمد بن عبدالسلام شاعر الإسماعيلية ولسانهم، ابن القاضي أحمد بن يحيى بن عبدالسلام الصنعاني، فذبحه أصحاب ابن مهدي في ذلك اليوم^(٣).

وعلى الرغم من ذلك، بلغ الكثير من طبقة العلماء مبلغاً كبيراً في النواحي العلمية، وقد أطلقت عليهم ألقاب متعددة تعبر عن مقدار بلوغهم العلمي مثل إمام، وعالم ورئيس مذهب أو رئيس علم، وتولى منهم وظائف علمية هامة، وعلى سبيل المثال، تولى الفقيه محمد بن أبي بكر المددح رئاسة طبقة فقهاء المذهب الحنفي أيام بني مهدي^(٤).

كما تولى رئاسة الفقه بالإجماع الفقيه يحيى بن أبي الخير^(٥)، وتولى رئاسة الفتوى بذي جبلة الفقيه أبو الخطاب عمر بن علي بن سمره الجعدي (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م)^(٦)، وكان من قضاة بني مهدي في زبيد القاضي عبدالله بن نبيل^(٧)، والقاضي عبدالله بن محمد بن عبدالله وكان من القضاة المشهورين في تهامة^(٨).

كذلك القاضي عبد الجبار بن محمد الحنفي، الذي ولي قضاء الجند أيام عبدالنبي بن علي بن مهدي وكان نائبه فيها الفقيه زياد بن أسعد الجماعي الخولاني الذي توفي ٥٦٠هـ/١١٦٤م^(٩).
وجدير بالذكر أن الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي هم الذين كانوا يعينون على

(١) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٨٩.

(٢) الظُفر : حصن في جبل وصاب من أعمال زبيد. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٣، ج ٦، ص ٢٨١؛ ابن سمره : نفس المصدر، ص ٢٣٣.

(٣) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٤) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٨٩؛ ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٨؛ إسماعيل بن الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج ١، ص ٢٥١.

(٥) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٢٧٢، ٣٤٣.

(٦) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٥٣٨.

(٧) ابن سمره : المصدر السابق : ص ٢٢٦.

(٨) ابن سمره : المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٩) ابن سمره : المصدر نفسه، ص ٢٧٢، ٢١٧.

القضاء في اليمن في عصر الولاة^(١)، وعندما بدأ اليمن يستقل من الناحية الاسمية عن الخلافة العباسية، أصبحت مهام تعيين القضاة موكولة إلى ولايتها وحكامها، فكان بنو نجاح والصالح بنو مهدي هم الذين كانوا يتولون تعيين القضاة في اليمن^(٢).

وكان مذهب القاضي في الغالب هو نفسه مذهب الدولة الحاكمة، فلم يكن تعيين القاضي يتم إلا بعد التأكد من صلاحيته واستيفائه لشروط الولاية من حيث المعرفة بالدين والفقه والنزاهة والشرف، كما كان يُتحرى عن حاله وماله ومذهبه^(٣) الذي يكون أساس تعيينه كقاضي من قبل دولة بني مهدي.

طبقة كبار الملاك :

تميز المجتمع الزبيدي كغيره من المجتمعات العمرانية بوجود كبار الملاك للأراضي الزراعية وكبار التجار، فالمال له أثر فعال في المجتمع الزبيدي؛ إذ جعل أصحابه طبقة متميزة في المجتمع، وساهم في صعود الزعامات القبلية إلى السلطة.

فبالنسبة إلى كبار ملاك الأراضي الزراعية، تملك كثير منهم أراضي زراعية واسعة منهم على سبيل المثال الوزير رزيق الفاتكي النجاشي ت ٥٢٤هـ / ١٢٩م الذي كان يمتلك أراضي واسعة وكثيرة في زبيد، حيث عجز الفقهاء عن تقسيمها بين ورثته لكثرتها^(٤). والتي آلت فيما بعد لأملاك دولة بني مهدي كأمالك زراعية خاصة بهم كحكام.

كما وُجد صغار الملاك للأراضي الزراعية ذات الملكية الخاصة في زبيد، وكانوا الأغلبية العظمى من الملاك في زبيد.

أما التجار : فقد ازدهرت التجارة في زبيد كمركز رئيسي هام في النشاط التجاري لليمن، فحقق التجار من وراء عملهم في التجارة مكاسب وثروات مما شجعهم على تنمية المال واستثماره فيها، وعبر عن ذلك ابن بطوطة بقوله واصفاً زبيد بأنها " ليس باليمن بعد صنعاء أغنى من

• (١) وذلك مثل طاووس بن كيسان قضاء مخلافي صنعاء والجند سنة (١٠٦هـ / ٧٢٤م) وتولى قضاء صنعاء الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز وهب بن منبه (١١٤هـ / ٧٣٢م) وفي عهد الخليفة المأمون العباسي ولي قضاء أعمال تهامة القاضي محمد بن هارون التغلبي إلى جانب واليها محمد بن زياد. الأهل : تحفة الزمن، ص ٥٧، ١٥١؛ الجندي : نفس المصدر، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٤١؛ الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢٩١، ٢٩٣.

(٣) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٤٣٥.

(٤) عمارة : المفيد، ص ٢١٢، ٢١٣.

أهلها"^(١)، وذلك تأكيداً على وجود شريحة كبيرة من التجار. كما أكد على ذلك المقدسي عند وصفه لمدينة زبيد بأن بها تجاراً كباراً^(٢)، كما تنوعت أجناس التجار في زبيد، فكان فيها التجار الأصليين، وإلى جانبهم وُجدَ عنصر الفرس الذين اهتموا بالتجارة وكونوا منها أموالاً عظيمة^(٣).

الطبقات العامة :

طبقة العامة من أهم الطبقات في أي مجتمع، حيث إنها أكثر تعداداً وانتشاراً، وتأثيراً في الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتشتمل هذه الطبقة على الجند والفلاحين وأرباب الحرف.

طبقة الجند :

هذه الطبقة من الطبقات المميزة في المجتمع وخاصة كبارهم من القادة العسكريين، باعتبارهم الطبقة العسكرية المحاربة، وأنهم يملكون القوة، وبواسطتهم يتم فرض السلم أو الحرب في البلاد تحت قيادة دولة بني مهدي السياسية والحربية.

ولأهميتهم كطبقة عسكرية كان أول ما يقوم به الحكام هو التأكد من ولائهم وطاعتهم، ويتضح ذلك من امتلاك علي بن مهدي كل ما يخص جنوده وقوادهم من مال ودار وعتاد وسلاح وخيل، وهم مظهرين طاعتهم وولائهم التام له، معتقدين بذلك أن الهدف هو نصرة الدين^(٤).

تكون الجيش في زبيد من رجال القبائل اليمنية، وخاصة قبائل بني خولان، التي ساهمت في إقامة دولة بني مهدي، ومحاربة كثير من الدول المستقلة في اليمن ومنها الدولة الزيرية في عدن والدولة الحاتميه في صنعاء وبعض الأشراف في المخلاف السليماني^(٥)، ففي القبائل اليمنية أهم الشخصيات صعوداً هم الزعامات القبلية أو ما يقربون إليهم، لأن النظام القبلي يلزم أفراد القبيلة طاعة زعمائها، لذلك كان كبار القادة العسكريين في النظام القبلي زعماءها الذين اقتنعوا بأهداف علي بن مهدي العسكرية، وتدعيم قوته وسيطرته على زبيد، والقضاء على دولة الأحباش فيها وهي الدولة النجاشية^(٦).

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة، ص ٢٢٤.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ٨٥.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٢٤٧.

(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٢٦، عمارة : المفيد، ص ٢٣٧.

(٥) الخزرجي : العسجد، ق ٦٥، بامخرمة : ثغر عدن، ص ١٥٩.

(٦) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٥٠.

تغيرت المعاملة القاسية الشديدة للجنود بعد تولي مهدي بن علي الحكم^(١)، وكذلك عبدالنبي ابن مهدي فأصبح للجنود حق في امتلاك ما يخصهم من مال ودار وسلاح وخيل، وحرية التصرف فيه، مع استمرار ولائهم وطاعتهم لمبادئ دولة بني مهدي السياسية والحربية^(٢).

العامة :

هم عامة الناس، وهم الطبقة المحكومة، وأكثر الطبقات عددًا وأكثرها اتساعًا وتشمل أرباب الحرف والصناعات والفلاحين وصغار التجار وصغار الموظفين والحمالين والصيادين والحراس والكناسين والبنائين والباعة المتجولين وكل من يمتنون المهن الدنيا.

كانت هذه الطبقة بعيدة عن منأى الحياة السياسية^(٣) والصراعات الحربية لدولة بني مهدي م الدول المستقلة الأخرى في اليمن، إلا أن ذلك أثر بالسلب على حياتها الاقتصادية والاجتماعية، حيث كان التنقل من بلد إلى آخر لكسب الرزق غير آمن مع اضطراب الأوضاع السياسية في زبيد، كذلك كثرة الحروب التي استنزفت كثير من موارد زبيد، فتعرض سكانها إلى بعض المحن الاقتصادية في قلة مواردها المتاحة لديها، وغالبًا ما كانت هذه الطبقة تسعى لتخزينها فترة من الزمن لتفي بعض احتياجاتها أوقات الحرب.

الفلاحون :

يشكلون أغلب السكان في زبيد، وهم العاملون في الأرض، وتواجد منهم فلاحون أغنياء، ومتوسطون وفقراء ومعدمون، وفقًا لمقدار ما يمتلكون من أرض، والفقراء والمعدمون منهم العمال الزراعيون في زراعة الأرض وهي حرفتهم الأساسية^(٤).

ويتم تقسيم فئات الفلاحين وأهميتهم طبقًا لنوع المحصول المزروع، فال فئة التي تزرع الحبوب والفواكه وهم كثيرون العدد، تتقدم على الفئة التي تزرع الخضروات والبقول وهم قليلو

(١) عمارة : المصدر السابق، ص ٢٣٧؛ الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٥١٨.

(٢) الخرجي : المسجد، ص ١٦٦.

(٣) لم يشترك العامة من أهل زبيد في الأحداث السياسية زمن دولة بني مهدي لاسيما محاولة الاستجداد بالإمام الزبيدي أحمد بن سليمان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ليساعدهم في قتل مولاهم فاتك بن محمد بن نجاح لخروجه عن الدين والتصدي لمحاولات علي بن مهدي لدخوله زبيد وسيطرته عليها، ولكن الإمام لم ينجح في ذلك وترك زبيد عائداً إلى نمار. ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٢، ١٢٣؛ عمارة : المفيد، ص ٢٣٣؛ الكبسي : اللطائف السنية، ص ٥٠، ٥١.

(٤) قائد الشرجبي : القرية والدولة في المجتمع اليمني، ص ١٩٩، ٢٠٠.

وقد كانت العلاقة بين الفلاح الأجير ومالك الأرض عادلة بشكل عام، فلم تشر المصادر إلى وجود خلافات بين المالك والمستأجر^(٢).

وكان رجال القبائل ممن ينتمون إلى الفلاحة، حيث يشتغلون بالزراعة كمهنة اقتصادية رئيسية إلى جانب القيام برعي وتربية الأغنام والماشية، وهؤلاء يؤلفون معظم أو غالبية السكان في المناطق القبلية^(٣).

إلا أن الفلاحين في زبيد ظلوا يشكلون منزلة اجتماعية واحدة حيث إنهم يشتركون في أنماط سلوكية وعادات وقيم اجتماعية وأخلاقية واحدة، وذلك بالإضافة إلى تقاربهم في مستويات المعيشة وطرق ووسائل كسبهم ومهنتهم^(٤).

غير أن بعض الجماعات في المجتمع القبلي كانت تدعم مكانتها الاجتماعية والسياسية من خلال نسبها الصريح وتاريخها الموروث، على الزعامات والقبائل الأخرى ممن يمتنون بالزراعة أو الفلاحة، كقبائل خولان في زبيد وهمدان والأشاعر وعك العدنانية التي ارتبطت بالأشاعر في زبيد ولازمت علي بن مهدي.

أرباب الحرف والصناعات :

تميز الحرفي في زبيد بتعلم حرفته عن طريق الوراثة، فظهرت أسر متخصصة بالحرف المتنوعة، فكان الفرد يتعلم الحرفة عن طريق التدريب عليها وممارسة العمل بها بجانب السابقين له في الحرفة، ويظل الحرفي محتفظاً بنفس الحرفة التي تتحدر منها عائلته، وعلى ذلك فإن الحرفي غالباً يتزوج من الفئة التي ينتمي إليها نفسها أو من المستوى الاجتماعي لعائلته نفسه^(٥). ارتبط الحرفي بتوافر الموارد والمواد اللازمة لصناعته، فضلاً عن نوعية النشاط السكاني، والحياة اليومية، وكان الصناع والحرفيون عادة ما يكتبون أسماءهم على أعمالهم بالإضافة إلى تاريخ الصنع ونوع الصناعة والبلدة التي صنع بها، سواء كان ذلك في مجال الصناعات المعدنية

(١) قائد الشرجبي : المرجع السابق، ص ٩٩، ٢٠٠.

(٢) محمد الحداد : التاريخ العام لليمن، ج ٢، ص ٣٧٤.

(٣) فضل أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص ٢٣١.

(٤) فضل أبو غانم : المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٥) فضل أبو غانم : نفس المرجع، ص ٢٤٣.

أم المنسوجات أم مجال العمارة^(١).

اشتغل الحرفي بمهنة الحدادة واستخراج الخامات والمعادن لصهرها، مثل الحديد والفضة، ثم استخدمها في صناعة السيوف والرماح والحراب والسهام، والأدوات الخاصة بالصيد، والآلات اللازمة للزراعة^(٢).

واشتهر الحرفي أيضاً بزبيد بصناعة الحلي واستخدام الأحجار النفيسة للتزيين مثل العقيق وتفنن في ذلك بحرفية عالية مما جعل زبيد من البلاد المشهورة في تطعيم المشغولات الذهبية وخاصة اللازورد، وكانت طبقة صناع الحلي يطلق عليها الحكاكين^(٣).

ومن ذلك كانت طبقة الحدادين والمشتغلين بالمعادن الأخرى، من الطبقات الضرورية والهامة لمصالح الناس ومعايشهم في زبيد.

كما وُجِدَت فئة الحلاقين وهم الأشخاص الذين يقومون بأعمال الخدمة العامة في المدينة والقرية، في مناسبات الأعياد الدينية والزواج وقُدوم الضيوف وما شابه في المناسبات العامة^(٤).

ومن أصحاب الحرف الأخرى، فئة النجارين، الذين اشتهروا في زبيد، ببناء السفن على ميناء غلافقة بزبيد، هذا بجانب الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية وما يلزم لبناء المنازل من أسقف وأبواب وكراس، وبعض الأدوات الخاصة بالطعام والشراب، ومن ذلك يتضح أن طبقة النجارين كانت ضرورية للعمران في زبيد^(٥).

كما وجدت طبقة العامة في وظائف أخرى متعددة منها رعاة الماشية، الذين كانوا يقومون برعي الأغنام والماشية ويعيشون عيشة التنقل والترحال بحثاً عن الكلأ والماء، وكانوا من الأعراب الذين يعيشون عيشة بدائية، وكذلك الحمالين وحراس الضيعات وصيادين السمك^(٦)، وفئة الحمامين، وهم الأشخاص الذين يقومون بغسل وذلك الأجسام للأفراد في الحمامات العامة بزبيد^(٧).

(١) ابن رسته : الأعلام النفيسة، ص ١١٢؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٥٤.

(٢) فضل أبو غانم : البنية القبلية في اليمن، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٣) الواسعي اليماني : تاريخ اليمن، ص ١١١.

(٤) فضل أبو غانم : المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة، ص ٤١٤، ٤١٥.

(٦) عمارة : المفيد، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٧) فضل أبو غانم : نفس المرجع والصفحة.

الرقيق :

كانت اليمن تجلب الرقيق من غلمان وجواري من الهند، وكذلك الوصيفات والغلمان من الحبشة والنوبة، فانتشر بها الرقيق، حيث كان يدخل إليها في كل سنة ألف رقيق وخمسمائة غلام وخمسمائة وصيفة حبشية ونوبية^(١).

وامتألت زبيد بالرقيق والجواري والوصيفات في الفترة التي سبقت حكم دولة بني مهدي، حيث كان في قصور فانتك النجاشي أكثر من ألف جارية، آلت فيما بعد إلى علي بن مهدي وأبنائه فعندما استولى علي بن مهدي على الحكم أصبح كل ما يمتلكه آل نجاح في حوزته وتحت سيطرته في زبيد^(٢).

كما استولى عبدالنبي بن مهدي على قصور الملوك الصليحيين ومنهم قصر المفضل بن أبي بركات في جبلة وكان من غنائه مائة من الجواري^(٣).

وكان من العبيد ما يستخدم في خدمة أسيادهم ويطلق عليهم الموالي، وأدخلوا إلى اليمن عن طريق التجارة، وكانوا على قدر من العلم والمعرفة والأدب والإلمام بشئون التربية والتجارة، مما جعلهم يحتلون مكانة خاصة لدى أسيادهم، فأوكلوا إليهم تربية وتعليم أبنائهم والاتجار بأموالهم وإدارة شئون ممتلكاتهم، وكانوا لا يحتقرون ولا يهانون بل يعيشون ضمن أسر أسيادهم كجزء منها وليس في حياة منعزلة حتى يورثونها لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم، ومن ثم اندمجوا في المجتمع اليمني^(٤).

ومن أشهر تجار الرقيق في زبيد الشيخ حمير بن أسعد الذي تولى منصب كاتب الوزير من الله الفاتكي وغيره من وزراء آل نجاح في زبيد، فكان يجلب الجواري من عدة أماكن ثم يقوم بتربيتهم في داره وتعليمهم الغناء والطبخ وخزن الثياب وعمل الطيب، ثم بيعهم، كما كان يتاجر ببيع السموم التي يقتل بها الملوك حيث إن سمومه كانت وراء كل من مات بالسم من ملوك بني نجاح ووزرائهم، فكان يستخدم جواريه ممن يبيعهم لهم ليقمن بوضع السم لمخدومهم^(٥).

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) ابن عبدالمجيد : المصدر السابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) فاطمة علي فضل : الفئات الدنيا في المجتمع اليمني (الأخدام)، دراسات يمنية، صنعاء، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، العدد ٤٩، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٤) عمارة : المفيد، ص ٢١٧؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٣٦.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٤٥.

كان كثير من التجار في زبيد يتوجهون إلى سوق عدن لشراء الجواري حيث اشتهرت عدن بذلك، فكانت الجارية إذا أرادوا بيعها تبخر وتطيب وتعدل ويشد وسطها بمئزر ويطوف بها المنادي في الأسواق، وعندما يحضر التجار لشرائها يفحصونها فحصًا دقيقًا، لمعرفة سنّها وجمالها^(١) فإذا أعجبتهم اشتروها وتبقى عند المشتري لمدة عشرة أيام، فإذا اكتشف بها عيبًا خلال تلك المدة رفع دعوى عند القاضي بذلك ضد البائع طالبًا إعادتها إلى صاحبها^(٢).

الأخدام :

كلمة أخدام من الناحية اللغوية هي جمع ومفردها " خادم "^(٣)، والخادم هو الذي يقوم بأعمال الخدمة، ومصطلح أخدام لم يدخل الحياة السياسية والاجتماعية إلا في منتصف القرن السادس الهجري، وأول من أطلق كلمة أخدام هو علي بن مهدي الرعيني الحميري مؤسس دولة بني مهدي في زبيد، وذلك في إحدى خطبه لحث أهل اليمن على الانضمام لثورته ضد الدولة النجاشية في زبيد حين قال سنة ٥٤٦هـ : " فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخذ منكم (أي يخدم في بيوتكم) بنات الحبشة، وأخواتهم ولأخولنكم أموالهم وأولادهم "^(٤).

والمقصود بالحبشة هنا الدولة النجاشية التي اتخذت تدريجيًا طابعًا سلاليًا عرقيًا، فقد تحولت بعد وراثتها لحكم دولة بني زياد إلى دولة قومية عرقية تعتمد كليًا على أبناء قومها في إدارة شئون الدولة والجيش والتجارة، ودخلت في حروب وصراعات طويلة مع الدولة الصليحية ثم المقاومة لحركة ابن مهدي التي كانت مبادئه السياسية تعتمد على إخضاع هذه الفئة بالتشريد والإجراءات التعسفية التي تتم عن أحقاد مزمّنة، وكان قيمًا على تطبيق سياسته باستخدام العرب لهذه الفئة ليس كعبيد ولكن كخدم وإجازة استرقاق نساء الدولة النجاشية على الرغم من أنهن مسلمات، ومعاملتهن معاملة قاسية لمدة خمس عشرة عامًا^(٥).

وبعد انتصار دولة بني مهدي على الدولة النجاشية والقضاء عليها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، نفذ ابن مهدي ما كان أقسم عليه فحوّل بقايا دولة بني نجاح إلى أخدام محكوم عليهم بالعيش في

(١) بامخرمة : تاريخ نجر عدن، ج١، ص٧٦، ٧٧.

(٢) ابن منظور : لسان العرب، م٥، ص٣١.

(٣) الخزرجي : العسجد، ق١٥٧؛ الجندي : السلوك، ج٢، ص٥١٧.

(٤) السروري : تاريخ اليمن الإسلامي، ص١٩٤.

(٥) فاطمة علي فضل : الفئات الدنيا في المجتمع اليمني (الأخدام)، ص٢١٢، ٢١٣.

عزلة اجتماعية وسياسية تامة، وبتأدية كل ما هو حقير ووضع من الأعمال والمهن^(١)، وقد أمعن آل مهدي وأتباعهم في إذلال هذه الفئة واضطهادها واستغلالها وحرمانها من حقوقها الاجتماعية والسياسية كافة، وأصبحت في أدنى السلم الاجتماعي منفردة في حياتهم الاجتماعية محرومة من كل المعاملات الإنسانية، حيث يمارس المجتمع معها الأعمال العنيفة والشاقة بالإضافة إلى الاضطهاد والامتهان المريرين، وحرمانها من أبسط الحقوق والعلم والعدل والمساواة في ظل الإسلام. وأصبحت لا تتمتع بحق الحماية والرعاية القبلية التي تتمتع بها الطبقات الدنيا^(٢)، كما كان أفراد تلك الفئة لا يرتبط بأي علاقة مع أفراد المجتمع ولذا فهم معزولون تمامًا عن الحياة القبلية العامة ومكوناتها وكل ما يتعلق بها من مشاكل ونزاعات مختلفة^(٣).

وعلى الرغم من أن هذه الجماعات "الأخدام" تدين بالإسلام مثلها مثل بقية فئات المجتمع، إلا أن المجتمع اليمني كان ينظر لتلك الفئة بطريقة مختلفة، بل حتى مغايرة للتعاليم الإسلامية^(٤)، مما أدى بجماعات الأخدام أن تصبح مصدرًا للإمتاع والترفيه، من خلال حفلات الرقص والغناء في الأعياد والمناسبات المختلفة، وكثيرًا ما كان أفراد المجتمع اليمني يترددون على أحياء الأخدام، كونها تمثل أماكن مثالية للاستمتاع، وإشباع الرغبات الغريزية خاصة في ظل الواقع المحافظ للمجتمع اليمني^(٥).

ومن هنا أصبحت فئة الأخدام في أقل السلم الاجتماعي من حيث الترتيب العام لفئات المجتمع اليمني، بعد أن كان أفرادها قبل ذلك الفئة الحاكمة لمدينة زبيد، متمثلين في بقايا الدولة النجاشية "الحبشية" في اليمن^(٦).

وهكذا تتعاون جميع الفئات والشرائح على أداء مهام المجتمع، بالرغم من التفاوت والتفاضل فيما بينها، ويرى ابن بطوطة أن "للتفاوت الطبقي حكمة ووظيفة، فالإنسان لا يستطيع القيام بجميع أعمال ووظائف المجتمع، فاختلاف طبقات الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتفاوت الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل في الوظائف الاجتماعية"^(٧).

(١) فضل علي أحمد : البنية القبلية في اليمن، ص ٢٤٧.

(٢) فضل علي أحمد : المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(٣) فاطمة علي فضل : المرجع السابق، ص ٢١٥.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١١٣؛ فضل علي أحمد : البنية القبلية في اليمن، ص ٢٤٧.

(٥) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٨٧.

(٦) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ٥٥، عمارة : المفيد، ص ٢٣٦.

(٧) ابن بطوطة : مذهب رحلة ابن بطوطة، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

مظاهر الحياة الاجتماعية في زبيد :

تعددت مظاهر الحياة الاجتماعية في زبيد، من عادات وتقاليد مختلفة تميزها عن المجتمعات الأخرى في اليمن، ويتضح ذلك جلياً في الزواج والاحتفالات بالمواسم والأعياد الدينية والشعبية.

أولاً : العادات والتقاليد في زبيد :

اختص المجتمع الزبيدي ببعض الصفات والطباع، فكان أهل زبيد يتصفون بالنظافة في ملابسهم، وفي منازلهم، وفي أسواقهم، وفي حماماتهم، واهتمامهم بالمنازل الفسيحة وكذلك حسن الخلق وتزيين منازلهم، وكثرة طيبهم، والمركوبات الوثيرة^(١).

يقول فيهم المقدسي^(٢) : " وأهلها لهم أدنى ظرف " وذلك في حسن المعاملة، ويقسم ابن المجاور يميناً ألا يوجد هذا الظرف في عموم اليمن^(٣)، ثم يصف ابن بطوطة أهل زبيد بلطافة الشمائل وحسن الأخلاق وحسن الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائق^(٤).

وأهل زبيد ضعاف البنية، محلقي الرؤوس، وتتصف نسائهن بارتداء ملابسهن مرخيات التلك، مائلات في مشيهن، فقال في ذلك ابن المجاور : " ما رأيت في جميع اليمن سهلها وجبلها وجهاً حسناً يعتمد عليه النظر ولا فيهم طرافة ولا لطافة ولا ملاحه ولا حلاوة "^(٥)، بمعنى تميزهم في الجمال عن غيرهن. ويذكر منطقة الحليلة جنوب زبيد والخوجة بأن فيها الصبايا الملاح والنساء الصباح، بينما رجال زبيد يتشبهون في بعض حركاتهم بالنساء^(٦).

ثانياً : المأكل والملبس :

(أ) المأكل :

كان أهل زبيد يميلون إلى الأكل والشراب ولا حديث لهم سوى عن الأكل^(٧)، وهذا يعني أنهم يتميزون بالدعة والكسل، وربما يرجع ذلك للبيئة الحارة التي تختص بها زبيد. وبالرغم من

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧٠، ٢٤٦؛ المقدسي : أحسن التقاسيم : ص ٨٤، ٨٥.

(٢) المقدسي : المصدر السابق، ص ٨٥.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة، ص ٢٤٧.

(٥) ابن المجاور : نفس المصدر، ص ٨٥، ٩٢، ٢٤٦.

(٦) ابن المجاور : نفس المصدر، ص ٧٠، ٨٥، ٢٤٦.

(٧) من أحاديث عامتهم عن الأكل، أن حدث زيد عمراً — مثلاً — يقول له اليوم " تصبحت " فطير دخن وقطيبي " أو " ملتح " وأنت ما " تعوفت " فيقول عمرو " رغيف " خبز بفس وقطعة حلاوة بأربعة فلوس، ويقول جعفر أنا أكلت أكله تكفيني ثلاثة أيام " فطير " و " حليب " و " قند " وترفت إلى أن شبع، ويستدل من ذلك أنه يوجد محلات لبيع الطعام جاهزاً وقتذاك. ابن المجاور : نفس المصدر، ص ٨٦، ٨٧.

اهتمامهم بالأكل إلا أنهم لا يهتمون ولا يتكلفون في طريقة أكلهم، وكانوا يصنعون الخبز في منازلهم، وبما أنه كان هناك نوعان من الحبوب يهتمون بهما وهما الدخن والذرة فكانوا يخزنوها في مدافن أرضية من موسم إلى آخر، ويستخدمون أنواعًا من الطعام المستخلصة من الدخن والذرة منها "الخفوش" أو "اللحوح" وهو خبز من الذرة، يوضع في اللبن المخلوط بأنواع من البهارات، ونوع آخر من الخبز يسمى "الكبان" يصنع بطريقة معينة تجعله مستساغ الأكل دون أدام أو سبع، وهناك نوع آخر من الخبز يعرف "بالفطير" ويؤكل باللبن والسّمك ويسمونه "الملتح" (١).

ولديهم مشتقات من الحليب، اللبن والقطيب وهو الجبن ويتداولونه في وجباتهم، ويفضلون في أغلب أكلهم السمك عن اللحوم الأخرى (٢)، وكثير طيبخ أهل زبيد الملوخية، وكثيرًا ما يستخدمون السليط أو زيت السمسم أدامًا لهم مخلوطًا بأنواع الخبز (٣).

لأهل زبيد من الفواكه البطيخ. ويسمونه "البرطيخ" أو "الحَبْ حَبْ"، حتى أن الباعة ينادون عليه في الأسواق (حَبْ حَبْ كثير الماء قليل الحَبْ) هذا بالإضافة إلى الموز والعنب، ولديهم أنواع من الحلويات منها "القند" والحلاوة و"الدُّبَاء" وهو القرع أو اليقطين فيطبخونه بطريقة الشيء في التنور (٤).

وجباتهم ثلاث، ولكل وجبة نوع من الطعام، فالصباح يتناولون فيه الدخن والقطيب أو الملتح والسليط، أما العواف أي الغداء، فيأكلون فيه الخبز مع قطع الحلاوة (٥)، والوجبة الثالثة غالبًا ما تكون مثل الوجبة الأولى.

ومن الأبيات التي توضح حبهم للأكل ما ذكره علي بن أبي علي السنوي (٦) :

خذي " الثريد " إذا ما جئت مقبلية	نحوي، ولا تأخذي، مسكًا باطيباب
واستعملي من فطير " الدخن " مع لبن	وصبحيني به صبحًا على " الباب "
فإن " قلبي " إلى حب " الفطير " صبا	وليس " قلبي " إلى حب " النساء " صابي

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٦.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة.

(٣) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٨٩.

(٤) ابن المجاور : نفس المصدر والصفحة؛ العقيلي : المخلاف السليماني، ص ١٨٦؛ عبدالرحمن الشجاع : المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٥) ابن المجاور : نفس المصدر، ص ٨٦، ٨٧. لم يذكر ابن المجاور الوجبة الثالثة، والاحتمال لبداية وجودها لم يتعرض لها.

(٦) العقيلي : المرجع السابق، ص ١٨٦.

اختلفت أنواع الأطعمة وتناولها بين الطبقات المختلفة وذلك بحسب مراكزهم الاجتماعية وثرائهم، فكان رجال الطبقة العليا من الأمراء والحكام ومن في مستواهم يتناولون أفخر المأكولات ومنها الخراف المشوية بالإضافة إلى الحلويات. وقد يبلغ طول السماط خمسين ذراعاً ويكثر عددها إلى أربعة أسمطة^(١).

وقد وصف القلقشندي طعام طبقة الثراء وأصحاب السلطة بقوله : " إن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة وسعادات عندهم ملحوظة ولأكابرها من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكول، يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ويعمل فيها السكر والقلوب "^(٢).

ذلك وصف المأكولات للطبقة الغنية والحاكمة، بينما كان رجال الطبقة الفقيرة لا يأكلون إلا ما تيسر من الطعام، فكان أهل الحرف والصيادين والحمالين والزراع يتناولون طعاماً بسيطاً حيث كان يشكل فطيرة خبز وقطيب أو رغيف خبز وقطعة حلوة^(٣).

كذلك تنوع استخدام الأطعمة بحسب حاجات أهل زبيد لها من حيث المكوث والسفر، فصنعوا الأطعمة التي يستمر بقاؤها طويلاً دون أن يصيبها التلف مثل الخبز اليابس الذي لا يصيبه التغير حتى يتسنى لهم استخدامه في السفر، وعند استخدامه يُدق هذا الخبز ويطرى باللبن أو السمن ويؤكل، كذلك جففوا الأسماك كي لا تتلف وتمكث في السفر شهر أو أكثر من ذلك^(٤).

(ب) الملبس :

تأثر لباس زبيد بالمناخ الحار لتلك المنطقة، فكان لبس أهل زبيد الحرير والقطن والقلنسوات المصنوعة من خوص النخيل^(٥)، وغلب على أهل زبيد لبس الإزار بلا قميص^(٦)، والإزار ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن، كما لبسوا الأردية، وهي ما تلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة، والثوب يستر الجزء الأعلى من الجسم فوق الإزار^(٧).

كما يلبس البعض منهم المئزر والصديرية، ويكون الشباب حاسري الرؤوس التي تزينها

(١) الوصابي : تاريخ وصاب، ص ٥٨.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٧.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٦، ٨٧.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ٣١٥، ٣١٦.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٦٨.

(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٩.

(٧) رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص ٣١.

الشعر المسدولة، أما الشيوخ فيعتمدون بالعمائم على الكوفية غطاء الرأس من القماش ويتردون برداء يسمى اللحاف^(١).

وكان الناس في زبيد يلبسون الملابس وفقاً لحالاتهم الاجتماعية والسياسية ونوع عملهم، فكانت ملابس الأمراء والحكام غير ملابس الرعايا والجند، كما كان لأصحاب الحرف والمهن ملابس خاصة تتناسب مع نوع عملهم^(٢).

فكانت ملابس طبقة الحكام ومعظم جنودهم وأتباعهم عبارة عن أقبية إسلامية ضيقة الإكمام مزودة على الأيدي وفي أوساطهم مناطق مشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف لانس^(٣)، ويلبسون في أرجلهم الدلاكسات، وهي أخفاف من القماش الحرير الأطلسي والعنابي وغير ذلك^(٤).

أما لباس العامة فكان يختلف في المدينة عن القرية، ففي المدينة اللباس من القطن والحرير مع طول الأكمام وكبر العمائم، وكان يصل طول الكم ذراعاً ونصف ذراع وعرضه ذراع^(٥)، أما الفلاحون في القرية فكانوا يلبسون المآزر السوداء من غير قمصان وتسمى الفنيلة، كما كانوا يضعون على رؤوسهم قطعاً من الثياب السوداء تلف على الرؤوس دون طاقية، كما لبس رعاة الماشية ملابس بسيطة تشتمل على إزار وسترة ومدرعة^(٦).

وكانت طبقة القضاة والفقهاء والعلماء تتميز عن غيرهم بلبس الجوخ^(٧)، وكانوا يفصلونه كجبة واسعة الأكمام، وتبطن ببطانة من القماش، أما الأطراف فتصنع من الحرير^(٨). أما لباس المرأة في زبيد، كان عبارة عن سراويل طويلة تلاصق الأرض وعليه ثوب طويل يستر جميع جسدها ما عدا الكفين وباطن القدمين، وكانت أكمامه ضيقة ويسمى هذا الثوب (زينة) وكانت ألوانه ترتبط بالفرح أو الحزن، ففي حالة فقد عزيز عليها يكون لونه أسود، وفي حالة الفرح تلبس منه

(١) العقيلي : المخلاف السليماني، ص ١٨٩.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) تخافيف لانس : اللانس هو نوع من الحرير اللطيف غالي الثمن، وكان لفظ " على رؤوس تخافيف لانس" من الألفاظ الدارجة على السنة العوام في اليمن. رجب عبدالجواد : المعجم العربي لأسماء الملابس، ص ٤٤٧.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٤.

(٥) جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص ٢٥٢.

(٦) مدرعة : هي لباس من الصوف الغليظ يرتديه فقراء الناس. رجب عبدالجواد : المرجع السابق، ص ١٧١؛ المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٩.

(٧) الجوخ : نسيج صفيق من الصوف. رجب عبدالجواد : نفس المرجع، ص ١١٩.

(٨) الواسعي : تاريخ اليمن، ص ٣٠١.

الحريير الملون^(١).

كما لبست المرأة في المدينة العبلات أو " العباءات " ^(٢) ووضعت على رأسها مجموعة مصرات " مناديل " من القماش الملون، وفوقها منديل كبير أبيض يسمى " فرادى " حوالي ذراعين وأطرافه مزينة بالأحمر أو بالأسود، وجميع أطرافه بالعذب " الطرز " ويوضع فوق ذلك ثوب من الذهب الخالص المنقوش بشكل هندسي، ويسمى هذا الثوب في اليمن " سماطة " ^(٣) والقماش " زربقت " وكان يأتي من الهند، ثم تربط هذه المناديل بحزام " زنار " وهو من الحرير والذهب طوله يتراوح بين ذراعين وثلاثة أذرع وعرض بعرض الكف وتتم صناعته في صنعاء، ويصنع كل ذلك يوضع ثوب رقيق من الحرير الملون يسمى " الطرحة " طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع وربيع ^(٤).

وفي الأعياد والاحتفالات والأفراح كانت المرأة تضع ثوبًا آخر أطول من الأول وأعرض يوضع مثنياً فوق الرأس ويسمى " قناعاً " ويسمى ما على الرأس كله عصابة ^(٥).

وللتزين لبست المرأة أنواع المجوهرات مثل اللؤلؤ والمرجان والياقوت الفاخرة ^(٦)، وعقود الذهب والفضة الخالصة، كما ارتدين الخلل والدمالج والحجل ^(٧). وكما تزين بالحلي تعطرن وتكحلن بأطيب أنواع الزينة، وتميزت نساء " المحاليب " شمال زبيد بتطويل شعرهن وتربيتته منذ الطفولة حتى الكبر، فيضفرنه ضفراً ملاصقاً وهو ما يسمى " دبوقة " ويدهنه ويسرحنه ويغسلنه بالسدر والطين، وكانت بعضهن يضعن الأحجار الكريمة فوق جباههن يصلنه شعورهن ويسمى ذلك " قشيطة " ^(٨).

ونظم أحد الشعراء أبياتاً تتضمن ذلك ^(٩) :

-
- (١) جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص ٢٥٢.
 - (٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٤٥.
 - (٣) سماطة : الثوب الذي ليست له بطانة. رجب عبدالجواد : معجم الملابس، ص ٢٤١.
 - (٤) جميل حرب : المرجع السابق، ص ٢٥٢.
 - (٥) الواسعي : تاريخ اليمن، ص ٣٠١.
 - (٦) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ١٣٦.
 - (٧) الحجل : جمع حجل وهو ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس. رجب عبدالجواد : المرجع السابق، ص ١٢٧؛ ابن المجاور : نفس المصدر، ص ١٣٦، ١٤٥.
 - (٨) ابن المجاور : المصدر نفسه، ص ٥٦، ١٣٦، ٢٥٣؛ الواسعي : المصدر السابق، ص ٣٠٣، ٣٠٤.
 - (٩) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٥٦.

وَنُورُ فَجْرٍ سَطَعَا	يَا بَسْدَرُ تَمِ طَلَعَا
عَلَى كَثِيبٍ مَرَعَا	وَيَا قَضِيْبًا نَاعَمَا
عَصْرًا يَجْرُ الْخَلْعَا	وَيَا غَزَالًا مَرِيِي
مَسُورًا مَمْلُجًا	مَخْلُجًا مَدْمُجًا
مَصْبًا مَقْنَعًا	مَسْكًا، مَحْجَلًا

ثالثًا : الزواج :

من الظواهر الاجتماعية ظاهرة الزواج، ولها عادات مختلفة كالخطبة والمهر والطرح والزواج بالأبعاد، وكذلك الطلاق، أو اتخاذ المظاهر المتعددة في هذه العادات، ومن ذلك :

الخطبة :

هي أول خطوة في الزواج، باختيار الزوج أو الزوجة، وكانت من المقدمات الأساسية للزواج وتبدأ بالتقدم وإيداء الرغبة في الزواج من فتاة بعينها فيتقدم لأهلها لخطبتها وتبدأ بتعريف الخاطب وأهله لأهل الفتاة التي يرغب في خطبتها^(١)، فإذا ما تمت الموافقة على الخطبة، واستجاب الخاطب لمطالب أهل الخطيبة من كسوة وحلي، وجهاز ومقدار المهر مقدمه ومؤجله وغير ذلك، كان ذلك إيذاناً بالعمل على استكمال مراسيم الزواج والموافقة على المتقدم للزواج.

وفي حالة وجود فوارق اجتماعية تتمسك بها بعض الطبقات أو التزوج بأكثر من واحدة أو كبر السن، كان بعض الناس يطلبون عند التقدم للخطبة موافقة جميع الأقارب من أخوال وأعمام وغيرهم إلى جانب موافقة الأبوين لإتمام هذه الخطبة أو الزيجة^(٢). وكانت بعض القبائل ترفض مصاهرة القبائل الأخرى لأسباب متعددة، أهمها العداة الواقع بينها أو للتمايز الطبقي، فتتظر بعض القبائل للبعض الآخر على أنها أقل رفعة وجاهًا، مما أدى لوجود العداة بينهما.

وفي نطاق معرفة الفتاة قبل الزواج فهناك فرصة كي يتعرف الخاطب من أهل الريف على جمال المرأة المخطوبة ونشاطها، فقد كانت أغلب فتيات البادية يعملن في الزراعة والتجارة فإذا أراد الرجل أن يخطب فتاة ريفية بدوية يدلّه الأب على السوق الذي تذهب إليه الفتاة للتجارة ليشاهد نشاطها وجمالها وبيعها وشرائها فإذا أعجبته تقدم لخطبتها^(٣).

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٥٦.

(٢) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٩١.

المهر :

كان المهر عادةً ما يدفع بما يتفق والحالة الاجتماعية للزوج أو الزوجة، وبما يتناسب مع مكانة الأسرتين ومستواهما، وحتى في إطار الأسرة الواحدة، فكان والد العروس يطمع في أن يزوج ابنته من أحد أبناء الأسر الكبيرة أصحاب الثروة والجاه، مغاليًا في مهر ابنته ليدفع له مبالغ ضخمة وصدقًا لزواجها^(١). فكانت المغالاة في المهور عند أصحاب الطبقة العليا من زعماء القبائل، فأقل ما كان يدفع من بطون حاشد من همدان من المهور المؤجلة ألف دينار وست جوار فرس وست جوار روم، وقد أدت ظاهرة ارتفاع المهور بهذا الشكل إلى الحد من الزواج في إطار تلك الطبقة^(٢).

أما في نطاق الطبقات الأخرى فكان المهر أقل من ذلك بكثير، وكذلك كان المهر عند الطبقة الفقيرة يكاد لا يذكر قياسًا بما كانت تدفعه الطبقات العليا، وقد أدت قلة المهور أو الصداقات إلى إقبال عامة الناس على الزواج^(٣).

ومن عادات بعض نساء زبيد عدم أخذ المهور من أزواجهن مقدمًا بل يُحبذن تأجيله، ويعتبر أخذ المهر بكامله مقدمًا عيب كبير على اعتقاد أن المرأة في هذه الحالة تريد الطلاق ويوضح ذلك ابن المجاور : " ونساء أهل هذه البلاد لم يأخذوا من أزواجهن المهر وأخذ عندهم عيب عظيم، وكل امرأة تأخذ المهر من زوجها يسمونها " مفروكة " أي أن زوجها أعطاه مهرها وفركها أي طلقها " ^(٤).

فمن المعروف أن المهر يشترط من البداية أن يكون كله أو جزء منه مؤجلًا، وهو من حق المرأة عند الرجل، وهنا تبدأ هذه العادة عند المرأة نفسها، فإذا طالبت الزوج فهو العيب الذي يترتب عليه خوف الرجال وقلة رغبتهم في الزواج منها مرة ثانية، مخافة أن تعالهم كما عاملت الأول، وفي ذلك يقول الرجل عنها : " أخاف أن تأخذ مني المهر كما أخذت من غيري " ^(٥). وعلى ذلك فإنهم يؤجلون دفع المهور إلى زمن غير محدود، وقد يموت الزوج والمهر في ذمته، أو تموت الزوجة والمهر دين على زوجها، وطريقة تأجيل المهر تساعد أكثر الشباب على الإقبال

(١) عمارة : المفيد، ص ٩٨.

(٢) محمد أمين صالح : تاريخ اليمن الإسلامي، ص ٢٠٩.

(٣) الوصابي : الاعتبار، ص ٦٥.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٥.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٥، ٨٦؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٩٣.

على الزواج وخاصة متعسري الحال، فيكفي لزواجهم دفع مبلغ بسيط كمهر مقدماً^(١). وكان تجهيز العروس وتقديم الكسوة والحلي بحسب المكانة التي تليق بالعروسين وفقاً لثرائهم ومقدرتهم المالية ومكانة طبقتهم الاجتماعية التي ينتميان إليها^(٢). وكانت تقام الولائم وفقاً لحالة الزوج المالية والاجتماعية، فكلما كانت حالة الزوج والزوجة متيسرة كانت الولائم كبيرة وضخمة، وربما تستمر عدة أيام وقد تبلغ شهراً^(٣). وكان على ذلك فلم يحدد المهر أو أنواع الحلي والكسوة وغير ذلك الذي تجهز به العروس، ولا كيفية الوليمة وترك أمرها لحالة العروسين ومكانتهما الاجتماعية، إلا أن ارتفاع المهور وتفاوتها يعبران عن مدى الفرق بين الطبقات بحيث لا يستطيع أصحاب الدخول الصغيرة الزواج من الطبقة الثرية لذلك يظل الزواج محصوراً بين الطبقة الواحدة^(٤).

ومن عادات الزواج تجهيز العروس وزينتها، فكانت تقام الولائم والعزائم ثلاثة أيام، اليوم الأول يسمى يوم الحمام، إذ كان أهل الزوجة يعزمون أقارب الزوج من النساء للذهاب مع العروس إلى الحمام لتغتسل وتضفر شعرها، ويبقن معها ذلك اليوم للأكل والشرب، واليوم الثاني يوم النفش أو الحنة، حيث تحضر قريبات الزوج عند العروس، وتُنقش يدي العروس ورجليها بنقش أسود يسمى الخطط، كان يبقى أياماً لا يزول بالغسل، وكان ينقش مع العروس أخص نساء أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وبعد الظهر تحضر النساء إلى البيت عند العروس ويبقن للمغرب، وكانت تحضر النشادة التي تُنشد الأشعار في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح الزوج وأهله وأهلها وتهنئتهم بذلك الزواج المبارك، واليوم الثالث هو يوم الحفلة، ويسمى يوم الدخلة وكان العريس والعروس يدعوان إليها ما يشاءون من الأقارب والأصدقاء، وكان العريس يحضر إلى بيت العروس مع أحد أقاربه أو أصدقائه للعشاء ويرجع إلى بيته^(٥).

وكما تتزين العروس يتزين العريس، فيخضب يديه ورجليه بالحناء قبل الدخول على عروسه^(٦)، وفي صباح ليلة العرس، يقيم الزوج وليمة في بيته يشترط فيها أن يحضرها من أهل

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٦١.

(٢) عمارة : المفيد ، ص ٩٩.

(٣) السروري : المرجع السابق، ص ٣٦١.

(٤) السروري : نفس المرجع، ص ٣٦٢.

(٥) الواسعي : تاريخ اليمن، ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٨٦.

الزوجة ضعف من حضر مع الزوج عند أهل الزوجة، وعلى الزوج أن يذهب صباح اليوم الثالث للزواج للسلام على أم زوجته وتسمى "عمة" وعلى أبيها ويسمى "عمًا" (١).

وفي اليوم السابع للزواج يدعو الزوج أهل زوجته إلى بيته فيحضرون من الصباح الباكر حيث لا يكون لهم أي عمل سوى الأكل والشرب حتى المساء وبعد ظهر ذلك اليوم تحضر النساء من الجيران وغيرهن ويبقين مع العروس إلى المغرب (٢)، وفي اليوم العشرين يدعو أهل الزوجة أهل الزوج وأقاربه وأصدقائه بحيث يكونوا ضعف من حضر في بيت الزوج في اليوم السابع، وبعد يوم الأربعين تستطيع العروس أن تخرج من بيت زوجها إلى بيت أهلها إذا دعا شيء إلى ذلك (٣).

الطَّرْح :

هي عادة عند أهل زبيد وأهل اليمن كله في الزواج، والطرح كلمة تفيد معنى الإلقاء وهي نوع من الهدية المقدمة في المناسبات المختلفة كالأعراس والولادة وغيرها، وهي مساهمة المدعوين بمبالغ من المال على قدر حالتهم، ويظل هذا المبلغ الذي قدمه المدعوون دينًا على العريس يعيده فيما بعد في مثل هذه المناسبة من الزواج، فكان عندما يُقدّم أحد الشباب على الزواج يدعو أصحابه وأصدقائه وزملاءه وأهله وأقاربه وعندما يحضر هؤلاء احتفال العرس، يكتبون أسماءهم في قرطاس موضحًا أمام اسم كل منهم المبلغ الذي يقدمه إلى العريس (٤).

وقد تصل مبالغ الطرح لبعض الناس إلى مبالغ كبيرة سواء كانت نقدية أو عينية فتساعد في القيام ببعض أعمال التجارة، ولكن لا بد من ردها بقيمتها التي أخذت بها (٥).

ويمارس الطرح في مجتمع النساء بصورة أوسع، حيث كانت تقدمن ويأخذن الهدايا والأموال في مختلف المناسبات وكان عليهن ردها في مناسبات مماثلة بمعنى إذا كانت الهدية مقدمة في عرس لابد وأن ترد في عرس مثله، وإذا كانت في ولادة ترد في ولادة وإذا كانت في ختان ترد في ختان وما إلى ذلك، ويعتبر عدم رد الطرح عيبًا كبيرًا، لأن هذا المبلغ يكون دينًا لابد من الوفاء به، ولذلك كانت النساء إذا ما تحصلت على شيء أسرع لتدفعه إلى أصحابه وإذا

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن، ص ٢٥٠.

(٢) الواسعي : تاريخ اليمن، ص ٣٠٦.

(٣) الواسعي : المصدر السابق، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧٢.

(٥) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٧.

لم تستطع رده، اقترضت لترده^(١).

وكانت من عادة المناطق الشمالية لزبيد من أهل الزرّية والعنبرة والهَرَمه والقرشيّة، عدم ظهور بناتهم قبل الزواج، فهم لا يسمحون للبنت بالخروج أو التزين " إلا إذا عقد نكاحها وقطع مهرها وسلم دفعها بعد ذلك تظهر البنت بطل و زمر على رؤوس الأشهاد ويقدمون بالضيافات والطرح ويتقدم الناس للتسليم"^(٢)، وقد علّل ابن المجاور عادة احتجاب البنت بأن أهلها كانوا يخافون إطلاع البنت وهي صغيرة على أعمال العرس أو الزواج من تزين وتجميل لأن ذلك يجعلها عندما تكبر تخرج عن الطريق الصحيح إلى غيره^(٣).

كذلك تميزت نساء زبيد عن غيرهن من بلدان اليمن، بالقبول بزواج الأبعاد أي الزواج من أجنبي بل ويفضلنه، فكان هذا الزواج مرفوض تمامًا عند نساء أهل اليمن إلا مدينة زبيد، إلا أن نساء زبيد كن يرفضن الخروج من زبيد واليمن كله مهما عرض لهن، فإذا تزوجت إحداهن أحد الغرباء تقنع منه بالقليل من النفقة والكسوة، وإذا سافر بغرض العودة تودعه وهي راضية وهي تتكفل بالنفقة على أولادها حتى يعود ولا تطالبه بنفقة وكسوة عن الأيام التي غاب فيها عنها، أما إذا كان الزوج مقيمًا فإنها تقنع منه بالقليل ولا تنقل عليه بمطالبها ويكون من طبعها الوفاء له^(٤).

الطلاق :

وعن الطلاق، يذكر ابن المجاور صورة من صور الطلاق، وهي أن الزوج إذا أراد الخلاص من زوجته لعدم رغبته فيها فإنه يعطيها مهرها وتصبح مفروكة أي مطلقة، والزوجة إذا غضبت من زوجها لزوجته من غيرها تجمع حولها نساء الحي فتعلن فرك زوجها بأن تهب له المهر وتخرج من البيت قبل أن يعطيها الزوج مهرها، وهذا الإجراء من جانبها لا يكون عيبًا ولا يلحقها العار، وتظل محترمة عند الرجال فلا تُهَجَّر، بل يمكن أن يتقدم إليها الراغبون والزواج منها^(٥).

الولادة :

كانت المرأة إذا وضعت مولودًا كان على الزوج بعد الوضع مباشرة أن يجد مكانًا فسيحًا

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧، ٨٦.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٣) ابن المجاور : المصدر نفسه، والصفحة.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة، ص ١٦٥.

(٥) ابن المجاور : المصدر نفسه، ص ٨٥، ٨٦.

يفرشه بأحسن الفراش ويزينه بأن يضع على الجدران قماشاً مزركشاً أما الأطراف فتزركش بأشكال تخالف الوسط وعلى دائرة شريط، وهذا القماش مبطن بقماش، مخالف للوجه يسمى " السيدار " ويملأ الجدار والسقف بالزينة من الزجاج والبللور سواء كان المولود ذكراً أم أنثى، ومن المعتاد أن تحضر النساء إلى بيتها من اليوم السابع حتى اليوم الأربعين، من الظهر إلى المغرب، وطيلة فترة وجودهن يشربن القهوة المخلوطة بالزنجبيل أو الهيل والسكر، وتحضر النشادة في معظم الأيام ذلك المجلس تتشد المدايح النبوية، وصاحبة البيت تحضر ماء الورد ليصب على الجالسات ويُبخر المجلس بالعود الطيب، وخلال الأربعين يوماً كانت المرأة تأكل في الإفطار البر المفتوت بالسمن والعسل الذي يسمى " المعصوب " وفي الغداء والعشاء تأكل الفراخ الصغار المسماه " الشران " (١).

رابعاً : الأعياد والاحتفالات :

كان عيد الفطر والأضحى كما هو شأن المسلمين في مقدمة الأعياد التي يحتفل بها أهل زبيد سنة أم شيعة، وكذلك ليالي رمضان بالإضافة إلى الاحتفال بمناسبة نضح النخيل. وتحتفل زبيد شأنها شأن البلاد الإسلامية الأخرى بـرمضان، ويبدأ هذا الاحتفال قبل هلال رمضان بيوم أو يومين، فيزين الأهالي أسطح المنازل ويضربون عليها بالدبادب (٢)، أي الطبول، فإذا دخل رمضان اجتمعت مجاميع من الناس يدورون عند السحر يقرءون القصائد إلى آخر الليل، وهكذا كل ليلة إلى نهاية الشهر، فإذا قرب العيد جبوا الناس مقابل عملهم هذا (٣).

وكان الناس في بعض المناطق من زبيد كالمهجم شمال زبيد، يقيمون المطابخ في شهر رمضان ويدعون إليها عامة الناس، ومن أشهر من مقام بذلك الوزير النجاشي سرور الفاتكي فكان يتجه للمهجم ليقم بها مطبخاً طوال رمضان، وبلغت مصاريف مطبخه في كل ليلة حوالي ألف دينار (٤).

ومن مظاهر الاحتفال بعيد الفطر، يخرج الناس لأداء صلاة العيد رجالاً ونساءً، وبعد ذلك يتزاور الناس فيهنئ بعضهم بعضاً بهذه المناسبة الدينية، ويهتم بعض الأثرياء الذين يأمرون عبيدهم بالكنس أمام دارهم ورش المكان ثم فرش فرشه بالحصير ويطرحون عليها الريحان وبعض الأزهار الطيبة العبقة ويرشونها بالكافور وماء الورد الكثير، ويضعون في المباخر أنواع الطيب

(١) الواسعي : تاريخ اليمن، ص ٣٠٧-٣٠٩.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ١٠٠.

(٣) المقدسي : المصدر السابق والصفحة.

(٤) عمارة : المفيد، ص ٢٢٦.

الغالي الثمن، فيبخلون الموضع كله من الفجر وحتى انصرام الإمام، والناس من صلاة العيد وأمام كل باب أكواب الماء البارد ليشرب منها المصلين بعد خروجهم من المصلى^(١).

وفي غلافقة يقوم بعض أهلها بوضع الأسطة، الموائد بعد صلاة عيد الفطر، ويدعون الناس إلى أكل ما بها من أنواع الطعام والحلوى^(٢).

أما عيد الأضحى فكان بعض الأفراد يضحون بأنواع الأضحيات فيذبحون الأبقار، والماعز والضأن ويعدون أنواع المأكولات ويلبسون الملابس الجديدة^(٣).

ومن الاحتفالات التي تميزت بها زبيد، الاحتفال بموسم النخيل، ففي هذا الموسم بعد نضج الثمار وقطعها يتوافد اليمانيون على زبيد من كثير من أنحاء اليمن ليحضروا الاحتفال السنوي الذي يستمر شهرين أو ثلاثة أشهر حيث يختلط النساء والرجال ولا هم لهم سوى اللعب والضحك وشرب النبيذ الذي يُعد من التمر والبر والرطب الذي يصح عمله في يوم وليلة ويسمى "الفضيخ"^(٤)، ويكون أكلهم الرطب مع الموالح والحوامض^(٥).

وإذا ما تم الانتهاء من جني الثمار وفرغ النخيل، خرج الصغار مع الكبار، والأبرار مع الفجار بالطبل والزمر، خلال يومي الاثنين والخميس إلى موضع اسم "الفازة" بالقرب من غلافقة، بعدما يلبسوا الجمال عدة تامة من الأجراس والقالقل "الجلجل" ويشد على رقبتها المعانق والحلي، ويركبون على كل جمل أربعة أفراد وبعضهم من أصحاب الثراء والجاه يركبون "الشقادف"^(٦)، بينما يسير الناس على الأقدام إلى البحر ليسبح الرجال، والنساء عرايا مختلطتين، وهم في شرب ولعب ورقص، ثم يرجعون إلى زبيد بقية الأسبوع^(٧).

كما يحتفل أهل زبيد بمناسبة أخرى للنخيل، وهي ما تسمى "بسبوت النخيل" وذلك لأنهم

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٢٤١.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٦٥.

(٣) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٤) المجاور : المصدر السابق، ص ٧٩، ٨٠.

(٥) العقيلي : المخلاف السليماني، ص ١٨٧، ١٨٨.

(٦) الشقادف : مفرد شقدف وهو صندوق خشبي ذو شقين يوضع على ظهر الجمل وبه أغراض وأدوات

يستخدمها صاحبه. زين العابدين نجم : معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص ٣٤٣.

(٧) ابن المجاور : نفس المصدر، ص ٨٠، ٨١.

يخرجون في أيام البسر والرطب^(١) في كل سبت إلى حدائق النخيل، ولا يبقى في المدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه، والحلوات ويخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل^(٢).

ومن خلال مظاهر الاحتفالات في زبيد بالأعياد الدينية أو المناسبة الشعبية، نلاحظ ظاهرة الاهتمام بالآلات الموسيقية لدى أهل زبيد، فالاحتفالات كلها تصحبها الطبول والمزامير، والاحتفال بمواسم الزراعة، حتى الاحتفال بهلال رمضان والأعياد الشرعية كان يستخدم فيها الدبادب وهو نوع من الطبول إيداناً ببداية الاحتفال^(٣).

العمران :

تنوعت العمائر الإسلامية في مدينة زبيد، واشتملت على أبنية عديدة، تخدم أغراضاً مختلفة، منها ما هو ديني كالجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والأربطة، والمشاهد والأضرحة والأسبله، ومنها ما هو مدني كالقصور والمنازل والخانات والوكالات والحمامات وغيرها من المنشآت ذات الأغراض المدنية، وكذلك المنشآت الحربية والدفاعية كالقلاع والأسوار والأبواب والأبراج التي تميزت بمناعتها وصلابتها، ولا تزال أسوار وأبواب مدينة زبيد باقية كما في غيرها من المدن اليمنية كصنعاء وصعدة^(٤).

أولاً: العمائر الدينية :

تتميز عمارة المساجد عن بقية الفنون الإسلامية الأخرى في كونها نتاجاً لأكثر التعبيرات أمانة وصدقاً عن جوهر الروح الإسلامية، والأكثر استجابة وتجسيداً للرسالة الإسلامية ووحى تعاليمه وأهدافه السامية، فمنذ قيام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بإنشاء أول مسجد في تاريخ الإسلام شهدت عمارة المساجد تطورات نوعية كبيرة بدافع تطور فن العمارة الإسلامي، وبفضل الاهتمام الكبير الذي أبداه المعمارون المسلمون في مختلف البلدان الإسلامية، فاكتملت

(١) ثمرة النخيل لها أطوار، وكل طور له اسم، فأوله طلع، ثم خلال بالفتح، ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر.

الرازي : مختار الصحاح، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت، ص ٥١.

(٢) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص ٢٢٥.

(٣) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٨٠، ٨١.

(٤) مصطفى عبدالله شبيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، وكالة اسكرين للدعاية والتجهيز الفني، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ط ١، ص ١٧، ١٩.

العمارة خصوصية للمساجد من الناحية الفنية والجمالية والتراثية^(١).

ومن المؤكد أن توظيف الفنون الإسلامية الأخرى في تشييد المساجد، كزخرفة الأجر والحجر والخشب والنقش على السيراميك واستعمال المرمر والرخام العربي بأنواع وخاصة الخط الكوفي الذي استخدم بشكل رائع وجميل في كتابة الآيات القرآنية الكريمة، قد أصبح من الحقائق المعمارية الثابتة التي ميزت الطابع المعماري للمساجد الإسلامية وحملته ميزة خاصة عن سائر الفنون الأخرى، ومن هنا تأتي أهمية دراسة فن عمارة المساجد وتأريخ تطورها، وخصوصيتها من حيث القيمة الدينية والإبداعية^(٢).

وإلى جانب المكانة الدينية للمساجد، توجد الأهمية الدنيوية، حيث كانت مركزاً من مراكز الحياة العامة سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، فكانت المساجد مركزاً للناس، ومقرّاً للسياسة ومعهداً للعلوم المختلفة، فيها يجتمع الناس، وفيها ينتقدون حكامهم وفيها تذاع قرارات الدولة، أو تعلن الثورة، وفيها تدرس العلوم والآداب والفقه وفيها كان يجتمع كثير من التجار الذين يحرصون على عقد صفقاتهم التجارية في المساجد، وفي بعض الأحيان كانت تقام الأسواق على مقربة من المساجد^(٣).

كما كان للمسجد دور كبير في النهضة العلمية والأدبية في زبيد، فكانت بمثابة مدارس يقصدها طلاب العلم، فكان كل عالم يتخذ سارية من سوارى المسجد يجلس تحتها، ويلتف طلابه وتلاميذه حوله، وهناك كانت تتلقى الصبية دروس القرآن ثم العلوم العربية، كالتفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب، وكثيراً ما شهدت المساجد المجالس الأدبية التي كان يعقدها العلماء والمناظرات الأدبية^(٤).

كما استفاد المسلمون من المساجد في بعض الأغراض الاجتماعية المختلفة، فيها يتلقى الناس فيتحادثون ويتسامرون ويتآلفون، وقيمون فيها بعض احتفالاتهم في الأعياد والمواسم

(١) رؤوف الأنصار : عمارة المساجد، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ط١، ص١١.

(٢) رؤوف الأنصاري : المرجع السابق، ص١٢.

(٣) علي حسن الخربوطلي : المسجد في فجر الإسلام، حولية كلية البنات بجامعة عين شمس، مطبعة جامعة عين شمس، العدد ٣، يوليو ١٩٦١م، ص١٩٤-١٩٦.

(٤) علي حسن الخربوطلي : المرجع السابق، ص١٩٧.

الدينية والاجتماعية ويعقدون بها عقود الزواج^(١).

وفي زبيد بنيت عدة جوامع، منها الجامع الكبير^(٢)، الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الهجري مع نشأة مدينة زبيد، وبداية الدويلات المستقلة، وأخذ أهميته الكبيرة كمسجد جامع في عصر الدولة الزيادية، وفي عهد القائد الحسين بن سلامة تم تجديده وذلك سنة ٣٩١هـ وفي عهد النجاشيين جددوا عمارته أيضًا، وعندما تولى بنو مهدي الحكم ٥٥٤هـ/١١٥٩م تعرض الجامع الكبير للهدم بعد إهماله لهم ومنعهم إقامة الخطبة فيه، ولبت خرابًا فوق خمسة عشر سنة^(٣)، وعندما قدم الأيوبيون إلى اليمن أمر توران شاه المبارك بن منقذ تجديد الجامع الكبير بزبيد فبدأت العمارة فيه سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، وعمره وجده أيضًا سيف الإسلام طفتكين عام ٥٨٢هـ — عندما أكمل مؤخرة الجامع والجناحين الشرقي والغربي والمنارة^(٤)، وكان يقام في هذا الجامع الجمعة والجماعات.

كذلك وُجدَ في زبيد مسجد الأشاعر^(٥)، الذي كان يتوسط المدينة، وشيّد هذا المسجد الصحابي أبو موسى الأشعري سنة ٨هـ/٦٢٩م، وكان له دور متميز في نشر العلوم الإسلامية لقاصديها داخل اليمن وخارجها، حيث درس فيه عدد من العلماء والفقهاء من أعلام القرن السادس الهجري، ويعد هذا المسجد من الناحية العمرانية واحدًا من أعرق المساجد اليمنية وأقدمها، وقد جُدد هذا المسجد عدة مرات على مراحل مختلفة وأول تجديد شهده كان سنة ٤٠٧هـ/١٤٠٧م في عهد الحسين بن سلامة " الدولة النجاشية في زبيد " وكان تجديد شامل لعمارته ويتضح ذلك من الاسم المكتوب بالخط الكوفي على لوح من خشب الساج المثبت في جدار قبلة المسجد ومازال هذا الاسم لحسين بن سلامة موجودًا^(٦).

وتوالى عملية عمليات التجديد في عهد الدولة الرسولية ثم عهد الدولة العثمانية^(٧).

(١) علي حسن الخربوطلي : المسجد في فجر الإسلام، ص ١٩٨.

(٢) مصطفى شيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية، ص ٤٥، ٤٦؛ غازي رجب : الفن العربي الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٢٨٢.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٨٠.

(٤) مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص ٤٦.

(٥) رؤوف الأنصاري : عمارة المساجد، ص ٣١.

(٦) ابن الديبع : المصدر السابق، ص ٥٣؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٥٢.

(٧) مصطفى شيحة : نفس المرجع، ص ٤٩، ٥٠.

ومن الملاحظ استخدام بعض مواد البناء في عمارة الجامع أو المسجد في زبيد، ومنها الأحجار المختلفة خاصة نوع الحجر المعروف بحجر الحبش الأسود والذي يُجلب من المحاجر اليمنية الكثيرة المنتشرة في كل بلاد اليمن، كذلك استخدم الطابوق "الآجر" ^(١) في البناء أيضاً، إضافة إلى مواد الجص والنورة ^(٢)، ومادة القضااض ^(٣) التي تشبه الأسمنت، كما كان يستجلب من خارج اليمن المواد الجيدة من الأخشاب خاصة لزخارف السقوف ^(٤).

ومن الملاحظ أيضاً أن كل مسجد أو جامع كان مزوداً بميضأة من حوض وأحياناً بنوه من الأنابيب أو القنوات التي تحمل الماء إلى المصلين ليقوموا بفريضة الوضوء ^(٥).

(١) الآجر : فرضت البيئة الحارة في زبيد على العمار استخدام الآجر في البناء نظراً لتوفير التربة الطينية اللازمة لصناعته، فضلاً عن سهولة البناء به عن الأحجار، ويضع الآجر في محارق أو أفران خاصة وتجلب طينتها من الوديان الزراعية المحيطة بالمدينة ويتم تشكيلها بعد خلطها على هيئة قوالب مستطيلة أو مربعة أو مثلثة، ويتم إحراقها في الفرن، وتمثل المادة الأساسية للبناء. عبدالله الحداد : مدينة حبس، ص ٢٤١.

(٢) النورة : هي مادة بنائية مساعدة تتكون من كلسية تشبه الجص، تستخرج من الجبال وتكون على هيئة صخور ضخمة يقوم العمال بتكسيرها إلى قطع صغيرة، ثم يضعونها في الفرن لإحراقها، ثم يوضع فوقها غطاء من الأحجار مع ترك بعض الفراغات بينها، ويملأ باقي الفرن بالحطب ويوقد عليها حتى تتضج وتتحول إلى قطع حمراء، وبعد أن يبرد الفرن تستخرج قطع النورة منه ويصب عليها الماء، والذي ينتج عن تفاعله مع النورة ما يشبه الغليان، وبذلك تتحول أحجار النورة إلى مادة بيضاء ناعمة. مطهر الأرياني : القضااض، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ط١، ج٢، ص ٧٧٠، ٧٧١.

(٣) القضااض : هو خليط من مادة النورة والماء والنيس والحصى، ويتم خلط هذه المواد بطريقة معينة تستمر لعدة أيام، ثم تكس بها الجدران أو الأرضيات بكل دقة ومهارة في عملية طويلة، حيث يقوم العمال بتثبيتها على الجدران أولاً ويستمررون في عملية طرقها لعدة ساعات حتى لا يتركوا أي فراغات تتخللها حتى ولو كانت فقاعات هواء ثم يقومون بتدليكها بواسطة أدواء ملساء حتى تجف تماماً ويختتم التدليك بطلاء القضااض بطبقة رقيقة من الشحم لمنع تسرب الماء مع الاستمرار في التدليك حتى يصبح سطح القضااض أملس مصمت. ومن المعلوم أن مادة القضااض استخدمت في إنشاء سد مأرب وغيره من السدود والقنوات والخزانات نظراً لما تتمتع به من خاصية عدم السماح بتسرب المياه من خلاله فضلاً عن استخدامه في جدران القصور والمساجد لما يتميز به من شدة الصلابة والتماسك والشكل الجمالي.

Bannenfant, Baul : La, Qadad, Les Maisons Tours De Sana'a Les Presses Du Cnrs, 1989, pp. 151-161.

مطهر الأرياني : المرجع السابق والجزء والصفحات.

(٤) مصطفى شيحة : المدخل، ص ١٨، ٢٣.

(٥) عبدالله كامل : الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، دار الآفاق العربية، القاهرة،

١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ط١، ص ١٥٦؛ مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص ٢٥.

وتشغل المطاهير والحمامات والبرك " الميضاة " أهمية معمارية هامة في المساجد اليمنية ففي الجامع الكبير بزبيد توجد فتحة من الناحية الغربية من الجدار الجنوبي تؤدي إلى الحمامات والمطاهير بالمسجد والتي تتوسطها بركة المياه، وفي مسجد الأشاعر توجد الحمامات والمطاهير الملحقة بالمسجد من الناحية الشرقية^(١).

أما المدارس :

انتشر التخطيط المعماري لها كمنشأة دينية بجانب الجوامع والمساجد في إطار العمائر الإسلامية، والمدرسة كتخطيط معماري، لها وظيفتها الخاصة، بتعليم الطلبة المذاهب الإسلامية أو بعضها، فضلاً عن العلوم الدينية الأخرى المتنوعة، ومن المعروف أن التخطيط المعماري للمدرسة يختلف تمامًا عن التخطيط المعماري للمسجد أو الجامع، فالمدرسة تعتمد على الإيوان^(٢)، والمسجد يعتمد على الرواق، فضلاً عما تتطلبه المدرسة كوحدة معمارية للدراسة والتعليم من مساكن للطلبة والأساتذة وما يتطلب ذلك الأمر من أوقاف للصرف عليها تتضمن صيانة العمارة وأجور المدرسين ونفقات معيشة الطلبة^(٣).

على أن كثير من مؤرخي اليمن مثل الخزرجي وابن الديبع وكذلك المعاصرين مثل القاضي إسماعيل بن علي الأكوع والدكتور مصطفى عبدالله شبيحة والدكتور محمد سيف النصر أبو الفتوح وغيرهم أجمعوا على نشأة المدارس في اليمن " زبيد " ترجع إلى فترة الحكم الأيوبي الممتدة من سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م - ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، حيث تذكر المصادر والمراجع أن المعز إسماعيل بن طغتكين هو أول من قام ببناء المدارس في اليمن^(٤).

ولكن من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التاريخية، أمكن العثور على العديد من الإشارات التي تدل على وجود المدارس في زبيد قبل العصر الأيوبي، فقد ذكر ابن سمره الجعدي

(١) عبدالله كامل : الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، ، ص ١٥٦.

(٢) الإيوان : هو مساحة مستطيلة الشكل مصمتة من ثلاث جوانب ومفتوحة من جانب واحد. مصطفى شبيحة: المدخل، ص ٨٣.

(٣) مصطفى شبيحة : المرجع السابق والصفحة.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيدي، ص ٧٦؛ مصطفى شبيحة : نفس المرجع، ص ٨٥؛ إسماعيل الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ط ١، ص ٧.

في كتابه " طبقات فقهاء اليمن " لفظ مدرسة جامع الأشاعر بزبيد^(١)، فضلاً عن ذلك، ما ذكره المؤرخ عماره اليمني : " أنه كان يدرس في مدرسة من مدارس زبيد، حيث يذكر أنه عند ظهور علي بن مهدي في ساحل زبيد، كنت ملازمًا له منقطعًا إليه في أكثر الأوقات مدة سنة، ثم علم والدي أنني تركت التفقه، ولزمت طريق التنسك، فجاء من بلاده مستمرًا حتى أخذني من عنده وأعادني إلى المدرسة في زبيد وكنت أزوره في كل شهر زورة، فلما استفحل أمره انقطعت عنه خوفًا من أهل زبيد " ^(٢).

ويذكر عماره اليمني أن الملك النجاشي جياش بن نجاح قال وهو يتحدث عن خروجه إلى المهجم لقتل الملك علي بن محمد الصليحي سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، وكانت الأخبار قد سبقتنا للصليحي بخروجنا والأسماح يومئذ قد امتلأت في الجبال والتهائم أن هذا وقت ظهور سعيد الأحوال بن نجاح حتى لا تكاد المساجد والمدارس والأسواق والطرق تخلو من الخوض في ذكر ذلك^(٣).

كما يذكر عماره أيضًا : " أن الوزير النجاشي أبو منصور مَنَّ الله الفاتكي، تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية، وكذلك تصدق على الفقهاء أنفسهم بما أغناهم عن غيرهم من الأراضي والمرافق والرباع " ^(٤)، كذلك كان سرور الفاتكي يصرف لهم سنويًا اثني عشر ألف دينار فيقول في ذلك عماره أيضًا : " رأيت جريدة الصدقات التي يدفعها عند دخوله زبيد للفقهاء والقضاة والمتصدرين في الحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثني عشر ألف كل سنة " ^(٥). وذلك مما يدل على وجود المدارس المخصصة للمذهب الشافعي والمذهب الحنفي منذ عهد النجاشيين في زبيد.

ويمكن القول بأن هذه النصوص التاريخية تؤكد أن المدارس في زبيد وُجِدَتْ منذ القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي سواء كانت عبارة عن مبان بسيطة ملحقة بالمساجد بمنازل العلماء أو مستقلة عن أي مبنى^(٦).

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٤٥.

(٢) عماره : تاريخ اليمن، ص ١٤٩.

(٣) عماره : المصدر السابق، ص ١١٤.

(٤) عماره : نفس المصدر، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٥) عماره : نفس المصدر، ص ١٤٦.

(٦) ابن سمره : المصدر السابق، ص ٢١٤؛ عبدالله الحداد : مدينة حيس اليمنية، ص ٩٤.

أما عن الخانقاوات :

مفردتها الخانقاه، فهي ذات أصل فارسي، وبمعنى دار للتعبد، خاصة برجال الصوفية، وهي تشبه النظام المعماري المعروف لتخطيط المدرسة، إلا فيما عدا وجود خلوات في جناح منفصل إذا اجتمعت الخانقاه والمدرسة في مجموعة واحدة^(١)، وهي تتكون من صحن أوسط يحف به إيوانات وحجرات لسكن الصوفية تتكون من عدة طوابق، وقد أسهمت الخانقاوات في النواحي التربوية والدينية والاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان فترة تأسيس وتنظيم الخوانق لانتشار المذهب الصوفي في اليمن، وذلك لانتشار أهم الكتب التي كتبت في الصوفية ومنبع أفكارهم وعقائدهم سلوكهم، ففي أواخر القرن الرابع، ألف أبو عبدالله السلمي "طبقات الصوفية"، وفي سنة ٤٣٧هـ ألف القشيري "الرسالة القشيرية"، وفي حوالي سنة ٤٨٨هـ ألف حجة الإسلام الغزالي "إحياء علوم الدين"، وزادت رقعة الصوفية وأوليائهم ومشايخهم وبنيت الخانقاوات بتشجيع من الحكام والأمراء، ابتغاء لطلب العلم، وانتشرت الصوفية في الشام واليمن وأصبحت من معالم الزهد والعبادة^(٢).

وممن اشتهر في اليمن من الصوفية في القرن الخامس الهجري "سود بن الكميث" المتوفى سنة ٤٣٦هـ، وفي القرن السادس أحمد بن أبي الخير المتوفى ٥٧٩هـ، وكان من عوام زبيد ثم تحول إلى التصوف^(٣).

وعن الأربطة :

فهو نوع من المباني الإسلامية في العمارة الإسلامية كان يسكنه المجاهدون في الإسلام^(٤)، ومنها ما أقدم على بناءه علي بن محمد الصليحي وذلك كمرحلة من مشروع طويل المدى قام من خلاله ببناء مسجد ورباط في كل مرحلة من المراحل الممتدة للطريق من زبيد إلى مكة^(٥)، وبدأ في التنفيذ حتى وصل إلى مدينة المهجم ولكنه قُتل قبل أن يتم المشروع^(٦).

(١) مصطفى شيحة : المدخل، ص ١٧.

(٢) أحمد بن حسن المعلم، القبورية في اليمن، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية، صنعاء، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ط ١، ص ١٨٦، ١٨٧..

(٣) أحمد بن حسن المعلم : المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٤) حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١٦٩-١٧٣.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧٥، ٧٦.

(٦) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٧٥.

كما وجد في زبيد الجناذب والمشاهد :

فأما عن الجناذب فهي أبنية لها قباب وأول من أنشأه في زبيد علي بن محمد الصليحي وأسماء الجناذب، من الآجر المحكوك والجص " الجير " ويتكون هذا المبنى من ثلاث قباب متقاربة بين الواحدة والأخرى مقدار أربعة أذرع، وأشار إلى أن العامة يسمونه الكعبة، يصلى فيه من يدينون بالمذهب الإسماعيلي حيث كانت لهم شعائرهم الخاصة بهم، وعلى عادة الإسماعيلية في بناء مساجدهم فقد كانت الجناذب زاخرة بالنقوش والكتابات المطعمة بالذهب والازورد، بالإضافة إلى نقوش وزخرفة بالجص، وهذا المبنى يحتوي على أموال عظيمة، وربما كانت هذه الأموال هي النقوش الذهبية أو هي أموال في خزائن خاصة، وحينما دخل سيف الدولة الأيوبي إلى زبيد أخذ هذه الأموال وجعل " الجناذب " مسكناً لقوم من الفقراء^(١).

وعن المشاهد :

لم يثبت في تاريخ اليمن وجود قبر معظم عليه مشهد أو مسجد قبل العقد الأول من القرن الخامس الهجري^(٢)، وكان ذلك المشهد^(٣) هو مشهد آخر أمير من أمراء بني زياد وعمته، إذ إن وزير الأمير الطفل — وسمى نفيساً — كان قد قتل الطفل وعمته بتهمة أن المرأة كانت تكاتب خصمه ومنافسه نجاحاً، وكان وقتها فارساً من زبيد بسبب تسلط " نفيس " فقتلها هي والطفل، ثم بنى عليها جداراً، فلما علم نجاح بذلك اتخذ ذريعة للانقضاض على خصمه ثم هجم بهم على زبيد في عدة وقائع آخرها سنة ٤١٢هـ/١٠٢١ حيث قتل نفيس فلما دخل زبيد، وصلى عليهما، وبني لهما مشهداً، وأعاد مرجاناً في موضعهما، فبنى عليه حياً وعلى جثة نفيس^(٤).

ومن المشاهد الشهيرة في زبيد مشهد آل الصليحي المعروف بمشهد الرأسين^(٥)، الذي يرجع تاريخه إلى أحداث قتل بني نجاح لعلي بن محمد الصليحي وأخاه وأخذهم رأسيهما، ونصبوهما بزبيد أمام زوجة الصليحي " أسماء بنت شهاب، وعندها هاجم الملك المكرم أحمد بن

(١) عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٥٥، ١٥٦.

(٢) أحمد بن حسن المعلم : القبورية في اليمن، ص ٢٦، ٢٦٧.

(٣) المشهد : عبارة عن مدفن يتكون الجزء الشرقي من ثلاث حجرات الوسطى مغطاة بقبة وبها مدفن. مصطفى شيحة : المدخل، ص ١٧.

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٥٥؛ أحمد المعلم : المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٥) أحمد المعلم : نفس المرجع، ص ٢٦٧؛ عبدالله كامل : الفاطميون، ص ١٥٧.

علي الصليحي زبيد لإنقاذ أمه من الأسر، واسترجاع ملك أبيه، أنزل الرأسين، ودفنهما في زبيد، وبنى عليهما مشهدًا، قال عمارة : " وأنا أدركت مشهد الرأسين " (١)، وكان ذلك سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م. كذلك المشهد الذي عاينه علي بن مهدي - مؤسس دولة بني مهدي في زبيد - لولده وأمره أن يُدفن فيه وأن يكون جامعًا يُصلى فيه الجمعة تأسيسًا بمشهد الحرة الصليحية في ذي جبلة، وبالفعل دفن علي بن مهدي فيه وعمل أولاده على قبره وضاروا يحجون إليه، كما دفن في المشهد مهدي بن علي بن مهدي بجوار والده (٢).

ولكي يُوفّر لهذا المشهد مواد لبناءه، أخذ ابن مهدي أخشاب الهندية الموجودة في قرية الأهواب، التي تقع غرب زبيد، وكان أحضرها تاجر هندي معه من الهند عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ليبنى بها مسجدًا في الأهواب (٣).

على أن هذا المشهد قد خرب بعد ذلك وجعله ملوك بني أيوب اصطبلًا لخيولهم (٤).
أما الأسبلة :

فكانت غالبًا ما تلحق بالمسجد أو المدرسة في العمارة الإسلامية في اليمن خلال العصر الإسلامي، ونادرًا ما كانت منفردة (٥).

ثانيًا : العماير المدنية :

ومنهما القصور والمنازل، فالدولة التي حكمت مدينة زبيد في فترات متعاقبة كان لا بد لها من دار للإمارة أو قصرًا للإمارة، متمثلًا في قلعة زبيد، وأشار لنا ابن المجاور (٦) واصفًا دار الملك كما أسماها قائلًا : أنها بنيت في عهد بني زياد، والذي بناها " شخار بن جعفر " وكانت دار ذات طول وعرض، بنيت بالآجر والجص، على مفترق داخل المدينة، وهي بالضخامة والمئانة ما جعلها باقية حتى عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م، بالإضافة إلى ذلك كانت محصنة حيث بنيت بطريقة مرتفعة عن الأرض، حتى أن كان الباب عاليًا جدًا إلى حد أنه أصبح كالبرج يشاهد منه القادم على بعد فرسخين " حوالي ١١ كم"، وحفر حوله خندق عظيم عميق عريض، وظل الباب هكذا

(١) عمارة : المفيد، ص ١٣٤.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٧٥؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٥٧.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٦٣.

(٥) مصطفى شيحة : المدخل، ص ١٨.

(٦) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧٨.

حتى هدمه المسعود يوسف بن أبي بكر الأيوبي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م^(١)، وأخذت مواد بنائه فبنى بها دوراً، وظلت آثار هذا الباب باقية حتى شاهدها ابن المجاور عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م^(٢).

وقد مثلت دار الإمارة^(٣) بزبيد مدينة ملكية، اتخذها بنو مهدي مقراً للحكم والإدارة فأدخلت إليها المياه الكافية لحاجتها، عن طريق السراييب الأرضية التي مدت إلى داخل المدينة وضواحيها من الأعين الواقعة في أرس الوادي في زبيد، كما مدت إليها المياه من الآبار القريبة منها.

ارتبط مبنى قلعة زبيد أو دار الإمارة بسور المدينة^(٤)، ووجدت بها أسوار عالية وتحصينات دفاعية، على امتداد أسوارها الشرقية وتحصيناتها، وكذلك الغربية والشمالية واليمانية وأحيطت برحاب واسعة، وامتدت من خلال موقعها الرئيسي إلى جميع أبواب زبيد الأربعة ومسجد الأشاعر والجامع الكبير وسوق زبيد الكبير^(٥).

وكانت القلعة تتكون من الجناح الشرقي، وبه الحصون واصطبلات الخيل، ومخازن للأعلاف وارتفاع جدران سورها ما بين ثمانية أمتار، وسمكه حوالي ٥٠ سم، والجناح الشرقي يضم بعض الحصون، والجناح الغربي فيه ثكنات خاصة بالجند، الجناح اليماني فيه مخزن للغلال من خمس قاعات مستطيلة. وجدير بالذكر أن بني مهدي قد بنوا الجامع المشهد الذي دفن فيه علي بن مهدي في الجانب الشرقي من قلعة زبيد أو دار الإمارة^(٦).

كما أن الأمراء والحكام بنوا لهم ولأسرهم وحواشيهم قصوراً ضخمة تعبر عن الأبهة والفخامة ومن بين من بنى دوراً ضخمة، الوزير النجاشي أنيس الفاتكي وزير منصور بن فاتك النجاشي فقد بنى داراً واسعة أقام به عدة حجرات واسعة، عرض كل قاعة ثلاثون ذراعاً، وعرض كل مجلس فيها أربعون ذراعاً^(٧).

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٢٤٠.

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٢٤٧؛ أحمد إبراهيم صلاح : زبيد بين الماضي والحاضر، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص ٢٥.

(٣) عمارة : المفيد، ص ٥٤.

(٤) محمد عبدالستار عثمان : المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، ذو الحجة ١٤٠٨هـ/ أغسطس ١٩٨٨م، المجلس الوطني الثقافي، الكويت، ص ٦٥.

(٥) محمد آدم المرزوقي : قلعة زبيد (دار الإمارة) دراسة تاريخية أثرية، ٢٠٠٩م، ص ٤.

(٦) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص ٦٤.

(٧) عمارة : المصدر السابق، ص ٢١٠.

وجدير بالذكر أنه عندما استولى بنهو مهدي على زبيد والقضاء على الدولة النجاشية، وتولى الحكم سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩، استولوا على جميع ما ملك بنو نجاح من دور وأموال وكنوز وجواري وغير ذلك.

أما عن منازل مدينة زبيد، فتميزت بطراز معماري يتكون من عدة طوابق، تبعاً للحالة الاجتماعية والاقتصادية لصاحب المنزل، ويكون الطابق الأول عادة بمثابة مخزن، يتم فيه تخزين المواد اللازمة للمعيشة، والطوابق الأخرى معدة للسكن وفق نظام معين^(١).

ومن العناصر المعمارية الهامة التي تتوافر في المنزل ما يعرف باسم المفرج وهو عبارة عن قاعة فسيحة أشبه بالمنظرة، يوجد في قمة المنزل من أعلى وبه فتحات، ويستخدم كقاعة استقبال رسمية^(٢).

وبنيت هذه المنازل من مادة الحجر، خاصة النوع الأبيض، حجر الحبش الأسود، بالإضافة إلى الأحجار البركانية، واستخدم في مادة البناء الحجر والطوب اللبن الذي يتميز بكبر حجم قوالبه واستعمل الخشب بين مداميك البناء في السقوف والأرضيات، وغشيت المنازل بالداخل بمادة الجص ومن الخارج بمادة النورة بالإضافة إلى مادة القضاض^(٣).

هذا وقد زخرفت المنازل من الداخل بأشرطة من الجص، وازدانت بالكتابات والزخارف المختلفة ويكثر بها وجود الشمسيات والقمريات والمشربيات الخشبية، ويستخدم على واجهات المنازل العقود في الفتحات كزخرفة معمارية وهي ستائر تتخذ أشكالاً متنوعة وتركب في كل نافذة تقريباً وتعمل عادة من الجص الذي يقسم إلى أشكال مخرمة هندسية نباتية وحيوانية وكتابات لإبراز العناصر الزخرفية في كل عقد لتزيد من جمالها^(٤).

الخان :

كان للخان دور تجاري في زبيد، فهو من المباني التي توجد على الطرق التجارية وكان

(١) مصطفى شيحة : المدخل، ص ١٨.

(٢) غازي رجب : الفن العربي الإسلامي، ص ٢٨٤.

(٣) مصطفى شيحة : المرجع السابق، ص ١٨ ؛

Bannenfant, Baul : La, Qadad, Les Maisons Tours De Sana'a, pp. 151-161.

(٤) غازي رجب : المرجع السابق والصفحة؛ مصطفى عبدالله شيحة : بعض التأثيرات الأسيوية على العمائر

والفنون الإسلامية، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤ يوليو ١٩٨٩م، ص ٣٧٠،

بمثابة المكان الأمين لإقامة المسافرين والتجار في أماكن التي تتعرض لهجمات اللصوص، كذلك كانت القوافل التجارية تحتاج إلى أماكن لتتزل بها بعد عناء السفر الطويل لتستريح ولتريح دوابها من التعب، وكذلك لتتمون بالماء والزاد إن احتاجت إليه ثم يواصلون السير نحو جهتهم المقصودة^(١)، فهذا المكان يكون بمثابة منزلاً صغيراً كان أم كبيراً مهيئاً لاستراحة المسافرين والتاجر، ليس على الطريق فقط وإنما داخل المدن أيضاً، حيث كانت مدينة زبيد مركزاً تجارياً هاماً يأتي إليها التجار من أنحاء البلاد المجاورة براً وبحراً، فكانت من المحطات التجارية الهامة التي يرسوا فيها التجار ببضائعهم لذا وُجِدَ " الخان " في زبيد وبلاد اليمن.

والخان داخل اليمن يكون عبارة عن دار أو مكان لإقامة المسافرين يتكون من حجرات لإقامة المسافرين ومصلى وفي بعض الأحيان حمام بالإضافة إلى وجود إسطبل للحيوانات^(٢)، وغالباً ما كان الخان قريباً من الأسواق في زبيد.

الوكالات :

أيضاً وجدت الوكالات أو السماسر لشئون التجارة، وهي أبنية مخصصة لإقامة التجار القادمين من البلاد المجاورة لزبيد، حيث كانوا يقيمون في الطوابق العليا وتوضع بضائعهم في مخازن بالطابق الأرضي، وكذلك حيواناتهم، وغالباً ما كان مبنى الوكالة يتكون من عدة طوابق قد تصل إلى أربعة، تفتح حجراتها على فناء مكشوف، ويشتمل الطابق الأرضي على حوانيت مطلة على الطريق، وكانت الغرفة في المدخل تستخدم لسكن حارس الوكالة والذي يراقب دخول وخروج البضائع والحيوانات ويقوم بقبض الأجور^(٣).

والسماسر مفردة سمسرة، وتجمع في داخلها بين وظائف الخان والوكالة، فالخان مكان يكون صغير الحجم نسبياً يخصص لنوم النزلاء، أما السمسرة أو الوكالة يزيد عليه في التخصص لتخزين البضائع، ويرتبط السماسر عمومًا بالنشاط التجاري بزبيد وبغيرها من المدن التجارية في اليمن^(٤).

انقسمت السماسر إلى نوعين رئيسيين من حيث التخطيط المعماري (أ) الشكل الرأسي وهي السماسر المتعددة الطوابق وذات الفناء المسقوف. (ب) الشكل الأفقي وتكون طابقاً واحداً أو اثنين

(١) محمود إبراهيم حسن : الإبحار في العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج١، ص ٢٩٥.

(٢) محمود حسين : المرجع السابق، ص ٢٩٥؛ مصطفى شبيحة : المدخل، ص ١٨.

(٣) خالد العاقل : أطلس تاريخ العمارة، القاهرة، ج١، ص ١١٥؛ مصطفى شبيحة : المرجع السابق، ص ١٩.

(٤) محمود حسين : نفس المرجع، ص ٣٣٣.

وفناءً مكشوفاً^(١).

استخدمت مواد بناء مختلفة في السماسر مثل الحجر البركاني الأسود والأصغر، والحجر الجيري الفاتح، والطوب المحروق رباعي الشكل، وكذلك مادة الجبس كمونة فاصلة بين الأحجار، وللتبييض في كافة الأجزاء الداخلية للسماسر، كما استخدمت مونة الطين المخلوط بالرمال والجبس في بعض أعمال البناء، وكذلك مونة القضااض الصلدة والناعمة كمادة واقية من تأثيرات المياه، على أوجه المباني، وعلى الأجزاء السفلية للمباني والحوائط لتبرز وجه زخرفي ناعم^(٢).

كما استخدمت عروق الخشب المدور الضخمة ككمرات حاملة وأعتاب للنوافذ والأبواب، وتفاوتت الزخارف التي تزين واجهات السماسر من حيث الحجم، على أنها كانت كلها زخارف هندسية، وقد لجأ المعماري في زبيد إلى نوع من الزخارف يعرف باسم القمریات على واجهة السماسر، وكانت القمرية عبارة عن جزء مستطيل يعلو النافذة، يأخذ الشكل العلوي منه شكل العقد النصف دائري المزخرف هندسياً.

ويلاحظ أن كثيراً من السماسر، احتوت على أعمدة ذات تيجان منحوتة مختلفة الزخارف كلها منقولة من أبنية قديمة تعود إلى عصور سابقة على الإسلام، وكانت هذه الأعمدة تتفاوت الارتفاع تبعاً لارتفاع السقف المطلوب رفعه، واستعملت عقود متنوعة بوائك هذه السماسر إلا أن العقد النصف دائري كان العنصر المعماري الرئيسي الذي ظهر في عمائر هذه السماسر^(٣).

ثانياً : المنشآت الحربية والدفاعية :

هي من المظاهر المميزة للعمارة في زبيد وأهمها الأسوار المنيعة المرتفعة المحيطة بمدينة زبيد والمدعمة بالأبراج والتي تعكس عدم الاستقرار السياسي والافتقار إلى الأمن والطمأنينة، والذي شجع حكام زبيد على تحصين المدينة وحمايتها من الغازين الطامعين^(٤).

تتميز أسوار زبيد بأنها دائرية الشكل، عالية بحيث لا يستطيع العدو اختراقها بسهولة^(٥)، فبعد تخطيط مدينة زبيد من قبل الدولة الزيادية سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م، وكانت المدينة مدورة أو

(١) محمود حسين : الإبهار في العمارة والفنون الإسلامية، ج ١، ص ٣٣٦.

(٢) محمود حسين : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٧ ؛

Bannenfant, Baul : La, Qadad, p. 151-161.

(٣) محمود حسين : المرجع السابق والجزء، ص ٣٣٠.

(٤) غازي رجب : الفن العربي الإسلامي، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٨١.

مستديرة الشكل^(١)، بُني لها سورًا بالطين وبه عدة أبواب وعدة حصون، يوضح ذلك المقدسي بقوله: " عليها حصن من الطين بأربعة أبواب : باب غلافقة، وباب عدن، وباب الشام وباب الشبارق^(٢)."

ثم حدث أن بُنيت عدة أسوار لزبيد في عهودها المختلفة، فأول من قام ببناء سور لها بعد سورها القديم الحسين بن سلامة (٣٩١هـ - ١٠٠٠م/ ٤٠٢هـ - ١٠١١م) ويرجع ذلك إلى أن المدينة كانت قد توسعت في عهده خارج الأسوار القديمة، فأدار سورًا حول المدينة كلها جديدها وقديمها^(٣).

ثم أدار النجاشيون سورًا آخر في عهد من الله الفاتكي وزير الأمير منصور بن فائق ابن جياش النجاشي (٥٠٣-٥٢١هـ/ ١١٠٩-١٢٧م)^(٤)، واستمرت عملية بناء السور لمدينة زبيد في عهد دولة بني مهدي، حيث أداروا عليها سورًا ثالثًا، ودخل هذا السور في البناء الجديد الذي أنشأه بعد ذلك الملك سيف الإسلام طغتكين الأيوبي (٥٧٩-٥٩٣هـ/ ١١٨٣-١١٩٧م) فأدار سورًا على مدينة زبيد بناه بالطين واللبن في عرض عشرة أذرع ووضع عليه أربعة أبواب هي باب غلافقة إلى الغرب، وباب سهام إلى الشمال، وباب الشارق نحو الشرق، وباب القرطب نحو الجنوب^(٥).

ثم أدار سورًا آخر بناه بالطين واللبن ذا طول كبير وسعة في العرض، وذلك لإسكان الجند فيما بين السورين بأموالهم ودوابهم، فلما فرغ من بناء السور توفي قبل أن يسكن الجند به فسكنوا في عهد المعز إسماعيل بن طغتكين^(٦).

ويذكر ابن المجاور قوله: " عدت أبراج زبيد فوجدت بها مائة برج وتسعة أبراج، بين كل برج وبرج ثمانين ذراعًا، ويدخل في كل برج عشرون ذراعًا، وجعلوا على تلك البروج والأبواب

(١) كان تخطيط مدينة زبيد متأثرًا لحد كبير بنفس الشكل المستدير لمدينة بغداد، وهذا التأثير المباشر ربما كان ناتجًا عن وصية الخليفة المأمون العباسي للقائد الزياتي الأمير محمد بن عبدالله الزياتي بأن يحدث له مدينة باليمن ببلاد الأشاعر بوادي زبيد. مصطفى شيحة : بعض التأثيرات الأسيوية على العمائر في اليمن، ص ٣٧٧.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٨٤.

(٣) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٤٩؛ عبدالرحمن الشجاع : اليمن في عيون الرحالة، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٤) ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧٤.

(٦) ابن المجاور : المصدر السابق والصفحة، السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٨٦.

حراسًا مناوبين»^(١).

الحمّامات :

أشار المقدسي إلى مرافق زبيد بأنها أكثر من مرافق مكة وأن حمّاماتهم نظيفة^(٢)، والمرافق تشمل أحواض الوضوء أي الميضئة والتي كانت تجاور أو ترافق المساجد، أما الحمّامات فكانت لها مباني مخصصة للاستحمام، وهي معدة بالماء والحر والغرف الحارة ليعرق المستحم، ويصفها المقدسي بالنظافة، مما يدل على توفر المياه والعناية بها، وهذا ما أكده ابن بطوطة بأن مدينة زبيد كثيرة المياه، وكثيرة العمران^(٣)، ولا يوجد باليمن أجمل منها.

ولكن في بعض الفترات تأثر العمران والحياة الاجتماعية عمومًا من جراء الحروب والاضطراب السياسي لكون زبيد مسرحًا للنزاعات، وساحة للحروب بين الدول والسلطات المختلفة.

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ٧٤.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٨٤، ٨٥.

(٣) ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة، ص ٢٢٤.

الفصل الخامس

الأحوال الثقافية

في اليمن في عهد دولة بني مهدي

الفصل الخامس

الأحوال الثقافية في اليمن في عهد دولة بني مهدي

المؤثرات الثقافية :

اليمنيون ورثة حضارة عريقة قديمة، فقد ساهموا مساهمة فعالة في ازدهار علوم الإسلام متأثرين كغيرهم من البلدان التي دخلها الإسلام بحركة الفكر الإسلامي السائدة في قلب العالم الإسلامي مغربه ومشرقه، مثل مكة والمدينة والشام ومصر والعراق وخراسان وإفريقيا وكانت كل من مكة والمدينة هما المعبر الذي سلكته تلك المؤثرات حيث يلتقي اليمنيون بغيرهم من مسلمي البلدان الأخرى أثناء موسم الحج حيث يتوافد الفقهاء من أنحاء بلاد الإسلام كافة لأداء فريضة الحج. ويقول ابن سمره : (وأكثر ما تفقه أهل اليمن في صدر الإسلام وما بعده إلى وقت ظهور تصانيف الشافعية بفقهاء مكة والمدينة)^(١). ثم يعرجون بعد ذلك لليمن فكثير من طلبة اليمن تلقوا علومهم على يد علماء مكة أو الواردين إليها، فأخذوا عنهم علوم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك من حقول المعرفة.

وكذلك كان للعراق وبالنظر إلى ثقله العلمي المتميز ودوره الفكري الرائد، تأثير عظيم في مسيرة الحركة الثقافية وتطورها في اليمن قبل القرن السادس الهجري وبعده. فمن أشهر العلماء الذي انتقل من زبيد وأقام ببغداد محمد بن يحيى بن علي بن عمران الزبيدي (ت ٥٥٥هـ) واشتهر بوفرة مصنفاته التي بلغت ما يزيد عن مائة مصنف^(٢).

ولم تقتصر اليمن في علاقاتها الفكرية على الأخذ فحسب، بل ساهمت في العطاء الفكري، فكان لمدن اليمن دور رائد في نشر الثقافة العربية في إفريقيا، إذ ورد إليها في القرن السادس الكثير من الطلبة الأفارقة فأخذوا عن علمائها، وقد ذكر المؤرخ الجعدي عددًا من هؤلاء الطلبة ممن تتلمذوا على يد الفقيه الشافعي اليمني يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٥٨هـ) منهم : ذكي بن عبدالله الحبشي، وأحمد بن مطروح الحبشي، وموسى بن يوسف الزيلعي، وأبو القاسم بن عبدالله، وإبراهيم بن محمد المثني، وعبدالله بن عبده، وأحمد بن المزكبان، ويوسف بن عبدالله المزكي، وهؤلاء الطلبة كانوا بمثابة جسر ثقافي يربط بين اليمن وإفريقيا فقد أسهموا بعد عودتهم

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ٥٥.

(٢) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، دراسات يمنية، العدد ٥٠ أبريل - يونيو ١٩٩٣م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ص ١٨، ١٩.

إلى بلادهم في نشر الثقافة العربية فيها^(١).

على أن المذاهب الرئيسية المختلفة التي انتشرت في بلاد اليمن، كان لها تأثير كبير على الحياة الثقافية والسياسية والدينية والاجتماعية، وهي مذهب الإمام مالك الذي كان يُدرّس بها كتابه "الموطأ" ثم مذهب الإمام أبي حنيفة الذي كان مذهب أكثر انتشاراً في القرون الثلاثة الأولى للهجرة^(٢)، وقد ظل المذهب المالكي والحنفي منتشرين في أنحاء اليمن حتى القرن السابع الهجري^(٣)، أما المذهب الشافعي فأخذ في الانتشار في جميع أنحاء اليمن ابتداءً من القرن الرابع الهجري.

كذلك تأثرت اليمن بمذهب الإسماعيلية بقدم ابن حوشب الكوفي وظهور علي بن الفضل في نهاية القرن الثالث الهجري، وبلغ هذا المذهب أوج قوته أيام الدولة الصليحية في القرن الخامس الهجري، واستطاع أن يحكم اليمن سياسياً قرابة قرن من الزمن، ثم انتهى أمام كل من المذهب الشافعي في اليمن الأسفل والمذهب الزبيدي في اليمن الأعلى^(٤).

كما تأثرت اليمن بالمذهب الزيدي بدخول الأئمة الزيدية منذ أواخر القرن الثالث الهجري ابتداءً من سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م عندما قدم إليها الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وأيضاً بدخول العديد من فقهاء الزيدية القادمين من خراسان مثل القاضي زيد البيهقي^(٥).

وكان مذهب الزيدية أكثر فرق الشيعة اعتدالاً وأقربها إلى السنة، فلم يكفر أتباعها أباً بكر الصديق ولا عمر بن الخطاب ولا الصحابة^(٦)، ولكن من الملاحظ أن الأئمة الزيدية تأثرت بمذهب الاعتزال باعتبار أن أغلب الزيدية هم تلاميذ المعتزلة بجانب دخول كتب المعتزلة إلى اليمن في القرن السادس الهجري بواسطة القاضي الزيدي جعفر بن عبد السلام (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)^(٧). وكان علماء وفقهاء الزيدية كثيرين في بلاد اليمن، ولهم مصنفات عديدة، والمعروف أن أئمة الزيدية علماء وفقهاء حرصوا — كما حرص علماءهم — على إبراز

(١) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، ص ١٨.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٦.

(٣) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ٧٤.

(٤) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٤١.

(٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٥٩؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص ٢٦٥.

(٦) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص ٢٥، ٢٦.

(٧) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٦٤.

حقيقة مذهبهم وتوضيح أسسه ومبادئه وسماته، وقد عاصروا الإسماعيلية ردحًا من الزمن، وردوا على ادعاءاتهم وعارضوا اتجاهاتهم المعارضة لمذهبهم والمتنافية مع آرائهم ومعتقداتهم^(١). مما كان له تأثير على انتعاش الحياة الفكرية في اليمن في ذلك الوقت.

على أن أهم مذهب تأثر به اليمن هو مذهب الإمام الشافعي منذ دخوله في القرن الثالث الهجري وظهوره بها في القرن الرابع^(٢)، وانتشر انتشارًا واسعًا في أنحاء اليمن، وذلك لدراسة اليمنيين على تلاميذ الشافعي وتلاميذ تلاميذه في كل من مكة والمدينة أو بقدم الكثير من الشافعية إلى اليمن وكذلك دخول كثير من كتب الشافعية إلى اليمن مثل "الرسالة" للشافعي، و"المذهب" والتنبية" و"اللمع" للإمام أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٢م) و"العدة" للحسين بن علي الطبري (ت ٤٩٥هـ/١١٠١م) الذي كان ينصح تلاميذه بالاشتغال بالعلم ولا تصرفهم العبادة عن طلب العلم^(٣)، وكتاب "الإبانة" و"شرح التلخيص" لابن علي السنجي (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م)، و"الشامل" لابن الصباغ (ت ٤٧٧هـ/١٠٨٤م)^(٤)، وكذلك تأثر أهل السنة في اليمن وخاصة الشافعية بعقائد الإمام أحمد بن حنبل^(٥)، ثم بعده بعقائد الإمام أبي الحسن الأشعري^(٦).

وهكذا تأثرت اليمن بكثير من المذاهب المعروفة في العالم الإسلامي مما أثر على حركة النشاط الفكري فيها.

هذا من ناحية المذاهب الفقهية، أما من ناحية القراءات، فعرف الزركشي القراءات بأنها "اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفية من تشديد وتخفيف وغيرها"^(٧). وفي اصطلاح القراء عُرِّفت القراءات بأنها "وجوه مختلفة من الأداء في النواحي الصوتية أو التصريفية أو النحوية، واختلاف القراءات على هذا النحو اختلاف تنوع وتغير؛ لا اختلاف تضاد

(١) عصام الدين عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ٣٢٦.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٥٥.

(٣) وروى الشيخ الحسين الطبري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا لا خير في عبادة ليس فيها فقه ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر ". ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٥٠، ١٥١.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٧٦.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٦٣.

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٥٦؛ أيمن فؤاد السيد : تاريخ المذاهب في اليمن، ص ٧٣.

(٧) عبدالهادي الفضلي : القراءات القرآنية، دار البيان العربي، جدة، ١٣٩٩هـ، ص ٦٤.

وتناقض يتنزه عنها الكتاب العزيز^(١).

أركان القراءة الصحيحة ثلاثة :

- ١- صحة روايتها، واتصال سندها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع توثيق روايتها الذين نقلوها.
 - ٢- أن يكون للقراءة وجه في العربية الفصيحة التي نزل بها القرآن.
 - ٣- أن تكون موافقة لرسم المصحف العثماني^(٢).
- فمتى استوفت القراءة الأركان السابقة لا يجوز ردّها أو إنكارها، ووجب على الناس قبولها، ومتى اختلف ركن منها أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة^(٣).
- كان من أسباب ظهور القراءات الحكمة الإلهية التي ذكرها الرسول صلى الله عليه بقوله " أنزل القرآن على سبعة أحرف "، ولأن المصحف في العهد النبوي والراشدي غير معجم " منقوط "؛ فتعددت القراءات من الصحابة والتابعين في القرنين الأول والثاني الهجريين ومرت بهما القراءات بمرحلتين :

١- مرحلة نسخ المصاحف العثمانية، واتسمت هذه المرحلة ببعض الخصائص من أهمها^(٤):

- أ- أمر عثمان بأن يتم الاختصار على ما ثبت بالتواتر واتصال السند القرآني بالنبى صلى الله عليه وسلم.
- ب- كتب بطريقة تجمع وجوه القراءات والأحرف السبعة التي نزل بها.
- ج- كتابته بلسان قريش لأنه نزل بلغتهم.
- د- ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن.
- هـ- إهمال ما نسخت تلاوته، ولم يستقر في صحف حفصة رضي الله عنها.
- و- تجريد ما ليس قرآن، كالذي يكتبه الصحابة في مصاحفهم الخاصة من شرح للآيات.

(١) السيد رزق الطويل : في علوم القراءات، مكتبة الفيصلية، مكة، ١٤١٥هـ، ص ٢٧.

(٢) الطويل : المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣) الطويل : المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٤) سيد مظفر الدين : التاريخ الجغرافي للقرآن، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٤، ٥.

٢- مرحلة التسبيع حيث اختار أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) بعد كثرة القراءات الشاذة والضعيفة والمكذوبة سبعاً من القراءات فقط لاقت قبولاً عند جمهرة علماء القراءات^(١)، وبعد ذلك أضيف ثلاث قراءات فصارت القراءات العشر ثم أضيف أربع قراءات شاذة فأصبحت أربع عشرة قراءة^(٢).

أصحاب القراءات السبع هم :

- ١- عبدالله بن كثير المكي (٤٥-١٢٠هـ)^(٣).
- ٢- نافع بن أبي نعيم (٧٠-١٦٩هـ)^(٤).
- ٣- عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٧هـ)^(٥).
- ٤- حمزة بن حبيب الكوفي (٨٠-١٥٦هـ)^(٦).
- ٥- علي بن حمزة الكسائي الكوفي (١١٩-١٨٩هـ)^(٧).
- ٦- عبدالله بن عامر الشامي (٨-١١٨هـ)^(٨).
- ٧- أبو عمرو بن العلاء البصري (٦٨-١٥٤هـ)^(٩).

من ناحية أخرى تأثرت اليمن بالقراءات السبع حيث دخلت فروع القراءات إلى اليمن عن طريق الطلاب اليمنيين الذين رحلوا للدراسة إلى مكة والمدينة وغيرها عن طريق العلماء الوافدين إليها.

ففي القرن الرابع والخامس الهجريين كانت القراءة الشائعة في اليمن هي قراءة عاصم وقراءة عمرو بن العلاء^(١٠)، انتشرت فقراءة عمرو بن العلاء في كل زبيد، فكان غالب القراء

(١) الطويل : في علوم القراءات، ص ٣٤، ٧٤.

(٢) الطويل : المرجع السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٣) خالد عبدالله القاضي : الحياة العلمية في مصر الفاطمية، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ، ص ١٧٢.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٥٤٧.

(٥) ابن خلكان : المصدر السابق، ج ٣، ص ٣.

(٦) ابن خلكان : نفس المصدر، ج ٢، ص ١٨٦.

(٧) ابن خلكان : نفس المصدر، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٨) خالد عبدالله القاضي : المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٩) ابن خلكان : نفس المصدر، ج ٣، ص ٤٠٨.

(١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٦-٩٧؛ أيمن فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص ٥٧.

يقرؤون بها، وأوضح مثال على ذلك عندما قدم عمارة اليمن من قريته في المخلاف السليماني إلى زبيد للدراسة قرأ القرآن بحرف عمرو بن العلاء^(١)، واستمرت هذه القراءة مستخدمة في زبيد في القرن السادس الهجري^(٢).

أدت المؤثرات الثقافية إلى إنشاء المراكز العلمية باليمن وزبيد، كما كان للعوامل التالية أثرها في الحياة العلمية ومنها؛ العامل الديني أو المذهبي هو العامل الأول في تأسيس المراكز العلمية في جميع أنحاء اليمن، حيث عملت الفرق المذهبية المختلفة على نشر مذهبها، وهكذا تميزت فترة الدراسة بالطابع المذهبي عند كل الفرق، وصبغت المراكز العلمية بصبغة مذهبية ودخلت في صراعات فيما بينها.

ففي الفترة التي سبقت حكم دولة بني مهدي في زبيد، قوى المذهب السني على حساب المذهب الإسماعيلي، فأخذ بنو نجاح على عاتقهم رفع لواء السنة في اليمن والدفاع عنها وسط محاولات الشيعة القضاء عليها وأصبحوا في نظر فقهاء السنة هم حماة للمذهب السني في اليمن^(٣)، غير أن المذهب الإسماعيلي استعاد نشاطه وانتقل من دور الكتمان إلى الدور العلني بقيادة الصليحيين وتبعيتهم للخليفة الفاطمي في مصر، فاستولوا على مناطق متفرقة من اليمن امتدت من عدن إلى صنعاء^(٤). وبعد مقتل الخليفة الأمر بالله سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م، استقلت الدولة الصليحية عن السيطرة الفاطمية وأصبحت الدعوة للإمام المستور الطيب بن الأمر، وبعد سقوط الدولة الصليحية ٥٣٢هـ / ١١٣٨م انتقلت الدعوة الطيبية إلى بني حاتم في صنعاء وتمسك الزريعيون في عدن بالتبعية للفاطميين في مصر، وهكذا انقسمت الدعوة الإسماعيلية في اليمن^(٥). أما الزيديون فكانوا يسيطرون على مناطق اليمن الشمالية، وكان إمامهم قبيل الفتح الأيوبي لليمن هو أحمد بن سليمان الذي انتشرت في عهده المطرفية التي أنشأت مدرسة لها في وقش وسنّاع^(٦)، وقد وصف يحيى بن الحسين هذه الفرقة بقوله : " وفي أيام الإمام أحمد بن سليمان استفرغت

(١) عمارة : المفيد، ص ٢١٤.

(٢) بامخرمة : ثغر عدن، ص ٧٨.

(٣) عبدالعال : تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٧.

(٤) العبدلي : هدية الزمن في ملوك لحج وعدن، ص ٥٣.

(٥) الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ط ٢، ص ١١٨.

(٦) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن، ق ٥٣.

بدعة المطرفية ومذهبهم الردئ»^(١).

ولما كانت زبيد في أغلب فتراتها حاضرةً سنّية، على رغم من تأرجح السلطة فيها بين الصليحيين والنجاحيين، حيث كان الصراع حول زبيد على أشده فيما بينهما، فالنجاحيون سنة والصليحيون شيعة إسماعيلية، مما جعل الكثير من العلماء يتجنبون السكن بها وينتقلون إلى مناطق أخرى بعيدة عن الصراع السياسي^(٢)، كما وجد الصراع السياسي فيما بين النجاحيين وابن مهدي حول السيطرة على زبيد وعندما استولى عليها ابن مهدي ٥٥٤هـ/١١٥٩م هرب الكثير من فقهاء إلى جبال اليمن الأسفل وإلى عدن ومكة^(٣).

فضلاً عن العامل الجغرافي الذي لعب دوراً كبيراً في تعدد المراكز العلمية في اليمن، ففي المناطق الجبلية كثرت بها المراكز نتيجة صعوبة المواصلات فيها بين المنطقة والأخرى، فمثلاً وجدت حول " ذي جبلة " العديد من المراكز^(٤)، بينما قلت في المناطق السهلية، فقد قدم عمارة من المخلاف السليماني من منطقة الزرائب إلى " زبيد " للدراسة بها^(٥)، مما يدل على أنه لم يكن بذلك المخلاف مركزاً علمي.

أما العامل الاقتصادي فكان له أثره في تعدد مناطق المراكز العلمية، فنجد أن المناطق التجارية والمناطق الأكثر خصباً، أكثر سكناً فاستقر بها العلماء ووفد إليها الكثير من الطلبة مثل الجند والمغافر وذي جبلة وإبّ وذي أشرق وعدن وزبيد وغيرها^(٦)، فانتشرت في هذه البلاد أغلب المراكز العلمية اليمنية آنذاك، لتوافر الإمكانيات المالية بها لتمويل التعليم ذاتياً من قبل المجتمع أو العلماء، فكان الكثير من المدرسين يحضرون إليها للتدريس كما كان الكثير من الطلبة يذهبون إليها للتعلم^(٧)، ثم يعودون إلى مناطقهم حيث توجد أراضيهم ليستقروا بها، فتوافد الطلاب والفقهاء إلى تلك المراكز في كل مكان، بذلك أصبحت المناطق التجارية والزراعية الخصبة أكثر المناطق

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٠٤.

(٢) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٤٢، ص ٣٧٥.

(٣) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٩٤-١٠٢.

(٤) عمارة : المفيد، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٤٥.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ٨٨، ١٥٢.

(٧) السروري : المرجع السابق، ص ٢٤٦.

سكنًا، كما أصبحت أماكن سكن المدرسين والعلماء والطلاب مراكز علمية^(١).

خصائص الحركة العلمية :

أولاً : شمولية المعرفة :

كانت أهم خصائص الحركة العلمية في اليمن هي الشمولية مثلها في ذلك مثل بقية الأمصار الإسلامية، فقد كان الفقيه يجيد عدة علوم سواء كانت علوم لغوية، مثل النحو واللغة والشعر والأدب، أو علومًا دينية مثل الفقه والحديث والتفسير والقراءات^(٢).

فمن كان يجيد الفقه والحديث وجمع بين علم الكلام وعلم القراءات، الفقيه أبو زكريا يحيى بن أبي الخير اليمني (٤٨٩-٥٥٨هـ) والذي ولي قضاء ذي جبلة في عهد بني مهدي وذلك سنة ٦٦٠هـ، كذلك الفقيه العلامة محمد بن يحيى بن علي الزبيدي (٤٦٠-٥٥٠هـ) وكان من علماء الحنفية وفقهائها، جمع ما بين علوم شتى منها الفقه، وعلوم اللغة العربية نحوًا وصرفًا وعروضًا وألف في ذلك كتبًا نفيسة^(٣). وكذلك الحسين الزبيدي بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مسلم (٥٤٦-٦٣١هـ) وكان فقيهاً حنفياً، ومحدثاً وأديباً لغوياً، ومقرئاً وله منظومات في اللغة والقراءات وفي علم الفرائض والعروض^(٤).

أيضاً أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) وكان فقيهاً وأديباً ونسابه وعلى علم بالعروض واللغة والنحو وله كتب في ذلك^(٥)، اليمني الواعظ الزبيدي الحنفي محمد بن يحيى بن مسلم بن عمران (ت ٥٥٥هـ) وكان واعظاً حنفياً عالماً بالنحو والأدب وله كتاب في القوافي وكتاب في الحساب وغير ذلك^(٦)، ممن جمع بين قراءة القرآن وتحفيظه مع العلم باللغة والأدب، هو الأديب الفاضل الحسين بن علي بن محمد الزبيدي، الذي جمع مع كل ذلك الشعر ونظمه^(٧). وممن جمع بين عدة علوم، الفقيه أبو عبدالله محمد بن موسى بن الحسين بن أسعد العمراني (ت ٥٥٨هـ/١١٦٢م) الذي كان أول من داوم في مجلس الإمام يحيى بن أبي الخير

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن ، ص ٢٤٧.

(٢) الياقعي اليمني : مرآة الجنان، ج ٣، ص ٣١٨، ٣١٩.

(٣) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص ٤٠٧.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٢٨.

(٥) إسماعيل الأكرع : هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج ٣، ص ١٦٨٤.

(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ١٩٨.

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ح ٩، ص ١٤٧.

أحمد سنة ٥١٧هـ/م ١٢٣١م، فكان عارفاً بالغة والنحو واللغة والحديث والفرائض والحساب^(١). وهكذا اتصف علماء اليمن وزبيد آنذاك بإجادة عدد من العلوم، مما يدل على شمولية المعرفة وهي الصفة التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

ثانيًا : الرحلة في طلب العلم .. الرحلة الداخلية :

ومن خصائص الحركة العلمية في زبيد واليمن، الرحلة في طلب العلم اعتمادًا على شهرة المدرس بالعلوم الدينية واللغوية، فحيثما يستقر الفقيه العالم في أحد مناطق اليمن ومنها زبيد يرحل إليه الطلبة من كل مكان من أنحاء اليمن، وقد كثرت الرحلات الداخلية من وأماكن متعددة في اليمن وإليها، ومن ضمن من اشتهر بالعلوم ورحل إليهم الطلاب نذكر منهم بعض العلماء : يحيى ابن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني^(٢)، الفقيه، الإمام، وهو عالم كبير في الفقه وفروعه وأصوله، وعلوم العربية انتهت إليه رئاسة العلم والإفتاء في عصره وكان يُلقب بالإمام وجمال الإسلام وشمس الشريعة^(٣)، وكان يُرحل إليه من نواح كثيرة من اليمن لطلب العلم، وكان قد تصدر للتدريس في بلدة "مَصْنَعَة سَيْر"^(٤)، ثم انتقل إلى "ذي السَّقَال"^(٥) فأقام بها مدة قصيرة، ثم انتقل إلى "ذي أشرق" وأقام بها سبع سنوات، عندما ظهرت دولة علي بن مهدي سنة ٥٥٤هـ^(٦)، واعتداه على علماء الشافعية في زبيد، فر كثير منهم إلى الجبال واتجه عدد منهم إلى ذي أشرق حيث كان يسكن الإمام العمراني، فاختلف هؤلاء مع علماء

(١) الأهدل : تحفة الزمن، ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٤.

(٣) ويفسر هذا اللقب بعدة معاني منها ما كان له من رئاسة العلم والإفتاء في عصره، والحكم بشريعة الإسلام من خلال القرآن الكريم كمصدر للشريعة الإسلامية، وكونه شيخاً للشافعية ببلاد اليمن، وكذلك كونه عالماً بالفقه فروعه وأصوله، وما كان له من مكانة جليلة عند طلابه وكذلك علماء وقضاة عصره. ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٧٤-١٨٢.

(٤) مَصْنَعَة سَيْر : بلد باليمن في شرقي الجند، كانت من معاقل العلم الشهيرة في اليمن الأسفل فكانت موئلاً لطلبة العلم، ولا تجد في الجبال من المدرسين والمفتين والفقهاء والمحققين إلا من كان غالب تفقهه بها، إن لم يكن جملته أو تفقه على من تفقه بها. ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٤؛ إسماعيل الأكرع: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج ٤، ص ٢٠٦١.

(٥) ذو السَّقَال : بفتح أوله وآخره لام مشتق من السفلى ضد العلو، وهي من قرى اليمن وقد نسب إليها بعض أهل العلم. ياقوت الحموي : معجم البلدان، م ٣، ج ٥، ص ٤٨.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٧٤؛ إسماعيل الأكرع : المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٠٦٣، ٢٠٦٤.

ذي أشرق الذين ناصبوههم العداء وكفروهم، لأن فقهاء زبيد شافعية الفروع، أشعرية الأصول، بينما كان فقهاء ذي أشرق شافعية الفروع حنابلة الأصول^(١) لا يتأولون المتشابه من صفات الله، ولكنهم يحملونها على ظاهرها، من غير تأويل ولا تحريف، فاضطر الإمام العمراني إلى الانتقال إلى قرية "ضراس"^(٢) للابتعاد عن ساحة الشقاق، ولاسيما بعد وصول قوات ابن مهدي إلى الجند وقتل علمائها، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى ذي السفال فاستقر بها حتى وافته المنية في ربيع الآخر سنة ٥٥٨هـ^(٣).

كذلك رحلَ للعلم الفقيه محمد بن عبدالله المقيبي، كان عالماً محققاً في الفقه، فانتقل من التربيّة^(٤) إلى زبيد فسكنها ودرّس بها حتى توفي بها سنة ٦٠٠هـ^(٥).

أيضاً كان الحسن بن إسحاق أبو محمد اليمني الذي عُرف بابن أبي عباد وهي كنية أبيه إمام النحاة في قطر اليمن، وإليه كانت الرحلة في علم النحو وإلى ابن أخيه إبراهيم، وكان الحسن عالماً فاضلاً مشهوراً، صنف مختصراً في النحو يدلّ على فضله ومعرفته، وكان موجوداً في أوائل المائة الخامسة، وتوفي قريباً من سنة ٥٩٠هـ^(٦).

وكذلك أسعد بن محمد أبو محمد اليمني الذي كان عالماً بارعاً في اللغة العربية، وكان فقيهاً أديباً عارفاً بالفقه والعربية، ودرّس إلى أن مات سنة ٥٩٦هـ^(٧).

ومن العلماء الذين أثروا علم الحديث، سيف السنة أبو العباس أحمد بن محمد البرتيهي السكسكي الكندي (ت ٥٨٦هـ/١١٩٠م)^(٨)، الذي ذاع صيته في علم الحديث وقام بتدريسه في كل من إب وذي جبلة ثم نزل مدينة الجند للتدريس بها.

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٩.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٣) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٧٤؛ إسماعيل الأكرع : هجر العلم ومعاقله، ج ٤، ص ٢٠٦٤.

(٤) التربيّة : هي بلدة عامرة في الشرق من مدينة زبيد بشمال، وتبعد عنها بحوالي عشرة كيلو مترات، وهي من بلاد الأشاعر، وكانت من القرى المقصودة لطلب العلم، وجميع فقهاء كانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة.

الحجري : بلدان اليمن وقبائلها، ج ١ ص ١٤٣؛ المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية، ص ٩٠.

(٥) إسماعيل الأكرع : المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥١.

(٦) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، بيروت، ج ١، ص ٥١٠.

(٧) السيوطي : المصدر السابق، ج ١، ص ٤٤١.

(٨) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٩٠.

فارتحل إليه الطلاب لدراسة الحديث بها من أماكن متعددة من اليمن مثل " ظُبَا " ^(١) و " ذي
أشرق " و " الشعبانية " ^(٢) وأعمال الجند وزبيد وغيرها.

وهكذا اتسعت الرحلة الداخلية في سبيل طلب العلم إلى مناطق كثيرة من اليمن.

الرحلة الخارجية :

جدير بالذكر أن نذكر بعضًا ممن رحلوا خارج اليمن بهدف طلب العلم والتفقه في الدين إلى
مكة والمدينة والعراق ومصر وغيرها من البلدان، وعلى سبيل المثال :

رحل إلى مكة أبو الطيب طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨-٥٨٧هـ/١١٢٤-١١٩١م)
وذلك عندما عمت سلطة ابن مهدي على اليمن، فارتحل بأولاده ونسائه ومكث في مكة سبع سنين،
روى عن كبار المحدثين في الحرم منهم الشيخ الإمام أبي علي الحسين بن علي الأنصاري،
والشيخ الإمام أبو حفص المانشقي، وعبدالدائم العسقلاني مقرئ الحرمين الشريفين أبي عبد الله
محمد بن إبراهيم بن أبي مشيرح الحضرمي، ثم عاد إلى اليمن في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ^(٣).

العلامة العروضي النحوي محمد بن يحيى بن علي القرشي الزبيدي (٤٦٠-
٥٥٥هـ/١٠٦٧-١١٦٠م) ^(٤)، كان من علماء الحنفية وفقهائها البارزين ولد في مدينة زبيد، وأخذ
على علمائها في شتى الفنون وتفوق في علوم اللغة العربية نحوًا وصرفًا وعروضًا وألف في كل
ذلك كتبًا نفيسة بلغت المئة مصنف، منها : " الرد على ابن الخشاب "، وكتاب " العروض "، وكتاب
" القوافي " و " مقدمة النحو "، و " منار الاقتضاب ومنهاج الاقتفاء " في النحو ^(٥)، ورحل إلى دمشق
٥٠٦هـ طلبًا للعلم، فلم يحتمله ولاية الأمور (الأتابك طغتكين) بها لصراحته ^(٦) في وعظه فقصد
بغداد وكان بها كبير القدر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وانتفع الوزير ابن هبيرة بصحبته،

(١) ظُبَا : عزلة ما بين ذي السفال وسهفنة قرب الجند من أعمال إب. ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٣٢٠.

(٢) الشعبانية : عزلة كبيرة بها قرى كثيرة من أعمال تعز. ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٣) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٨٧-١٨٩.

(٤) الزركلي : الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، م ٧، ١٩٨٦م، ط ٧، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ١٩٨.

(٦) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص ٥٠٧.

وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ^(١) ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد^(٢).

ابن الزبيدي (٥٤٦-٦٣١هـ/١١٥١-١٢٣٣م)^(٣)، هو الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مسلم بن موسى بن عمران الريعي الزبيدي، الحنبلي، أبو عبدالله، سراج الدين، فقيه ومحدث أديب، لغوي ومقرئ، تفقه وأفتى ودرّس وحدث في بغداد ودمشق وحلب وغيرها، من تصانيفه "البلغة في الفقه"، و"منظومات في اللغة والقراءات"، توفي ببغداد في صفر سنة ٦٣١هـ^(٤).

الفقيه الفاضل محمد بن محمد إسماعيل بن أبي الصيف، أصله من اليمن من أهل زبيد ثم رحل إلى مكة طالباً للعلم فسكن بها، وله كتاب أسماء "الميمون" جمع فيه الأحاديث الواردة في فضائل اليمن وأهله، وجمع أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين بلدة، وله مصنفات أخرى وأكثر أسانيد أهل اليمن تنتهي إليه، توفي بمكة سنة ٦٠٩هـ^(٥).

وإذا كان علماء زبيد واليمن ارتحلوا داخل اليمن وخارجه من أجل الحصول على العلم، نجد من ناحية أخرى أنه قدّم إلى اليمن كثير من الفقهاء من الأمصار الإسلامية وساهم بعض منهم في النشاط التألفي والحركة العلمية في زبيد واليمن ومنهم :

القاضي الرشيد أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني (ت ٥٦٣هـ/١١٦٧م)^(٦)، كان أوجد عصره في علم الشرع والشعر والرياضيات والأدب والهندسة، قدّم إلى اليمن رسولاً من الخليفة الحافظ عبدالمجيد الفاطمي (٥٣٤-٥٤٤هـ/١١٢٩-١١٤٩م) إلى الداعي محمد بن سبأ الزريعي، وأقام في اليمن مدة، وانتفع به وبعلمه كثير من أهل اليمن^(٧)، خاصة أهل زبيد، حيث أنه أول من أنشأ عين للمياه الجارية خارج مدينة زبيد وعمل مجرى لها وأدخلها المدينة بتقنية هندسية محكمة، وله كتاب "الجنان ورياض الأذهان" كما صنف

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م ٩، ص ٤٤٣.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٩٢، ٢٠٣؛ بامطرف : الجامع " جامع شامل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم"، عدن، ١٩٨٤م، ط ٢، ج ٤، ص ٦٧.

(٣) الزركلي : الأعلام، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٤) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٤٢، ٤٣.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(٦) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص ٤٨؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٧) نصاري فهمي : العلاقات المصرية اليمنية، ص ٤٢؛ محمد كريم إبراهيم : عدن، ص ١٨٣، ١٨٤.

باليمن " المقامة الحُصَيْبِيَّة " ^(١) التي تدل على علم غزير وفضل كثير، وكانت وفاته بمصر سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م ^(٢).

ثالثًا : انتشرت حركة التأليف في اليمن منذ بدأت حركة تصنيف المؤلفات في العالم الإسلامي في منتصف القرن الثاني الهجري، في مختلف العلوم الدينية واللغوية وكتابة التاريخ والجغرافيا بالإضافة إلى النشاط الأدبي وبدا ذلك واضحًا في القرن السادس الهجري وهو ما نعبر عنه بالحركة العلمية في اليمن، ومن أهم هذه المؤلفات :

الدراسات الدينية :

تعتبر هذه الدراسات أظهر الحركات الفكرية في اليمن وزبيد باعتبار أن اليمن كانت في ذلك الوقت في أوج ازدهارها الفكري المذهبي، وتتميز بوفرة طلبتها وعلمائها ومجالاتها العلمية، وتأتي في مقدمة هذه الدراسات دراسة القرآن الكريم ويسمى علماءها بالمفسرين.

التفسير :

عُرِف علم التفسير بأنه " علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت ذلك " ^(٣)، ووضع العلماء شروطًا يجب أن يتمتع بها المفسر، أهمها أن يعرف خمسة عشر علمًا على وجه الإتيان والكمال ^(٤).

ومن بين العلماء الذين أسهموا في مجال دراسة القرآن الكريم وعلم التفسير، علي بن محمد بن سليمان الرسي الذي يعرف بالمفسر، وضع " كتابًا في التفسير " ^(٥)، ووضع الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري (ت ٥٣٣هـ) ^(٦)، وهو من كبار أدباء اليمن رسالة في إعجاز القرآن

(١) سميت بالمقامة الحُصَيْبِيَّة لأن مؤلفها كما جاء في مقدمتها نزل بالحُصَيْب وهو اسم الوادي الذي منه زبيد باليمن. ياقوت الحموي، ج٣، ص١٥٤؛ ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب برقم ١٣٤٦٩ ز ، وأخرى بمكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ١١٥ ب. ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، هامش ص١٦٧.

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد، ص٤٨؛ اليافعي : مرآة الجنان، ج٣، ص٣٦٧، ٣٦٨.

(٣) القنوجي : صديق بن حسن (ت ١٣٠٧هـ) أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم (٣ أجزاء)، ج٢، تحقيق : عبد الجبار زكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ص١٧٣.

(٤) القنوجي : المصدر السابق، ج٢، ص١٨٥.

(٥) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في ق ٦ هـ، ص٢٢.

(٦) أحمد الشامي : قصة الأدب في اليمن، دار العمير للثقافة والنشر، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ط٢، ص٣٣٢-٣٣٤.

والأعمال الشرعية عنوانها " رسالة في بيان إعجاز قرآن "، وألف محمد بن أحمد بن عبدالله بن سهل الخزرجي اليمني (ت ٥٦٧هـ) ^(١) كتاب " الدر النظيم في خواص القرآن الكريم"، أورد في أوله فصولاً في فضائل القرآن الكريم وتلاوته، وألف نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ) ^(٢) كتاب " مسك العدل والميزان في موافقة القرآن "، وكتاب "التبيان" وهو تفسير للقرآن الكريم يقع في عدة مجلدات.

وفي مجال علم الحديث : يعتبر الحديث النبوي وعاء السنة النبوية المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، فمن الجدير بالذكر أن مضمون كلمة الحديث أشمل من مضمون كلمة السنة؛ لأن الحديث يتناول كل أقسام الكلم النبوي من " الأحكام والعقائد والرقائق والشمائل والمناقب والمثالب والفتن والأطعمة والأشربة والتفسير والمغازي والسير " ^(٣).

ومن رواد حركة التأليف من اليمنيين أبر قرة موسى بن طارق اللخجي ^(٤) (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) ألف في علم الحديث كتابه " الجامع " واشتهر باسم " سنن أبي قرة " وقد وصفه الجندي بقوله ^(٥) : " لم يكن أهل اليمن يعولون في معرفة الآثار إلا عليه، وذلك قبل دخول الكتب المشهورة، وله دراسات قرآنية وتواليف في الفقه اقتبسها من الإمام مالك والإمام أبي حنيفة ومعر بن راشد، وابن جريج، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينه، وكان يتردد للتدريس بين لحج وعدن ومكة وزبيد، وترك تلاميذ في كل هذه البلاد، وله آثار طيبة فيها ^(٦).

كما أسهم عدد من علماء اليمن في القرن السادس الهجري بدراسة الحديث النبوي الشريف والتأليف فيه ومنهم علي بن أبي بكر بن حمير الهمداني العرشاني (٤٩٤-٥٥٧هـ) وكان إماماً في الحديث متقناً للرواة، عالماً بصحیحة ومعلوله، وروى عنه كثير من مشايخ اليمن " صحيح البخاري "، و" سنن أبي داود "، وله كتاب في الحديث سماه " الزلازل والاضراط " ^(٧). أيضاً ألف

(١) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في ق ٦ هـ، ص ٢٢.

(٢) شاکر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى ق ٧ هـ، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد ١٣، يونيو ١٩٧٨م، جمادي الآخرة، ١٣٩٨هـ، ص ١٠٨.

(٣) صبري المتولي : علم الحديث النبوي، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ١٤١٨هـ، ص ٥.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٦٩.

(٥) الجندي : السلوك، ج ١، ص ١٥٩.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٦٩.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٧١، ١٧٢.

الإمام أحمد بن سليمان (٥٠٠-٥٦٦هـ)^(١) كتاب " أصول الأحكام في الحلال والحرام " جمع فيه ما يزيد على ثلاثة آلاف حديث من أحاديث الأحكام وهو مرتب على أبواب الفقه^(٢)، وكتاب " أصول الأحكام في أحاديث سيد آلاف الأنام "، وهو في الأحاديث الفقهية، تضمن ثلاثة مئة واثنى عشر حديثاً^(٣).

كذلك وضع محمد بن سعيد بن معني القُرَيْظِي (٤٩٧-٥٧٦هـ) وهو من كبار علماء الحديث كتاب " القمر "، وكتاب " المستصفي في سنن المصطفى " جمعه من كتب الصحاح، وهو من كتب الحديث المتداولة في اليمن^(٤).

كما صنف في الحديث القاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)^(٥)، وهو من فقهاء الزيدية، كتاب " تيسير المطالب من أمالي أبي طالب "، وذكر فيه معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله وشماله.

وفي مجال الفقه وأصوله، حفل اليمن في هذه الفترة من القرن السادس الهجري بعدد وافر من الفقهاء ذوي التأليف، وانتشرت مؤلفاتهم انتشاراً واسعاً.

والفقه^(٦) في اللغة هو فهم غرض المتكلم من كلامه واصطلاحاً هو العلم بالأحكام الشرعية^(٧)

(١) إبراهيم بن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، م ١، ص ١٣٢.

(٢) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، تحقيق دكتور الكه نيونر، أبرخرد، ١٩٧٩م، ص ٣٢، ٣٣.

(٣) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن في ق ٦ هـ، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٢٥؛ الجندي : السلوك، ج ١، ص ٤٣٣.

(٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٦٤؛ ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٨٠؛ عبدالعزيز المقالح : المرجع السابق، ص ٢٣.

(٦) نشأت مدرسة الفقه في المدينة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري مرتكزة على جهود فقهاء السبعة وهم : عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٣هـ) وأبو بكر عبدالرحمن بن الحارث (ت ٩٤هـ) وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ) وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة (ت ٩٨هـ) وخارجة بن زيد بن ثابت (ت ٩٩هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت ١٠٧هـ) وسليمان بن يسار (ت ١٠٧هـ). ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٢٣، ج ١، ص ٢٧٣، ج ٢، ص ٣١٣، ج ٢، ص ١٨٩، ج ٣، ص ٤٨٨، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٧) وتشمل الأحكام الشرعية كلاً من العبادات والأحوال الشخصية والسياسية الشرعية والعقوبات وأحكام دار الحرب والسلام وأحكام العادات والآداب وفصل المنازعات أي القضاء. وهذه الأنواع قررها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. خالد القاضي : الحياة العلمية، ص ٢٣١.

العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية^(١).

ومن ضمن من ألف أو شرح أو اختصر كتباً في الفقه أو فروعه ما يلي :

إسحاق بن يوسف بن يعقوب بن عبد الصمد الصردي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م)^(٢)، كان علامة في علم المواريث، الحساب، والفرائض، وصنف كتاب " الكافي في الفرائض "، فاستغنى أهل اليمن به عن كافة الكتب القديمة في المواريث^(٣)، وقد وصفه الجندي بقوله : " ومنذ وجد كتابه لم يتفقه أحد من أهل اليمن في شيء من الفنون المذكورة إلا منه " ^(٤).

والفقيه القاضي أبو الفتوح عبدالله بن محمد بن علي بن أبي عقامة^(٥)، سكن زبيد وصنف كتاب " التحقيق " وله " مختصر في أحكام الجنائيات " ^(٦). وصفه عمارة اليمني بقوله : " وصنف بالمذهب (الشافعي) والخلاف لم يفقه أحد من أهل عصره بعد تصنيفها إلا منها " ^(٧).

والفقيه محمد بن الحسن بن عبدويه النهرواني كان من الأئمة^(٨) والفقهاء غزيري العلم، يرحل إليه الناس وكبار فقهاء اليمن من أهل أبين ولحج ليتفقهوا منه، الذي سكن عدن مدة ثم انتقل إلى زبيد أثناء حكم الدولة النجاشية وذلك سنة ٤٩٧ هـ / ١٠٣٠ م، فكان مؤلفاً للمسلمين من كل أفق وله تصنيف في أصول الفقه سماه " المذهب " وأيضاً " الإرشاد " ^(٩)، الذي تفقه به كثيرين من فقهاء أهل اليمن ومنهم راجح بن كهلان من أهل زبيد. وتوفي الفقيه محمد بن الحسن في ربيع الآخر سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م ^(١٠).

الفقيه زيد بن الحسن بن محمد الفائش الذي سكن أحاطة (٤٥٨-٥٢٨ هـ / ١٠٦٥-

(١) الجرجاني : التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق : إبراهيم الإبياري، ١٤٠٥ هـ، ج ١، ص ٢١٦.

(٢) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٣) كان فقهاء البلاد قبل تأليفه لكتابه، يتفقهون في الفرائض، بكتاب أبي بقيسة محمد بن أحمد الفرضي، و " بكناية المبتدي " لمحمد بن يحيى بن سُرَاقَة العامري. ابن سمره : المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٤) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢٨٤.

(٥) ابن سمره : نفس المصدر، ص ٢٤٠.

(٦) اليافعي : مرآة الجنان، ج ٣، ص ٣٢٥.

(٧) عمارة : المفيد : ص ٢٨٩.

(٨) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٤٤.

(٩) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٤٩.

(١٠) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٤٧.

١١٣٣م^(١)، كان عالمًا بعلوم كثيرة منها علم القراءات والتفسير والحديث واللغة والنحو والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام في التوحيد الدُّور والحساب، وكان رَحَّالاً في طلب العلم وجمعت خزائنه كتبه ما يزيد على خمسمائة كتاب، وصنف في فقه الشافعي مختصراً أسماه كتاب " التهذيب " وتفقّه به فقهاء أهل اليمن كافة^(٢).

كذلك منهم الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨-٥٨٧هـ/١١٢٤-١١٩١م)^(٣) الذي وُلِّي قضاء ذي جَبَلَة وأعمالها من جهة عبدالنبي بن مهدي من سنة ٥٦٧هـ بعد أن ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المُدَحِّدَح، بين يدي عبدالنبي بن مهدي مراراً، فقطعه واستظهر عليه وسأله بن مهدي أن يخطب على منبر زبيد وكان هذا يوم الجمعة، فنظم يؤمِّنُ الخطبة على المنبر، وولاه ابن مهدي قضاء إب وذي جلة من سنة سبع وستين إلى بعض أيام شمس الدولة توران شاه^(٤). وله مصنفات كثيرة منها " مقاصد اللع " وكتاب " جلاء الفكر في الرد على نقاة " نفاة القدر ردّاً على المعتزلة في نفي القدر، و" سحر قناة القدرية "، وتصنيف آخر في " مناقب " الإمامين أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل، و" معونة الطلاب بفقه معاني كلم الشهاب " ^(٥) فجمع بين علم القراءات والحديث والفقه وعلم الكلام.

كذلك كان الفقيه ابن الزبيدي، الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى (٥٤٦-٦٣١هـ/١١٥١-١٢٣٣م)^(٦)، له منظومات في علم اللغة والقراءات وله في الفقه مؤلفات منها " البلغة في الفقه "، وكان الفقيه ابن الزبيدي من المحدثين ببغداد ودمشق وحلب وبلدان اليمن ومنها زبيد^(٧).

وممن كان له كثير الأثر في حركة التأليف في الفقه الزبيدي الإمام المتوكل على الله أحمد

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٥٥.

(٢) ابن سمره : المصدر السابق، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٤) ابن سمره : نفس المصدر، هامش ص ١٨٨.

(٥) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٨٨.

(٦) الزركلي : الأعلام، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٧) عبدالقادر بامطرف : الجامع، ج ١، ص ٣٧٨؛ عبدالله الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع

الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م، ص ١٩٩.

بن سليمان بن محمد بن المطهر (٥٠٠-٥٦٦هـ/١١٠٦-١١٧٠م)^(١)، فهو أحد أئمة اليمن الذين شجعوا العلم حتى خرجت كتب المعتزلة في أيامه من العراق إلى اليمن مع القاضي جعفر بن عبدالسلام أحد أعوانه^(٢)، ومن مؤلفاته كتاب "الحكمة الدرية والدلالة النبوية"، وقسمه على مقدمة وثمانية فصول هي الفصل الأول في بلایا الأنبياء عليهم السلام، والثاني في المضادة بين الأشياء، والثالث في ذكر التأليف، والرابع في قضايا القرآن وإعجازه، أما الفصل الخامس في قضايا الرسول صلى الله عليه وسلم، والسادس في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، والسابع في فضائل أهل البيت عليهم السلام والثامن في ذكر الفرقة الناجية الزيدية^(٣).

وأيضاً صنف الإمام كتاب "الزاهر في أصول الفقه"، وكتاب "المدخل في أصول الفقه"^(٤)، وأيضاً الرسالة الصادقة في بيان ارتداد الفرقة المارقة (في الرد على المطرفية من الزيدية)، وكتاب "الرسالة الهاشمية لأنف الضلال من مذهب المطرفية الجهال"، وكتاب "العمدة شرح الرسالة الهاشمية"، وكتاب "الرسالة المتوكلية في هتك أستار الإسماعيلية"، و"حجة الزمان إلى معرفة حجة الزمان"، و"العمدة في الرد على المطرفية"، وكذلك كتاب "حقائق المعرفة في معرفة النظر ووجوبه"^(٥)، وفي هذا الكتاب يذكر طرفاً من علم الكلام والأصول والفروع والمعقول والمسموع وتفاصيل المعارف وهي ثلاثة عشر معرفة، معرفة طريقة النظر ووجوبه ومعرفة الصنع، ومعرفة الصانع، ومعرفة التوحيد، ومعرفة الجزاء، ومعرفة الكتاب، ومعرفة الرسول، ومعرفة الإمام، ومعرفة الاختلاف^(٦).

كما ألف في الفقه الحنفي القاضي محمد بن أبي عوف الحنفي الذي سكن زبيد وله مصنف

(١) ابن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى، م١، ص١٣٢.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ط٢، ج٢، ص٣٤٦.

(٣) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، ص٣٣، ٣٤.

(٤) حميد بن أحمد المحلي : الحقائق الوردية في ذكر الأئمة الزيدية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ٢١٢، ج٢، تاريخ، ق١٠٧، ١٠٨؛ محمد بن زبارة : خلاصة سيرة الهادي من أرجوزة الأئمة، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ص٩٥، ٩٦.

(٥) حميد بن المحلي : الحقائق الوردية، ق١٠٨؛ عبدالله الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات ٢٠٠٤م، ص٦١٦-٦١٩؛ أحمد الشامي : جنایة الأكوع على ذخائر الهمداني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ط١، ص٦١؛ الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن، ص١٧٨، ١٧٩؛ عبدالصاحب عمران الدجيلي : أعلام العرب، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٦م، ج١، ص٢٩١.

(٦) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، ص٣٣.

سُمِّيَ " القاضي "، وهذا الكتاب مشهور عند الحنفية في زبيد، فأخذ عنه بعد ذلك، حيث توفي في أوائل القرن السادس الهجري^(١).

الدراسات اللغوية والأدبية :

لم تقتصر شهرة البلاد التهامية العلمية ومنها زبيد على علمائها الذين نبغوا في العلوم الشرعية المختلفة بل ظهر فيها أيضاً العديد من الأدباء الذين ساهموا في ازدهار علوم اللغة والأدب وكانت لهم مساهماتهم الواضحة في هذا المجال^(٢).

ففي مجال اللغة العربية وجد الكثير من اليمنيين من ألفوا فيها سواء أكانت تأليفاً أو شروحا، ومنهم :

الحسن بن إسحاق بن أبي عباده كان موجودا أوائل ق ٦ هـ، له مختصر في النحو سمي " مختصر الحسن " ^(٣)، وقد وصفه الجندي بأن " غالب فقهاء اليمن وأنحائها كل منهم لا يستفتح الاشتغال بصناعة النحو إلا به "، فكان يقرؤه المبتدئون، وبلغ من أهمية هذا الكتاب أنه ظل يُدرّس لأهل اليمن زمناً طويلاً. وهو القائل ^(٤) :

لعمرك ما اللحن من شيمتي ولا أنا من خطأ ألحن
ولكنني قد عرفت الأنام أخطب كلاً بما يُحسن

وأيضاً ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أبي عباد (ت ٥٥٣هـ/ ١٠٥٨م)، له " تلقين المتعلم " في النحو، وله " مختصر كتاب سيبويه " ^(٥) وعُرف " بمختصر إبراهيم "، ويعتبر الحسن وابن أخيه إبراهيم إمامين في النحو في اليمن في عصرهما، وليها وإليها ارتحل طلاب النحو من أنحاء اليمن^(٦).

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٠٣، ص ٢٤٩.

(٢) غيثان بن علي بن جريس : دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج ١، ص ٢٨٧.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ١١، ص ٤٠٠.

(٤) الصفدي : المصدر السابق، ج ١١، ص ٤٠١.

(٥) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢٨٧؛ ياقوت : معجم الأدباء، م ٢، ص ٤٥٦.

(٦) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١١٤.

كما ألف أبو بكر بن أبي عبدالله بن محمد اليافعي (٤٩٠-٥٥٢هـ/١٠١٦-١١٥٧م) سكن الجند ألف مختصر في النحو يعرف "بالمفتاح" وهو من الكتب المفيدة عند أهل اليمن^(١).

كان للفقهاء الحسن بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدي (٥٤٣-٦٢٩هـ/١١٤٨-١٢٣١م)^(٢)، مؤلفات في النحو، فكان على معرفة تامة بالنحو وكتب بخطه كثيرًا من كتب الأدب والتاريخ بجانب كتب التفسير والحديث، وكان الفقيه الحسن حنبليًا ثم تحول شافعيًا ثم استقر حنفيًا، يرتحل كثيرًا ما بين زبيد وبلدان اليمن، وبغداد، ومكة.

الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدي الفقيه الحنفي (٥٤٦-٦٣١هـ/١١٥١-١٢٣٣م)^(٣)، كام عالمًا باللغة، حدث ببغداد ودمشق وحلب وله "منظومات" في اللغة والقراءة. محمد بن يحيى بن علي بن مسلمة بن موسى بن عمران القرشي الزبيدي، أبو عبدالله (٤٦٠-٥٥٥هـ/١٠٦٧-١١٦٠م)^(٤)، وقد تقدم ذكره حفيدية: الحسن والحسين، ابني المبارك بن محمد، كان فقيهًا إمامًا، نحويًا، أدبيًا، بارعًا في علوم اللغة، وصنف كتبًا في فنون العلم تزيد على مائة كتاب، منها "الرد على ابن الخشاب"، و"مقدمة في النحو"، وكتب في علم العروض عدة كتب منها "كتاب العروض"، وله أيضًا "كتاب القوافي"، و"منار الاقتضاب ومنهاج الاقتفا في النحو"^(٥).

وكذلك نذكر الإمام العلامة أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري القرطبي الحنفي الزبيدي (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م)^(٦)، كان فقيهًا عالمًا فرضيًا حسابيًا لغويًا، نحويًا، أدبيًا، نسابة، وصنف في فنون كثيرة منها "اللباب في الآداب"، و"مختصر في النحو"، وكان مشارك في فقه المذهبين الحنفي والشافعي في الفرائض، كما تأثر بمشايخ الصوفية الذين خالطهم في زبيد^(٧).

(١) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن، ص ١٦٥.

(٢) محيي الدين القرشي: الجواهر المضوية في طبقات الحنفية، دار إحياء الكتب العربية، الرياض، ١٣٩٨-

١٤٠٨هـ/١٩٧٨-١٩٨٨م، ج ٢، ص ٧٨، ٧٩؛ عبدالقادر بامطرف: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٦.

(٣) الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٢٥٣؛ عبدالقادر بامطرف: الجامع، ج ١، ص ٣٧٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م ٩، ص ٤٤٣؛ محيي الدين القرشي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٩٤، ٣٩٥.

(٥) الزركلي: المصدر السابق، م ٧، ص ١٣٧، ١٣٨؛ عبدالله الحبشي: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص ٣٧٢.

(٦) أحمد بن محمد الأشعري: التعريف في الأنساب والتنبيه لذوي الأحساب، ص ٧، ٨، ١٠.

(٧) ابن سمره: المصدر السابق، ص ١٨٤.

ومن علماء اللغة أيضًا علي بن سليمان الملقب بحيدرة، صاحب كتاب "كشف المشكل في النحو" ^(١)، والحسن بن محمد الرصاصي صاحب كتاب "المقصود والممدود"، وهما من علماء القرن السادس الهجري.

كما ظهر في اللغة كتاب قيم هو "شمس العلوم" لنشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ) ^(٢)، وهو من أعلام اللغة في ذلك العصر (ق ٦ هـ) وهو معجم لغوي فقهي تاريخي يسير على الحروف الأبجدية، وفي هذا المعجم الكثير من المواضيع التاريخية المتصلة باليمن ونجد ^(٣)، وكذلك مصنفات متعددة في اللغة منها كتاب "شكل الروي وصراطة، السوي" ^(٤).

ويقول نشوان الحميري: العرب مخصصة بأمر منها، البيان الذي ليس مثله بيان، واللغة التي ليس مثلها في السعة لغة، وللعرب الشعر الذي لم يشاركهم فيه أحد من العجم ^(٥).

كما نشطت الكتابات اللغوية في ذلك الوقت، فقد نشطت الكتابات الأدبية، فنبغ عدد غير قليل من الأدباء، جمع الكثير منهم بين قرض الشعر والنثر الأدبي، فصار موسومًا بالشعر من جهة أخرى، ومن أشهر هؤلاء: إسماعيل بن محمد المعروف بابن النوقا من أبرز شعراء زبيد، وكاتب الدولة النجاشية قبل سقوطها، وشعره كثير يتميز برقته وبساطته، وأشار إلى ذلك عمارة اليمني ^(٦).

ومن الكتاب البارزين أيضًا أبو بكر بن أحمد العندي (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها، وكان شاعرًا وكاتبًا بليغًا، يعود إليه الفضل في تطور النثر الأدبي الفني في الدولة الزريعية التي عاصرت دولة بني مهدي في زبيد ^(٧).

(١) ابن سمرة: المصدر السابق، ص ٢٢٧؛ عبدالعزيز المقالح: الحياة الفكرية في اليمن، ص ٢٦.

(٢) عبدالعزيز المقالح: المرجع السابق، ص ٢٦.

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٥) عصام الدين عبدالرؤوف: اليمن في ظل الإسلام، ص ٣٣٩.

(٦) عبدالعزيز المقالح: نفس المرجع، ص ٢٦.

(٧) ابن سمرة: نفس المصدر، ص ١٦٩.

وأحمد بن محمد إبراهيم الأشعري (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) الذي صنف في فن الأسمار وهو كتاب " اللباب في الأدب " (١).

ومن الجدير بالذكر منذ بداية القرن السادس الهجري زاد عدد علماء اللغة المهاجرين إلى اليمن إلى نهاية حقبة الدراسة، وكان للعلماء المهاجرين الريادة في ازدهار هذه العلوم عن طريق تدريسهم اللغة والنحو في المساجد، وتصنيف عدد من الكتب، ومن هؤلاء العلماء الشاعر المصري السكندري نصر بن عبدالله بن قلايس (٥٣٢-٥٦٧هـ) (٢)، الذي تميز بموهبة الكتابة الفنية النثرية وترسله الجميل الذي وصف به رحلاته إلى اليمن وصقلية، واشتغاله بتجارة الكارم وذكره لإلغاء الوزير صلاح الدين للمكوس عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م (٣)، وامتدح في كثير من كتاباته وشعره أبا الفرج ياسر بن أبي الندى بلال بن جرير المحمدي وزير آل عمران بن زريع في عدن، الذي أحسن إليه وأجزل له العطاء (٤).

النشاط الأدبي في الشعر :

شهدت الحركة الشعرية في اليمن خلال فترة الدراسة انتشاراً واسعاً وظهر فيها نوابغ الشعراء والأدباء، ولهم شعر راق وجيد أغلبه بعيد عن التكلف، وقد تنافس الشعراء في بلاط الأمراء والسلطين الذين كانوا يشجعون الشعراء والأدباء فيجزلون لهم العطايا والهدايا الفاخرة ويبالغون في إكرامهم، والشعراء يبالغون أيضاً في مدح الحكام، مما جعل الكثير من الناس يتأثرون بهذا المديح فيؤيدون الحكام ويسلمون لهم بالطاعة، لأن الشعر كان آنذاك بمثابة الإعلام عن الحكام وأعمالهم، ولذلك ظهرت نهضة شعرية شاملة في اليمن (٥).

فاتصف الشعر في معظمه بالمديح للأمراء والحكام والعلماء وغيرهم. كما شمل عدة أغراض منها الهجاء والغزل، التهديد والوعيد والتأنيب والرد والعتاب، والتوبيخ والرثاء والفخر والتحريض على القتال، كما تحدث عن فلسفة بعض الشعراء وعقائدهم المذهبية.

(١) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب، ص ٨؛ عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ٣٣٩.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م ٤، ص ٥٦٠.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢٤٢؛ خالد القاضي : الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ص ٢٧٩.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م ٢، ص ٥٦١. ومن ذلك الشعر :

يا راويا عن ياسر خبراً ولم يعرفه خبراً
اقرأ بغرة وجهه صحف المنى إن كنت تقرا

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٧٠، ٢٧١.

وربما عبر الشعر عن قص حيوات الشعراء والأمراء والحكام وبلدانهم وقومهم، فيصف حيواتهم ومعاركهم ضد القبائل الأخرى، وانتصاراتهم وهزائمهم، إلا أن الشعر قد يشير إلى أخبار هامة للتاريخ في فترات حياة الشعراء والأمراء والمعاصرين لهم، ويوضح أسلوب حياة المجتمع الثقافية والاجتماعية والدينية.

وقد ظهر الكثير من الشعراء في اليمن وزيد من نوعيات مختلفة في المجتمع منهم شعراء أمراء وحكام، وأدباء وكتاب وفقهاء وقضاة، وكذلك أئمة أيضاً، وذلك لتعدد دوافع نمو الحركة الشعرية وازدهارها في هذا العصر فنبغ منهم عدد كبير.

فمن الملوك والحكام آل مهدي الشعراء وأولهم علي بن مهدي الحميري (٥٠٥-٥٥٤هـ/١١١١-١١٥٩م) وكان علي بن مهدي له نصيب كبير من العلم والأدب واشتهر بالفقه والمعرفة والبلاغة إلى جانب الإمارة والسلطة السياسية، ولقب بألقاب الخلفاء بعد أن تتلمذ على يد فقهاء وعلماء العراق، فأصبح يتمتع بالخطابة وحسن البيان^(١).

فقال المؤرخ^(٢) " يحيى بن الحسين " أن ابن مهدي لما استولى على زيد عام (٥٥٤هـ/١١٥٩م) قال أبياتاً منها :

عناق العتاق الصافات النواتق ألد وأشهر من عناق العواتق^(٣)
وسهرتنا في الليل فوق ظهورها ألد إلينا من رقاد النمارق^(٤)

كما أن المؤرخ الحافظ بن عبدالرحمن بن علي الديبع، ذكر قبل يحيى بن الحسين القصيدة كاملة في كتابه " قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون " ونسبها إلى علي بن محمد أبودل "النواتق"^(٥). بلفظة السوابق " وأكمل القصيدة كما يلي^(٦) :

وما العزّ إلا في صُها كل صاهل من الخيل لا في صهوتي كل ناهل

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص ٤٣٣.

(٢) اليمني : غاية الأمان، ج ١، ص ٣١٣.

(٣) هي الجارية الشابة البكر. ابن منظور : لسان العرب، ج ٩، ص ٢٧.

(٤) جمع نمرق وهي الوسادة. ابن منظور : لسان العرب، ج ١٤، ص ٣٥٩.

(٥) للنواتق جمع نلتق وهو من الخيل الذي ينقض راكبه ويزعزعه. قرّة العيون، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٦) أحمد الشامي : المرجع السابق، السفر الأول، ص ٤٤١؛ قصة الأدب في اليمن، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

وفي المذابلات العاسلات من القنا وفي المشرفيات المتساق الفواتق

وفي بعض الأبيات الأخرى يصرح علي بن مهدي باسمه مفاخرًا بحكمه، وحكمته وبلاغته
وبجبروته وملكه مغرقًا مبالغًا متعجرفًا، فيقول^(١) :

أنا السيد المهدي والفيلق الذي يمزق يوم الروع شمل الفيالق
له حكم داوود، وصورة يوسف، وحكمة لقمان، وملك العمالق

أما مهدي بن علي بن مهدي الذي تولى الحكم بعد أبيه وقبض على زمام السلطة مع أخيه،
فكما كان له أعمال سياسية وحربية كانت لديه نزعة أدبية وفكرية، وشعر حسن يدل على علو
همته وما كان في نفسه من العزيمة وبعد الهمة في طلب الملك والفتنة، وقد أنشد له الشاعر أبو
محمد بن عتيق المصري ابن الرفا المقيم بالعراق، وهو يهدد قومًا في اليمن الآتي^(٢) :

أبلغ قرى "تكرر" ولا جرما إن الذي تكرهون قد دهما
وقل لجناتها ساءد لها سيلاً كايام "مارب" عرما
ظنت "خويلان" أن ستشغلني ، عما ، لما ظنت اللثام عسي ا

كما أورد محمد بن عتيق الشاعر من شعر مهدي بن علي بن مهدي قصيدة في حوالي
ثلاثين بيتاً بها بعض الأخطاء^(٣) :

خلفت بسامي المجد يدرك بالجد وحدّ اعتزام لم يقف بي على حد
وعزة نفس لم تكن مذ صحبتها تنافس إلا في الرفيع من المجد
وصحبة آساد تهز أساوداً ، فمن فتية مردي على قرح جرد
تخوض خضم البحر عبّ عبابه كصم صخور في غدير من السرد
تطيح بتيجان الملوك سيوفها وتبدلها من عزها صعر الخدّ

كما قيل بعض الشعر في غزوات مهدي بن علي بن مهدي على البلاد التي أغار عليها
واستباحها ومنها لحج التي أغار عليها مرتين وقتل كثيرًا من أهلها وسبى حريمها واستولى على
أموالها... ومن ذلك^(٤) :

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص ٤٤١.

(٢) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٤؛ أحمد الشامي، المرجع السابق، السفر الأول، ص ٤٤٧، ٤٤٨.

(٣) تم تصحيح ما حُرّف من ألفاظ في هذه القصيدة بواسطة الأستاذ أحمد الشامي : نفس المرجع، ص ٤٤٨، ٤٤٩.

(٤) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

لن عسكري لليل يعدو بدهمة ويزهو بميمون الزمان وشهه
بأبلج إمام جاد لو فحمد بيأنا وإما جالدوا فابن عمه^(١)

أما آخر حكام وملوك دولة بني مهدي وهو عبدالنبي بن علي بن مهدي الذي " كان شاعراً فصيحاً بليغاً مع الملك والشجاعة والإقدام، وله ديوان شعر جيد ومن مستحسنات شعره القصيدة المسمطة التي احتوت على معان كثيرة، ورثى فيها والده، وشهدت بمعرفته التامة وفضله الكامل"^(٢)، فهذه القصيدة تدل على أن عبدالنبي كان شاعراً مجيداً^(٣)، كما كان مقاتلاً، وكانت هذه القصيدة بمناسبة مهاجمته للأشراف السليمانيين وتغلبه عليهم وقتله لأميرهم وهاس ابن غانم ابن يحيى بن حمزة بن وهاس وأخذ أمواله وسبى حريمه^(٤).

وأول هذه القصيدة التي تبلغ سبعة وأربعين بيتاً الآتي^(٥) :

لن طلول بالحمى كان كسين معلماً تلقى بها المصلماً والأحقب الكدماً^(٦)
لوت بوهاش ضحى فابتدرته مرخاً فظل من تحت الرحي مضرجاً مرغماً
ومنها :

عبرت مذ زمن؛ أبكي الديار والدمع؛ فما وجدت من ثمن أبكى لوحدي مغرماً
ولو علمت منصبي ومن أنا ومن أبي لطفنت حول مذهبي مصلياً مسلماً
أنا ابن من جر القنا والخيل تجري سننا يلقي الخميس الأرعنا والقيروان الأدهما
أمامها المرجبا ودرها المحجبا الحولي القلببا المصقع المعظما
أنت المجلي " يا علي " وصاحب التبتل لله أنت من ولي وقائد حرمرما
أعزز علي أن ترى مغيباً تحت الثري فلو نبذت بالعرما ملأت قطريها دما

وقوله أنت المجلي يا علي يقصد أباه علي بن مهدي^(٧)، الذي يرثيه ويذكر له بإفتخار نصره

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٠.

(٢) الخزرجي : العسجد، ق ١٧٠، ١٧١.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٣٢٤.

(٤) ابن الديبع : المصدر السابق والصفحة؛ ابن خلدون : اليمن في تاريخ ابن خلدون، ص ٦٠٣.

(٥) الخزرجي : المصدر السابق، ق ١٧١ إلى ١٧٣.

(٦) المصلم نثرية اللم مقطوع الأنن أو الأننين، والأحقب حمار الوحش، والمكرم المعضض لأنه مشتق من الكدم

الذي هو العض بأدنى الفم. ابن الديبع : نفس المصدر، هامش ص ٢٦٠.

(٧) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص ٤٥٢.

على بني وهاس السليمانيين^(١).

وعلى الرغم من أن حكام دولة بني مهدي كانوا علماء وفقهاء بلغاء، خطباء وأدباء من الصغر، إلا أنهم طغوا وتجبروا سياسيًا وحربيًا مدة حكمهم لمدينة زبيد في اليمن.

أما الأئمة الشعراء فأبرزهم الإمام أحمد بن سليمان الذي تولى الإمامة الزيدية في (٥٣٢-٥٦٦هـ/١١٣٧-١١٧٠م)^(٢)، وهو المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر علي بن الناصر أحمد بن الهادي للحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الهاشمي اليمني^(٣). ولد سنة خمسمائة، ونشأ على طريقة آبائه الأطهار وسلفه الأخيار، جامعًا بين العلم والعمل، درس في الأصوليين على الفقيه زيد بن الحسن البيهقي الخراساني القادم إلى اليمن، والسيد الحسن ابن محمد المرتضي، وعن الفقيه عبدالله بن علي العنسي اليماني الواصل من بلاد الديلم إلى اليمن سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، وعن الشيخ إسحاق بن أحمد بن عبدالباعث اليمني أمام محراب جامع صعدة وخطيبه، وغيرهم من أعلام عصره^(٤).

وكان الإمام أحمد بن سليمان عالمًا كبيرًا وشاعرًا وأديبًا ناظمًا ناثرًا زاهدًا عابدًا شجاعًا ومجاهدًا، وممن امتدح نسبه الشاعر نشوان الحميري حيث قال^(٥) :

يا بن الأئمة من بني الزمراء وابن الهداة الصفوة النجباء
وإمام أهل العصر والنور السذي هدي الولي به من الظلماء

ابتدأ الإمام دعوته من بلاد صعدة ونجران والجوف باليمن^(٦)، داعيًا الناس إلى الرشاد والمبايعة، وبعث ولاته إلى بلدان كثيرة في اليمن منها وادعة وسنحان وشريف وخولان وصنعاء وبلاد مذحج ونواحيها، وبعث إليهم قوله^(٧) :

(١) ابن الديبع : قرة العيون، ص ٢٦٠.

(٢) يحيى بن الحسن : طبقات الزيدية، ق ٦٠، ٦١.

(٣) إبراهيم بن القاسم : طبقات الزيدية الكبرى، م ١، ص ١٣٢.

(٤) أحمد بن المحلي : الحقائق الوردية في ذكر أئمة الزيدية، ق ١٠٦، ١٠٧.

(٥) أحمد الشامي : جنابة الأكوع على ذخائر الهمداني، ص ٦٢.

(٦) عبدالله الحبشي : مؤلفات حكام اليمن، ص ٣١.

(٧) محمد زبارة : خلاصة سيرة الهادي، ص ٩٦.

ما إن بكيت على رسم ولا دمن
لكن بكيت على الإسلام حيث ذوى
لما رأيت الهدى قد مات واندرست
نهضت أدعو عباد الله مجتهدًا
ولا لطلعة ظبي أعيد حسن
مخضره وثوي في اللحد والكفن
أعلامه فسبيل الحق لم يبين
إلى الهدى وفروض الدين والسنن

وفي سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م وعندما بايعت قبائل حاشد الإمام أحمد، سار إلى بلاد وادعة ثم الجوف حتى وصل إلى بلاد جنب وذمار، وكان ذلك في عيد الأضحى فقال قصيدة منها^(١):

لأحكمـن صـوارمًا ورماحـا
ولأقـتلن قـبيلـة بـقبيلـة
ولأجلـون الأفـق عـن ديجـوره
ولأبـذلن مـع السـمـاح سـمـاحـا
ولأسـلبن مـن العـدى أرواحـا
حتـى يـعود دجـى الظلام صـباحـا

لقد صادف قيام دولة بني حاتم في صنعاء قيام الإمام أحمد بن سليمان أمر الإمامة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، فلما استولى حاتم بن أحمد على صنعاء سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م أصبح يشكل خطرًا على دولة الإمام الواقعة إلى الشمال من دولة بني حاتم، فأراد الإمام أن يؤمن حدود بلاده بالاستيلاء على صنعاء والتخلص من دولة حاتم بن أحمد أو مخاطبة السلطان حاتم والدخول في طاعة الإمام^(٢).

فرد عليه السلطان حاتم وتمثل بقول المتنبي^(٣) :

كدعواك كل يدعي صحة العقل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

فرد عليه الإمام أحمد بن سليمان قائلاً^(٤):

إذا كنت لا تدري بما فيك من جهل
ولم انتحل ما ليس في وأنما
ومَن جَحَدَ الرحمن والرسـل لم يـكن
وكل عباد الله غيرك عارف
فذاك إذا جهل مضاف إلى جهل
مقالي حق قد يصدقه فعلي
بمعترف يومًا بحق بني الرسل
بما في من أصل شريف ومن فضل

ومن قصائد الإمام أحمد ما قاله عند علمه بخبر مقتل الأمير وهاس بن غانم أمير المخلاف السليماني على يد ابن مهدي بغتة، وقد اغتم لذلك غمًا شديدًا وأكثر غمه لسبي الحرائم وقال لا

(١) محمد زبارة : خلاصة سيرة الهادي، ص ١٠٠.

(٢) أحمد بن المحلي : الحقائق الوردية، ق ١٠٨.

(٣) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٢٦.

(٤) أحمد بن المحلي : المصدر السابق والصفحة؛ سليمان الثقفي : المصدر السابق، ص ٢٢٦.

حرم الله وهاسنا لقد كان لنا غمًا وعارًا في حياته ومماته وكتب إلى الأمير قاسم بن غانم يعزيه في أخيه ويؤنبه وكافة بني هاشم فيما جرى بقوله^(١) :

هو الدهر يرضى أهله ثم يغضب	ويبني لهم حيثًا وحيثًا يخرب
ويرفعهم حيثًا ويخفض مرة	ويعطي ويستعطى ويكسو ويسلب
كفعل ابن مهديّ اللعين وحزبه	وهم ثلثة ترعى المواشي وتحلب
وما أظهروا من منكر في تهامه	وخطب جسيم صدّعه ليس يشعب
وقد كانت الأحبوش فيها أعزة	ملوكًا لهم أمر ونهي ومرحب
فأخرجتهم من أرضهم وبلادهم	وقد عجزت عنهم نزار ويعرب
وما كان هذا باقتدار وقوة	وهم عصبة تجني وتشري وتوهب
ولكن أخافوا الناس حتى تمكنوا	بقتل اليتامى والنساء ثم أربوا
وصالوا على الوهاس غدرا وبينه	وبيئهم عقود ولم يتطيبوا

كذلك ساهم القضاة في حركة الشعر في زبيد واليمن فمن الشعراء القضاة بنو أبي عقامة في زبيد منهم القاضي محمد بن عبدالله علي بن أبي عقامة المعروف الحفائلي (ت حوالي ٥٥٤هـ/١١٥٩م)^(٢)، وهو فقيه متكلم، شاعر مترسل، كان بينه وبين الشاعر عمارة اليماني مطارحة شعرية، فمنه ما كتبه جوابًا على عمارة^(٣) :

إذا فـاخـرت سـعد السـعيرة لم يـكن
لأخلاقهم إلا بأسـلافك الفخـرُ
وبتـيك منها، يا عـمارـة، شـامخُ
فـوتَ تحته الشـعري، دان الشـعـرُ

وأيضًا القاضي أبو الفتوح بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي عقامة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٤)، كان فقيهاً إماماً عالماً وشاعراً جواداً مداحاً ممتحاً، يخلع على الشعراء ويغنيهم، وكان من شعراء اليمن المجيدين المكثرين في كل منه، وفيه يقول القاضي عبدالعزيز بن الحباب المصري حين قدم

(١) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٥٢ إلى ٢٥٤؛ وهذه القصيدة ٤٤ بيتاً من الشعر.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٤٠.

(٣) عمارة : المفيد، ص ٢٨٨-٢٩١؛ إسماعيل بن علي الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج ١، ص ٥٢.

(٤) ابن سمرة : المصدر السابق والصفحة.

اليمن من قصيدة وكانت بينهما صداقة ومودة^(١) :

أبني عقامة لست مقتصدًا في وصفكم بالمدح ما عشتُ

علقت يدي منكم بحبل فتى ما في مرائر وده أمستُ

كذلك في قصيدة في الفخر منها^(٢) :

أصغ أذنًا وانظر بعينك هل ترى

من الناس إلا عقامة تردفُ

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا

وإن نحن أو مانا إلى الناس وقفوا

وله رائيًا أسرته حينما زار مقبرتهم في العرق خارج مدينة زبيد^(٣) :

يا صاح قف بالعرق وقفةً مُغول

وانزل هناك فثم أكرم منزل

كذلك ساهم الشعراء الفقهاء في حركة الشعر، في زبيد واليمن بشعر جيد، فمن الفقهاء الشعراء الفقيه أبو العباس أحمد بن علي بن بجارة الحنفي^(٤)، أصله من قرية التُّرْبِيَّة بالقرب من زبيد ولا نعلم سنة وفاته. كان شاعرًا مبرزًا في الأدب واللغة وعلم الكلام، يحذو طريق أبي نواس في الاشتهار بالخلاعة، فقد اجتاز ليلة وهو سكران بدار القاضي أبي الفتوح بن أبي عقامة، وكان القاضي فظًا في ذات الله عز وجل، وابن بجارة يخلط في كلامه فصاح عليه، وليس عنده أحد من الأعوان : إلى هذا الحد يا حمار، فوقف ابن بجارة مخاطبًا للقاضي^(٥) :

سـكـرـتـُ تـعـتـادـنـي وخبـمـارُ

وانتـشـاء أعتـادـه وتـعـارُ

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص ١٣٧.

(٢) أحمد الشامي : المرجع السابق، السفر الثاني، ص ١٣٧.

(٣) عمارة : المفيد، ص ٢٨٩؛ إسماعيل الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج ١، ص ٥٣.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص ٢٩٤؛ إسماعيل الأكوخ : المرجع السابق والجزء، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٥) إسماعيل الأكوخ : نفس المرجع والجزء، ص ٢٥٣.

فَمَلُومٌ مَنْ قَالَ : إِنِّي مَلُومٌ

وَحَمَارٌ مَنْ قَالَ : إِنِّي حَمَارٌ

ومن الشعراء الأدباء الذين كان لهم شعر جيد، الشاعر الحسن بن إسحاق بن أبي عباد اليمني النحوي^(١)، عالم في النحو شاعر أديب، قصده كثير من أهل اليمن لتعلم النحو وقراءته عليه فله مختصرًا في النحو مشهورًا، وكان إذا تكلم بين العامة لا يتكلف في حديثه عن الإعراب، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال^(٢):

لَعَمْرُكَ مَا اللَّحْنُ مِنْ شِيْمَتِي

وَلَا أَنَا مِنْ خَطَا الْحَنْ

وَلَكِنْ عَرَفْتُ لَفَاتِ الرَّجَالِ

فَخَاطَبْتُ كُلًّا بِمَا يُحْسَنُ

كذلك الشاعر الأديب الحسين بن علي بن محمد بن مُمَوِّهٍ أبو عبدالله المعروف بابن القم الزبيدي اليمني^(٣)، ولد بزبيد سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م، وتوفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، كان أديبًا شاعرًا من أفاضل اليمن المبرزين في النظم والنثر والكتابة، ومن شعره :

وقال :

خَيْرٌ مَا وَرَثَ الرَّجَالُ بَيْنَهُمْ

أَدَبٌ صَالِحٌ وَخُسْنٌ وَثَنَاءٌ

ذَاكَ خَيْرٌ مِنَ الدَّنَائِرِ وَالْأَوْ

رَاقِ فِي يَوْمٍ شَدَّةٍ وَرَخَاءِ

تِلْكَ تَغْنِي وَالذِّينَ وَالْأَدَبُ الصَّ

الْحُ لَا يَغْنِيَانِ حَتَّى الْقَاءِ

ويقول^(٤) : أقول لنفسي الدنية هبي طال نومك، واستيقظي لا عزَّ قومك، أَرْضِيَتْ بِالْعَطَاءِ

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ط١، م٢، ص٤٥٦.

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق، م٢، ص٤٥٦؛ إسماعيل الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج٢، ص٧٢٦.

(٣) ياقوت الحموي : نفس المصدر، ج٣، ص١٨٥؛ عبدالرحمن الحضرمي : نظرات في التاريخ العام لليمن، ٢٠٠٢م، ص١٦٠، ١٦١.

(٤) ياقوت الحموي : نفس المصدر والجزء، ص١٨٩.

المنزور وقنعت بالمواعيد الزور ! يقظة فإن الجد قد هجع، ونجعة فمن أجذب انتجع. أعجزت في
الأدباء عن خلق الحرباء، ولي لسان كالرشاء تنسم أعلى السماء، ناط همتة بالشمس، مع بعدها
عن اللمس،

ويقول^(١): أضع نفسي في أقل المواضع وأقول لمولاي قول الخاضع :
فأنسبل عليها ستر معروفك الذي

سترت به قدام مخازي عوراتي

وقال^(٢) :

هدايا الناس بعضهم لبعض

تؤلبد في قلوبهم المودة

وتزرع في النفوس هوى وحباً

لصرف الدعر والحدثان عدة

وتمطاد القلوب بلا شرار

وتسعد حظ صاحبها وجدة

أيضاً من الشعراء البارزين في زبيد، إسماعيل بن محمد المعروف بسابن البوقا^(٣)، وزر
لجباش بن نجاح أحد ملوك النجاشين في زبيد ثم لأولاده الفاتك والمنصور وعبدالواحد، وما منهم
إلا من قدمه وعظمه وأكرمه، وكان يتميز شعره بريقته ورشاقتة كما كان في نفسه سيداً جليل القدر
سمحاً بماله وجاهه، وشعره موجود في زبيد واليمن منه الخفيف ومنه الكامل.
ومنه^(٤) :

عند روض الربيع لبي أوتار

تقتضيها الصهباء والأوتار

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ج٣، ص١٩٠.

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق والجزء، ص١٩٣.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١٠؛ عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ص٢٦.

(٤) الصفدي : المصدر السابق والجزء، ص٢١١.

ومنه^(١) :

يا طايوي الفلوات طي السدج

عُجْ نحو منعرج الكثيب وعُجْ

كما اشتهر الكثير من الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم، فكانوا يمدحون الأمراء والسلاطين والحكام ليتقاضوا من وراء ذلك بعضًا من المال، ولهم في ذلك المديح شعر جيد، ومن هؤلاء الشراء : ابن مكرمان ٤٤٥-٥٥٦هـ^(٢)، هو شاعر كبير له في قومه منزلة كبيرة وجاء عريض، وكان أهل زبيد واليمن يتهادون أشعاره، وحفظه الناس، وسار في الأفواه، ويقول عمارة في كتابه " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد " ما يلي :

" وممن رأيت شيخًا، قد ناهز المائة الشاعر المعروف بابن مكرمان، وهو من أهل جبال " برع " ورأيت أهل تهامة يكرمونه ويعظمونه ويعتمدون عليه، ولست أحفظ إلا قصيدة مدح بها الشريف الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليماني (قتل على يد عبدالنبي بن مهدي) فأثابه عنها بألف دينار^(٣).

وقصيدة ابن مكرمان سلسلة الألفاظ، بديعة المعاني، جيدة السبك تنبض بحرارة الصدق وعمق الولاء ...

واشتهرت في عهد عمارة ولم يسر شعر يماني مسيرها في أفواه أبناء اليمن بما فيهم الشاعر الكبير عمارة الذي ظل يحفظها بعد هجرته إلى مصر، وتغنى بها وسجلها بعد أن جاوز الخمسين في كتابه عن أخبار صنعاء وزبيد^(٤).

أيضًا الشاعر محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي عمران ولد سنة ٥٢٥هـ ووفاته سنة ٥٧٢هـ، العالم المحقق في الفقه والشاعر الأديب، ومن شعره قصيدة يمدح بها عبدالنبي بن علي بن مهدي الرعيني جاء منها قوله^(٥) :

وضحت شمس الحق بعد أفولـه

ورست هنالك قاعداتُ أُصوله

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١١..

(٢) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص١١.

(٣) عمارة : المفيد، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(٤) أحمد الشامي : المرجع السابق، ص١٢.

(٥) إسماعيل الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج٤، ص٢١٣٤.

وتألفت منه الرياضُ وفُتحت

أكامها بالنور بعد دُيولـه

واختال ثنائي عطفه متسرلاً

حلّ البهاء يجرُّ فضل دُيولـه

أحيى الإمام ذمّاءه بسيوفه

ورماحه وبرجله وخيولـه

ولما أراد أن ينسخ كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي لم يجد في إِبّ ولا في ذي جِبلة
العَفَصَ لصنع المداد منه ووجد الكِلْبَلاب فصنع منه المداد، وقال شعراً^(١) :

فــــولا لَابُ وذِي جِبَلَة

إن مَنَعَا الجِنْرَ وشَحَابَه

فــــإن في وادي شــــوا حِطْنَا

بحرّاً غزيراً مَن كِلْبَلابـه^(٢)

ومن الشعراء المادحين لدولة بني مهدي، الشاعر أبو الحسين علي بن سليمان العكي، عاش
في القرن السادس الهجري^(٣)، تكسب بشعره في مدح أمراء ورؤساء عصره، فله مدائح في أواخر
أمراء الدولة النجاشية ثم علي بن مهدي وقضائه على الدولة النجاشية، كما مدح أوائل رجال
الدولة الأيوبية هذا عدا غيرهم من رؤساء القبائل وزعماء البلاد، كما أنه له أشعار غزلية
وإخوانية ومراث وغير ذلك من أبواب فنون الشعر التي كانت تطرق في عصره، ولم يُعثر على
شعره سوى على بيتي شعر من قصيدتين الأولى في مدح الزعيم القبلي عمر بن عدنان يقول
فيه^(٤):

إذا الليالي أساءت غير عالمة

كان ابن عدنان لي من جورها جارا

(١) إسماعيل الأكوخ : هجرة العلم ومعاقله، ج٤، ص ٢١٣٤.

(٢) كِلْبَلابـه : هو شجر مشوك الساق، وفي أعالي غصونه أوراق حمراء.

(٣) أحمد بن محمد العقيلي : من أدب جنوب الجزيرة، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٤١٤هـ / ١٩٨٤م، ط١،

ج١، ص ٢٨.

(٤) أحمد العقيلي : المرجع السابق، ج١، ص ٢٨.

والثاني في هجاء قومه (عك) وهو^(١):

فمن يشتري - عك - بفلس فإنني

جميعًا - على قطع الخيار - أبيعا

ونستدل من البيت الأول على أنه ممن يعشقون الجناس والمزاوغة، كما ورد في البيت (من جار وجار).

ومن أشهر شعراء بني مهدي المادحين لهم والمسجلين كل وقائعهم، الشاعر ابن الهبيني (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤)^(٢)، وهذا الشاعر المجهول اسمًا ونسبًا ومولداً ووفاة كمعاصره " ابن مكرمان" وصاحب الأبيات المشهورة التي منها على لسان ابن مهدي^(٣):

أشرب الخمر في ربا عدن	والسمر والببيض في " الحُصَّيب " ظما
ويُلْجَمُ السِّدِين في محافلها	والخيـل حولي تعلقك اللجُما ؟
كلا ومهدي فارس بطل	وصدر جبروم بملاء الخُرُما

ومن المرجح أن ابن الهبيني قتل مع عبدالنبي بن مهدي ضمن من أعدمهم صبرا السلطان " توران شاه " الأيوبي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م.

وبالرغم من أن " ابن الهبيني " و " ابن مكرمان " نشأ في عصر واحد، وربما ينتسبان لبلدة واحدة ولعلهما كانا صديقين وكلاهما شاعر فحل، إلا أنهما كانا على طرفي نقيض؛ رأيا وهوى ومذهبًا، فبينما كان ابن مكرمان سني الهوى محبًا لآل الرسول مداحًا للأشراف السليمانيين؛ كان ابن الهبيني خارجيًا يدين بمذهب ممدوحه علي بن مهدي وأولاده^(٤). ويقول عمارة^(٥) : من شعراء تهامة ابن الهبيني، وهو شاعر علي بن مهدي صاحب زبيد وأولاده من بعده، وهو أمتن كلامًا وأقوى نظامًا من كثير ممن سمعت بهم من شعرائهم وهو القائل على لسان مهدي بن علي بن مهدي^(٦) :

(١) أحمد العقيلي : من أدب الجزيرة، ج ١، ص ٢٨.

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك ق ١٦٦؛ أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص ١٤.

(٣) الخزرجي : المصدر السابق والصفحة.

(٤) أحمد الشامي : المرجع السابق، ص ١٤، ١٥.

(٥) عمارة : المفيد، ص ٢٧٧، ٣٢٣.

(٦) الخزرجي : نفس المصدر، ق ١٦٤؛ أحمد الشامي : قصة الأدب في اليمن، ص ٣٣٥.

أبلغ قري " تكسر " ولا جرما ان السذي تكهون قد دهما
وقل لجناتها؛ ساءلها سلا كأيام " سارب " عرما
ولابن الهبيني شعر على لسان علي بن مهدي ويلقبه بالملك " أبا حسن " (١):
ما بال خولان لا توفي بما تعد يدنوا أبو حسن منها وتبتعد
وما لجنس وسنحان واختهما همدان تلك الأعراب التي حشدوا
وقال ممدح أحمد بن علي بن مهدي عندما دخل " الجوة " وأحرقها وهزم عسكر الداعي
عمران بن محمد بن سبأ بعد قتال شديد بين الجيشين سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م (٢):
بكرت قتل من الكماة ضراغما
وجرت يهز عواسلا وصوارما
علوية مهديّة قلـدتها
من آل مهدي هماما حازما
وكذاك ليس تروق أبنيته العلى
إلا إذا كنتم لهم دعاما
صبحت أكناف الجواة بغارة
شعواء طبقت الجواة جماجما
في يوم عيد صبّحوا السولايم
فيها فاضحوا للحمام ولايما
وحرمتم فيها مطاعم عيدهم
وتركتهم للمهنات مطاعما
وقال يمدح الأخوين مهدي بن علي وعبدالنبي بن علي بن مهدي (٣):

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، ص ٤٤٣.

(٢) الخزرجي : المسجد، ق ١٦٦؛ إسماعيل الأكوخ : هجر العلم ومعاقله، ج ١، ص ٤٠١.

(٣) أحمد الشامي : المرجع السابق، ص ٤٤٣، ٤٤٤.

العز في سهوات خيل الأجيـه
من كل مهـلق الوغـا متوقـد
وبهائسي تحت العجاج فريقيها
أسد إذا ما أبصرت أسد الشرى
تعدو أمام متوج متبلج
متفقه في الدين؛ لكن لم يكن
ملك إذا اشتبه الملوك فما له
جباة حق من بني هود متى
ومنزه الدين الحنفي الذي
وطاردها من مهمه في مهمه
وتسراه عند قياده كالأبله
شعث الوجوه مكلمات الأوجه
ورأت حياض الموت لم تتجهجه
متيقظ، متوقد، متنبه
من عند غير الله بالمتفقه
في ملكه وصلاحه بالشبه
تسأله يصدع بالبيان وبجبه
لولا الإمام القطب لم يتنزه

وأيضاً :

سير الإمام قديمها وحديثها
أشهى من الماء الزلال على الظما
فالיום بخبج للخليفة بعده
سبطيه، " قطبيه " الذين إليهما
فرح القلوب وروضة المتنزه
والذ من عصر الشباب الأموه
بالقائمين الهاديين بهديه
شرف الخلافة والإمامة تنتهي

ويقول :

اشبهتما قطب الملوك أباكما
تالله أنكما لأكرم معشر
قولاً وفعلأ من غير مشبه
جذبت لهم خوص الرقاب التيه

ويمدح ابن الهبيني بهذه القصيدة ابني علي بن مهدي الذي وليا السلطة بعد وفاة أبيهما إذ
قال فيها " سبطية بل قطبية " وقد كان من ألقاب علي بن مهدي أبيهما " القطبي " و" الأجيـه" (١).

وفي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م عندما هاجم مهدي بن علي بن مهدي أهل الجند وحاصروهم،
وقتل كثير من أهلها أحرقت مسجدها بمن فيه من الضعفاء والعواكف والعجائز والودائع
والمصاحف وعاد إلى زبيد، قال في ذلك ابن الهبيني مادحاً الملك مهدي بن علي (٢) :

لن عسكر كالليل يعدو بدقيـه ،
ويزهو بميمون الزمان وشهمه

(١) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الأول، ص ٤٤٤.

(٢) أحمد الشامي : المرجع السابق، السفر الأول، ص ٤٤٦.

بأبلج إماج دلو فمحمد .. بيأنا؛ وإماجا لدوا " فابن عمه "

وهنا يشبهه فصاحة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وشجاعة وفروسية ابن عم الرسول " علي " كرم الله وجهه !.

وفي سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م عندما استولى عبدالنبي بن مهدي على شرياف وتعز وصبر ثم مخلاف جعفر وحصن المجمع أنشد ابن الهبيني يقول في ذلك افتخاراً بعبدالنبي^(١) :

قل لذات الأسب الرّتل تحت ذاك الفساحم الرّجل

وفيه يقول :

أن في غربي مجمعة لفخار غدير متصل
ومليكنّا كلنّا سألوا سأل سيل العارض الهطل

ومن الشعراء الذين كانوا يتكسبون بشعرهم الشاعر عمارة اليمني (٥١٥-٥٦٩هـ/ ١١٢١-١١٧٤م) من مدينة مرطان بوادي السباع باليمن، من منازل قبيلة السليماني، من أسرة توارث بنوها السؤدد والغنى، هاجر لطلب العلم إلى زبيد سنة ٥٣١هـ وفيها عرف بالقاضي عمارة؛ ثم سسموه عمارة الفرضي أما أهل عدن وجبلّة وصنعاء فقد عُرف لديهم بعمارّة " الفقيه " ثم عمارة الشاعر^(٢).

ولد ونشأ عمارة في بيئة علم وصلاح، محيطها سني شافعي، وتتلّمذ لأستاذ علي بن مهدي الحميري وانقطع إليه لمدة سنة، ولم ينقطع عن زيارته الشهرية له إلاّ لما استفحل أمره خوفاً من أهل زبيد^(٣).

درس بجانب الفقه، اللغة والأدب، ثم بدأ يشتغل بالتجارة ما بين عدن وزبيد وفي عدن بدأ حياته الشعرية عن طريق الأديب الشاعر أبي بكر أحمد العندي الذي أشار إليه أن يقول شعراً يمدح فيه الداعي محمد بن سبأ حاكم عدن، وفي البداية عمل الأديب العندي قصيدة شعر على لسان عمارة هنا بها عرس الداعي محمد بن سبأ على بنت الشيخ بلال، فنال عمارة عليها جائزتين إحداهما من الداعي محمد بن سبأ والأخرى من بلال المحمدي^(٤).

(١) الخزرجي : المسجد المسبوك، ق ١٦٦.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٩، ١٠؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ٧، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٤) عمارة : المفيد، ص ٢٨٠. بامخرمة : ثغر عدن، ص ١٩٧؛ ذو النون المصري : عمارة اليمني، النهضة

المصرية، ١٩٦٦م، ص ١٠٨.

بعدها أشار العندي على عمارة أن يطالع كتب الأدب ويتوقف عن الفقه فاشتغل عمارة منذ ذلك الحين بالشعر ومدح الملوك والأمراء، وكذلك مدح آل أبي عقامة قضاة زبيد، ونال الكثير من العطايا والجوائز^(١).

وفي سنة ٥٤٩هـ حج عمارة، وأوفده صاحب مكة قاسم بن هاشم بن فليته سفيراً عنه، ومعه رسالة إلى الديار المصرية، فقدمها في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ، والخليفة فيها يومئذ الفائز بن الظافر، ووزيره الملك الصالح، طلائع بن رزيق، فلما أحضر للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخلافة أنشدهما قصيدته التي أولها^(٢) :

الحمد للعيس، بعد العزم، والهمم	حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجد الحق، عندي للركاب يد	تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قرين بعد مزار العز من نظري	حتى رأيت إمام العصر من أمم

حتى إذا أتم إنشادها أفيضت عليه الخلع المذهبة من ثياب الخلافة، ودفع له الصالح خمسمائة دينار وأخرجت له السيدة الشريفة بنت الحافظ خمسمائة دينار أخرى، وأطلق من دار الضيافة رسوم جليلة واستحضره الصالح للمجالسة، ونظمه في سلك حاشيته، وغمره بره.

أقام عمارة في مصر إلى شهر شوال ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م ثم عاد إلى مكة، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى إلى مصر في صفر ٥٥١هـ/ أبريل ١١٥٦م، فأقام في القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الفائز والعاقد^(٣)، وبلغ من تشجيع الفاطميين له إغداقهم المنح عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعي المذهب وقال في ذلك :

مذاهبهم من الجود مذهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

وبعد أن استقر الأمر لصالح الدين، حاول عمارة أن يجد له مكاناً في الدولة الجديدة، فمدحه

(١) يامخرمة : ثغر عن، ص ١٩٨؛ ذو النون المصري : عمارة اليمن، ص ١٠٨.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، ص ٢٥٢-٢٥٤؛ أحمد أحمد البدوي : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشلم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٩م، ط ٢، ص ١٦٣، ١٦٤؛ عبد اللطيف حصة : الحركة الفكرية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١ ١٩٤٧م، ص ٢٢٦.

(٣) الزركلي : الأعلام، ط ٧، ص ٥، ٣٧؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ج ٤، ص ٤٨٦؛ حسين بن عبدالله العمري : مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٣٨.

ومدح جماعته من أهل بيته^(١).

ويبدو من هذا المدح أن صلاح لم يفسح مكاناً لعمارة في دولته، وضيق عليه رزقه، فمضى يندب أيام الدولة الفاطمية ويبكي حظه العاثر لزوالها، وكتب إلى صلاح الدين قصيدة يشكو فيها حاله ويوازن بين عهديه في عصر الدولة الفاطمية وفي أيام صلاح الدين، وسمى القصيدة "شكاية المتظلم ونكاية المتألم"^(٢).

وقال فيها :

فيا واصل الأرزاق كيف تركتني أمد إلى كف المنى كيف أقطع ؟
فإنك أهل الجود والسر والتقى ووضع الأيادي البيض في كل موضع^(٣)

ولكن هذه القصيدة لم تجد نفعاً عن صلاح الدين، فمضى ليتفق مع جماعة من بقايا الفاطميين بينهم داعي الدعاة ابن عبد القوي واتفقوا فيما بينهم على إقامة خليفة ووزير وكاتبوا الفرنج في بيت المقدس ليعينوهم على تحقيق انقلابهم، فعلم بأمرهم صلاح الدين^(٤) :

فأمر صلاح الدين بشنقه، فتم اعتقاله وشنقه مع الذين دبروا الخطة، وتم شنق عمارة في درب يُعرف بخزانة البنود في القاهرة يوم ١٢ رمضان ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م^(٥).

ولعمارة ديوان شعر ضخم، معظمه من النوع الجيد الجزل، طرق فيه أغراض الشعر الغنائي : من مدح ورثاء، ووصف، وغزل، وغيرها، وندر الهجاء في شعره عملاً بوصية والده^(٦)، وقد مدح عمارة بشعره خلفاء مصر، وكبار رجال دولتهم، وحظي بنو زريك بأفخم

(١) عمارة : النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩١م، ص ٣٠٠؛

أحمد البدوي : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص ١٦٦.

(٢) أحمد الشامي : تاريخ اليمن الفكري، السفر الثاني، ص ١٥٥؛ شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م، ط ٣، ص ١٥٥.

(٣) عمارة : المصدر السابق، ص ٢٨٨-٢٨٩؛ علي أحمد بيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر، ص ١٢٠، ١٢١.

(٤) أيمن فؤاد السيد : الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ط ١، ص ٢٤٢.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٤؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ٣٨٤-٣٨٦؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، م ١٠، ط ٣، ص ٥٣، ٥٤.

(٦) أحمد بدوي : المرجع السابق، ص ١٦٨.

مدائحه في ديوانه، كما مدح حكام اليمن^(١).

ومن شعراء اليمن وزبيد والذين استخدموا الشعر في تدوين الكتابة التاريخية، ابن خمرطاش وهو الشيخ أحمد بن خمرطاش بن أبي بكر بن محمد بن النعمان الحميري الشراحي الزبيدي (المتوفى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م)، لُقِبَ بالشيخ الذي يطلق على شيخ العلم وشيخ الرياسة وجمعهما ابن خمرطاش فهو من بيت رياسة، كما أنه عالم ومن بيت علم^(٢).

تميزت بعض قصائد ابن خمرطاش بالافتخار، فقد افتخر بنسبه للشراحيين بقوله:

أنا ابن فرعى حمير إن بذخت حمير في العنصر منها المنتقى
من الشراحيين في جرثومهم بورك في قدموسها كلا ولا

كما كان ابن خمرطاش فقيهاً جليلاً عارفاً نبيلاً وأحد بلغاء عصره، وسيد قضاة دهره، ومن شعره القصيدة المشهورة والمعروفة " بالخرطاشية " التي مدح فيها قومه وجمع فيها تاريخ اليمن القديم بما في ذلك من أساطيره، وهذه القصيدة متداولة بين الناس نحو ثلاثمائة بيت^(٣).

وتوفي أحمد بن خمرطاش شاباً، وكانت وفاته في جبل قسوة من نواحي ريمة فاراً من علي بن مهدي الذي لم يدخل في طاعته فلما ظهر عليهم ابن مهدي فر ومن معه من بلدهم خوفاً منه، ولكنه أرسل قصيدته الخرطاشية إلى علي بن مهدي بعد ذلك يطلب منه العفو مادحاً ومستعطفاً له ولجماعة من القحطانيين، ولكنه قد مات قبل أن يصله الرد^(٤).

وكان ابن خمرطاش لا يزال محتفظاً برئاسته وسلطانه، ولهذا كاتب ابن مهدي، ولو كان فرداً من الناس لما تجرأ على ذلك.

وكان من جيد شعره قصيدة له في التصوف والعقائد تزيد على خمسين بيتاً، أولها^(٥):

كشف الصباح دجنة الظلماء فعلام رمي كواكب الجوزاء

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، م ٢، ص ٣٦٦؛ ذو النون المصري : عمارة اليمني، ص ١٤١، ١٤٢؛ عبدالصاحب عمران الدجيلي : أعلام العرب، ص ٢٩٧.

(٢) أبي الربيع سليمان بن الجون : الرياض الأدبية في شرح الخرطاشية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ١٩٩٩م، تحقيق : إسماعيل الجرافي، محمد بن الأكوع، ص ٥، ٦.

(٣) ابن الجون : المصدر السابق، ص ٧.

(٤) ابن الجون : نفس المصدر، ص ٥، ٦.

(٥) ابن الجون : نفس المصدر، ص ٧، ٨.

ونقل عن تاريخ اليمن القديم من القصيدة الخمرطاشية بعض المؤرخين استنادًا على أحداثها ومنهم المؤرخين سليمان الأشعري (المتوفى سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) الذي أعجب بها وشرحها وأقام على أساسها كتاب تاريخ وآداب كامل، أيضًا نقل عنها المؤرخ الخزرجي (المتوفى ٨١٢هـ/١٤٠٩م) في كتاب العقود اللؤلؤية، أيضًا المؤرخ بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي (المتوفى ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) في السلوك في طبقات العلماء والملوك^(١).

وفي أبيات القصيدة الخمرطاشية أبيات يسميها الناس "أبيات الفرح" وهي أبيات مشهورة الفضل فيها : اسم الله الأعظم.

وتبدأ القصيدة بهذه الأبيات :

تأوب القلب بتاريخ الجوى	وعاده عائد شوق قد ثوى
وانبعثت في سره بواعث	أذكين في أحشائه جمر الفضا
أسى تحاماه الأساة إنما	أضنى الأسى ما تحاماه الأسا
ولوعة ما يأتي لا عجزها	يطفو على الأحشاء إن قيل انظما

وقال :

أعزز عليّ بالسذي كان جرى	وان بسذاك قلم الغيب جرى
ما كانت بالناسي أناسي ساليًا	لكن أرجسى للقضا صرف القضا

وقال :

فهل لشت الشمل جمع يُرتجى	وهل يراح الصب من وشك الثوى
--------------------------	----------------------------

وقال :

ملكيت يا دهر فأسحج فبأذا	ما قدر الحرّ على الجاني عفا
--------------------------	-----------------------------

(١) ابن الجون : الرياض الأدبية، ص ٧؛ شاعر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى ق ٧هـ، ص ١٠٧.

الدراسات التاريخية :

بدأت ظهور المؤلفات التاريخية في اليمن منذ ظهور الدويلات المستقلة بها أواخر القرن الثالث الهجري، وقد أخذت كتابة التاريخ في اليمن الطابع المحلي، وغالبًا ما كان تدوين التاريخ يسائر امتداد السلطة السياسية، كما اتصف التاريخ اليمني بعدم تأثره بعلم الحديث، في تدوين الأحداث التاريخية وذلك بسبب تأخر نشأة الكتابة التاريخية في اليمن عن نشأته في العالم الإسلامي^(١).

ونتيجة لتعدد وجود المذاهب في اليمن ما بين سنية وإسماعيلية وزيدية، تعددت كتابة التاريخ بحسب وجود هذه المذاهب، كما وجدت عدة دُرق وأساليب في تدوين التاريخ في اليمن مثل الكتابة بحسب السنين لحوادث اليمن أو حسب الدويلات أو حسب المذاهب^(٢).

ومن الكتابة التاريخية في عهد الدولة المستقلة هي الكتابة على شكل سير ذاتية لمؤسسي المذاهب أو الدويلات، ومن ذلك سيرة الإمام الزيدي المتوكل على الله أحمد بن سليمان^(٣).

وتعود أهمية هذه السيرة للإمام أحمد إلى أنها تغطي فترة تمتد من سنة ٥٣٢-٥٦٦هـ لم تأخذ حظها من التدوين مع أنها تتناول فترة تاريخية في غاية الأهمية لتاريخ اليمن وهي فترة تفكك الدولة الصليحية وقيام الإمارات المستقلة على أنقاضها، كما تتناول علاقة الإمام المتوكل أحمد بن سليمان بالقبائل اليمنية وبأبناء عمومته في المخلاف السليماني، وبالقوى السياسية الأخرى مثل بني حاتم في صنعاء وبني نجاح في زبيد ومن بعدهم بني مهدي، وبني زريع في عدن^(٤).

وتتناول أيضًا الصراع العلمي والفكري الذي شهدته اليمن في القرن السادس الهجري بين فرق الزيدية الثلاث وهي المخترعة والمطرفية والحسينية وخاصة بين علماء المطرفية^(٥).

حفظت السيرة أشعار الإمام أحمد بن سليمان التي عبر فيها عن كل الأحداث التي مر بها، والتي تعد مرآة للحياة الأدبية السائدة في القرن السادس الهجري^(٦)، وأيضًا توضح اهتمام الإمام

(١) أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص ٨، ١٤؛ السروري : مظاهر الحضارة في الدول المستقلة باليمن، ص ٢٦٣.

(٢) السروري : المرجع السابق، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) أحمد بن المحلي : الحقائق الوردية، ق ١٠٦.

(٤) سليمان التقي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٩؛ شاعر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ص ١٠٩.

(٥) أحمد بن المحلي : المصدر السابق، ق ١٠٨؛ سليمان التقي : المرجع السابق والصفحة.

(٦) سليمان التقي : نفس المصدر والصفحة.

وابنه باستصلاح الأرض وزراعتها في منطقة الجوف ونواحي ذمار وهي من الأمور التي لم نعهد لها في إمام سابق^(١).

وسيرة الإمام أحمد بن سليمان من تأليف سليمان بن يحيى الثقفي من علماء القرن السادس الهجري^(٢).

وجدت كتب في تاريخ التراجم والطبقات ومنها كتاب "طبقات فقهاء اليمن" للفقير عمر بن علي بن سمرة الجعدي ٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م ويسمى أيضاً كتاب "طبقات فقهاء اليمن وعيون أخبار سادات ورؤساء الزمن، ومعرفة أنسابهم، ومعرفة أعمارهم، ووقت وفاتهم"، كما يسمى أيضاً "طبقات فقهاء اليمن الأسفل"، أو "طبقات الفقهاء في جبال اليمن من صنعاء إلى عدن". وهو عبارة عن تراجم للفقهاء الشافعية في اليمن منذ ظهور الإسلام إلى زمن المؤلف سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م^(٣).

أما كتب الأنساب فلعل أبرزها "التعريف في الأنساب والتنويه لذوي الأحساب"، وأيضاً "اللباب في معرفة الأنساب" لأحمد بن إبراهيم الأشعري القرطبي الزبيدي وميزة الأشعري أنه جمع عناصر من القبائل والبطون لعدنان وقحطان لم يدركها غيره، ويركز على الفقهاء والعلماء والمحدثين والشعراء والأعلام عموماً وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومن شهد على موقعتي صفين والجمل، كما يذكر الأشعري السكني والإقامة والارتحال والظروف كلها وطريقة السفر أو وسيلة النزول والروايات، وهذا الكتاب يؤرخ لأنساب منطقة "عسير" بالجزيرة العربية لأول مرة^(٤).

كما وجدت كتب تاريخية ألقت بأسماء مدن يمنية ونخص بالذكر مدينة زبيد والدول التي حكمتها وعلمائها وغير ذلك مما تستعرض من تاريخ معظم أنحاء اليمن. منها كتاب "المفيد في أخبار زبيد" لنصر الدين حياش بن نجاح ثالث ملوك أسرة بني نجاح في زبيد والمتوفى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٧م، فكان بجانب الملك والسياسة شاعراً ونسابة كما كان مؤرخاً ويعتبر "المؤرخ الهاوي الصحيح بين الأمراء" وقد ألف في التاريخ نظراً لشغفه بالأنساب التي ذكرت في المادة

(١) محمد بن زبارة : خلاصة سيرة الهادي، ص ٩٦.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ص ١٠٩.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ط، ي

(٤) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب، ص ٢٥-٢٩.

التي استعملها^(١).

ويستعرض فيه تاريخ الدولة النجاشية في زبيد واليمن، وقد استفاد منه عماره وغيره في كتبهم بعد ذلك^(٢).

وكتاب " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعرائها وملوكها وأعيانها وأدبائها " لنجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن بن علي بن زيدان الحكمي، قتل سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م، تحدث فيه عن أخبار اليمن سهلاً ووعراً وبحراً، ومدد ممالكها، وأبعاد مسالكها، وحروب أهلها ووقائعهم ومآثرهم، وصنائعهم، وأخبار قضائهم ودعائهم، وأخبار أعيانها وأمرائها وأدبائها وشعرائها. وألفه عمارة سنة ٥٦٣هـ وجمع فيه مادة تاريخية هامة تبدأ من مطلع القرن الثالث الهجري وتنتهي سنة ٥٦٣هـ وبذلك تنظم أحداثه التاريخية أكثر من ثلاثة قرون عرض فيها لدول متعددة حكمت اليمن، كالديولة الزيدانية والصليحية والنجاشية والزريعية ودولة بني مهدي^(٣).

وكان عمارة يتحرى فيما يكتب، فكان يؤرخ للأحداث التي يشاهدها ويعتمد على الرواية والنقل في كتابة الأحداث السابقة على عصره، واعتنى كثيراً بالإسناد والتقصي، وأخذ مادته التاريخية لكتابه هذا من مصادر متنوعة مثل كتاب " المفيد في أخبار زبيد " لجياش بن نجاح، وما أخذه عن طريق شيوخه، وفي الفترة التي عاصرها يأخذ من مصادر موثوقة لها تماس مباشر بالأحداث، وهذا يعطي لكتابه أهمية كبيرة ويكاد ينفرد عمارة بالكثير من مادته التاريخية عن كثير من المؤرخين الذين اعتمدوا عليه في تاريخ اليمن الإسلامي، فكثير من الذين كتبوا عن تاريخ تلك الحقبة لم يكتبوا شيئاً أكثر مما كتبه عمارة، وكانوا ينقلوا ألفاظه بنصها في بعض الأحيان^(٤).

كذلك لعمارة كتاب " أنموذج ملوك اليمن " ^(٥)، وكتاب " النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " وهو كما وصفه بنفسه " مجموع لم أقصد به شيئاً مخصوصاً ولا فناً منصوفاً، بل ذكرت فيه نبذاً من الأخبار مختلفة المقاصد ... " ^(٦)، وهو مصدراً رئيساً لأحوال مصر السياسية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري؛ حتى قتل الوزير شاور سنة ٥٦٤هـ. وكتاب

(١) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون، ص ١٠٦.

(٢) شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات، ص ٨٥.

(٣) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ق ٦ هـ، ص ٢٤، ٢٥.

(٤) عبدالعزيز المقالح : المرجع السابق، ص ٢٥.

(٥) أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن، ص ١٠٨.

(٦) شاكر مصطفى : المرجع السابق، ص ١٠٨.

عمارة يوضح الأحوال الاجتماعية بمصر خاصة الطبقة العليا، وقد صدره بترجمة حياته، وذكر أخبار الوزراء المصريين، مع كثرة القصائد والمقطوعات الشعرية والتي تعتبر تنمة للأخبار التي ينسبها لكل من يتحدث عنه من الوزراء ورجال الدولة وزعماء الخلافة الفاطمية^(١).

الدراسات العلمية :

نلاحظ في فترة الدراسة من خلال الحياة الثقافية في بلاد اليمن وزبيد، اهتمام العلماء والدارسين بالعلوم التقنية والدراسات الأدبية أكثر بكثير من اهتمامها بالعلوم العقلية أو الدراسات العلمية التي تشمل العلوم الفلسفية والهندسة، وعلم الفلك والنجوم والجغرافيا وعلم الحساب والموسيقى ويطلق عليها أحياناً العلوم الحكيمة^(٢)، والتي يهتدي إليها الإنسان بفكره، وبمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها حتى يعرف الخطأ من الصواب ويصيب الحقيقة^(٣). فوجدت كتابة الجغرافيا في اليمن وهو ما كان يطلق عليه علم البلدان، وأول من ألف في هذا الموضوع الهمداني وهو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بابن الحائك (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) وله كتاب "صفة جزيرة العرب" وهو يعطي تعريفاً عن الأماكن المختلفة في اليمن مع ذكر بلدان اليمن وسلاسلها الجبلية ووديانها ومواقع الكثير من مدنها ويبدأه بأفضل البلاد المعمورة^(٤)، وله كتاب أيضاً في "الممالك والممالك في عجائب اليمن وجزيرة العرب وأسماء بلادها"^(٥). وكانت مؤلفات الهمداني في الجغرافيا من الكتب التي اعتمد عليها أهل اليمن وزبيد اعتماداً أساسياً سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م.

كذلك من كتب الهمداني التي أثرت فيما يختص بعلم الطبيعة لدى أهل اليمن كتاب الإكليل وهو من أشهر كتبه "فالإكليل" موسوعة في أمور اليمن، وضعه في عشر مجلدات، وهو كتاب مفيد في علم الطبيعة والنجوم وآراء الأوائل في قديم العالم وحدثه، واختلافهم في أدواره وتناسل الناس، وتقرير أعمارهم وأصول أنساب العرب والعجم ونسب آل حمير^(٦).

أيضاً اشتهر بعلم الفلك زيد بن عطية الصعدي، كما كان لعلم النجوم تأثير كبير في توجيه

(١) خالد القاضي : الحياة العلمية في مصر الفاطمية، ص ٢٨٦؛ نو النون المصري : عمارة اليمن، ص ١٩٧-٢٠٢.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص ٥٣١، ٥٤٠.

(٣) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ٣١٠.

(٤) عمارة : تاريخ اليمن، ص ٣٤، ٣٥؛ أيمن فؤاد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، ص ٧٢.

(٥) شاكِر مصطفى : التاريخ والمؤرخون في اليمن، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٦) عمارة : المصدر السابق، ص ٣٠٦-٣٠٨.

سياسة بعض الملوك الزريعيين كالملك محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠هـ/١١٣٨-١١٥٥م)، فكان يعتمد على التنجيم ويعود ذلك للفكر الإسماعيلي على تقديس الخلفاء والملوك وإصاق القدرات الخارقة بهم ومنها معرفة الغيب^(١)، فكان له من الخواص سبأ بن قاسم وأخيه محمد، أحدهما طبيب والآخر منجم^(٢).

وفي علم الرياضيات والهندسة، وضع أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري الزبيدي (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) كتابًا بعنوان " التفاحة في المساحة " وهو في علم الرياضيات^(٣).

وكان للقاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن القاسي أبي الحسن الرشيد بن إبراهيم بن الزبير الغساني، الفضل في إنشاء عين جارية غزيرة المياه تأتي من شرق زبيد في سرب تحت الأرض حتى تقرب المدينة ثم تظهر فتسقي جميع البساتين من خارج المدينة والتي من داخلها، فكان أوجد عصره في علم الهندسة وكانت وفاته بمصر سنة ٥٦٣هـ^(٤).

كما ظهرت على الساحة الفكرية اليمينية في العصر الذي ندرسه تيارات ثقافية متعددة كان لها أبرز الأثر في تعميق وتنويع النشاط العقلي وتطور علم الكلام، وأبرز هذه التيارات الفكر الإعتزالي الذي يؤمن بسلطان العقل، ويدعو إلى التفلسف والجدل، وقد أدت إسهاماته الجدلية إلى توسيع المنهجية العقلية وإثراء الفكر العربي الإسلامي، فقد اشتد الجدل الفكري بين المذاهب المتعددة فتولد بذلك تحد فكري أدى إلى شحذ الفكر واستثارة الهمم العلمية فاتسعت حركة التأليف بشكل لم نلاحظها من قبل وبرزت ظاهرة جديدة وهي كثرة كتب النقض والردود، ويمكننا أن نلاحظ هذه الظاهرة بشكل واضح في مصنفات عدد غير قليل من علماء هذا العصر^(٥).

علم الكلام :

قبل شرح موقف الفقهاء من علم الكلام لابد لنا من الإشارة باقتضاب إلى تعريف الكلام وفيه يقول ابن خلدون " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة "^(٦).

(١) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، ص ٩٦، ٩٧.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٠٨.

(٣) أحمد بن محمد الأشعري : التعريف في الأنساب، ص ١٢.

(٤) ابن الدبيع : الفضل المزيد، ص ٤٨.

(٥) عبدالعزيز المقالح : الحياة الفكرية في اليمن، ص ٢٩.

(٦) ابن خلدون : المقدمة، ص ٤٠٣.

وهذا التعريف جمع في محتواه أهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة ومع كون هذا التعريف جامعاً فإن الاحتجاج على المسائل الغيبية بأدلة العقل فيه قصور، لأن هذه المسائل فوق طور العقل^(١)، ومن هنا جاء تفريق أصحاب الأثر والحديث بين علم الكلام البدعي وعلم الكلام الشرعي ويعنون بعلم الكلام البدعي آراء المعتزلة والفرق الإسلامية الحائدة عن منهج الكتاب والسنة، وأما علم الكلام الشرعي فهو ما استند إلى الكتاب والسنة وشرح الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه " كان يتمتع بأكثر العقول وأعلام ذكاء وفطنة، وهو صلى الله عليه وسلم كغيره من الأنبياء الذين خاطبوا عقول البشر وتسلحوا بأدلتها المتوافقة مع الفطرة^(٢) .

ويمثل علم الكلام بصفة عامة مرحلة أو منعطفاً تاريخياً وفكرياً في حياة المجتمع الإسلامي، تاريخياً، لأن علم الكلام كان تعبيراً أو بمعنى أدق وليدًا لذلك المشكل السياسي المتمثل في الحروب التي دارت بين المسلمين وموقف العلماء المسلمين في هذه الحروب.

وفكرياً لأنه انتقل بعلمائه من الاكتفاء بظواهر النصوص — الثبات على عقيدة السلف الصالح — إلى الغوص في معانيها، أي تأويل النص بمختلف مراحل التأويل لدى كل الاتجاهات الدينية معتزلة وأشاعرة وصوفية وفلاسفة وباطنية^(٣).

إذن لم ينشأ علم الكلام من فراغ أو من اجتهاد فقهي أو عقلي مجرد بل كان مصاحباً لذلك التطور السياسي في اليمن بعد القرن الخامس الهجري، حيث بدأ القاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ) يدعوا صراحة إلى مذهب الاعتزال في أنحاء اليمن، تلك الدعوة التي ظلت محصورة في باطن الفكر الزيدي في الشمال الشرقي لليمن، أما بقية أنحاء اليمن فكانت قديماً وحديثاً على معتقد الحنابلة^(٤)، وسبب ذلك وصول كتب الحنابلة إليهم ككتاب " الأجرى للشرعية " وكتاب " التبصرة " وكتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزل وغيرهم من أهل الضلال والبدعة " للحسين بن جعفر المراغي (ت ٣٢٤هـ) وهو أحد شيوخ الحنابلة الكبار^(٥).

(١) مصطفى حلمي : منهج علماء السنة والحديث من أصول الدين، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) مصطفى حلمي : المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٣) أحمد عبدالله عارف : المدارس الكلامية في اليمن، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٦.

(٤) عبدالله حبشي : مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١٢٠.

(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٨٣.

ومعنى هذا أن اليمن كانت على معتقد الحنابلة إنما ذلك في أصول الدين وليس في مسائل الفروع، حيث كان فقهاء السنة في اليمن متبايني الاتجاهات المذهبية، فهناك المالكي والحنفي والشافعي، وكان مريدو هذه المذاهب متعصبين لها حتى وصل ذلك التعصب إلى طور من الضغائن والأحقاد والتحزب للصلاة في مسجد دون آخر ووراء جماعة دون أخرى^(١).

وكان علماء المذاهب الفقهية في اليمن يتناظرون في الفروع من الدين، ويعني ذلك نفور أولئك الفقهاء من الكلام في الدين، وهي الطريقة التي سبقها إليها قبلهم أئمة المذاهب الفقهية كالمالك والشافعي، ومن ثم انصب اهتمامهم على اقتفاء المسائل الفروعية وخاصة الفقه، ومن هذا الاهتمام جاء تسميتهم بذلك^(٢). ويتضح ذلك الاهتمام من الفقهاء باجتماعهم بمدينة الجند عند قدوم الإمام زيد بن عبدالله اليفاعي من مكة سنة ٥١٢هـ^(٣) ليقروا عليه كتاب "النكت" في الخلاف في المسائل الفقهية بين الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة، وقد ضم ذلك الاجتماع فقاء تهامة وأبين وحضرموت والسحول بالإضافة إلى فقهاء الجند، وكان هذا الاهتمام بالفقه شاغل لهم عن قراءة ما عداها حتى صار الفقيه إذا ما أراد زيادة منطقة اشغل فقهاء هذه المنطقة حين علمهم بزيارته باستخراج المسائل الدقيقة والخلافية في الفقه لتلقى عليهم حال استقبالهم، وكانت الإجابة على تلك المسائل هي المقياس في تلقيه بالعالم الفقيه^(٤).

أما علماء الزيدية فإنهم ناصرُوا آراء المعتزلة، وتابعوهم في القول بخلق القرآن، وألفوا كتاباً سموه "الدافع للباطل من مذهب الحنابل"، وردوا على الحنابلة ردّاً عنيفاً^(٥).

ومن المعلوم أن الإمام زيد بن علي زين العابدين أمام مذهب الزيدية تتلمذ على يد واصل بن عطاء صاحب مذهب المعتزلة، لذا فإن مذهب الزيدية أخذ بآراء المعتزلة، مما أدى إلى نمو آراء الاعتزال في مذهب الزيدية وانتشارها في اليمن، واستمر تأليف الكتب الكلامية من أئمة علماء الزيدية مثل كتاب شرح القلائد في علم الكلام، والأدلة على الله في التوحيد وحقائق المعرفة والحكمة الدرية والرسالة الصادقة للإمام أحمد بن سليمان وأيضاً "الهاشمية لأنف الضلال في مذاهب المطرفية الجهال"^(٦)، وألفت كتب عديدة في معرفة رجال المعتزلة^(٧).

(١) الجندي : السلوك، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٢) أحمد عبدالله عارف : المدارس الكلامية في اليمن، ص ٨.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١١٩-١٢١.

(٤) أحمد عارف : المرجع السابق، ص ٩.

(٥) سليمان المالكي : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، ص ٣٤٦.

(٦) أحمد حسين شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلانسي، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج ٤، ص ١٦٥، ١٦٦.

(٧) سليمان المالكي : المرجع السابق والصفحة.

المذاهب الإسلامية في اليمن :

شهدت بلاد اليمن كغيرها من بلدان العالم الإسلامي مرحلة ما قبل المذاهب واستمرت إلى منتصف القرن الثاني الهجري، وقد بلغت اليمن آنذاك مبلغاً كبيراً في العلم، فكان " العلم في اليمن أشهر من سواه " ^(١). فارتحل إليها الكثير لطلب العلم، منهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة، وابن مبارك وغندر وهشام بن عروة ^(٢)، وكذلك محمد بن إدريس الشافعي وأخذ عن هشام بن يوسف الإنباوي قاضي صنعاء وغيره، وأحمد بن حنبل الذي وصل إلى عدن ليتلقى العلم على إبراهيم بن الحكم العدني ^(٣).

ويبدو أن الرحلة كانت نتيجة أن الكثير من اليمنيين كانوا سباقين للذهاب إلى مكة والمدينة لقربهما إليهم، للتفقه على أيدي الصحابة والتابعين، وكانت صفة العلماء آنذاك هي الرحلة إلى بلدان من أخذوا العلم عن الصحابة والتابعين وخاصة بعد موت أكثر الصحابة ^(٤).

ثم بدأت تظهر المذاهب الإسلامية وتنتشر في الأمصار ومنها اليمن، ومن ساهم في دخول المذاهب إلى اليمن، الإمام أبو قرّة موسى بن طارق اللحجي الجندي (٢٠٣هـ/٨١٨م) ^(٥)، كان فقيهاً حافظاً وإماماً عارفاً لمعرفة السنة والآثار، صنف كتاب "الجامع" في السنة المعروف بـ " سنن أبي قرّة " يروي فيه عن أصحاب المذاهب، كما أن له مؤلفات في الفقه، انتزعها من فقه الإمام مالك وأبو حنيفة ومعر وابن جريج الثوري وابن الثوري وابن عيينة، لأنه لقيهم جميعاً وروى عنهم ^(٦).

وكان أبو قرّة إماماً مشهوراً بالفضل يتردد بين الجند ولحج وعدن ومكة وزبيد، في كل واحدة من هذه البلاد له رواية وأصحاب وصاحبه في زبيد أبو حنيفة الزبيدي واسمه محمد بن يوسف ^(٧). وكان أهل اليمن قبل دخول الكتب المشهورة إليهم من كتب أهل السنة لا يرجعون إلا إلى سنن أبي قرّة وسنن معمر ^(٨).

(١) الجندي : السلوك، ج ١، ص ١٣٨.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٦٦.

(٣) الجندي : المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٧.

(٤) السروري : مظاهر الحضارة في الدول المستقلة في اليمن، ص ٢٧٨.

(٥) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٦٩.

(٦) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ٦٩.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر والصفحة.

(٨) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ١٥٩.

بعد ذلك انتشرت المذاهب الإسلامية في كل أنحاء اليمن، فأخذت كل منطقة بمذهب معين، ففي القرن الثالث الهجري كان انتشار المذاهب الإسلامية في اليمن على الوجه التالي:

كان الغالب على منطقة ما بين صنعاء وصعدة أول الأمر مذهب أبي حنيفة، وكانوا متولين أمر الجوامع فيها، كذلك انتشر حول صنعاء مذهب الإباضية، كما انتشر شمال غرب صنعاء مذهب الباطنية الإسماعيلية، أما في أواخر القرن الثالث منذ سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م والقرن الرابع الهجريين فقد انتشر في صعدة مذهب الشيعة الزيدية^(١).

كذلك انتشر في نواحي نجد اليمن مذهب سفيان الثوري، وفي المعافر انتشر مذهب أبي المنذر وفي تهامة انتشر المذهب المالكي حيث كان الأذان فيها يردد على مذهب مالك كما انتشر مذهب الإمام مالك في عدن^(٢)، وأيضًا كانت تكبيرة العيدين في زبيد على أقوال أبي مسعود^(٣).

ومع انتشار المذاهب المختلفة في اليمن، إلا أننا نجد أنه في القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع، كان الغالب في اليمن مذهب الإمام مالك وأبي حنيفة، وكان مذهب أبي حنيفة أكثر انتشارًا^(٤)، ولكن بمجرد أن ظهر مذهب الإمام الشافعي قل عدد المعتنقين للمذاهب الأخرى، وبقي عدد قليل من أهل تهامة يتمذهبون بمذهب الأشاعرة^(٥).

على أن المذاهب الرئيسية التي انتشرت في بلاد اليمن، وكان لها تأثير كبير على حياة الناس السياسية والدينية والاجتماعية، هي مذاهب الشافعية والزيدية والإسماعيلية.

أولاً: المذهب الشافعي وجهود علماء السنة :

بدأ المذهب الشافعي في اليمن بداية بسيطة في القرن الثالث الهجري^(٦) ثم ظهر أكثر وضوحًا إبان القرن الرابع الهجري، مبتدئًا من المعافر والجند على يد عدة فقهاء كان لهم دورًا بارزًا في تدريس الفقه الشافعي ونشره، على رأسهم الفقيه المعافري موسى بن عمران الخداشي السكسكي من أعيان القرن الثالث والرابع الهجريين روى كتاب "المنتقى في السنن" عن مؤلفه موسى بن أبي الجارود المكي المتوفى في القرن الثالث والذي بدوره روى كتاب "الأمالي" عن

(١) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٧٩.

(٢) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، ص ١٣٢.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٩٦.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٧٤، ٧٩؛ أيمن فؤاد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص ٥٨.

(٥) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ٣١٥.

(٦) أحمد شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي، ج ٤، ص ٤٠.

الشافعي^(١)، وقد استقر موسى بن عمران المعافري يدرس المذهب الشافعي في قرية " المَلَحْمَة " قرب الجند فكان يتردد عليه الكثير من الطلاب من أماكن متعددة من اليمن، مثل المعافر والجند ومخلاف جعفر لدراسة الفقه، ومكن ذلك جماعة كثيرة منهم من دراسة المذهب الشافعي ونشره في اليمن^(٢).

كما يعتبر الفقيه القاسم بن محمد الجمحي القرشي المتوفى بسهفنه (٤٣٧هـ/١٠٤٥م) من أهم الفقهاء الذين درّسوا مذهب الشافعي ونشروه في اليمن في القرن الخامس الهجري^(٣).

وممن ساهم في نشر المذهب الشافعي في نهاية القرن السادس الفقيه عبدالله بن أحمد بن محمد الزبراني من زَبْران الذي ورافقه الفقيه عبدالله بن يحيى الصعبي من " سَهْفَنَه " سنة ٥٥٠هـ/١١١١م، ورحل إليه زيد بن الحسن بن محمد الفائشي من " أَخَاطَة "، وعمر بن علي بن أسعد السلالي من نَخْلان، وعيسى بن عبدالملك من المعافر، ويحيى بن محمد بن عمران من شواحط، وعمر بن عبدالعزيز بن أبي قرة وأخوه عبدالله من أبين ولجج، وراجح بن كهلان من زبيد^(٤).

أما الفقيه يحيى بن أبي الخير العُمُراني (٤٨٩-٥٥٨هـ/١٠٩٥-١٠٦٢م) ممن اشتهروا بالفقه وعملوا على نشر مذهب الشافعي، وقد بدأ حياته العلمية بقراءة القرآن الكريم في بلدة " سَيْر " ثم تفقه على خاله أبو الفتوح بن عثمان بن أسعد بن عمران، فأخذ عنه "الكافي في الفرائض" للصردي^(٥)، ثم تفقه بموسى الصعبي فأخذ عنه " التنبية " ^(٦).

وعندما قدم إلى " سَيْر " الفقيه عبدالله بن أحمد الزَبْراني باستدعاء من مشايخها أخذ عنه يحيى بن أبي الخير " المهذب " و" اللمع " لأبي إسحاق الشيرازي و" الملخص " و" الإرشاد " لابن عبدويه، كما أعاد عليه " كافي الفرائض " للصردي^(٧).

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ٨٠، ٨١؛ الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢٢٧.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٢٥٠.

(٣) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٢٦٥.

(٤) ابن سمره : المصدر السابق، ص ١٤٨، ١٤٩؛ الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٣٢٤؛ الأهدل : تحفة الزمن، ص ٢٢٤.

(٥) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٧٤؛ الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٣٤٠.

(٦) ابن سمره : نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(٧) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٧٥.

ثم ارتحل يحيى بن أبي الخير إلى الإمام زيد بن الحسن الفائشي بأحاطة فأخذ عنه "التعليق" في أصول الفقه، و"الملخص" لأبي إسحاق، وفي اللغة أخذ عنه "غريب الحديث" لأبي عبيدة، و"مختصر العين" للخوافي، و"نظام الغريب" للربيعي وغير ذلك في مسائل الدور والخلاف، ثم رحل إلى "ذي السُّقَال" فأخذ الفقه عن عمرو بن بيش اللحجي، و"كافي النحو" لأبي جعفر الصفار، و"الجمال" للزجاج^(١).

وعندما وصل الإمام زيد اليفاعي من مكة إلى الجند، ارتحل إليه يحيى بن أبي الخير كغيره ممن ارتحلوا إليه من أهل اليمن، فسمع عنه كتاب "النكت" وأخذ عنه "المهذب" للمرة الثالثة. وبعد موت الفقيه زيد اليفاعي، انتقل يحيى إلى سَهْقَنَه فقرأ عند القاضي مسلم بسن أحمد الصعبي كتاب "الحروف السبعة" في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين للشيخ الحسين بن جعفر المراغي^(٢).

وفي سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م انتقل يحيى إلى ذي أشرق فسمع بها "الجامع للسنن" تصنيف الترمذي عن الشيخ سالم بن أحمد بن سالم، كما سمع كتاب "التبصرة" في علم الكلام وأصول الدين، تصنيف أبي الفتوح في مدرستي الشيوخين الإمامين زيد بن الحسن الفائشي، وزيد اليفاعي والمدرستان تتقلانه عن الشيخ أبي نصر البندنجي مصنف "المعتمد" في الخلاف^(٣).

كذلك ابتداء الإمام يحيى في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م بمطالعة "شروح المزني" وكتب أخرى مثل "المجموع" للمحاملي "والشامل" لابن الصباغ وكتاب "الفروع" لسليم الرازي، و"شرح المولدات" للقاضي ابن الطيب، و"العدة" للقاضي حسين الطبري "والإبانة"، و"شرح التلخيص" لأبي علي السنجي^(٤).

وفي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ارتحل الفقيه يحيى إلى مكة للحج، فالتقى فيها بالفقيه الإمام محمد بن أحمد العثماني الدمياطي، فناظره وذاكره في مسائل الفقه والأصول، ولما عاد إلى اليمن استمر في تدريسه للفقه الشافعي في منطقة "سَيْر" فتعذر عليه البقاء بها فانتقل إلى "ذي السُّقَال"، ثم إلى "ذي أشرق"، وأقام بها سبع سنين، وفي أثناء وجوده بها انتقل إليه فقهاء تهامة هاربين من ابن مهدي، فأقاموا عنده أيامًا طويلة مطمئنين بوجودهم معه، إلا أنه حدث خلاف بين فقهاء

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٥، الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٤٠.

(٢) ابن سمره : المصدر السابق والصفحة.

(٣) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٤) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٧٦.

تهامة وفقهاء ذي أشرق بسبب مناظرة كلامية في المعتقدات أدت إلى تكفير بعضهم البعض^(١).

وفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م قدم إلى " إِب " القاضي الزيدي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام المعتزلي الذي أحضر كتب المعتزلة من العراق بغرض المناظرة الشافعية في اليمن الأسفل فأرسل إليه الإمام يحيى تلميذه علي بن عبدالله بن عيسى بن أيمن الهرامي لمناظرته، فاجتمع معه في حصن " شواحيط "، فناظره الهرامي حتى قطعه في عدة مسائل، فعاد إلى صنعاء دون مقدرته من مناظرة الشافعية^(٢).

وعندما أغار عبدالنبي بن مهدي على الجند وبواديها سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م خرج الإمام يحيى من ذي أشرق خوفاً منه إلى " ضراس " ثم ذهب إلى ذي السفال وتوفي بها سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م، ومن أعمال يحيى بن أبي الخير " الزوائد " وهو كتاب جمعه من شروح "المهذب" وقد بدأه في عام ٥١٧هـ/١١٢٣م وانتهى منه سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م^(٣).

أيضاً صنف كتاب " البيان " بدأه سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م، وانتهى منه سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ورتبه على نمط ترتيب " المهذب " وكان كتاب " البيان " من أشهر الكتب الفقهية في اليمن ويقع في حوالي عشر مجلدات، وقد وصفه بعض المحققين بقولهم : " إنه انتحل الشروح المفيدة والأدلة السديدة والمسائل العتيدة والأقيسة الأكيدة، وضمنه الكتاب المذكور " ^(٤).

كذلك اشتهر كتاب " البيان " خارج اليمن، فلما قدموا به إلى بغداد وُضِعَ في أطباق الذهب وطيف به مزفوفاً داخل العراق، وقال جماعة من أهلها عن الكتاب " ما كنا نظن في اليمن إنسان حتى قدم (البيان) بخط علوان " ^(٥). كما وصفه ابن سمرة بقوله : " فكان كتابه (البيان) كاسمه بياناً وللعلماء هدى وتبياناً " ^(٦).

كما وصف الإمام يحيى كتابه " مشكلات المهذب " في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م^(٧)، وكتاب "الانتصار في الرد على القدرية الأشرار " وكان سبب تأليفه ما أثاره القاضي الزيدي المعتزلي

(١) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٤٢، ٢٤٣.

(٢) الأهل : تحفة الزمن، ص ٢٤١.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٦.

(٤) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٣٤٥.

(٥) الجندي : نفس المصدر والجزء والصفحة؛ الأهل : المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٧) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٣٤٢؛ الأهل : نفس المصدر، ص ٣٤٠.

جعفر بن عبدالسلام من فتنة الخوض في علم الكلام في "إب" سنة ٥٥٤هـ^(١).

ومن أهم تلاميذه، ابنه الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨-٥٨٧هـ/١١٢٤-١١٩١م)^(٢)، وكذلك الفقيه سيف السنة وزين الحنبلية، أحمد بن محمد بن عبدالله مسعود البريهي السكسكي (ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م) الذي سكن إب، والذي درّس صحيح مسلم إلى كثير من الطلاب في أنحاء اليمن^(٣).

وجدير بالذكر أن حكام اليمن من الصليحيين والزريعيين أتاحوا الحرية الكاملة لأهل المذاهب السنية، أن يمارسوا نشاطهم المذهبي كيفما يشاءون، فلم يحاولوا العمل على محاربتهم من أجل تغيير مذهبهم، باعتبار أن مذاهبهم مذهب إسلامية، ليسوا على خلاف كبير معهم من الناحية الدينية، ولكن الخلاف بينهم كان حول مفهوم السلطة والحكم، إذ أن لكل مذهب إسلامي مفهومًا سياسيًا حول السلطة، كان هذا المفهوم أكثر شدة وارتباطًا بالمذهب عند الشيعة منه عند أهل السنة، لذلك ترك الصليحيون لأهل السنة الحرية في نشر مذهبهم بل والاستعانة بهم في تولي مناصب القضاء في كافة المناطق التي دخلت تحت سيطرتهم في اليمن^(٤)، أي أن السلطة الدينية في عهد الصليحيين كانت في يد أهل السنة، في حين كانت السلطة السياسية سلطة إسماعيلية، وذلك لأن معظم السكان الذين حكمهم الصليحيين كانوا من أهل السنة، لذلك تركوا لهم الحرية يحلون مشاكلهم من واقع مذهبهم. إلا أن الأمر لم يخل من بعض الصدام بين فقهاء السنة الشافعية وأمراء الإسماعيلية للصليحيين في بعض الأوقات^(٥).

كما كان الفقهاء الشافعية من عوامل استمرار دولة بني نجاح السنية، فقد أيدوها كل التأييد وناصروها إلى أن سقطت عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م، حيث إن النجاشيين أخذوا على عاتقهم رفع لواء السنة في اليمن، والدفاع عنها وسط محاولات الشيعة القضاء عليها، فأصبحوا في نظر فقهاء السنة الذين أيدوهم حماة للمذهب السني في اليمن رغم كونهم أحباشاً ليسوا عرباً^(٦).

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨١؛ أحمد شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافي، ص ٥٨.

(٢) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٣) الأهدل : تحفة الزمن، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٤) عمارة : المفيد، ص ١٢١، ١٢٣.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٩٠.

(٦) عصام عبدالرؤوف : اليمن في ظل الإسلام، ص ٣٢٣.

(٧) عبدالعال : تاريخ اليمن السياسي، ص ٢٧.

وفي عهد بني مهدي تعرض أهل السنة إلى القتل والتشريد، فعندما استولى ابن مهدي على زبيد وتهامة سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، هرب الكثير من الفقهاء في زبيد إلى الجبال حيث استقروا في ذي أشرق عند الإمام يحيى بن أبي الخير^(١).

ومن ضمن الفقهاء الذين هربوا من زبيد إلى عدن من بطش بني مهدي الفقيه أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن قريظة^(٢)، والفقيه حسين المقيعي^(٣)، ومنهم من انتقل إلى مكان آخر كالفقيه أبو الحسن علي بن أحمد علي اليهاقري الذي انتقل إلى العوادر شرق الجند فمكث بها حتى توفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م^(٤). وأيضًا الإمام يحيى بن أبي خير العمراني انتقل من ذي أشرق إلى ذي السفال، والفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير ارتحل بأسرته إلى مكة فمكث بها سبع سنين ثم عاد إلى اليمن^(٥). إذن كان لفقهاء المذهب الشافعي دور كبير في طريقة نشر فقه ومذهب الإمام الشافعي في اليمن، عن طريق نشاطهم العلمي والتألفي ورحلاتهم داخل وخارج اليمن وكيفية اجتماع التلاميذ حولهم وعلاقتهم الطيبة بهم^(٦).

ثانيًا : المذهب الزيدي وجهود علماء الزيدية :

في أواخر القرن الثالث الهجري ظهر الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، عندما قدم إلى اليمن باستدعاء من قبائل صعدة الموالين للعلويين، فكانت قبائل خولان صعدة منقسمة فيما بينها إلى فريقين : الأكيليون وعلى رأسهم آل عباد كانوا موالين للخلافة العباسية والفتيميون كانوا موالين للعلويين، وعلى أثر خلاف فيما بين القبيلتين ذهب آل فطيمة إلى المدينة المنورة لطلب الإمام الهادي إلى الحق، فقدم إلى اليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م وفي سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م بايعوه إمامًا عليهم وناصروه، واستقر الإمام بصعدة وأصبح الفطيميون عماد دولته وأولاده من بعده، وعليهم كان قيام الدولة الزيدية وبدايتها نكاية منهم لأعدائهم الأكيليين أنصار الخلافة العباسية^(٧).

(١) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٤٢.

(٢) الأهدل : تحفة الزمن، ص ٢٧٩.

(٣) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٣٧٥.

(٤) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٣٨٠، ٣٨١.

(٥) ابن سمر : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٩، ١٨٧.

(٦) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٩٠.

(٧) الهمداني : الأكيل، ج ١، ص ٣٠٧، ٣٢٧، ٣٢٩؛ الفطيميون من سعد بن سعد بن خولان، والأكيليون من الربيع بن سعد بن خولان.

يتضح من ذلك أن الدعوة للإمام الهادي لم تكن صادرة من عامة قبائل اليمن، بل كانت من قبائل خاصة هم خولان صعدة، لذلك ظلت صعدة أهم مركز للزيدية^(١)، وفيها عمل الإمام علي حل الخلاف فيما بين القبيلتين الكبيرتين من أهل خولان^(٢)، كما كان توسعه نحو نجران بالطريقة نفسها، بأنه عمل على حل الخلاف فأصلح بين " بني الحرث " من جهة و " شاكر " و " يام " و " الأحلاف " من جهة أخرى الذين كانوا على عدااء مع بعضهم البعض^(٣).

والزيدية هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي أجازوا الإمام في أولاد فاطمة ولم يجوزوا الإمامة في غيرهم، وبذلك يتضح أن مفهوم الزيدية السياسي هو أن يكون الإمام عدلاً فاطمياً، أي من نسل كل من الحسن والحسين وفي نطاق بني فاطمة، ولا يتولى السلطة منه إلا من كان مجتهداً بلغ درجة الإمامة في العلوم الدينية، لذلك غلب على من تولى الإمام عند الزيدية علماء مجتهدون ويتضح ذلك من مؤلفاتهم الكثيرة^(٤).

ومن ضمن مفهوم الزيدية السياسي أيضاً أنهم يجوزون ولاية المفضول مع وجود الأفضل إذا كان به مصلحة عامة للمسلمين، كما أجازوا خروج إمامين في وقت واحد، إذا كانا في بلدين متباعدين، أما عصمة الإمام والاعتراف بنظرية المهدي المنتظر فهم لا يقرون بها^(٥).

ويطلق على الزيدية في اليمن " الزيدية الهادوية " نسبة إلى الإمام الهادي الذي أسس له مذهباً خاصاً به في الفروع، وقد خالف جده الإمام زيد بن علي ما في مذهبه ولم يتقيد بأقواله^(٦)، أي أن الإمام الهادي سار في الأصول على حسب مذهب الإمام زيد أما الفروع فقد اجتهد بها، وهذا يرجع إلى اشتراط الزيدية في الإمامة بالاجتهاد وعدم التقيد بمذهب من

(١) العلوي : سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، بيروت، دار الحياة، ١٩٧٢م، تحقيق : سهيل زكار، ص ٢٨٦؛ محمد عيسى الحريري : تطور المذهب الزيدي في اليمن (قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لابن الشرفي)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، المجلد السابع، العدد ٢٦، ١٩٨٧م، ص ٤٥.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ج ١، ص ١٦٧.

(٣) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ١، ص ١٢٧؛ يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٢٠.

C. H. Becker : Der Islam, Hamburg, 1912, vol. 3, p. 187.

محمد عبدالعال : الأيوبيون في اليمن، ص ٣٤، هامش ٢.

(٥) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٩٦.

(٦) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٥ أ.

سبقوهم^(١).

وكان الهادي يطمع في الاستيلاء على اليمن كله وليس على المناطق المجاورة لصعدة فقط لإقامة الدولة الزيدية، وهذا يعني بداية مرحلة من الصراع بينه وبين القوى المنافسة سياسيًا، ومذهبيًا، وأبرزها السنية والإسماعيلية^(٢).

وفي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس افتרכת الزيدية الهادوية في اليمن إلى ثلاث فرق، فرقة سميت المٌخترعة، وهي التي تقول باختراع الأعراض، وفرقة مُطرفية، وهي التي تقول بحدوث العالم وأن العالم يحيل ويستحيل، وفرقة حسينية نسبة إلى الحسين بن القاسم العياني (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م)^(٣) والتي ادعت أنه المهدي المنتظر، ونتيجة لهذا التقسيم دخلت الزيدية والمطرفية والزيدية المخترعة في صراع فكري حول العقيدة تلاه صراع عسكري في عهد الإمام عبدالله بن حمزة، والذي أجبر الكثير من المطرفية على ترك مذهبهم والعودة إلى مذهب الاختراع^(٤).

وكذلك عمل على نشر المذهب الزيدي في عهد الصليحيين كل من الشريف الفاضل وأخيه ذي الشرفين، وكان هذان الشريفان أهم من قاما بنشر المذهب الزيدي في هضبة شمال صنعاء عهد علي الصليحي وابنه المكرم، وقد ظل الشريفان يصارعان الدولة الصليحية مدة حياتهما، فتارة يتصالحان معها وأخرى يدخلان في حرب معها، فلما سعى علي الصليحي إلى تكوين دولته نهض إليه الشريف الفاضل سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م بمساعدة بعض رؤساء همدان لمقاومة الصليحي، فخاض معه معركة شديدة في منطقة " الهرابة " انتهت بانتصار علي الصليحي، بعدها توقفت الحرب بينهما إلى أن قُتل علي الصليحي سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م^(٥)، فعاود الشريفان الحرب على الصليحيين في عهد المكرم على أثر قتل أبيه مباشرة، واستطاع الشريفان أن يسيطرا على

(١) يحيى بن الحسن المذحجي : نزهة النظار في ذكر أئمة الزيدية الأطهار، مخطوط بدار الكتب المصرية، ميكروفيلم رقم ٣٥٨، ق ١٦ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : ابناء الزمن، ق ٢٠، ٢١؛ الأشرف الرسولي : فاكهة الزمن ومفاكهة نوي الألباب واللفظن، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩، تاريخ تيمور، ميكروفيلم رقم ٢٧٨٠٩، ق ٧٧.

(٣) هو الإمام القاسم بن علي بن عبدالله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل من أولاد القاسم الرسي، أحد أئمة اليمن، ويلقب بالمنصور، أما العياني نسبة إلى " عيان " مدينة، شمال صنعاء واتخذها مقرًا له. يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٣٥؛ ابن وهاس : الكفاية والإعلام، ق ٣٢.

(٤) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٩٧.

(٥) حسين الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص ٨٢.

بلاد وادعة وبكيل مما اضطر المكرم إلى أن يعقد صلحاً معهما بأن يكون " نقيلاً عجيباً " الحد الفاصل بين الزيدية والإسماعيلية، وذلك بسبب اتجاه المكرم لاستخلاص أمه من أسر آل نجاش لها^(١)، كذلك استطاع الشريفان أن يوجدوا للزيدية مراكز هامة هي شهاة، والجوف، وصعدة^(٢).

وهكذا سيطرت الزيدية على معظم هضبة شمال صنعاء، برغم أن الصليحيين في بعض الأحيان كانوا يصلون إلى صعدة والجوف ويحكمونها لبعض الوقت، إلا أن الزيدية سرعان ما تستولى عليها وتعيد سيطرتها على تلك المناطق^(٣).

وعندما سقطت الدولة الصليحية بموت السيدة الحرة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م ظهر الإمام أحمد بن سليمان يدعو إلى نفسه بالإمامة حسب مفهوم الزيدية، فبايعه الكثير منهم واستولى على صعدة ونجران والجوف والظاهر^(٤)، فساهم الإمام أحمد مساهمة كبيرة في نشر مذهب الزيدية في هذه الأماكن، وبذلك يُعد مؤسس الدولة الزيدية الثانية باليمن^(٥).

كما أصبحت هضبة شمال صنعاء في عهد الإمام أحمد بن سليمان في الغالب تحت سيطرة المذهب الزيدي^(٦).

ومن أهم من ساهموا في نشر المذهب الزيدي من اليمنيين من غير الأئمة الزيدية في عهد الإمام أحمد بن سليمان، هو القاضي جعفر بن عبدالسلام (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م)^(٧) والذي يُعد من أهم علماء الزيدية الهادوية المخترعة، وكان يميل أول الأمر إلى المُطْرِفية، إلى أن قدم القاضي زيد البيهقي سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) من خراسان إلى اليمن^(٨)، فحوله من الزيدية المُطْرِفية إلى الزيدية المخترعة.

ويبدو أن علماء الزيدية في ذلك الوقت لم يتمكنوا من الصمود أمام براعة المُطْرِفية وحذقهم لأفكارهم، فقرر الإمام أحمد بن سليمان إرسال جعفر بن أحمد بن عبدالسلام، إلى العراق لدراسة

(١) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن، ص٧٧-٩٧.

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ج ١، ص٢٦٢-٢٦٩.

(٣) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢٩٨.

(٤) حميد بن المحلى : الحقائق الوردية، ق١١٧.

(٥) سليمان الثقفي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٣.

(٦) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والجزء، ص٣١٦، ٣١٧.

(٧) محمد عيسى الحريري : تطور المذهب الزيدي في اليمن، ص٥٦.

(٨) حميد بن المحلى : المصدر السابق، ق١٠٧.

مذهب الاعتزال وعلومه والعودة إلى اليمن لمواجهة الخلافات الحادة بين الزيدية والمُطرفية، فرافق القاضي جعفر الفقيه زيد البيهقي إلى العراق، إلا أن الفقيه زيد مات في الطريق في تهامة، وهناك في العراق وجد عبدالسلام الزيدية مشايعين للمعتزلة بصفة عامة ولأبي هاشم الجبائي وأبي القاسم البلخي بصفة خاصة، مما سهل مهمته التي رحل من أجلها^(١).

وعند عودة ابن عبدالسلام إلى اليمن سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م اصطحب معه الكثير من كتب المعتزلة وبعض كتب الحديث مثل الأمالي في الأحديث المسندة، وأمالي أبي طالب الهاروني (ت ٤٢٤هـ/١٠٣٢م) وأمالي السيد المرشد بالله (ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م)، مما أحدث انقلاباً فكرياً، حيث أقبل السواد الأعظم من الزيدية على قراءة كتب المعتزلة التي قَدِمَ بها جعفر، وتركوا كتب قدامي الزيدية، بل وصل بهم الأمر إلى حد رفضها، ومزقوها وجلدوا بها الكتب الجديدة التي تتضمن أفكار المعتزلة^(٢).

وحمل جعفر بن عبدالسلام لواء فكر الزيدية الجديد المتأثر بفكر الاعتزال، واتخذ لنفسه من قرية "سناع" - معقل فكر المُطرفية وعلمائهم - مقراً لتدريس هذه الكتب الجديدة، فوصل إليه الكثير من الناس من مناطق كثيرة يدرسون فقه المذهب الزيدي^(٣).

وكانت أفكاره تقوم على أساس الاستفادة من علوم المعتزلة في الرد على خصوم الزيدية من المُطرفية وغيرهم من الباطنية، ومهاجمة عقائد المُطرفية، فغضب المُطرفية لذلك وكتبوا إلى جميع أصحابهم بهجاء القاضي جعفر واتهموه بأنه باطني بن باطني، فطلب منهم المناظرة وقال لهم: "تعالوا إلى المناظرة ويظهر كل منا ما عنده بين يدي حاكم"، فقالوا ومن الحاكم؟ فقال لهم: إمام الزمان أحمد بن سليمان، فرفضوا المناظرة على اعتبار أن الإمام أحمد بن سليمان إماماً زيدياً لا يعترفون بإمامته ولا يمكن أن يكون حكماً فيما بينهم في عقائدهم المُطرفية^(٤).

ثالثاً: المُطرفية وجهود علمائها :

كان أول ظهور للمطرفية زمن القاسم العياني^(٥) (٣٨٨-٣٩٣هـ/٩٩٨-١٠٠٢م) على أثر

(١) يحيى بن الحسين : طبقات لزيدية، ق ٦٤، أ، ب ؛ محمد عيسى الحريري : تطور المذهب الزيدي في اليمن، ص ٥٦.

(٢) محمد عيسى الحريري :- المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٦٤ أ ، ب.

(٤) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ونفس الورقة؛ سليمان التقي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٨٢.

(٥) يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ق ٤١ أ ؛ عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية

والمطرفية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ٢٠٠٢م، ط ١، ص ١٤.

الخلافا الذي حدث فيما بين علي بن شهر أحد علماء الزيدية المخترعة، وبين علي بن حرب، والذي ترتبت على يديه المطرفية، فعلي بن شهر كان يعتقد بأن الله يخترع الأعراض في الأجسام أي أن الله يخلق الأصول والفروع معاً، بينما يعتقد علي بن حرب بأن الله خلق الأصول وفيها الطبائع وهذه الطبائع هي التي تغير نفسها بنفسها، أي أن الأصول تخلق الفروع عن طريق الإحالة والاستحالة^(١).

غير أن المطرفية لم تظهر بشكل أساسي إلا في بداية القرن الخامس الهجري على يد مؤسسها مطرف بن شهاب، الذي بلور هذه الأفكار الجديدة وطبع المذهب بطابعه وصار أبرز دعائه حتى انتسب إليه أتباعه وأطلقوا على أنفسهم المطرفية^(٢).

ولم تلجأ المطرفية إلى العنف في سبيل نشر معتقداتهم، كما لم يتطلعوا للسلطة أو إلى تكوين دولة، وإنما استغلوا غياب السلطة السياسية فترة ما قبل دولة الصليحي في سنة ٤٣٩هـ — ثم التسامح والحرية الفكرية التي اتسم بها حكم الصليحيين، فانصرفوا للدعوة إلى مذهبهم وكان سبيلهم في ذلك المحاورة والمناقشة الهادئة^(٣).

كما لم يقف دور المطرفية عند هذا الحد بل خرج بعضهم للدعوة إلى مذهبهم في أنحاء اليمن فخرج مطرف بن شهاب ونهد بن الصباح إلى "بلاد عنس" حتى وصلا مدينة "ذمار"، وكان أهلها مخترعة فنزلاً بمسجدها، واجتمع إليها الناس، وتصدى مطرف للحوار والنقاش فما انقضى المجلس إلا وقد وافقه الجمهور وغلب على أكثر الناس اعتقاد مذهبهم، كذلك خرج عليان بن إبراهيم للدعوة في خولان قضاء^(٤).

كما قام كثير من رؤساء المطرفية بإنشاء هجر جديدة لاتخاذها مأوى لهم ومكاناً للانقطاع والعبادة والدراسة، فقام عليان بن سعد بتأسيس هجرة الروعة بالطرف من حضور الأحبوب^(٥).

(١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٣٩ ب، ٤١ أ.

(٢) يحيى بن الحسين : أبناء الزمن، ق ٥٣؛ عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، ص ١٣

(٣) عبدالغني محمود : المرجع السابق، ص ١٦.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٤٦؛ خولان قضاء هم ولد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاة من نسب حمير بن سبأ وأوطانهم بالجزء الشمالي من تهامة. الحجري : مجموع بلدان اليمن، ج ٢، ص ٣١٣، ج ٤، ص ٦٥٣.

(٥) الأحبوب : عزلة من ناحية الحيمة الداخلية من قضاء صنعاء. المقحفي : معجم البلدان، ص ١٥.

كما ابنتى ببلاد حمير هجرة ثانية هي هجرة قاعة^(١)، وأسس هجرة ثالثة وهي هجرة جنب^(٢) التي تعرف بمعين، وهكذا انتشر تأسيس الهجر، ويرجع السبب في ذلك إلى اعتقاد المطرفية في وجوب هجر الظالمين واعتزال الفاسقين، كما كانوا يرون أنه يجب على الإنسان أن يهرب بنفسه وولده وحرمة من مجامع الناس، وقراهم ومدنهم، لظهور فساد الناس والمدن والقرى في دينهم ودنياهم، وهذا يفسر السبب في تجمع المطرفية داخل هجرهم التي انتشرت في أنحاء اليمن فيما يشبه حركة تعمير وتجميع سكاني في مناطق صعدة وصنعاء وأنس وشمال تهامة^(٣).

وكانت الحياة داخل الهجر تتصف بالقسوة والنقشف وقيام الليل في التعبد والدراسة، إلا أن الحياة العلمية كانت نشطة ومزدهرة، فمن أوجه النشاط العلمي هو عقد حلقات التدريس التقليدية حيث يجلس المدرس وحوله طلابه وغالبًا كانت لهذه الدروس أوقاتًا محددة سواء كان ذلك بالليل أو النهار، وكان الشيخ علي بن رزين من علماء المطرفية ذو مكانة كبيرة في حلقات التدريس^(٤).

وقد شهدت هجر المطرفية نشاطًا علميًا كبيرًا تركّز على العلوم اللغوية والدينية وخاصة تعاليم وفقه مذهبهم، فكانوا يدرسون أصول مذهبهم بأن للعالم أصولاً هي الماء والهواء والرياح والنار، وهي أصل ما خلق الله، والعالم على كماله محدث مخلوق، والله تعالى خالقه سواء خلق ما خلق من ذلك جملة أو تدريجًا، وأن الله خلق العالم يحيل ويستحيل^(٥)، كما أدرك المطرفية المحاذير التي تنتج عن الخوض في مسائل القرآن، ومع ذلك كانت لهم آراؤهم الخاصة، فهم يقرّون بأن القرآن كلام الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدين به ويخبر به وهو عليه الصلاة والسلام لا يدين إلا بالحق ولا يخبر إلا بالصدق، وأن القرآن معجز عجز الخلق عن الإتيان بمثله وأنه محدث مخلوق^(٦).

وفي مسألة النبوة رأي المطرفية أن النبوة هي علو الشيء وارتفاعه على الخلق في أعلى درج المتقين التي يستحق بها ذلك المقام وبنو النبي هي زيادته وعلوه وهو فعله، كما أكد المطرفية

(١) قاعة : ناحية العشة بقضاء خمير وهجرة قاعة تبعد على ٤٥٠٠ م جنوب قرب قرية قاعة. المقحفى : معجم البلدان، ص ٥٠٤.

(٢) جنب : عزلة من ناحية بني مطر قضاء صنعاء. المقحفى : معجم البلدان، ص ١٣٠.

(٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٥٧.

(٤) ابن الوزير : تاريخ بني الوزير، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٨٣١٦ ح، ق ٢١٩، ٢٢٠.

(٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٤٠.

(٦) عبدالغنى محمود : الصراع الفكري في اليمن، ص ٢٥.

أن الله تعالى واحد، ثم يتحدثون في أسماء الله ويقسموها إلى قسمين، الأول : ما سمي به لأجل ذاته نحو عالم وقادر وحي وقديم، والثاني : ما سمي به لأجل فعله كالخالق البارئ المصور المحيي المميت الباعث الرازق، وقد اتهم المطرفية بسبب قولهم أن أسماء الله هي ذات الله بأنهم جعلوه أكثر من واحد فأبطلوا بذلك التوحيد^(١).

وهكذا قام معلموا المذهب المطرفي بنشاط علمي كبير داخل هجرهم وخارجها لنشر مذهبهم في اليمن، وما إن حل القرن السادس الهجري إلا وكان مذهب المطرفية قد مثل تهديدًا خطيرًا للزيدية المخترعة، وزاد من تفاقم المشكلة عجز علماء المخترعة عن التصدي لعلماء المطرفية فقاموا بالاستعانة ببعض علماء مذهبهم من خارج اليمن، فقدم الفقيه العالم زيد بن الحسن بن علي الخراساني للرد على المطرفية فاجتمعوا إليه أوفًا، ورجع كثير منهم عن مذهبه بين يديه^(٢).

وكانت لهذا العالم شهرة كبيرة في اليمن إذ تتلمذ عليه كثير من علماء اليمن منهم الإمام أحمد بن سليمان والقاضي جعفر بن عبدالسلام الذي كان على مذهب التطريف ثم رجع إلى الاختراع^(٣).

وبعد وفاة الفقيه زيد، جمع القاضي جعفر كتب الزيدية والمعتزلة من العراق وعاد بها إلى اليمن ليحتج بها على المطرفية ويظهرهم في مذاهبهم، فكان يقال عن القاضي جعفر أنه سار إلى العراق " وهو أعلم أهل اليمن، ورجع وهو أعلم أهل العراق "^(٤).

وكانت عودة القاضي جعفر نقطة تحول في تاريخ اليمن الثقافي بصفة عامة وفي بداية انحسار المد المطرفي بصفة خاصة، فقد تصدى القاضي جعفر للتدريس والوعظ والمناظرة بسنّاع، وفشل المطرفية في صرف الناس عنه، كما التف حوله الكثير من العلماء السذج أخذوا العلم عنه وصاروا يمثلون مدرسة قائمة بذاتها، وهم الذين صاروا علماء الزيدية المخترعة^(٥).

وبالرغم من ذلك لم يعلن المطرفية معارضتهم للإمام أحمد بن سليمان، كما أنهم لم يرحبوا

(١) جعفر بن عبدالسلام : رسالة في الرد على المطرفية، دار الكتب المصرية، القاهرة، مخطوط رقم ٢١٥٣، ق ٦٩ أ، ١٧٣.

Tirton : The Muttrafya, Le Muson, vol. BX. III ; Britishlibrary, London, 1950, p. 65.

وردت في هذه الدورية بعض النصوص في الآراء عن المطرفية.

(٢) ابن الوزير : تاريخ بني الوزير، ق ٢٢١.

(٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٥٩؛ ابن الوزير : المصدر السابق، ق ٢٢٢.

(٤) يحيى بن الحسين : المصدر السابق، ق ٦٤؛ ابن الوزير : نفس المصدر، ق ٢٢٢.

(٥) ابن الوزير : نفس المصدر، ق ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢.

به، ولكن تغير موقفهم السلبي بقيام حاتم بن أحمد الياامي صاحب صنعاء باغتيال محمد بن عليان ابن سعد فاجتمع بسبب ذلك فريقا الزيدية وبايعوا الإمام أحمد وسألوه النهوض معهم إلى اليمن فوافقهم لرغبته في الأخذ بثأر الشيخ محمد بن عليان^(١).

ولكن هذا التحالف بين المطرفية والإمام أحمد بن سليمان لم يستمر طويلاً، فسرعان ما تنكر المطرفية للإمام، ورجعوا عن بيعتهم، فصمم الإمام على قتالهم فتراجعوا وطلبوا الصفح، فقبل منهم ودخل الإمام وقش وأحل بها القاضي جعفر بن عبدالسلام^(٢).

ويرجع سبب تنكر المطرفية للإمام أحمد بن سليمان إلى تشددهم في أمر الإمامة والشروط الواجب توافرها في الإمام فيقول ابن الوزير : " وقد كانت المطرفية لسعة علومهم وصلابة تدينهم وصبرهم على العبادة والقيام والصيام، يحتقرون معارف غيرهم ويقع من بعضهم إعجاب بالتبحر في العلوم، وللعلم طغيان كطغيان المال^(٣)."

غير أن الإمام استخدم أسلوب الإقناع عن طريق إظهار عقائد المطرفية وبطلانها، بالتهديد تارة، وبالمناقشة والخطب تارة أخرى، فكان لمؤلفاته التأثير الكبير لتراجع الكثيرين من معتقدي المطرفية عن هذا المذهب، ومن أهم هذه المؤلفات : " الهاشمة لأتف الضلال من مذاهب المطرفية الضلال والجهال "، " الرسالة الواضحة الصادقة في تبين ارتداد الفرقة المارقة المطرفية الطبيعية الزنادقة " وفي هذه الرسالة جمع بين المطرفية وكل فرقة من فرق الضلال الخارجين على الملة وذكر لهم أقوالاً تفردوا بها عن جميع الأمم موحدتها وملحدها^(٤). إلى أن حدة العداء للمطرفية خفت بعد وفاة الإمام أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦هـ، والقاضي جعفر بن عبدالسلام سنة ٥٧٣هـ وقد استمر الوجود المطرفي في عهد بني مهدي مما أعطى الفرصة من جديد لازدهار مذهب المطرفية وانتشاره خاصة في عهد الأيوبيين الأوائل في اليمن^(٥).

رابعاً : المذهب الإسماعيلي وجهود علماء الشيعة :

تعددت أسماء المذهب الإسماعيلي، فأطلق عليه أول الأمر لقب القرامطة نسبة إلى قرمط، الذي ابتدأ يدعو إلى الإسماعيلية، فلما تولى أحد أتباعه وهو أبو سعيد الجنابي السلطة في البحرين

(١) ابن الوزير : تاريخ ابن الوزير، ق ٢٢٠؛ سليمان النقي : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص ٢٨١-٢٨٤.

(٢) سليمان النقي : المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٣) ابن الوزير : المصدر السابق، ق ٢١٥.

(٤) أحمد بن المحلى : الحقائق الوردية، ق ١٠٨.

(٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ق ٣٨؛ عبدالغني محمود : الصراع الفكري في اليمن، ص ٣٥.

استقل عنهم، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والباطنية لأنها تفسر القرآن والسنة بتأويلات باطنية لم يقل بها غيرها من الفرق، وسميت بالفاطمية لأنها تحصر الإمامة في أبناء فاطمة لا غيرهم، كذلك سميت بالإمامية نسبة إلى الأئمة من آل البيت^(١).

تميزت الدعوة الإسماعيلية في اليمن بثلاثة أدوار رئيسية، هي : الدور الأول وهو دور الستر الذي كان قائماً قبيل الدولة الصليحية، وهو الدور الذي ارتبط دعائه بالإمام الإسماعيلي الغائب، ثم بالإمام المهدي بالمغرب، والدور الثاني هو دور الظهور، متمثلاً بظهور الدولة الصليحية في اليمن وارتباطها بالدولة الفاطمية بمصر، والدور الثالث وهو دور العودة إلى الستر مرة أخرى وهي فترة ما بعد انتهاء الدولة الصليحية، وفي هذا الدور انفصلت اليمن عن دعوتها للإمام الطيب.

مرت الدعوة الإسماعيلية في اليمن بعدة مراحل وأدوار، ووجدت تأييداً ومناصرة من الدولة الصليحية، فقد أعلن علي بن الصليحي طاعته وولاءه للفاطميين بمصر ودعوتهم الإسماعيلية حتى قتل ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م.

استمر علي بن الصليحي يحكم اليمن معلناً طاعته وولاءه للفاطميين بمصر ودعوتهم الإسماعيلية حتى قتل سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م، فتولى بعده ابنه المكرم أحمد ثم السيدة الحرة بنت أحمد، والذين سارا على نهج علي الصليحي في الولاء والطاعة للدعوة الإسماعيلية للدولة الفاطمية^(٢).

وبعد مقتل الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله في ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ / أكتوبر ١١٣٠م، انقسمت الإسماعيلية في مصر إلى فرقتين، إحداهما فرقة إسماعيلية حافظية، وهم أتباع أبي الميمون بن عبدالمجيد الملقب بالحافظ لدين الله، والذي نسبت إليه الدعوة الحافظية وهو من غير ولد الخليفة الفاطمي السابق، فسلمت مصر بهذه الدعوة. والأخرى فرقة إسماعيلية.

الدعوة الطيبية في اليمن^(٣) :

أدت وفاة الخليفة الفاطمي العاشر الأمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٤هـ) مقتولاً على يد بعض

(١) حسين الأمين : دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، دار التعارف للمطبوعات، سوريا، ١٩٩٦م، ط٥، م٣، ص٣، ٤.

(٢) عمارة : تاريخ اليمن، ص٦٩، ٧٥ ؛ Marc Bergé : Les Arabes, Paris, 1978, p. 417.

(٣) الطيبية نسبة إلى أبي القاسم بن الأمر الذي قيل أنه ولد قبل موت أبيه بأشهر ونص عليه من بعده. أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الإسلامية في اليمن، ص١٨٣، ١٨٤.

النزارية في ذي القعدة ٥٢٤هـ / أكتوبر ١١٣٠م^(١)، إلى بدء تطور جديد في تاريخ الدعوة الإسماعيلية كانت له آثار بعيدة المدى على تاريخ مصر الفاطمية وعلى تاريخ اليمن بوجه خاص.

فبعد وفاة الخليفة الأمر وقيام السيدة الحرة الصليحية برفض خلافة الحافظ وتوليها الإشراف على الدعوة الطيبية ونشرها، رأت ضرورة الفصل بين وظائف الدولة ووظائف الدعوة فأوكلت أمر الإشراف على الدعوة إلى الداعي ذؤيب بن موسى^(٢)، الذي كان مقر إقامته في بلده مدينة " حوث" والذي في عهده دخلت الدعوة الطيبية دور الستر^(٣).

وانفصلت الدعوة اليمنية نهائياً عن الخلافة الفاطمية في مصر بعد تولي الحافظ للخلافة، وتولت الإشراف على الدعوة للإمام الطيب، واستحدثت اصطلاح الداعي المطلق للدلالة على رئيس الدعوة الطيبية، وأصبح الداعي الذؤيب بن موسى أول سلسلة الدعاة المطلقين^(٤).

انحصرت الدعوة الطيبية في مغارب اليمن الأعلى في غرب وشمال غرب صنعاء في كل من حَرَّاز والجَرِيب وحوث وكوكبان، واستخدم دعاة الدعوة الطيبية في هذه المناطق مساعدين لهم في نشر الدعوة، فاستحدث الداعي الذؤيب، رتبتي المأذون المطلق والمأذون المحصور (المكاسير) ليكونا في معاونته، وهي رتب بعد الداعي المطلق^(٥).

ظل الداعي ذؤيب بن موسى يرأس الدعوة الطيبية، يعاونه في رتبة المأذونية كل من الداعي الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م)، والداعي إبراهيم ابن الحسن الحامدي (ت ٥٤٤هـ / ١١٥٩م)^(٦).

وعندما توفي الداعي الذؤيب في المحرم ٥٤٦هـ / ١١٥١م تولى مكانه رئاسة الدعوة الطيبية مأذونه الداعي إبراهيم بن الحسن الحامدي كداع مطلق للإمام المستور الطيب بن الأمر

(١) ابن ميسر : أخبار مصر، ص ١١٠؛ أحمد محمد جلي : دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين " الخوارج والشيعية"، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ط ١، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) إدريس : عيون الأخبار، ص ٢٤٥؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص ١٩٢.

(٣) إدريس : نزهة الأفكار، ق ٣٥.

(٤) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ١٩٣؛ عبد عون الروضان : موسوعة تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م، ط ١، ج ٢، ص ٦٩٥، ٦٩٦.

(٥) أيمن فؤاد سيد : نفس المرجع والصفحة، ص ١٩٣.

(٦) إدريس : المصدر السابق، ق ٣٧؛ الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص ٢٠٠-٢٠٣.

لأحكام الله وأقام الحامدي مساعدًا له في رتبة المأذونية الداعي علي بن الحسن بن أحمد بن الوليد بن الأنف العبشمي القرشي، فعمل هذا المأذون على نشر الدعوة الطيبية الإسماعيلية حتى توفي في رمضان ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، فأقام مكانه في رتبة المأذونية ابنه حاتم بن إبراهيم الحامدي الذي استقر في بعض أوقاته في صنعاء، وإلى جانبه جعل مساعدًا له في رتبة المكاسر محمد بن طاهر الحارثي^(١).

وفي عهد الداعي المطلق حامد الحامدي دخلت الدعوة الطيبية حروب طويلة مع السلطان حاتم بن علي إليامي حاكم صنعاء في كل من كوكبان والعروس وغيرهما، ذلك لمعاداة السلطان علي بن حاتم للدعوة الطيبية^(٢).

وهكذا أصبحت الدعوة الطيبية منظمة دينية محضة، ولجأت إلى التستر خاصة بعد أن سيطر على اليمن علي بن مهدي، الذي ظلت له السطوة حتى أن فتح اليمن تورانشاه الأيوبي، ففي أيام الداعي المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدي ومأذونه الداعي محمد بن طاهر الحارثي، دخل الأيوبيون إلى اليمن، فاستمر المأذون الداعي محمد بن طاهر يدعو بصنعاء في عهدهم إلى وفاته سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م^(٣).

دور العلم والمعرفة والمراحل التعليمية :

أولاً : المراحل التعليمية :

تعددت مراحل التعليم ومدارسه في بلاد اليمن وزبيد، كما تعدد مجالسه وطرق الدراسة ومواد التدريس وتمويل التدريس وانتهاءً بمنح الإجازات العلمية، فأخذ التعليم باليمن ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى :

الدراسة في الكتاتيب " المعلّمة " ويتركز الاهتمام في هذه المرحلة على تعليم الصبية القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم كله عن ظهر الغيب^(٤)، وقد يكلف الصبي بإعادة قراءته وحفظه مرة أخرى أو أكثر، وكانت الكتاتيب منتشرة في القرى والمدن بحيث يتيسر للأولاد الالتحاق بأقربها إلى بيوتهم، حتى إذا ما أتموا هذه المرحلة التي تختتم باستكمال حفظ القرآن

(١) إدريس : نزهة الأفكار، ق ٣٧، ٣٨؛ أيمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، ص ١٩٤.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٣٢٤.

(٣) إدريس : المصدر السابق، ق ٤٢؛ أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٤) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٤٠.

الكريم، انتقل من أراد أهله استمراره في التعليم إلى الالتحاق بالمدرسة أو المسجد لتلقي العلوم الدينية واللغوية في القرى الكبيرة أو المدن^(١).

ويبدأ الالتحاق بالدراسة في الكتاب في سن الخامسة أو قبل ذلك أو بعده، وعادة ما يكون أولاد المعلمين في هذه المرحلة هم الذين يدرسون في سن مبكرة، وتعتمد فترة بقاء الصبي في الدراسة في هذه المرحلة على مدى قدرته على حفظ وختم القرآن وهي فترة يستطيع البعض إنهاءها في سنتين وقد تمتد إلى ثلاث أو أربع سنوات^(٢).

وتبدأ هذه المرحلة بتعليم القراءة والكتابة باستخدام الألواح الخشبية وحفظ قصار سور القرآن، ثم التدرج إلى أن يتم الانتهاء من حفظ القرآن كله، فإذا ما ختم الصبي القرآن يكون قد انتهى من هذه المرحلة، ويقام له احتفال أو وليمة بهذه المناسبة حسب حالة ولي أمره، فقد تكون مقصورة على زملائه فقط من الطلاب، وقد يدعى إليها الكثير من الناس ذوي العلم وغيرهم^(٣).

المرحلة الثانية :

وهي الدراسة في المسجد أو المدرسة، وهي مرحلة التفقه في العلوم ويدرس الطالب في هذه المرحلة العلوم الدينية واللغوية على أساتذة متفهمين في هذه العلوم. وتبدأ الدراسة المبسطة بحيث يدرس الطالب مثلاً " مختصر ابن عباد " في النحو وهو ما كان يبدأ المبتدئون في قراءته وتعلمه^(٤)، كما يجب حفظ قواعد اللغة، ثم يتم التدرج إلى ما هو أكثر صعوبة وهكذا حتى يدرس الطالب العديد من كتب الفقه واللغة، وقد يعيد الطالب دراسة الكتاب أكثر من مرة، فمثلاً ارتحل يحيى بن أبي الخير العمراني (٤٨٩-٥٥٨هـ/١٠٩٥-١١٦٣م) إلى الإمام زيد بن حسن الفائشي (٤٥٨-٥٢٨هـ/١٠٦٥-١١٥٧م) في أحاطة فأعاد عليه كتاب " المذهب " ^(٥)، كما درس عنده " التعليق " و" الملخص " و" غريب أبي عبيدة " ^(٦)، وتعتمد هذه المرحلة على الحفظ والفهم معاً. ويعد الطالب الأكثر حفظاً من الطلاب النجباء.

كما يبدأ الطالب في هذه المرحلة بسماع قراءة الأستاذ لما يدرسه في الكتب، ثم يقرأ ما سمع

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص٣.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص٢١٤.

(٣) بامخرمه : تاريخ ثغر عدن، ص١٤٢.

(٤) الجندي : السلوك، ج١، ص٢٨٧؛ ياقوت : معجم الألباء، م٢، ص٤٥٦.

(٥) ابن سمره : المصدر السابق، ص١٧٥.

(٦) الأهل : تحفة الزمن، ص٢٣٨.

إلى أن يحفظه، ومن أمثلة الحفاظ الشيخ سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمير الهمداني العرشاني (ت ٥٥٧هـ/١١٦٢م) أحد الشيوخ المشهورين بالحفظ، قال عنه تلميذه الإمام يحيى بن أبي الخير : " ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ في الحديث ولا أعرف منه، قيل له : ولا في العراق، قال ما سمعت "(١). كما سمع عليه خلق كثير من أنحاء اليمن. وحفظ يحيى بن أبي الخير كتاب " المذهب " و " اللمع " غيبًا أخذهما عن الفقيه عبدالله بن أحمد الزبراني(٢).

وبالنسبة لاختيار المدرس الذي يدرس على يديه الطالب فلأولياء التلاميذ أن يتفقوا على من يرغبون من معلمي الصبيان، ليتلقى أبناؤهم العلم عليهم، وفي مرحلة التفقه قد يختار الطالب أستاذه بنفسه، ولم يكن هناك إجبار على التقيد بأن يتعلم الأولاد القراءة والكتابة على معلم بذاته أو التفقه في كتاب بعينه(٣)، وكان الإقبال على من هم أكثر شهرة في العلم، وفي هذه المرحلة يرتحل الطالب في طلب العلم إلى أماكن كثيرة داخل اليمن أو خارجها(٤).

وفترة الدراسة اليومية في هذه المرحلة الثانية مثل المرحلة الأولى تبدأ من الصباح إلى أن تحين صلاة العصر، وقد يقوم بعض المدرسين بإعطاء الطلبة رياضة بدنية، فكانوا يتسابقون ويتعلمون الوثب إلى اصفرار الشمس قرب صلاة المغرب وبعدها ينصرفون إلى الوضوء لصلاة المغرب(٥).

وتنتهي الدراسة الفقهية في كثير من الأحيان بنهاية هذه المرحلة، حيث يسمح للحصول على الإجازة العمل في القضاء لمن يجيد الفقه، أو في التدريس لمن يجيد الفقه واللغة، أو الذهاب إلى الأعمال الكتابية لمن يجيد اللغة(٦).

المرحلة الثالثة :

يستمر الطالب في هذه المرحلة الثالثة المتقدمة في مواصلة دراسة العلوم، والتدريب على المناظرات العلمية، وأهم ما تتميز به هذه المرحلة السعي للالتقاء بمشاهير العلماء والأخذ عنهم أينما كانوا، هذا بجانب المشاركة في المناظرات، فكان الفقيه أبو بكر بن جعفر المحاببي

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٤٠.

(٣) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢١٦.

(٤) ابن سمره : المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٥) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن، ص ٢٣١.

(٦) السروري : المرجع السابق والصفحة، ص ٢١٦.

(ت ٥٠٠هـ/١٠٦م) يرحل كل سنة إلى زبيد لمناظرة فقهاءها^(١).

وفي هذه المرحلة تظهر الشروح والاختصارات، والتهميشات وشروح الشروح، والتعليقات على الكتب، أو بعض المسائل، كما تظهر المؤلفات، فمن شرح المختصرات "شرح مختصر المزني" تصنيف أبو الفتح يحيى بن ملامس (ت بعد ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) ومن المختصرات مختصر في النحو يعرف "بالمفتاح" لأبي بكر الفقيه بن عبدالله بن إبراهيم اليافعي الجندي (٤٩٠-٥٥٢هـ/١٠٩٦-١١٥٧م)^(٢).

ومن المؤلفات كتاب "الكافي" في علم المواريث للصردي، وكتاب "القاضي" في المذهب الحنفي للقاضي محمد بن أبي عوف^(٣). وكتاب "المجموع" للإمام جعفر المحابي (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٧م)، وكتاب "البيان" للعراني (ت ٥٥٨هـ/١٦٢م)^(٤)، وتظهر في هذه المرحلة التأليفية القدرة على الابتكار والتجديد والإضافة مع غزارة العلم والاجتهاد، ويطلق على العلماء في هذه المرحلة الألقاب المختلفة مثل الإمام والشيخ الحافظ، وقد يضاف إليها ألقاب أخرى مثل سراج الدين^(٥)، وجمال الدين شمس الشريعة، أو سيف السنة، أو إمام الأئمة^(٦)، وهؤلاء هم الذين يتصدون للفتوى ورئاسة علماء العلوم مثل رئاسة أو إمامة الحديث، أو الفقه، أو اللغة، أو النحو. وكان هؤلاء العلماء ينتقلون من بلدة إلى أخرى للتدريس بها أو طلباً للأمان، فمثلاً كان الفقيه يحيى بن أبي الخير (٥٥٨هـ/١٠٦٢م) يدرس في "سَيْر" وعندما حدث بين أهلها الحرب انتقل إلى ذي السفال، فمكث بها يدرس مدة ثم انتقل إلى ذي أشرق فمكث بها أكثر من سبع سنين يُدرّس^(٧)، ولما هجم ابن مهدي على الجند سنة ٥٥٧هـ/١٠٦١م، وقتل الكثير من علمائها وأهلها، خاف الإمام يحيى فانتقل إلى ذي السفال مرة أخرى ومات بها سنة ٥٥٨هـ/١٠٦٢م^(٨).

(١) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢٨٢.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٦، ٣٥٤.

(٣) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٢-٢٨٤.

(٤) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٧.

(٥) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٤٤٧.

(٦) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٨٧، ١٧٩، ١٩٠.

(٧) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٧٩؛ الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٣٤٢.

(٨) ابن سمرة : نفس المصدر والصفحة.

ثانياً : مراكز التعليم :

١ - المسجد :

كان المسجد أهم مراكز التعليم في الإسلام، فكان له دور كبير في النهضة العلمية والأدبية في اليمن، وزبيد، فكان بمثابة المدرسة التي يقصدها طلاب العلم، فكان كل عالم يتخذ سارية من سوارى المسجد يجلس تحتها، ويلتف طلابه وتلاميذه حوله، وهناك كان يتلقى الصبية دروس القرآن ثم العلوم العربية كال تفسير والحديث والفقه وأصول الدين والنحو واللغة والبيان والأدب، وكثيراً ما شهدت المساجد المجالس الأدبية التي كان يعقدها العلماء والمناظرات الأدبية^(١).

فكان لمسجد الأشاعر في زبيد دور كبير ومتميز في نشر العلوم الإسلامية لقاصديها داخل اليمن وخارجها، حيث درس فيه عدد من العلماء والفقهاء من أعلام القرن السادس الهجري^(٢).

٢ - المدارس :

تطور نظام أماكن التدريس من المسجد إلى إيجاد أماكن خاصة بها وهي المدرسة، التي اقتصر على تعليم الطلبة المذاهب الإسلامية أو بعضها، فضلاً عن العلوم الدينية الأخرى المتنوعة.

وكان التعليم القائم في المسجد يعتمد في أغلبه على المجهود الذاتي لرجال الدين، ففي بناء المدارس في زبيد، اعتمد التعليم على توجيه رجال الدولة، سواء كانوا رجال دين أم علم أم سياسة، فالتجهت الدولة إلى بناء المدارس والإشراف عليها وتوحيد انتماء المجتمع إلى مذهب واحد، أو مذاهب متقاربة ليس بينها صراع سياسي، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أن الوزير النجاشي أبو منصور مَنَّ الله الفاتكي، كان يتولى الإشراف المالي وغيره على مدارس الفقهاء في زبيد سواء كانت الحنفية أو الشافعية^(٣).

ومن المدارس التي اشتهرت في زبيد في عهد دولة بني مهدي، مدرسة ابن الأبار والتي أنشأها الفقيه أبو عبدالله محمد بن القاسم الأبار سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م^(٤)، وخصها لتدريس المذهب

(١) الخربوطلي : المسجد في فجر الإسلام، ص ١٩٧.

(٢) رؤوف الأنصاري : عمارة المساجد، ص ٣١.

(٣) عمارة : تاريخ اليمن، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٤) عمارة : المصدر السابق، ص ١٥٥.

الشافعي، وكان هذا الفقيه إمام الشافعية في زبيد، بل في اليمن على حد قول المؤرخ عمارة اليمني الذي درس الفقه الشافعي على يد هذا الفقيه، وكانت هذه المدرسة في بداية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي من أهم مدارس العلم في مدينة زبيد، ويتضح ذلك من الإقبال الشديد على طلب العلم فيها وكثرة عدد الدارسين فيها، حيث يذكر عمارة بأن الشاعر الغرنوقي، دخل مدرسة الآبار وقد تضايقت المجالس لكثرة طلبة العلم، وقال في ذلك^(١) :

مجلسك الرحب في تراحمه لا يسع المرء فيه مقعده
كل على قدره ينال فذا يلقط منه وذا يحصده

وتعتبر هذه المدرسة من أقدم المدارس المذهبية التي أنشئت في زبيد، وكان من أشهر تلاميذ الفقيه ابن الآبار، عبدالله بن عيسى المهري، ومحمد بن عطية، فضلاً عن عمارة اليمني. كما كانت من أشهر المدارس في زبيد، مدرسة جامع الأشاعر، ومن المدرسين بمدرسة مسجد الأشاعر القاضي عياش بن محمد المخزومي، ومحمد وعلي ابنا عيسى بن همدان، فكانوا يرشدون الطالب ويفقهون السائل^(٢). ومن هنا يمكننا القول أن المدارس في زبيد وجدت منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) سواء كانت عبارة عن مباني بسيطة ملحقة بالمساجد، أو مستقلة عن أي مبنى^(٣).

كما كان للبيوت دور مهم في تدريس العلوم الدينية واللغوية وغيره فكان بعض العلماء يستخدمون بيوتهم للتدريس، كما كان الأغنياء يتدبرون من يتولى التدريس لأبنائهم في بيوتهم وخاصة في مراحل التعليم الأولى، ويرجع سبب استخدام العلماء البيوت للتدريس إلى مرحلة شيخوخة الفقهاء، فمثلاً كانت مدرسة دلال في منزل الفقيه منصور بن علي ابن عبدالله بن إسماعيل (ولد سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م) في بعدان^(٤)، والتي كانت ترد إليها كثير من الطلاب والفقهاء للتعليم فيها^(٥).

ثالثاً : مجالس التعليم :

في مرحلة الدراسة في المسجد وجدت عدت مسميات لمجالس التدريس، منها ما سمي " حلقة علم " أو " مجلس استماع " أو " مجلس تدريس "، وهي تأخذ في مجموعها شكل دائري

(١) عمارة : المفيد، ص ١٦٨، ٢٣٧.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٤٥.

(٣) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٤) بعدان : مخلاف مشهور من بلاد إب. الحجري : بلدان اليمن وقبائلها، م ١، ص ١٢٤.

(٥) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ٢١٤.

حول الأستاذ المكمل للدائرة، وهناك فرق بين هذه المجالس من حيث نوعية العلم الذي يدرس بها.
حلقة العلم :

وهي عبارة عن جلسة علمية يجلس فيها الفقهاء والمدرسين للمناقشة في الأمور العلمية والدينية واستذكارها، ومنها حلقات دائمة في المساجد والمدارس وأخرى طارئة مؤقتة ترتبط بالعلماء الوافدين إلى اليمن لفترة قصيرة، وأحياناً تعقد هذه الحلقة للفتوى فيحضرها عامة الناس والطلبة^(١).
مجلس التعليم :

وهي عملية التدريس نفسها، فعندما يذهب الطلاب للدراسة في المسجد كانوا يجلسون على الأرض أمام الأستاذ الذي يجلس على كرسي مرتفع، أو يجلس على الأرض متكئاً بظهره على جدار المسجد بجانب المنبر أو متكئاً على المنبر نفسه، أو على أحد الأعمدة^(٢)، أما الطلاب فيجلسون حوله، ويتسع عدد طلاب هذا المجلس نحو خمسين طالباً، وقد يبلغ الثلاثمائة، وممن كان له مجلس تدريس هو الفقيه إبراهيم بن محمد بن زكريا (ت ٦٠٩هـ/١٢١٢م) في زبيد ثم خلفه في مجلس التدريس تلميذه الفقيه موسى بن عجيل^(٣).

مجلس السماع :

وفيه يجلس الطلبة أمام الأستاذ كجلسة مجلس التدريس نفسها وغالباً ما تختص تسمية مجلس السماع على مجلس سماع الحديث، ومن أشهر الشيوخ المحدثين الذين عقدوا هذا مجلس الفقيه الحافظ علي بن أبي بكر بن حمير العرشاني (ت ٥٥٧هـ/١١٦١م) الذي كان له مجلس سماع في شرح "صحيح البخاري" في إرب وقد روى عنه كثير من المشايخ منهم يحيى بن أبي الخير العمراني، وكان مجلسه يحضره الطلاب من جميع أنحاء اليمن^(٤).

وليست هناك مدة محددة للدراسة في هذه المجالس فقد تطول أو تقصر حسب نوعية الكتب الدراسية وحجمها، فقد يدرس الطالب كتاباً واحداً وقد يدرس عدة كتب، وقد يستمر في حضور تلك المجالس إلى أن يكتفي^(٥).

وبالإضافة إلى تلك المجالس هناك مجالس أخرى تسمى مجالس المذاكرة وتختص بمذاكرة

-
- (١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٣؛ الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٨١.
(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٣٠٤؛ ابن سمره : المصدر السابق، ص ١١٥.
(٣) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٤٧٤؛ ابن سمره : نفس المصدر، ص ٢٤٦.
(٤) ابن سمره : نفس المصدر والصفحة.
(٥) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٧١.

الفقه أو ذكر الله تعالى فيدعون الله عز وجل ويرغبون إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهذه المجالس عادة ما تعقد بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وقد تستمر إلى ما بعد صلاة العشاء^(١).

من أهم الطرق التعليمية المستخدمة في اليمن في القرن السادس الهجري، هي السماع والقراءة والحفظ والكتابة والإملاء والمناظرة وهي الطرق نفسها المستخدمة في العالم الإسلامي آنذاك.

طريقة السماع :

وهي أول طريقة من الطرق التعليمية سواء أكانت طريقة السماع في مرحلة الكتاتيب " المغلّمة " أو مرحلة المسجد أو المدرسة، فكان الطالب في مرحلة المعلمة يسمع نطق الحروف والكلمات، ثم يعيد نطقها كما سمعها من الأستاذ ثم يحفظها، واستمر السماع أسلوبًا من أساليب التدريس في مرحلة القراءة بالمسجد والمدرسة، فكان الطالب أول ما يحضر مجلس التدريس يبدأ بسماع قراءة الكتاب من أستاذه سواء كانت كتب فقه أو حديث أو لغة وكانوا كثيرًا ما يهتمون بأن يسمع الطالب قراءة الأستاذ للكتاب، حتى وإن كان الطالب يعرف القراءة، لأن بداية تصحيح نطق الكلمات هي قراءة الأستاذ للكتاب على الطالب ثم سماعه منه^(٢).

ثم أصبحت كلمة " السماع " بعد ذلك مصطلحًا يطلق غالبًا على من يسمع الحديث ويقرأه، فعندما ترد كلمة فلان سمع عن فلان، تعني درس الحديث، وتفقه على فلان، أي درس الفقه^(٣).

طريقة القراءة :

وهي تأتي بعد السماع في التعليم، وذلك بإعادة الطالب قراءة ما سمعه من أستاذه، وهذا الأسلوب لتصحيح نطق الطالب، وقد يأمر الأستاذ طلابه بإعادة قراءة الكتاب أكثر من مرة حتى يستطيعوا قراءته كاملاً بطريقة صحيحة^(٤). على أن كلمة قراءة إذا أتت غير مقرونة باسم أي كتاب أو العلم الذي يقرؤه الطالب فهي تعني قراءة القرآن، ومن يمنح إجازة القراءة يعني منح إجازة في قراءة القرآن الكريم، أما من درس الفقه فيذكرون اسم من قرأ أو درس عليه.

ومن المقرئين الذين سكنوا زبيد، علي بن أبي بكر بن داود القرنطي أصله من لحج، ومات

(١) بامخرمة : ثغر عدن، ص ٨٢؛ الجندي : السلوك، ج ١، ص ٤٥٩.

(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٥٤؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٢٣.

(٣) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ٨٩، ١٩٠.

(٤) ابن سمرة : نفس المصدر، ص ١٥٤؛ الأهل : تحفة الزمن، ص ٢٢٨، ٢٤٧، ٢٤٨.

بزبيد سنة ٥٨٠هـ^(١). أيضًا المقرئ والفقيه عبدالله بن أسعد، الذي كان مدرسًا في مسجد الأشاعر بزبيد، وله كثير من الطلاب يقرأون عليه^(٢). كذلك كان من مقرئي القرآن الحسين بن علي بن محمد الزبيدي المولود في زبيد سنة ٥٣٠هـ وتوفي ٥٨١هـ، والذي قرأ عليه جماعة من طلاب زبيد واليمن^(٣).

طريقة الحفظ :

وهي تبدأ من السنة الأولى لدخول الطالب مرحلة الكتاتيب، ثم يستمر الحفظ في مرحلة القراءة في المسجد والمدرسة، وتعتبر عملية الحفظ وخاصة للقرآن الكريم والأحاديث من أهم عمليات التحصيل العلمي عند المسلمين، كما تمتد عملية الحفظ إلى كتب الفقه وأصوله وكتب اللغة والشعر، وذلك من خلال التلقين والتكرار من المدرس لطلابه، هذا وقد بالغ الكثير من الناس بالحفظ، فكانوا يحفظون إلى جانب القرآن وآلاف الأحاديث كتبًا فقهية ولغوية ونحوية كاملة^(٤)، فمثلاً كان الشيخ سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر العرشاني (ت ٥٥٧هـ/ ١١٦١م) من أشهر علماء الحديث حفظاً^(٥).

طريقة الكتابة والإملاء :

وهذه الطريقة تعتبر من أقدم بل وأهم طرق التعليم فالكتابة هي النقل من الكتب أو الإملاء، وهي من أهم متطلبات الدراسة، ويبدأ الطالب بتعليم الكتابة منذ مرحلة الكتاتيب، ثم يستمر في ممارسة الكتابة بشكل أوسع في مرحلة الدراسة في المسجد والمدرسة^(٦)، وكان الطلاب غالبًا ما يقومون بنقل الكتب التي يدرسونها من أساتذتهم سواء في المسجد أو المدرسة، فيقوم الأستاذ بمطابقة النسخة التي نقلها الطالب بنسخته لأن النقل الحرفي لكتاب الأستاذ شرط مهم من شروط الدراسة في تلك الفترة، وبعدها يقوم الطالب أو الأستاذ بوضع شروح الكتاب، أو تعليقات أو تهميشات، أو مختصرات، كما كان الأستاذ يملئ كتابه على الطلاب بعد الفراغ من تدريسه أو في أثنائها^(٧).

(١) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٠٣.

(٢) ابن سمره : المصدر السابق، ص ٢٤٠.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء، ج ٩، ص ١٤٧.

(٤) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٠٣، ١٢٢، الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢٤٠.

(٥) ابن سمره : نفس المصدر، ص ١٧٢؛ السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٢٥.

(٦) السروري : المرجع السابق والصفحة.

(٧) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٤٧٤؛ السروري : نفس المرجع والصفحة.

وإذا كان بالكتاب الذي درسه الطالب تعليقات أو غيرها ينقل الكتاب بتعليقاته موضحًا صاحب الكتاب وصاحب التعليق، والأستاذ الذي درس عليه الكتاب، وتسمى عملية الكتابة استنساخ، ويسمون الكتابة نسخة، وقد يكتب الأستاذ على الكتاب الذي نقله الطالب ودرسه عليه "إجازة" للطالب بهذا الكتاب، بعد أن يكون قد تفقه فيه^(١).

طريقة المناظرة والحوار والجدل :

وهي من أهم طرق التفقه، وعادة ما تُتبع في المرحلة الأخيرة من عملية التفقه العلمي وغالبًا ما تكون المناظرة بين العلماء أو الفقهاء أو بين فقهاء كبار وفقهاء جدد أو بين أصحاب مذهب ومذهب آخر، أو بين المدرس وطلابه أو بين الطلاب وبعضهم بإشراف المدرس ومن أمثلة ذلك :

في مجال المناظرة بين أصحاب مذهبين سنيين، كان الفقيه الإمام أبو بكر بن الإمام المحابي، يرحل إلى زبيد كل عام يناظر فيها فقهاء الحنفية وعلى رأسهم يومئذ القاضي محمد بن أبي عوف^(٢). كذلك الفقيه أبو الطيب بن الإمام يحيى بن أبي الخير ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المدحج، بين يدي عبدالنبي بن مهدي مرارًا، فقطعه واستظهر عليه^(٣).

وفي مجال المناظرة بين العقيدة فيما بين مذهبين أحدهما المذهب الشافعي والآخر المذهب الزيدي، هي محاولة القاضي الزيدي جعفر بن عبدالسلام النزول إلى اليمن الأسفل لمناظرة أهل السنة في العقائد، ومن مناظراته ما جرت مع تلميذ العمراني الشافعي المعروف بسيف السنة في مدينة إب، فاستظهر سيف السنة على القاضي جعفر^(٤). ولما عاد القاضي جعفر من اليمن كتب رسالة سماها "الدامغة" للحنابلة، فأجابه العمراني بكتاب "الانتصار" في مجلد فيه ما ألزم به القاضي جعفر من الجبر وقال أنه لا يقوم به أحد منهم. وألزم القاضي جعفر بالزامات كثيرة وقابل كل حجة يحتج بها بحجة تناقضها^(٥).

(١) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٦٨، السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٢٥.

(٢) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٢٨٢.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٦-١٨٨.

(٤) يحيى بن الحسين : أبناء الزمن، ق ٥٣. كان العمراني وتلميذه سيف السنة على مذهب الحنابلة، ثم اعتق مذهب الشافعي.

(٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق والصفحة.

رابعاً : وظائف التدريس :

اتبع الفقهاء المدرسون نظاماً وظيفياً في سلك التدريس فأوجدوا عدة درجات ومراتب وظيفية تنظم علاقتهم مع بعضهم، وتنظم سلطة كل واحد منهم وظيفياً في المدرسة أو المسجد، وشملت هذه الدرجات الوظيفية كل مراكز التعليم في اليمن، ومن هذه المراتب والدرجات الوظيفية " مرتبة " معيد والمقصود بها إعادة الدرس وقد عرفها القلقشندي بقوله : " المعيد وهو ثاني رتبة المدرس فيما تقدم وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه "(١).

ثم مرتبة " فقيه مدرس " وتحتل المرتبة التالية بعد رئاسة التدريس ويتولى شغلها تدريس العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأيضاً العلوم اللغوية من نحو وصرف ولغة، وانتشرت هذه المرتبة في جميع مراكز التدريس في اليمن، ويتولى هذه الوظيفة من بلغ درجة عالية في العلوم الدينية واللغوية^(٢)، فهي من أهم مراتب التدريس، ففي هذه المرتبة يتخصص الفقيه المدرس بتدريس علم واحد فيسمى باسم العلم الذي يُدرّسه مثل محدث لمن يدرس الحديث^(٣)، ومقرئ لمن يقرأ القرآن^(٤)، وقد يجمع بين تدريس عدد من العلوم مثل الفقه والحديث واللغة معاً، فيطلق عليه لقب إمام، وقد يتولى رئاسة هذا العلم، ومن ذلك كان الحافظ علي بن أبي بكر بن أحمد العرشاني إماماً في الحديث كما كان أبو محمد الحسن بن محمد بن أبي عقامة إماماً في عدد من العلوم^(٥).

أيضاً مرتبة " رئاسة تدريس " وهي أرفع المراتب الوظيفية في التدريس، وكان غالباً ما تضم إلى هذه الوظيفة رئاسة الفتوى، وممن تولى رئاسة التدريس والفتوى بزبيد، الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي القاسم بن حسن الذي عرف بابن الأبار والذي تفقه بابن عبدويه، واشتهر بهذه الوظيفة فكان مجلسه للتدريس مزدحماً بالطلبة^(٦). وكذلك الفقيه محمد بن عبدالله بن علي بن أبي عقامة المعروف بالحفايلي (ت ٥٥٤هـ)، انتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي في زبيد^(٧). ومن

(١) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٤.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٢٧.

(٣) القلقشندي : المصدر السابق والجزء والصفحة؛ ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن، ص ٢٨٢.

(٤) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٤٥٣.

(٥) الجندي : المصدر السابق والجزء، ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٦) الجندي : نفس المصدر والجزء، ص ٣٧٧.

(٧) ابن سمره : المصدر السابق، ص ٢٤٠.

العلماء الذين انتهت إليه رئاسة العلم والفتوى هو الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني (ت ٥٥٨هـ) فكان يُرحل إليه من نواحي كثيرة من اليمن لطلب العلم^(١).

خامساً : أوقات الدراسة :

كانت الدراسة في المدارس والكتاتيب تتم في الغالب من بعد صلاة الفجر حتى آذان الظهر وفي الكتاتيب كان الطلبة بعد تناول طعام الغداء يعودون للدراسة حتى صلاة المغرب، أما مدة الدراسة فكانت تستمر لمدة تسعة شهور تبدأ من أول شهر المحرم وتنتهي في آخر شهر ذي القعدة مع عطاء الطالب إجازة سنوية لمدة ثلاث شهور هي شعبان ورمضان وذي الحجة، فضلاً عن أيام الجمع والأعياد والمناسبات الدينية الأخرى والرسمية، كما كان طلاب المدارس الريفية يأخذون إجازاتهم في مواسم الحصاد ومدتها شهرين^(٢).

سادساً : الإجازات :

كان أكبر اهتمام المسلمين في الفترة الإسلامية هو تحصيل العلوم والتفقه بها، ولا يطلبون لذلك شهادات، فشهادة الفقيه أو العالم هو علمه الذي يعبر عنه بلسانه أو فكره أو قلمه، وكانوا إذا أرادوا أن يعرفوا علم الشخص، يناقشه العلماء المشهورين ويلاحظونه في العلوم فإذا رأوه عارفاً بالعلوم شهدوا له بأنه عالم، ومجرد شهادة العلماء المشهود لهم بالعلم لأي عالم بالعلم والمعرفة، تعتبر أقوى الشهادات على موجب ذلك يستطيع بعدها الفقيه التوظيف في القضاء أو التدريس^(٣).

من ذلك أن الفقيه أبا الطيب طاهر بن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني، ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المدحج، بين يدي عبد النبي بن مهدي مراراً، فقطعه واستظهر عليه، فولاه ابن مهدي قضاء ذي جبلة وأعمالها^(٤).

ومع ذلك وُجِدَتْ شهادات علمية أو إجازات تبرهن بالدرجة الأولى أن الطالب درس على أحد الفقهاء المشهورين، كما أنها تعبر عن الأستاذ الذي درس عنده الطالب ومقدار شهرته، كما تعبر عن الكتاب الذي درسه الطالب وشهرة هذا الكتاب وما يحويه من علم، وكذلك تعبر عن نوعية الدراسة، فهي قراءة أو سماع أم تفقه، وتسمى الإجازة في الفقه "إجازة" فقط والإجازة في

(١) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٧٤.

(٢) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٢١١. فكان يخص شهر شعبان لقراءة صحيح البخاري، وشهر رمضان لأنه شهر الصوم، وشهر ذي الحجة لأنه شهر الحج.

(٣) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، ص ٢٣٦.

(٤) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٨٦-١٨٨.

الحديث تسمى " مسموعات "، وعلى ذلك يوجد هناك العديد من الإجازات، منها : إجازة سماع، وإجازة بكتاب، وإجازة بمؤلفات عالم وإجازاته، وإجازة عامة^(١).

كانت إجازة السماع، غالبًا ما تطلق على كتب الحديث، فعندما يُفْتَي الطالب من سماع كتب الحديث وقراءتها على أستاذه يمنحه الأستاذ إجازة في الكتاب الذي أسمعته إياه.

وكانت إجازة السماع تكتب على نسخ الكتب التي يدرس بها الطالب، فمثلاً قرأ القاضي جعفر بن عبدالسلام على القاضي أحمد بن الحسن الكني ومن جملة ما قرأ كتاب " الزيادات " فمنحه إجازة السمع بهذا الكتاب^(٢).

أما الإجازة في كتاب، فتمنح لمن درس الكتاب المجاز به وهي تدل على أنه تفقه بكتاب فلان، وهذا الكتاب المجاز به له شهرته ومكانته لدى العلماء، وكذلك الأستاذ الذي تولى تدريسه، ومن خلال هذه الإجازة يستطيع العلماء الآخرون أن يقيموا الطالب علميًا من خلال الكتاب والأستاذ الذي منح الطالب الإجازة، ومن أمثلة ذلك أن منح إجازة في كتاب الشيخ أبي السعود بن خيران المولود سنة ٥١٨هـ / ١٢٤م الذي درس على الإمام يحيى بن أبي الخير الفقه والقراءات، فأجازه في كتاب " الملخص " في الجدل لابن عبدويه^(٣).

أما الإجازة العامة، فكانت تمنح من فقيه لآخر في كتبه وجميع العلوم التي أخذها، وقد تمنح الإجازة الفقهية من شيوخ البلدان سواء كانت الإجازة لتدريس مؤلفاتهم أو تدريس الكتب التي أجزوا بها، من ذلك أن الفقيه طاهر بن يحيى بن أبي الخير العمراني عندما سكن مكة بأهله بعد هروبه من ابن مهدي من اليمن، وصلته الإجازات من الشيوخ في البلدان^(٤).

وكانت الإجازات تمنح من الفقيه إلى جميع تلاميذه، إلا الذين يخالفونهم في الإجابة على المسائل الفقهية، من ذلك أن الفقيه سيف السنة أحمد بن محمد البريهي أجاز أصحابه كلهم عدا الفقيه الذي خالفه^(٥).

من كل ذلك يتضح لنا أن الإجازة تعني السماح للمجاز له بتدريس الكتاب أو الكتب المجاز بها في العلوم الدينية واللغوية.

(١) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٣٦٨-٣٦٩؛ السروري : المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٢) السروري : مظاهر الحضارة باليمن، هامش ص ٢٣٧.

(٣) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن، ص ١٩٢.

(٤) الجندي : السلوك، ج ١، ص ٤٢٥.

(٥) ابن سمرة : المصدر السابق، ص ١٩١.

الخاتمة

يتضح مما سبق دراسته أن علي بن مهدي ظل فترة طويلة يناضل من أجل إقامة دولته في زبيد والقضاء على الدولة النجاحية، بلغت ما يقارب العشرين سنة، شُن فيها العديد من الغارات وخاض العديد من المعارك مع رجال الدولة النجاحية في زبيد، وذلك بسبب اتهام علي بن مهدي للنجاحيين بالظلم والفساد، وعدم القبول بحكمهم، حيث ظل يحاربهم حتى حقق الانتصار عليهم واستولى على زبيد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م دون أن يوالي أيًا من الخلافتين العباسية أو الفاطمية.

وقد استخدم علي بن مهدي أسلوب الدعوة الدينية في تكوين دولته التي تميل إلى الصوفية حيث بدأ بالتسك والتعبد والحج ودعوة الناس إلى معرفة الدين حتى جذب إليه الكثير من الناس، وبعد ذلك تحول إلى الدعوة السياسية وأمال من أجل إسقاط الدولة التي اعتبرها خارجة عن الدين.

وبعد أن تمكن علي بن مهدي من تكوين دولته ورث أبناءه الحكم بعد وفاته فعملوا على التوسع في أنحاء اليمن فاستولوا على معظم اليمن الأسفل مثل الجند وتعرز وذي جبلة من الزريعيين الذين كانوا إسماعيلية.

واستمر الصراع بين بني مهدي من جهة وبني زريع حكام عدن من جهة أخرى، مما جعل القبائل اليمنية المختلفة في اليمن تخاف من توسع بني مهدي نحو مناطقهم وخاصة دولة بني زريع في عدن وبني حاتم في صنعاء وبني جنب في ذمار، فعملوا على التحالف لمحاربتهم والحد من التوسع وكان ذلك حينما اتجه بنو زريع للاستعانة بهم، ونجح هذا التحالف القبلي من هزيمة بني مهدي والحد من توسعهم واسترجاع بعض مناطق الزريعيين في اليمن الأسفل، وأثناء ذلك الصراع القائم في اليمن بين دويلاتها قدم إليهم من مصر جيش جديد ودولة ناشئة جديدة، هي الدولة الأيوبية، فتمكنت من القضاء على دولة بني مهدي وكل دويلات اليمن المتعددة وتوحيد اليمن تحت نفوذهم لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة للحكم الأيوبي في اليمن.

وقد خلصت الدراسة لبعض السلبات في حكم دولة بني مهدي، والتي ساعدت على انتهاء الدولة التي لم يطل حكمها أكثر من خمسة عشر عامًا، بداية من نظام التوريث في

الحكم حيث أنه أوجد في بعض الأحيان صراعًا بين أبناء علي بن مهدي، حتى تمكن أحدهم من أن ينحي أخيه عن الحكم منفردًا به لنفسه.

وعلى السعي السياسي أيضًا، افترقت الدولة وجود نظام وزاري معاون للحكم، كذلك عدم وجود إدارات مالية، ودواوين حكومية تدار من خلالها الدولة، وهو الأمر الذي أدى إلى تركيز الحكم في يد علي بن مهدي وأبنائه من بعده.

وجدير بالذكر أن أهم العوامل التي أسرعت بنهاية هذه الدولة هي السياسة العسكرية التي اتسمت بالشدة والعنف وسفك الدماء والغزو المستمر على مختلف البلدان اليمنية والاستيلاء عليها بهدف التوسع وزيادة النفوذ وامتلاك الأراضي شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، مما أوغر في صدر أصحابها الانتقام منها والاستعانة بالقوى الداخلية والخارجية لمناهضة هذه الدولة والقضاء عليها.

ومما لا شك فيه أن آخر حكام دولة بني مهدي (عبد النبي) كان له كبير الأثر على الصعيد السياسي والحربي، حيث أنه تمتع بقوة غاشمة وسياسة توسعية بحد السيف هددت كثير من البلدان اليمنية وساعده في ذلك طول سني حكمه والتي بلغت عشر سنوات، تمكن من خلالها إلى الوصول بالدولة إلى أوج قوتها واثرائها، إضافة إلى ذلك امتلاك كثير من الحصون أو شرائها عنوة مع الاحتفاظ بكثير من الكنوز الثمينة.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان لزبيد دورًا حضاريًا برز في كافة مجالات الحياة، فعلى الصعيد الاقتصادي، برع أهل زبيد في ميدان الزراعة وكل ما يختص بها من أساليب الزراعة كالتمديد والحرث والبذر، وكذلك الري بمياه الأنهار أو الينابيع والعيون وحفر الآبار وإنشاء الصهاريج لتخزين المياه، وتنمية الحاصلات الزراعية، وخاصة الدخن والذرة لاعتبارهما من الغذاء الرئيسي لأهل زبيد، مع الاعتناء بطرق تخزين الغلال، تحسبًا لاضطراب الأحوال الاقتصادية في بعض الأوقات نتيجة لسياسة حكام الدولة والتي اتسمت بالحروب المستمرة.

كما خلصت الدراسة إلى أن مدينة زبيد في عهد دولة بني مهدي، اشتهرت بكثير من الصناعات التي تميزت بها عن غيرها من البلدان اليمنية ومنها صناعة المنسوجات وما يقوم عليها من ملابس، كالبرود الزبيدية من الكتان أو الحرير والبيرم من القطن، والسباقيات من

الحريير الخالص أو الممزوج بالكتان، ويبلغ طول الواحد سبعة أذرع في عرض أربعة أذرع، واستخدام الصباغ الطبيعية والزخرفة لتجميلها، فاعتمد النساجون في زبيد على الأصباغ النباتية سواء كانت المحلية أو المستوردة، التي كان يتم خلطها ببعض العطور لتفوح الملابس بالرائحة العطرية الجميلة، ومن أشهر الأصباغ والتلوين نبات النيل أو النيلة، والزعفران والورس والعصفر والفوة التي كانت من أهم السلع اليمنية التي تأتي من عدن إلى زبيد.

كذلك اشتهرت زبيد بالصناعات الجلدية ودباغة الجلود لتوفر شجرة " النبق " التي تستخدم في دبغ الجلود ووجود جلود النمر بكثرة والتي تستوردها زبيد من جزيرة دهلك، ومن المصنوعات الجلدية التي تميزت في زبيد السروج الخاصة بالخيول والإبل وتسمى القربوس، وحقيبة حمل السهام وتسمى الكنانة، والدعاء الذي يحفظ فيه السيف وكل ما يخص راكب الدواب، هذا فضلاً عن الأتطاع الصنت التي لا ينفذ منها الماء لمتانة صنعها، وقد ذخرت الجلود بزخارف ورسوم ملونة جميلة، وكل ذلك يوضح ضخامة إنتاج زبيد من جلود والدليل على ذلك ما يدفعه الضامن للمدبغة والذي يصل إلى ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً.

كما تميزت زبيد ببعض الصناعات الأخرى كصناعة العطور والنبذ وأيضاً الصناعات الغذائية ومنها المربي التي تفتن أهل زبيد صنعها.

أما عن الصناعات المعدنية فمنها صناعة الحلبي التي اشتهرت به زبيد لوجود معدن البردخر أو اللازورد والزمرد العالي الجودة اللذان تقوم عليهما الصياغة بالإضافة إلى معدن العقيق والجزع الذي يأتي من جبل نغم قرب صنعاء، كما تصنع قوائم السيوف ومقابض السكاكين بجانب صناعة الأسلحة كالسيوف والخناجر، والأدوات التي يعتمد عليها الفلاح في زراعته كالقؤوس والمحاريث والمساحي والمناجل.

أما بالنسبة للتجارة في زبيد فقد نشطت نشاطاً كبيراً عدا بعض الأوقات التي اضطربت فيها الأحوال السياسية وكثرت الحروب، فكانت الحركة التجارية بين القرى والمدن اليمنية نشيطة وخاصة القرى القريبة من ساحل زبيد فكانت تصدر للمدن الأصناف العديدة من منتجاتها سواء الزراعية أو الصناعية أو المواد الخام وأهمها الأخشاب التي تستخدم في العمارة، وكانت الأسواق مركز الحركة التجارية في زبيد وهي يومية أو أسبوعية أو موسمية

يلتقي فيها التجار من كل أنحاء اليمن، ولعل أشهر الأسواق الموسمية التي قامت في زبيد كانت في موسم حصاد النخيل.

ولما كانت زبيد تحتل موقعًا هامًا بين شمال تهامة وجنوبها باعتبارها امتدادًا طبيعيًا لميناء غلافة فرضة عدن فقد تجمع فيها تجار من اليمن والحجاز والحبشة ومصر ومنها كانت تخرج بضائع للهند والصين.

وبالنسبة للمعاملات المالية، استطاعت الدراسة أن تثبت وجود عملة نادرة خاصة بحاكم دولة بني مهدي وهو عبدالنبي، وهي عبارة عن درهمن أحدهما ضرب في زبيد سنة ٥٥٩هـ والآخر في سنة ٥٦٦هـ، وتوضيح البيانات الخاصة بالعملة من خلال الدراسة التحليلية وما أثير حولهما من القضايا مع تقديم الدلائل التاريخية التي تثبت أو تنفي هذه القضايا.

وعلى الصعيد الاجتماعي كان للقبائل دورها كوحدة أساسية في المجتمع الزبيدي، والتي سُميت المناطق في زبيد بأسمائها وأهمها جُمَيْر ومنها خَوْلَان، وكهلان ومنها هَمْدَان وكان لهما شأنًا كبيرًا سياسيًا ومذهبيًا خاصة من قبل زعمائها الذين أسهموا بدور كبير في ضعف دولة بني مهدي والقضاء عليها. كما تواجدت عناصر أهل الذمة من يهود ونصارى للمشاركة في أعمال التجارة في زبيد، سعيًا وراء المكاسب المالية، إلا أن دولة بني مهدي أساءت معاملتهم مما أدى إلى انزوائهم في أماكن وأحياء خاصة بهم يمارسون فيها شعائر دينهم بعيدًا عن الحياة العامة في زبيد.

وجدير بالذكر أن علي بن مهدي أول من أطلق على بقايا الأحباش من الدولة النجادية بعد القضاء على دولتهم، لقب الأخدام، بعد بيعته الثانية، عندما أقسم أن يجعل منهم خدامًا للمجتمع اليمني.

كما كان لطبقة العلماء من فقهاء وقضاء ومحدثين ومفسرين وقراء دور كبير بجانب الأدباء والشعراء، في الحياة الاجتماعية والثقافية، على الرغم من اضطهاد دولة بني مهدي لكثير منهم مما أدى لفرار أغلبهم إلى البلدان المجاورة أو الجبال أو إلى مكة هربًا وخوفًا من بطش بني مهدي.

ولم دور طبقة العامة من أهل زبيد في الأحداث السياسية زمن دولة بني مهدي عدا محاولة الاستتجاد بالإمام الزيدي أحمد بن سليمان سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، ليصد عنهم محاولات علي بن مهدي لدخوله زبيد والسيطرة عليها.

ومن لم الظواهر الاجتماعية التي تميز بها أهل زبيد عن غيرهم في العادات والتقاليد والاحتفالات الخاصة بموسم النخيل السنوي، وكان يستمر لثلاثة أشهر، يأتي خلاله اليمنيون من كل أنحاء اليمن، هذا فضلاً عن الاحتفال بسبوت النخيل في كل سبت والخروج إلى حدائق النخيل.

ومن الناحية العمرانية ترك آل مهدي بعض الآثار التي توضح دورهم في زبيد ومنها السور الثالث الذي تم بناؤه حول زبيد، وكذلك بناء المشهد الذي دفن فيه علي بن مهدي ومهدي بن علي بن مهدي، وجُعلَ جامعاً يُصَلَّى فيه الجمعة.

كما تعددت مجالات التأثير الثقافي فشملت تنوع المذاهب الإسلامية في زبيد واليمن الذي أدى إلى تنوع الثقافات الدينية وظهور المؤلفات التي يناقش ويشرح فيها مؤلفوها مذاهبهم ويبرزون سماتها ومميزاتها ويردون على المذاهب الأخرى، ويدحضون حجج معارضتهم بالمجالس والمناظرات العلمية المختلفة، غير أن المذاهب الرئيسية التي انتشرت في بلاد اليمن وكان لها تأثير على حياة الناس السياسية والدينية والاجتماعية هي مذاهب الشافعية والزيدية والإسماعيلية.

وكان ذلك دون شك له تأثير على الأدب وفنونه، الذي تأثر بالتيارات الموجودة في زبيد واليمن، وأيضاً الواقعة على اليمن، من أفكار ومبادئ خاصة بالتعاليم الإسماعيلية أو الزيدية وآراء المعتزلة التي ورد كتبها إلى اليمن القاضي جعفر بن عبدالسلام، هذا بجانب توثيق العلاقات الثقافية بين اليمن وغيرها من البلاد، ومنها مصر على سبيل المثال، فتعددت رحلات الأدباء والشعراء والمؤرخين إليها فمنها رحلة ابن الزبير الأسواني ومنها رحلة عمارة اليمني التي أثمرت كتبه القيمة عن تاريخ اليمن وشعرائها وعن الوزارات المصرية التي عاصرها، هذا بجانب ديوان شعره.

إن ساهمت زبيد وغيرها من البلدان اليمنية في العطاء الفكري ونشر الثقافة اليمنية إلى كثير من البلاد الإسلامية امتداداً بفترة حكم دولة بني مهدي في اليمن.

وأخيراً جاءت نهاية الأسرة الحاكمة لهذه الدولة، فكانت عنيفة كسياستها مع الرعية والبلدان المجاورة، عندما أمر تورانشاه شنق أولاد بني مهدي على باب خان زبيد، وكانوا وقتئذ، عبدالنبي، وأحمد ويحيى، وكان ذلك سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م.

اللاحق

ملحق (١)

قائمة حكام دولة بني مهدي في زبيد

الاسم	مدة الحكم
علي بن مهدي بن محمد الرعيني	١٤ رجب ٥٥٤هـ / يوليو ١١٥٩م إلى ٦ شوال ٥٥٤هـ / أكتوبر ١١٥٩م
مهدي بن علي بن مهدي	شوال ٥٥٤هـ / أكتوبر ١١٥٩م إلى محرم ٥٥٩هـ / نوفمبر ١١٦٣م
عبدالنبي بن علي بن مهدي	محرم ٥٥٩هـ / نوفمبر ١١٦٣م إلى ربيع الأول ٥٦٩هـ / أكتوبر ١١٧٤م

ملحق (٢)

الخطبة التي ألقاها علي بن مهدي على أتباعه

بعد وفاة الملكة (علم) سنة ٥٤٥ هـ

" والله ما جعل الله فناء الحبشة إلا بي وبكم، وعما قليل إن شاء الله سوف تعلمون والله العظيم رب موسى وإبراهيم، أني عليهم ريح عاد وصيحة ثمود، وإنني أحدثكم فلا أكذبكم، وأعدكم فلا أخلفكم، ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلاً لتكثرن، أو وضعاء لتشرفن، أو أذلاء لتعزن حتى تصيروا مثلاً في العرب والعجم. ليجزي الله ﴿ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾^(١) فالأناة، الأناة، فوحق الله العظيم على كل مؤمن موحد لأخدمكم بنات الحبشة وأخواتهم ولأخولكم أموالهم وأولادهم ثم قرأ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾^(٢).

من كتاب عمارة : تاريخ اليمن، ص ٣١٨، حاشية رقم (٩٦).

(١) سورة النجم، آية ٣١.

(٢) سورة النور، آية ٥٥.

ملحق (٣)

**رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي المستضيئ
بأمر الله يخبره بمجهوداته وفتوحاته المتعددة في مصر والمغرب واليمن،
ويخبره بنتائج حملة تورانشاه إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م**

وجاء في تلك الرسالة ما يلي : " وكان باليمن ما عُلِمَ من أمر ابن مهدي، الضَّالِّ المَلحد، المبتدع، المتمرد، وله آثار في الإسلام، طالبه النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه سبى الشرائف الصالحات^(١)، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس ودان ببذعة ودعا إلى قبر أبيه وسماه الكعبة، وأخذ الأموال فأنهضنا أخانا بعسكرنا — بعد أن تكلفنا له نفقات وأسلحة رائعة — وسار فأخذناه والحمد لله، وأنجز الله فيه القصد " .

وبعد أن استعرض صلاح الدين فتوحاته وحروبه قال : " والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة ... ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد " .

(١) المقصود بالشرائف الصالحات المشار إليهن في هذه الرسالة، هن نساء الأمير قاسم بن غانم السليمانى .
- ابن واصل : مفرج الكروب، ج٢، ص٤٨٦-٤٩٣؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص٢٤١، ٢٤٤ .

ملحق (٤)

من كتاب صلاح الدين إلى نور الدين في أمر المصلّبين وفي جملتهم عمارة اليمن

" قصر هذه الخدمة على متجدد سار في الإثم، والمملوك لم يزل يتوسّم من جُنْد مصر وأهل القصر أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام، ولم تزل عيونهم بمقاصدهم موكّلة، وخطراته في التحرّز منهم مستعملة، لا يخلو شهر من مكر يجتمعون عليه، وحيلة يبرمونها. وكان أكثر ما يستروحون إليه المكاتبات إلى الفرنج، فسير ملك الفرنج كاتبه، " جُرْج " رسولا إلينا ظاهرا، وإليهم باطنا.

والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يبسطوا عقابا مؤلما، وإذا طال لهم الاعتقاد خلى سبيلهم. ولا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة. وعند وصول " جُرْج " ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مُخاتلة لا رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية. فأوهمناه الإغفال، فتوصل مرة بالخروج إلى الكنيسة إلى الاجتماع بحاشية القصر وأعوانهم، فتأت إلينا أحوالهم فأمسكنا جماعة متمردة قد اشتملت على الاعتقادات المارقة وكلّا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعا، ومنهم أقر بعد الضرب، وانكشفت المكتومات، وعيّنوا خليفة ووزيرا.

وكانت " سنانا " صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، واستدعوا منه من يغتال المملوك. وكان الرسول خال ابن قرجلة، فقتل الله تعالى بسيف الشرع والفتاوى جماعة من الغواة الدعاة إلى النار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبع لأتباعهم، وشردت الإسماعيلية، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد والحاشية في القصر إلى أقصى الصعيد، وشر الإسماعيلية، ... " (١).

(١) شمس الدين بن عثمان الذهبي : تاريخ الإسلام عن حوادث وفيات ٥٦١-٧٠هـ، ص ٣٣٦، ٣٦٧.

ملحق (٥)

جزء من قصيدة للمؤرخ عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي

يؤرخ شعراً لدولة بني مهدي والفتح الأيوبي لليمن

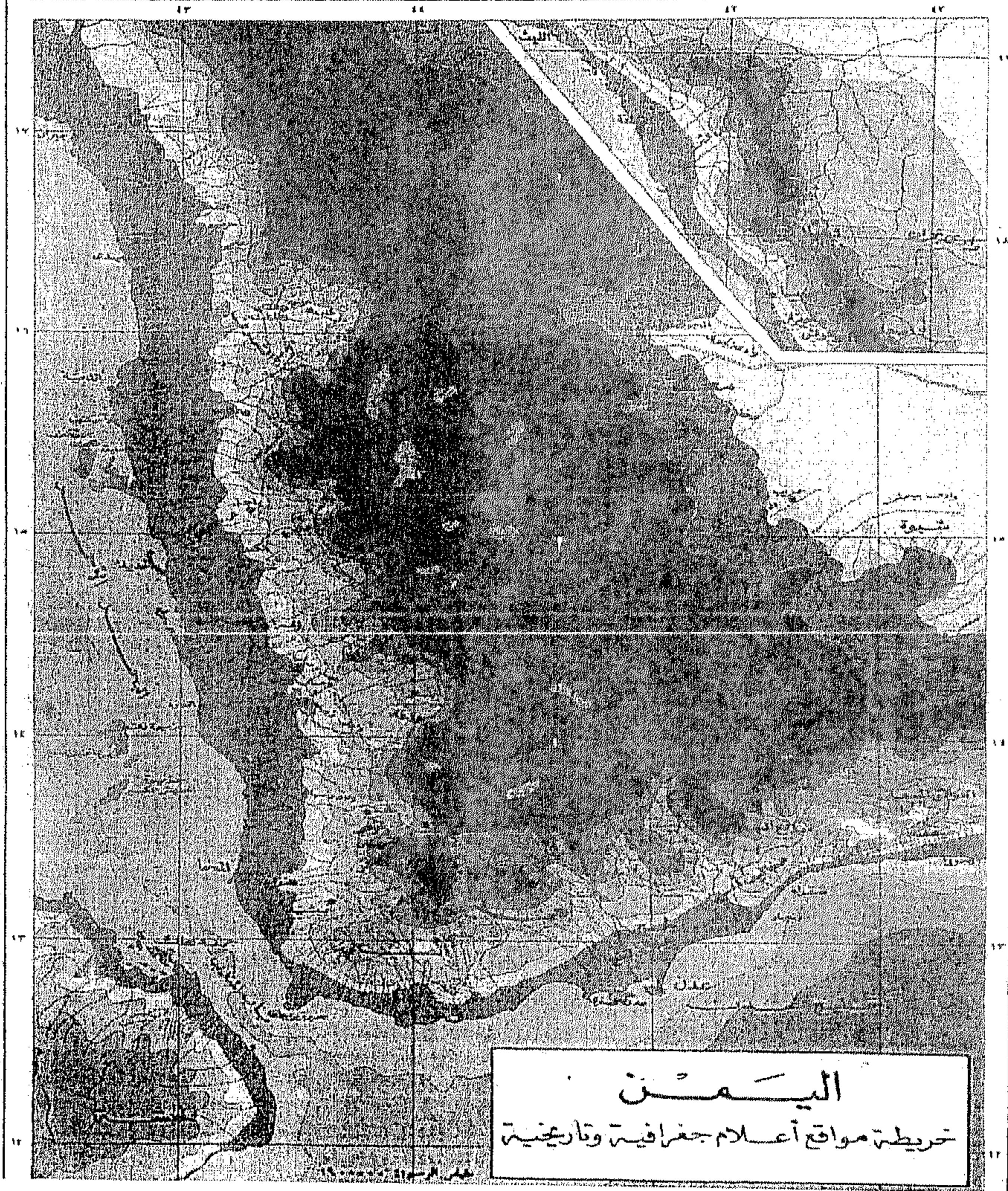
وقام في الملك ابن مهدي علي	سنة أربع ولنا أن ولي
مات بعامة فقام مهدي	ولده في الملك ثم آردى
بالموت عام ثمان الخمسين	بعد الماء الخمس بغير تخمين
ثم ولي عبدالنبي أخوه	بعده ومات فاعلموه
للتسع وستين وخمسمائة	قد انقضت من سنوات الهجرة
مدتهم في الملك خمس عشرة	رأى بها دين الهدى ما يكره
وطلب السدين عزيز النصرة	فحازه توران رب الشهرة
وذاك بعد قتله عبدالنبي	فاحفظ هديت ما أقول تصب
ثم ولي توران شاه ملك اليمن	ثم أخوه طغتكين ذو المتن

ملحق (٦)

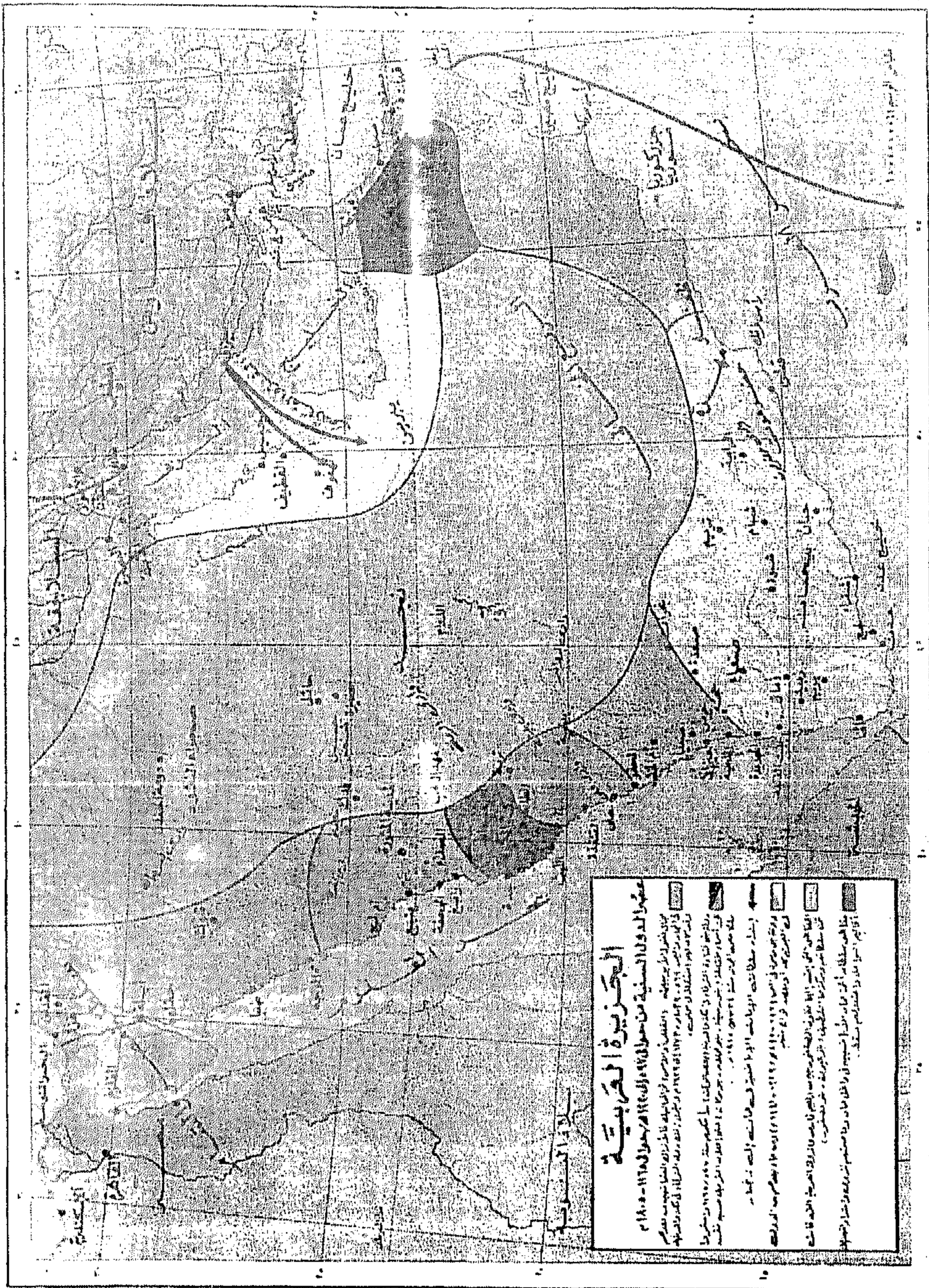
الخرائط والصور

أولاً : الخرائط :

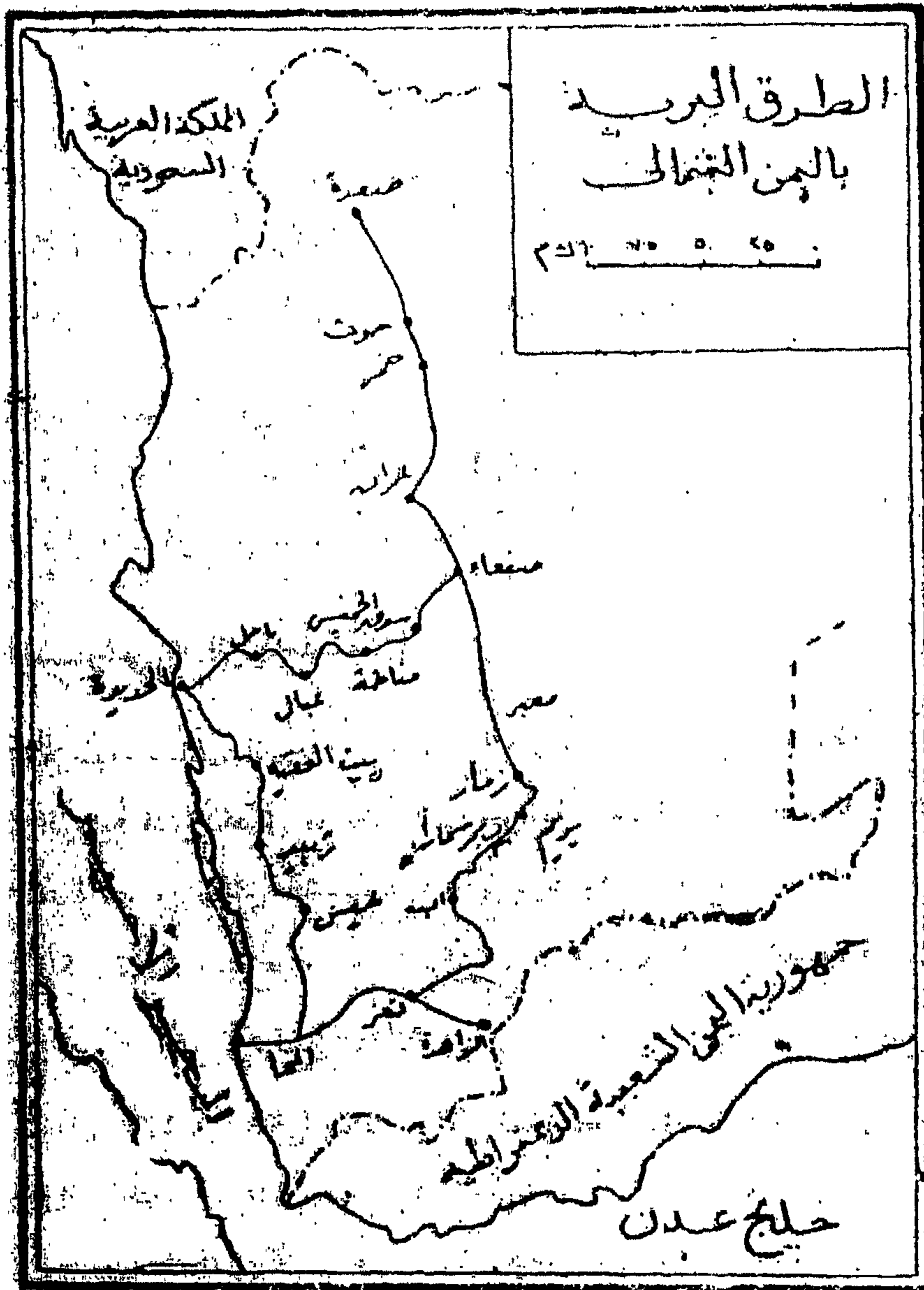
خريطة ١٠١



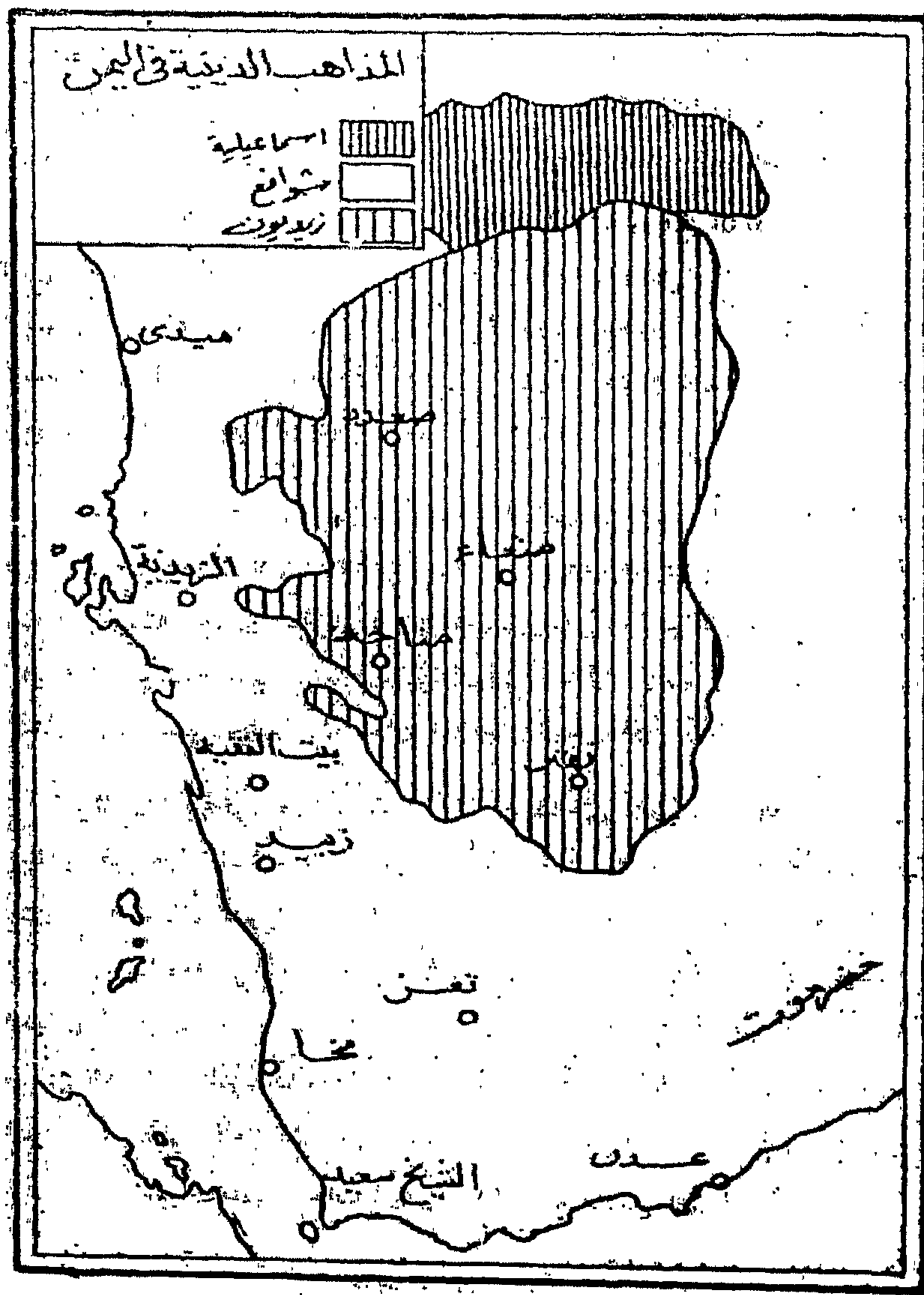
نقلاً عن كتاب أطلس تاريخ الإسلام، للدكتور حسين مؤنس، ص ١٩٥



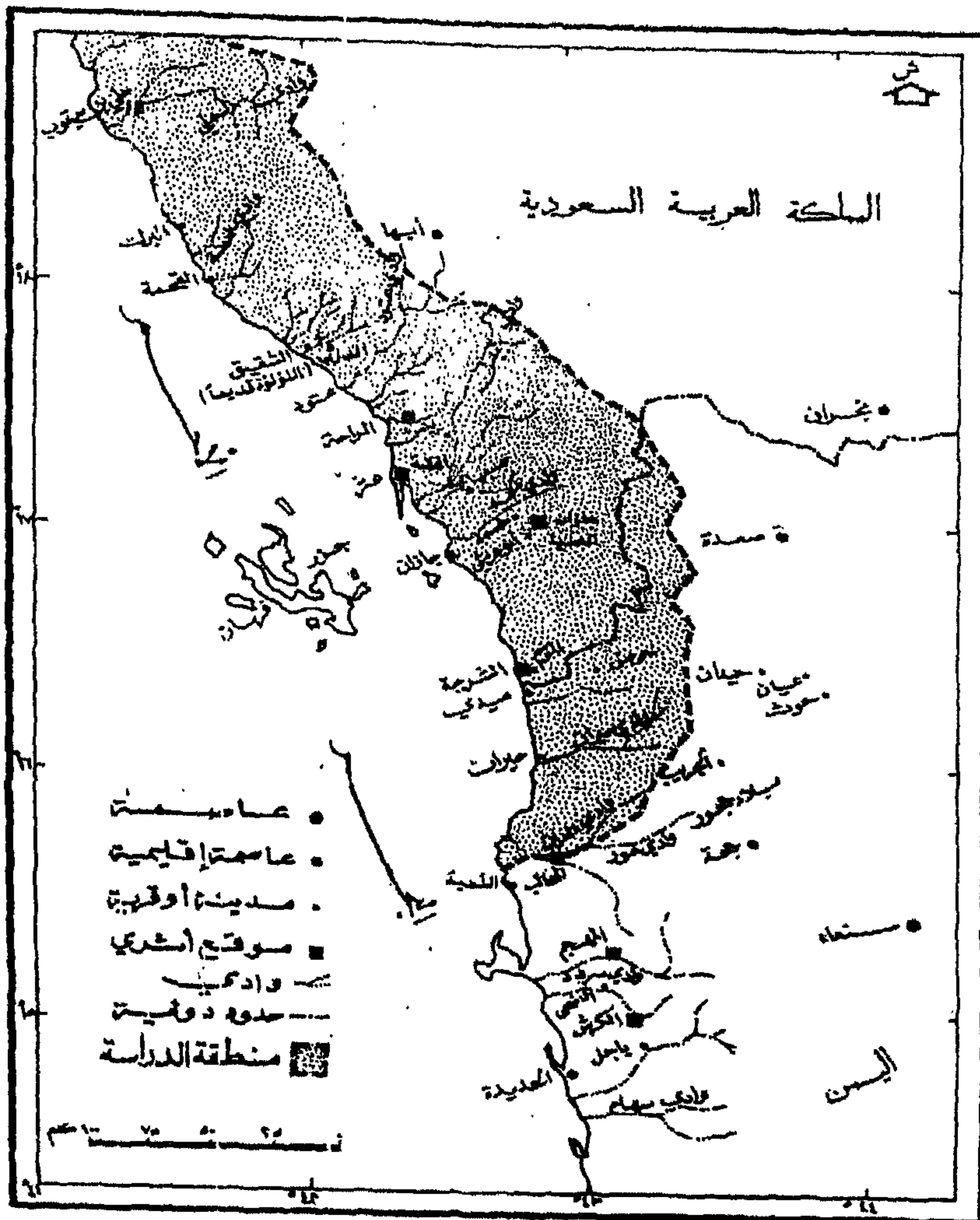
نقلًا عن كتاب أطلس تاريخ الإسلام، للدكتور حسين مؤنس، ص ١٩٧



نقلًا عن كتاب شبه الجزيرة العربية دراسة في الجغرافية الإقليمية للدكتور جودة حسنين جودة



نقلًا عن كتاب شبه الجزيرة العربية دراسة في الجغرافية الإقليمية للدكتور جودة حسنين جودة



خريطة رقم (٣)
المخلاف السليماني منطقة جازان في بعض فترات الدراسة

من كتاب جازان المخلاف السليماني في الجزيرة العربية، أحمد بن عمر الزيلعي، الدار العربية
للموسوعات، ط ١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

أسر الأشراف السليمانيين بالمخلاف السليمانى أو منطقة جازان

علي بن أبي طالب

الحسن السبط

الحسن المثنى

عبدالله المحض

موسى الجون

عبدالله الشيخ الصالح

سليمان داود

أبو الفاتك عبدالله

عبدالرحمن

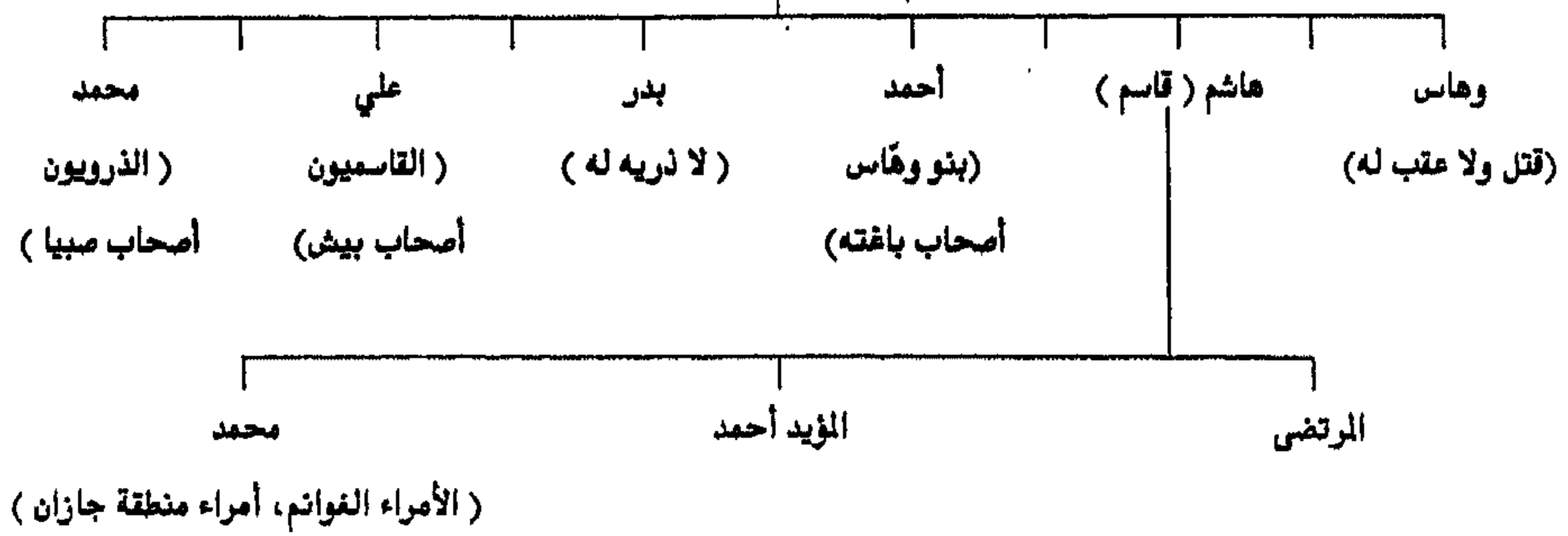
الطبيب داود

وهّاس

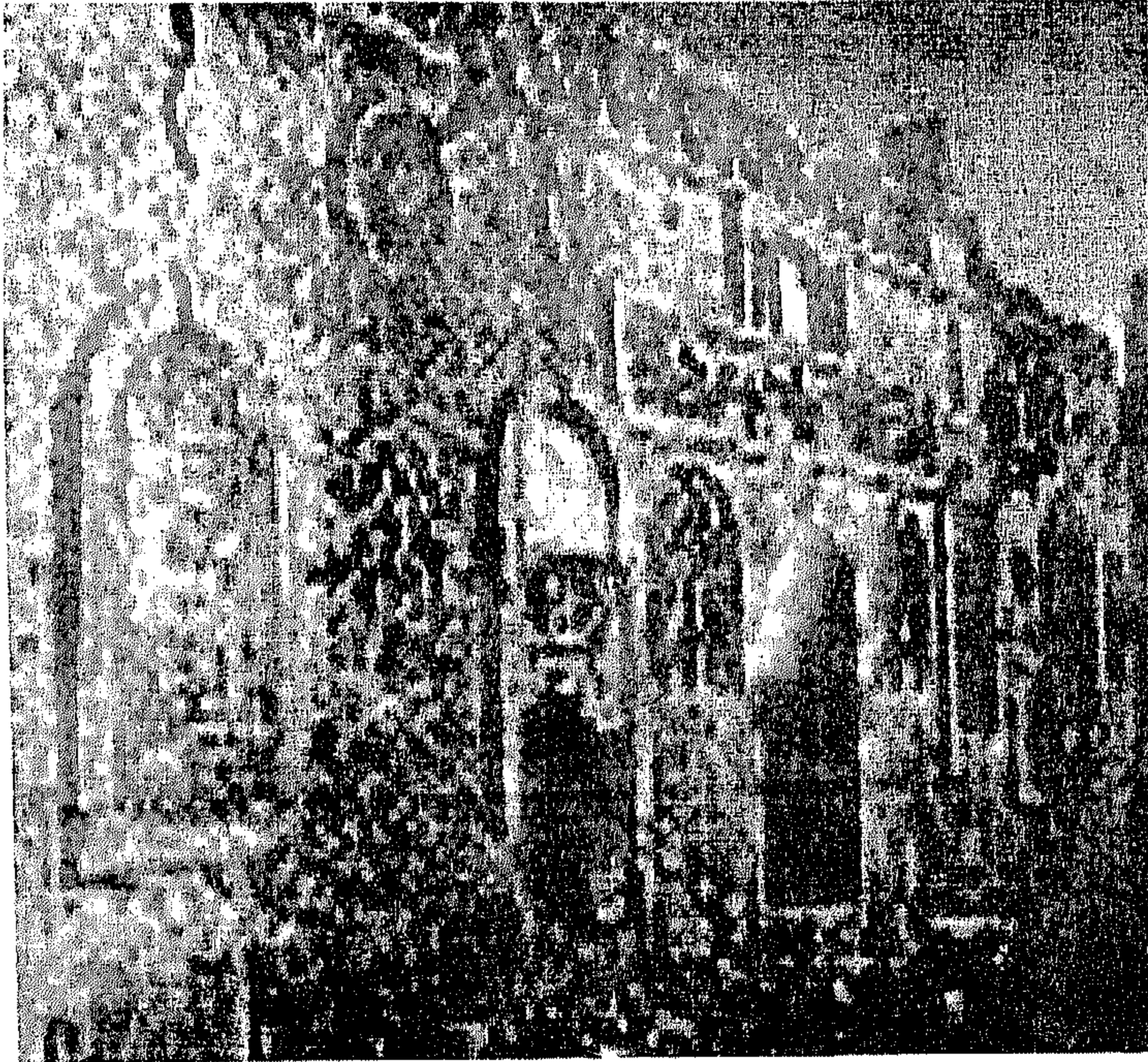
حمزة

يحيى

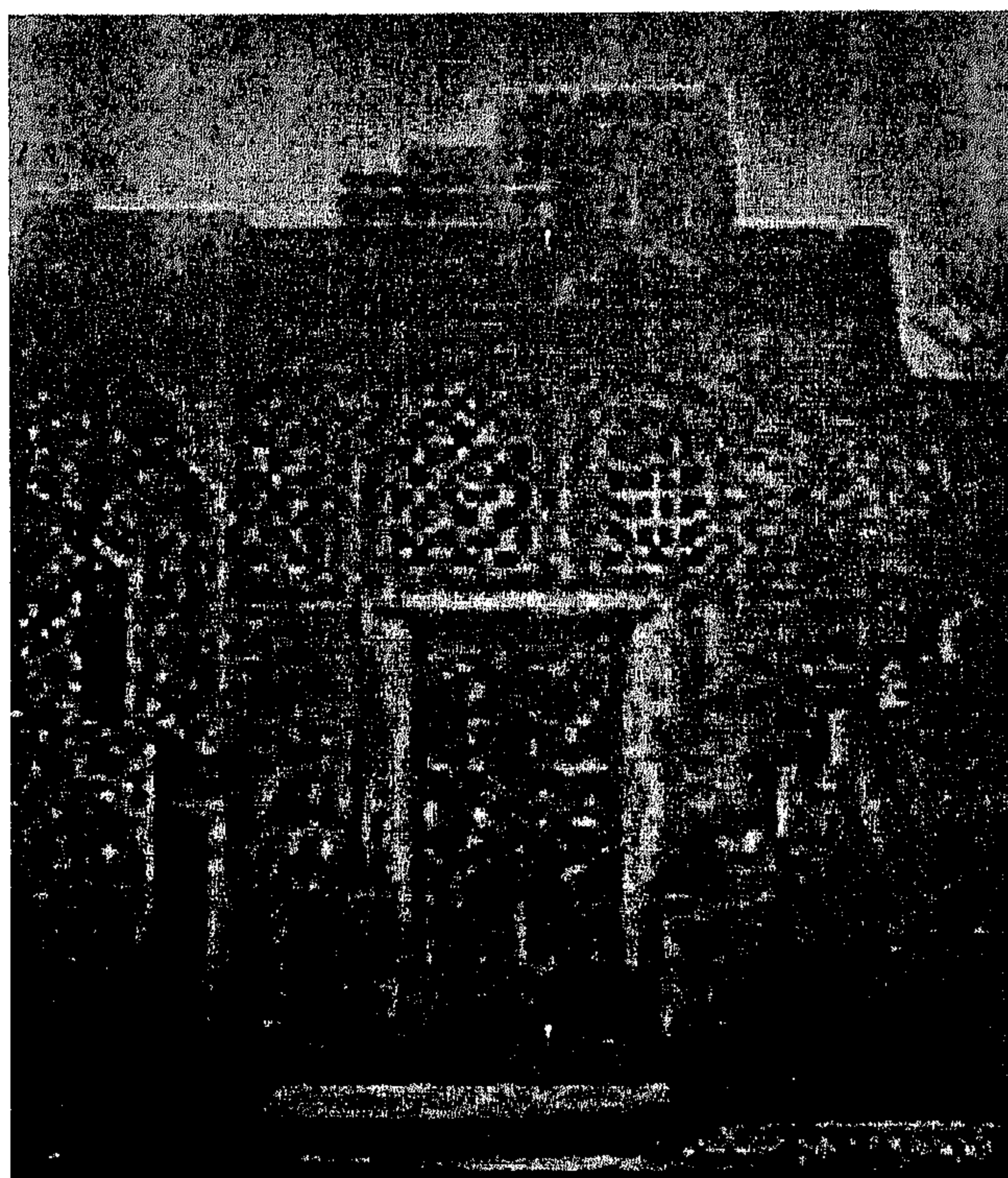
أبو الغارات غانم



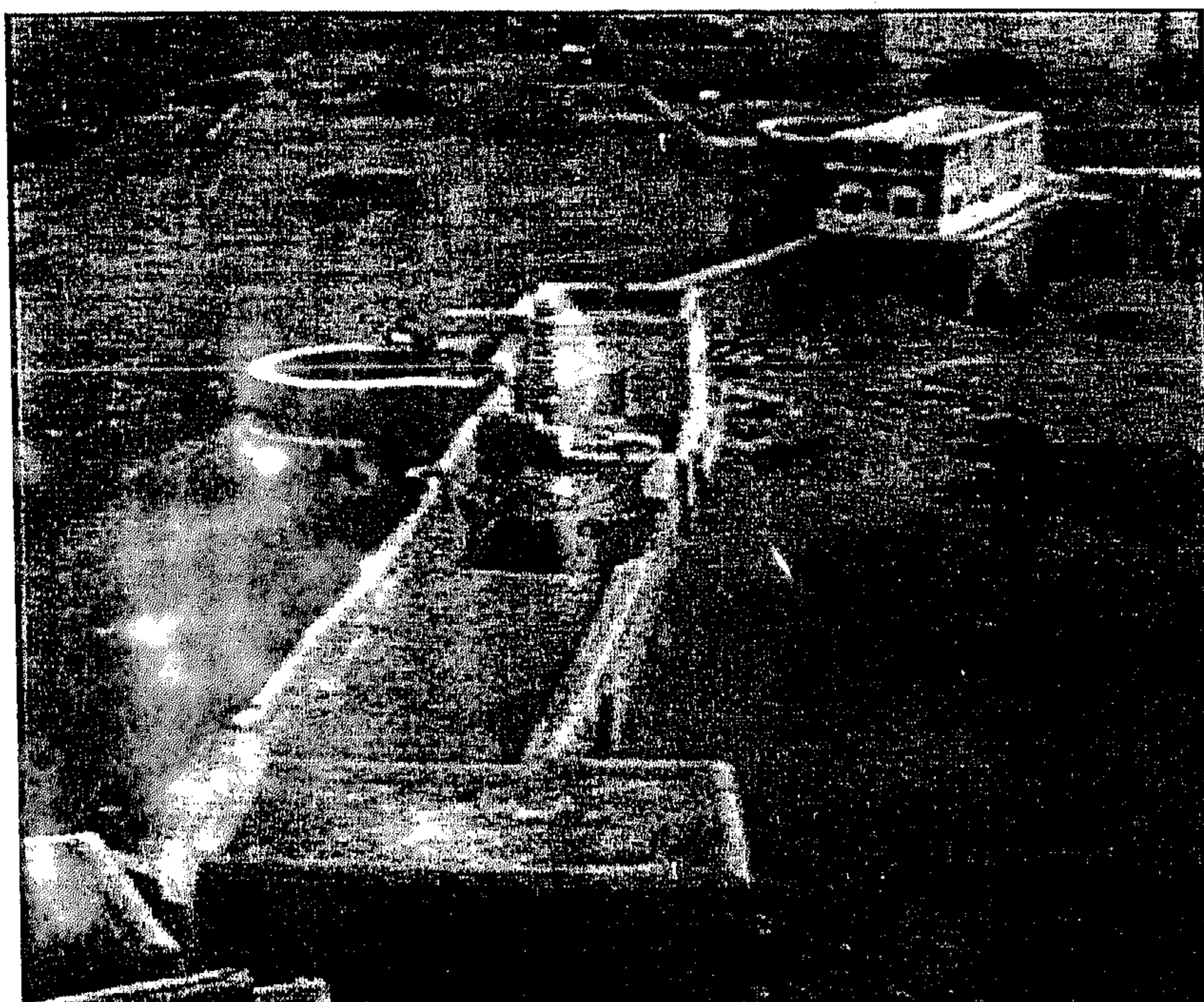
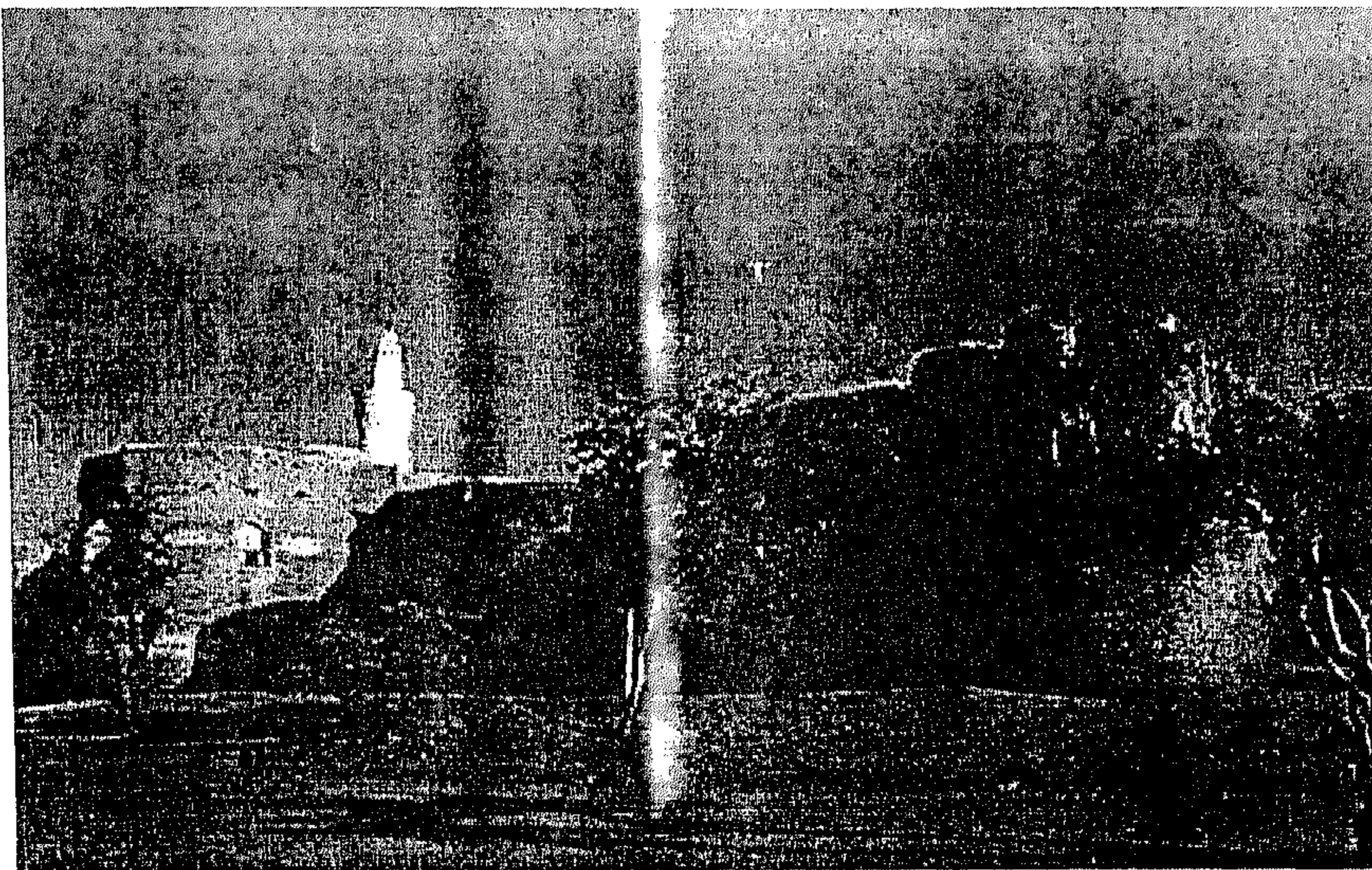
ثانياً : الصور :



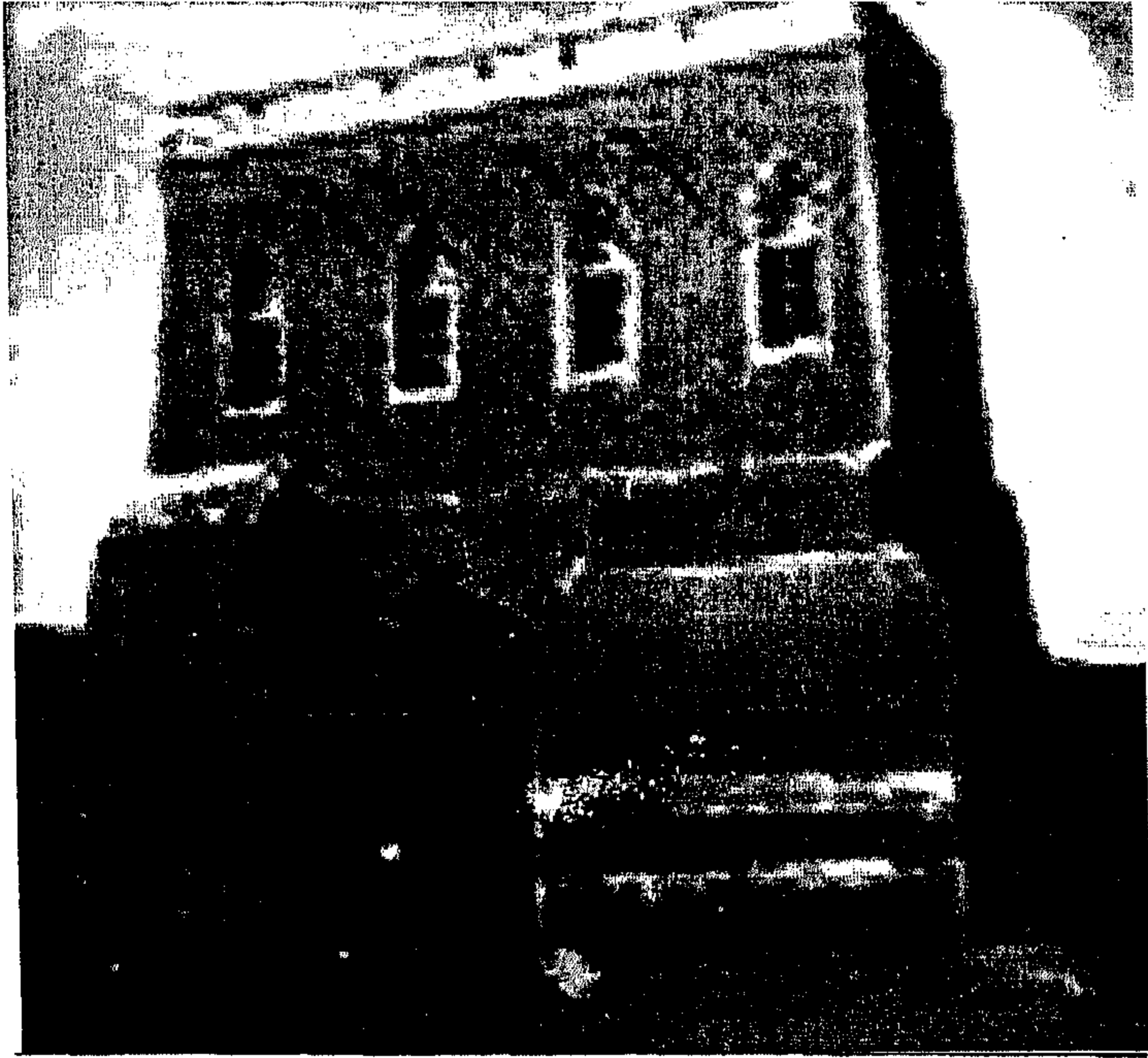
قلعة الحكم لدولة بني مهدي في زبيد



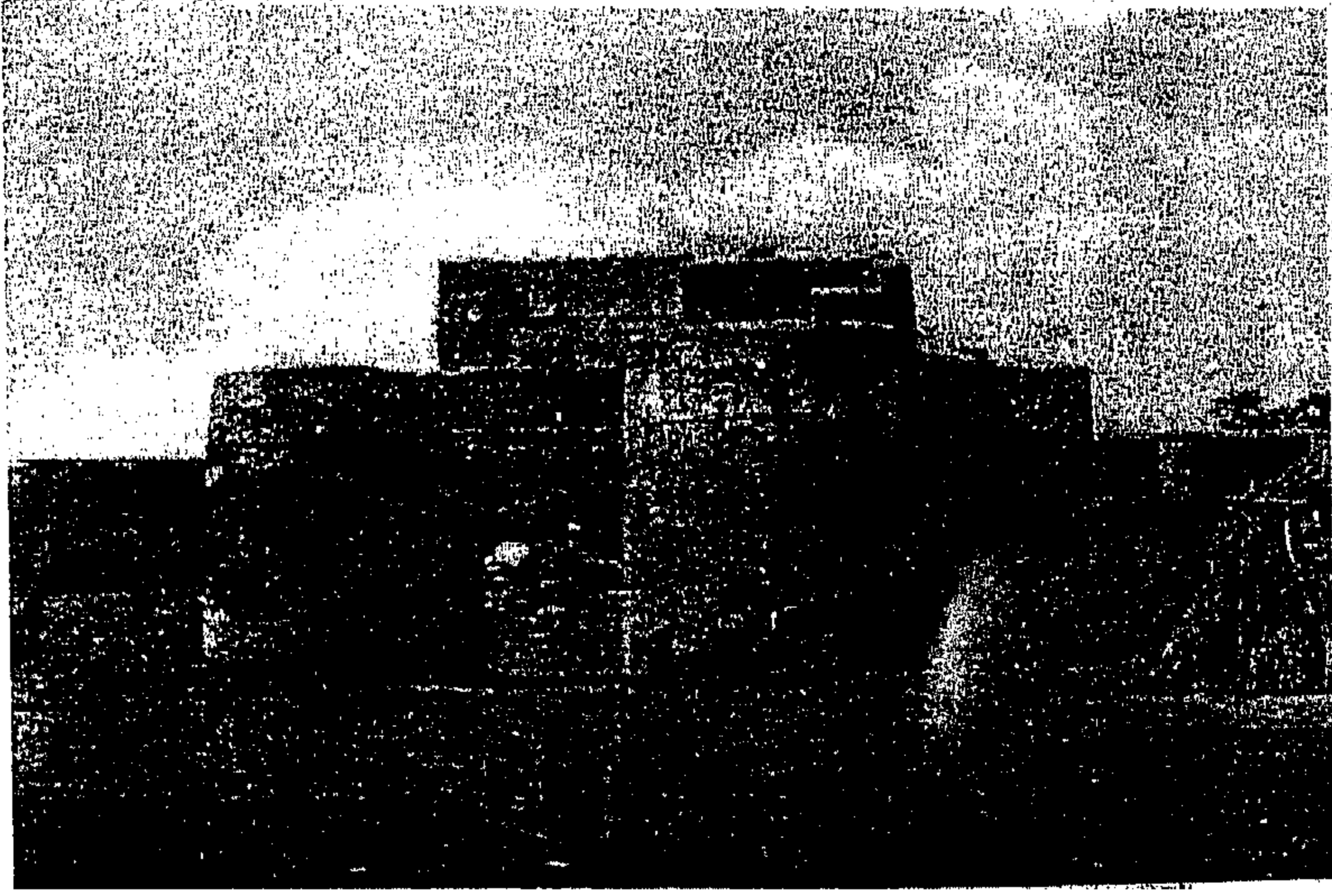
دار الإمارة من الداخل



أسوار مدينة زبيد

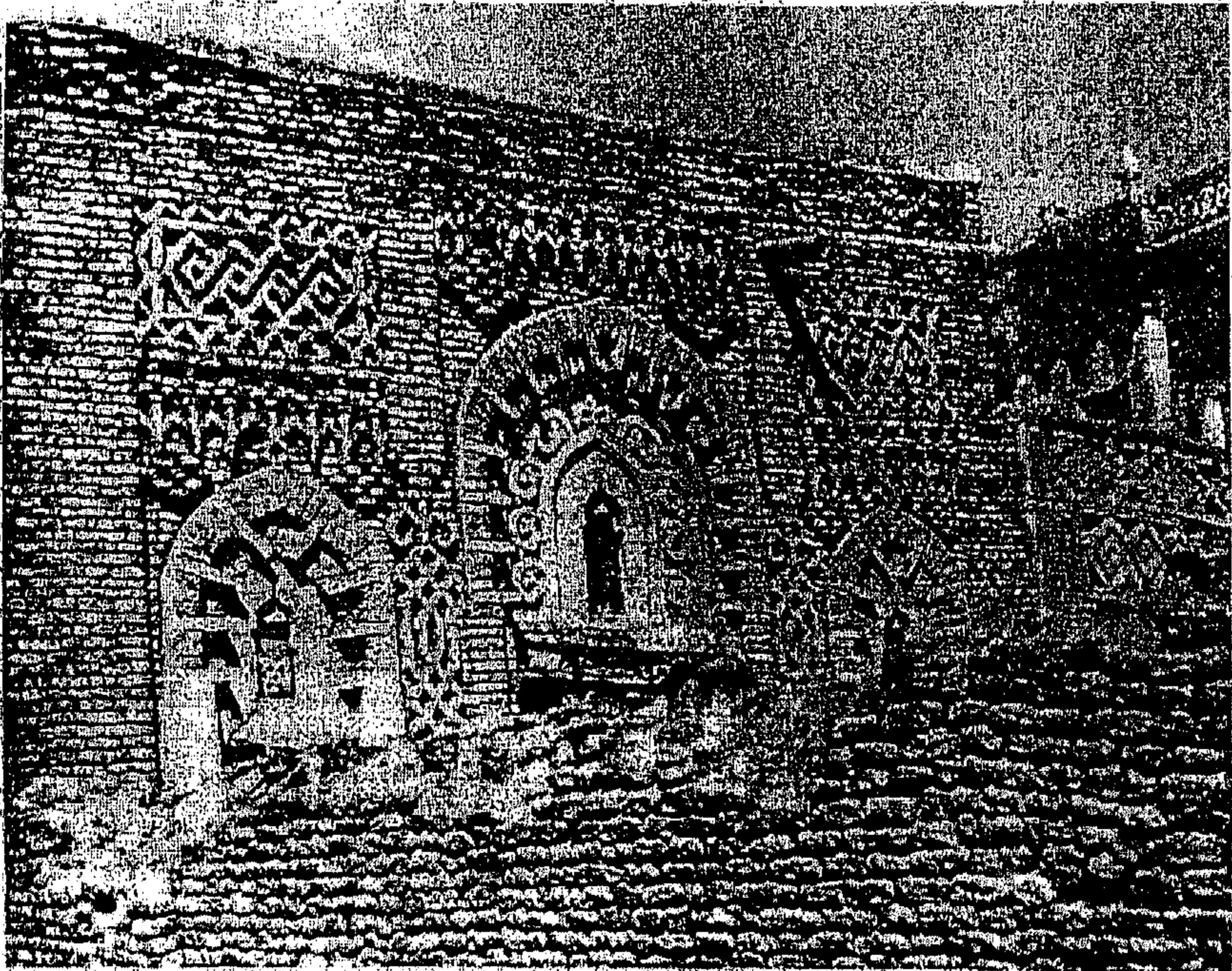


باب سهام بزييد وهو المدخل الشمالي للمدينة



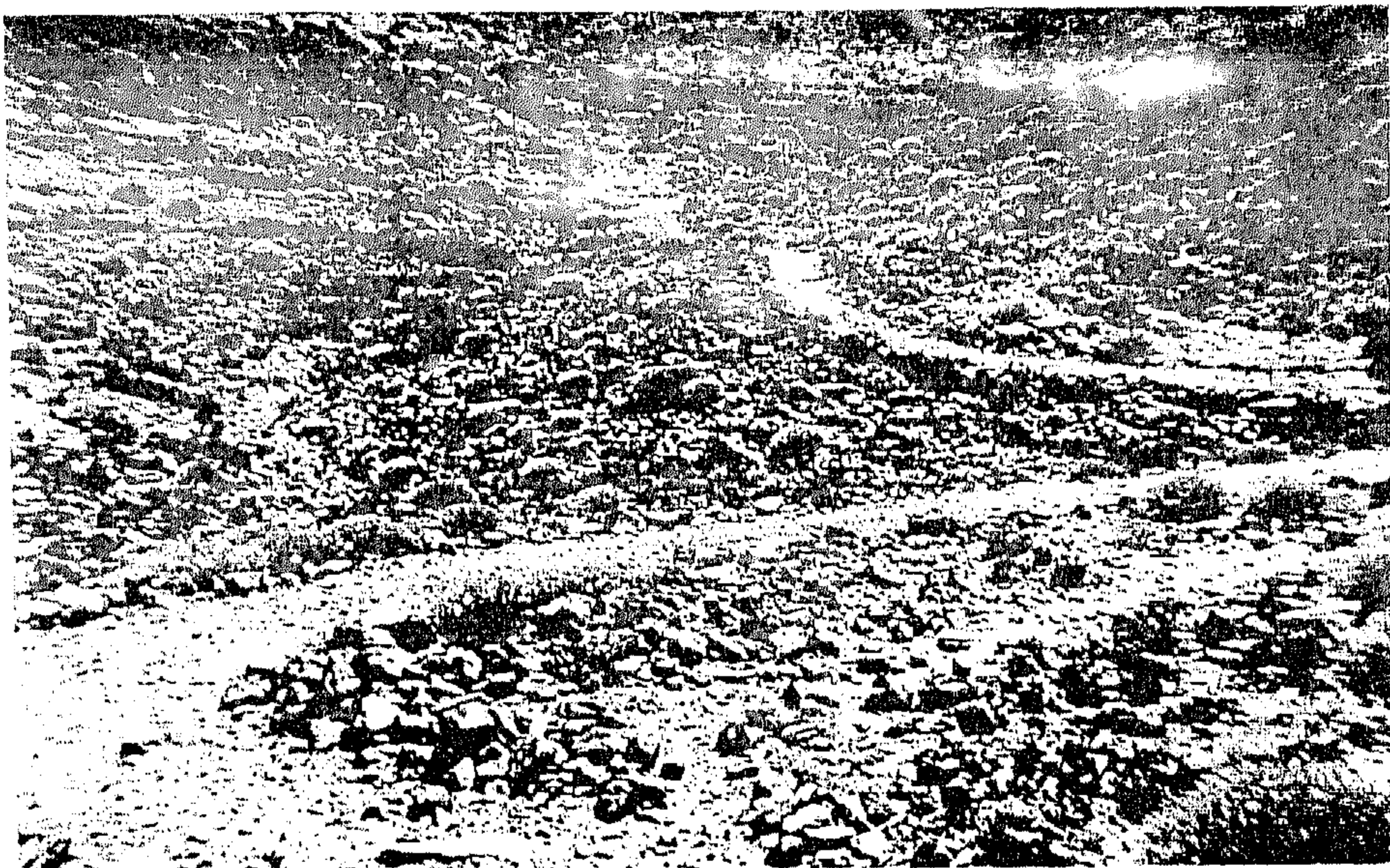
باب شبارق بزید ولعلہ اقدم أبواب هذه المدينة

باب شبارق بزید ولعلہ اقدم أبواب المدينة

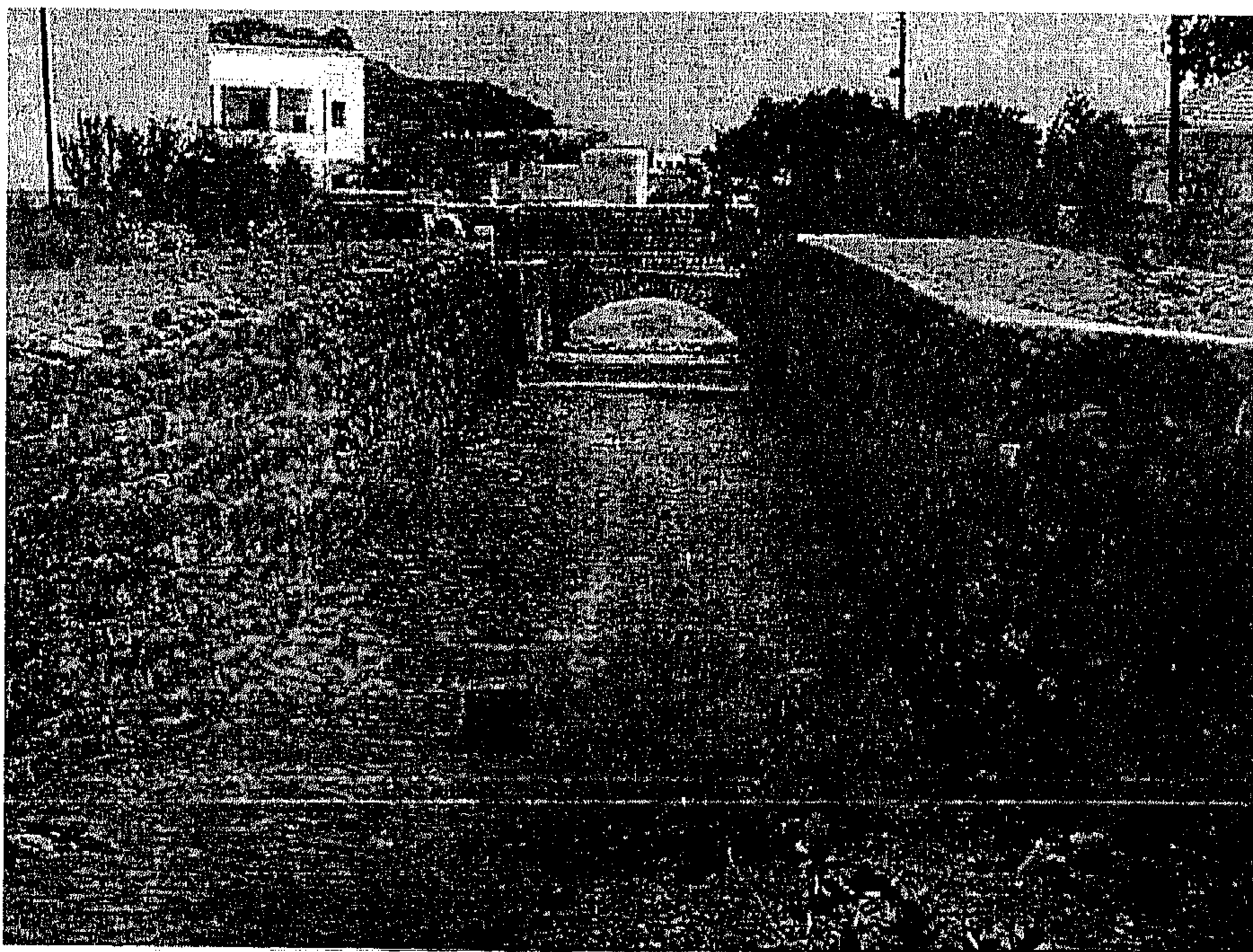


الفن المعماري يزيد : واجهة بيت قديم .

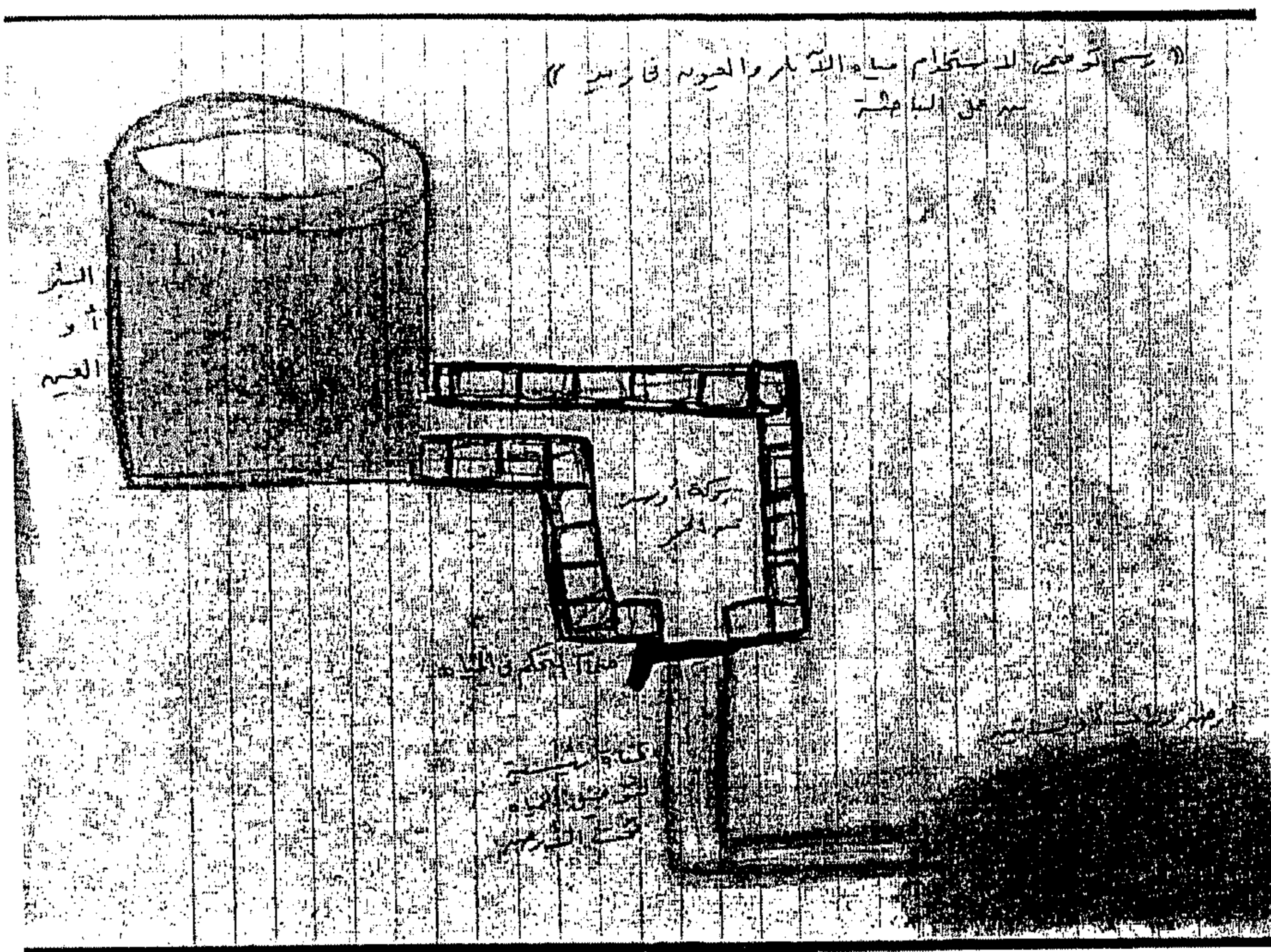
نموذج لبيوت زيد

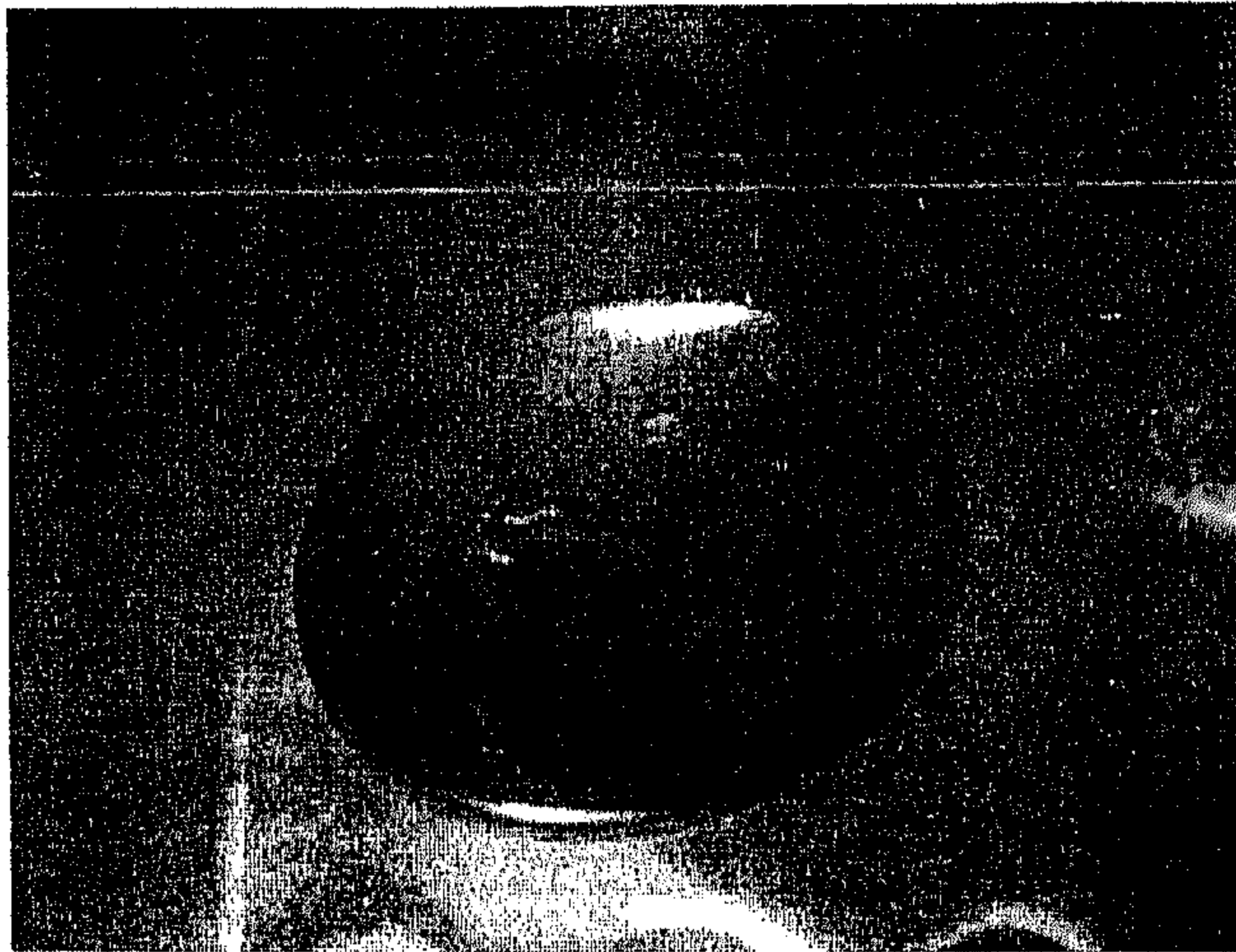
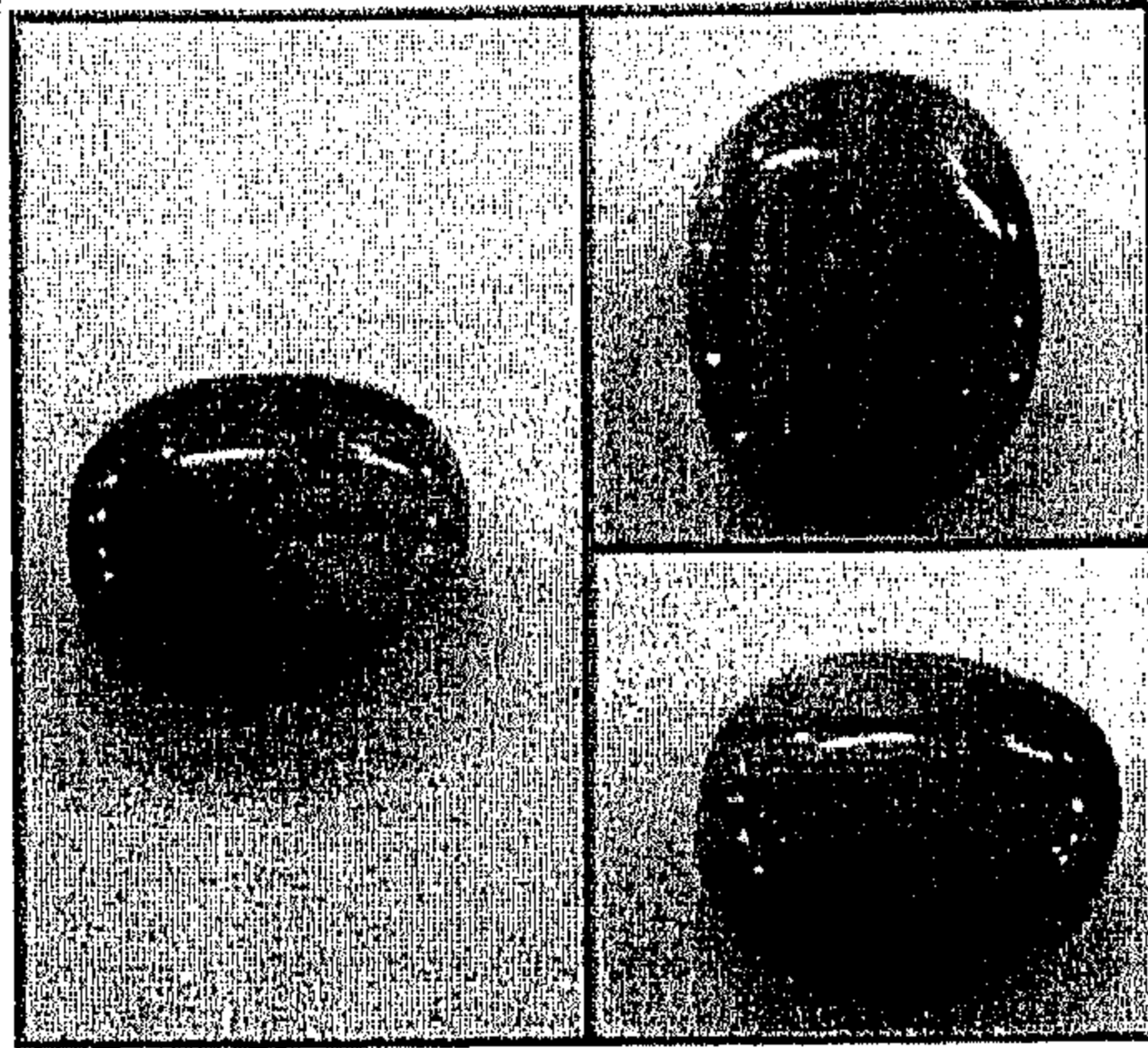


طريق الحاج اليمني مروراً بزييد نقلاً عن آثار منطقة عسير، ص ٨٥



صهاريج وآبار زبيد





أنواع العقيق في زبيد واليمن



صورة لدرهم عبد النبي بن مهدي الذي سك بتاريخ ٥٥٩هـ - ويزن ١,٥٦ جرام ومكان ضربه في مدينة زيد
وهذا هو الدرهم الاول لعبد النبي بن مهدي من درهمين وهما من العملات النادرة لهذه الدولة
وبقراءة بيانات هذا الدرهم اتضح مطابقة الكتابة مع نفس الدرهم الآخر مع الاختلاف في تاريخ الضرب والوزن



درهم عبد النبي بن مهدي ضرب في زييد ٥٦٦هـ



الجامع الكبير بزبيد

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

أ - المخطوطة :

ابن أسير : محمد بن محمد بن منصور، كان حياً سنة ٩٥٠هـ :

- الجوهر الفريد في تاريخ مدينة زبيد، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢٢٦٢ تاريخ.

ابن الألف : عماد الدين إدريس بن الحسن (ت سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م) :

- نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الأخيار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢٢٥٣ - ٣١/١ و - ٣١ ظ.
- الأشرف بن رسول : أبي العباس إسماعيل بن العباس الأفضل بن علي ابن المؤيد داود بن رسول الغساني الملك الأشرف (ت ٨٠٣هـ) :

- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١١٣٦.

- فاكهة الزمن ومفاكهة ذي الألباب والفتن، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور، ميكروفيلم رقم ٢٧٨٠٩.

الحمزي : عماد الدين إدريس (ت ٧١٤هـ/١٣١٤م) :

- كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ١١٨٤ (خ) :

الخزرجي : أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ٨١٢هـ) :

- العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١/٧٣٦.

ابن الديبع : عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) :

- فضائل اليمن وأهله، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١١٦٢.

صارم الدين : إبراهيم بن عبدالقادر بن أحمد (د.ت) :

- التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١٥٢٩.

ابن عبدالسلام : جعفر بن أحمد (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) :

- رسالة في الرد على المطرفية، دار الكتب المصرية، القاهرة، مخطوط رقم ٢١٥٣.
- المحلي: أبو عبدالله حسام الدين حميد بن أحمد الشهيد الهمداني الزيدي (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م):
- الحقائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٢١٢، ٢٢٦٣.

ابن الوزير : الهادي بن إبراهيم بن علي، (ت ١١٧٤هـ/١٧٣٥م) :

- تاريخ بني الوزير، دار الكتب المصرية، القاهرة، مخطوط رقم ٢٨٣١٦ ح.
- ابن وهاس: أبو الحسن بن علي بن محمد بن إسماعيل الشافعي الزبيدي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م):
- الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن في الإسلام، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ١١٨٢، ٩٦٨.

يحيى بن الحسين : ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد (ت ١٠٠٥هـ/١٦٨٣م) :

- أنباء الزمن في تاريخ اليمن، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٦٤.
- طبقات الزيدية المسمى الطبقات الزهر في أعيان العصر، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٣٢٩.

يحيى حميد : يحيى بن محمد بن الحسن المذحجي، (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) :

- نزهة الأنظار في ذكر أئمة الزيدية الأطهار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٣٥٨.

ب - المطبوعة :

القرآن الكريم.

ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) :

• الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ١١ جزء.

الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن محمد بن إدريس الحمودي الحسني (ت ٥٦٠هـ / ١٣١١م):

• نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق، عالم الكتب، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

الأشرف عمر بن رسول : عمر بن يوسف بن عمر (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) :

• كتاب ملح الملاح في معرفة الفلاحة، تحقيق محمد عبدالرحيم جازم، نشر ضمن مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، السنة الثالثة، صنعاء، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

الإصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) :

• المسالك والممالك، القاهرة، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، تحقيق محمد جابر عبدالعال، محمد شفيق غربال.

الأهدل : بدر الدين أبو عبدالله الحسين بن عبدالله الحسين بن محمد بن محمد (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) :

• تحفة الزمن في تاريخ اليمن، منشورات المدينة، دار التنوير للطباعة، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

• كشف القناع في معرفة أحكام الزراعة، تحقيق عبدالله الحبشي، نشر في مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، سنة ١٩٨٠م.

إبراهيم بن القاسم : ابن الإمام المؤيد بالله (ت ١١٥٢هـ/١٦٤٣م) :

- طبقات الزيدية الكبرى، ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، د.ت، تحقيق عبدالسلام بن عباس الوجيه.

بامخرمة : أبو الطيب عبدالله الطيب بن عبدالله أحمد (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) :

- تاريخ ثغر عدن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

ابن بطوطة : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

- مهذب رحلة ابن بطوطة، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠٠٩م، جزءان.

ابن تغري بردي : جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، الطبعة الثانية، ١٦ جزء.

الجندي : أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي السكسكي (ت بعد ٧٣٢هـ/١٣٢٢م) :

- السلوك في طبقات العلماء والملوك، نشر ج.ع.ب وزارة الإعلام، ١٩٨٣م، تحقيق محمد بن علي الأكوخ.

الجرجاني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي (د.ت) :

- التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق إبراهيم الإبياري.

بن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) :

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الركن، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

بن حاتم : بدر الدين محمد بن حاتم اليامي الهمداني (ت بعد سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م) :

- السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز اليمن، لندن، ١٩٧٤م تحقيق ركس سميث.

الحنبلّي : ابن العماد عبدالحّي (ت ١٠٨٩هـ) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، ١٩٨٥م.
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م، تحقيق ناظم رشيد.

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) :

- لعب وديوان المبتدأ والخبر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.

ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل (ت أواخر القرن الرابع الهجري) :

- صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.
- ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت تقريباً سنة ٣٠٠هـ) :
- المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م.

ابن خلّكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م) :

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، تحقيق إحسان عباس، (٨ أجزاء).

ابن الديبع : عبدالرحمن علي بن الديبع الشيباني (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) :

- الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، تحقيق يوسف شلحد.
- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٧١م، تحقيق محمد ابن علي الأكوع.
- نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية وشرحه نشر اللاكئ السنية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

الذهبي : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) :

• تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، دار الكتب الإسلامية، ١٩٨٥م، تحقيق محمد محمود حمدان (٥ أجزاء).

• سيرة أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، تحقيق شعيب الأرنؤوط (٢٥ جزء).

الرازي : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م) :

• مختار الصحاح، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت.

أبي الربيع : سليمان بن موسى بن سليمان بن الجون الأشعري (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) :

• الرياض الأدبية في شرح الخمرطاشية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ١٩٩٩م، تحقيق إسماعيل الجرافي، محمد بن علي الأكوع.

ابن رسته : أبو علي أحمد بن عمر بن رسته (ت ٢٩٥هـ/٨٩٠م) :

• الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، سنة ١٨٩١م.

ابن سمرة : عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت بعد ٥٨٦هـ/١١٩٠م) :

• طبقات فقهاء اليمن، دار القلم، بيروت، د.ت، تحقيق فؤاد سيد.

السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :

• بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.

أبو شامة : عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) :

• الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، تحقيق إبراهيم الزريق.

ابن شداد : بهاء الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) :

- سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٨٨م.

شمس الدين : أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري :

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، أئوها رسوتز، ليبزيج، ١٩٢٤م.
- الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) :
- الملل والنحل، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) :

- الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، الجزء العاشر.

ابن عبدالمجيد : تاج الدين عبد الباقي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) :

- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، محمد أحمد السنباني.

ابن العبري : أبو الفرج جمال الدين ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) :

- تاريخ الزمان، مجلة المشرق، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، ١٢٨٦هـ/١٩٨٦م.

أبو عبيدة : أبو عبيدة القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٧م) :

- كتاب الأموال، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. تحقيق محمد عمارة.

ابن العديم : جمال الدين (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) :

- زبدة الحلب، نشر سامي الدهان، ١٩٥٤م.

العرشي : حسين بن أحمد العرشي (د.ت) :

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك وإمام، مطبعة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩م.

العلوي : علي بن حمد عبيد الله العباسي :

- سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، دار الحياة، بيروت، ١٩٧٢م، تحقيق سهيل زكار.

ابن العماد : عبدالحى (ت ١٠٨٩هـ) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ٨ أجزاء.

عماد الدين إدريس : ابن الحسن الأنف (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) :

- عيون الأخبار وفنون الآثار، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، ٢٠٠٢م، تحقيق أيمن فؤاد سيد.

عمارة اليمنى : نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي الحكمي (ت سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م) :

- تاريخ اليمن، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، تحقيق حسن سليمان محمود.
- تاريخ اليمن المسمى " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها "، مطبعة السعادة، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، تحقيق محمد بن علي الأكوع.
- النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٠١هـ / ١٩٩١م).

العمرى : ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) :

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، المعهد الفرنسي، القاهرة، د.ت، تحقيق أيمن فؤاد سيد.

أبو الفداء : إسماعيل بن علي عماد الدين (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) :

- تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٨٤٠م.
- المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

- ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) :
- مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.
- القرشي الحنفي : محيي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء (ت ٦٩٦-٥٧٧هـ/١٣٧٣م) :
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، دار إحياء الكتب العربية، الرياض، (١٣٩٨هـ-١٤٠٨هـ/١٩٧٩-١٩٨٨م)، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو.
- القرطبي : أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) :
- التعريف في الأنساب والتتويه لذوي الأحساب، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م، تحقيق سعد عبدالمقصود ظلام.
- القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) :
- آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) :
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ١٤ جزء.
- ابن كثير : الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) :
- البداية والنهاية، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ١٤ جزء.
- ابن المجاور : محمد بن مسعود بن علي بن أحمد البغدادي النيسابوري (ت بعد ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :
- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز " المسمى تاريخ المستبصر "، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م، تحقيق أوسكر لوفغرين.
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) :

• مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ٤ أجزاء.

المقدسي : شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالبشاري
(ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) :

• أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٩م.

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر (ب ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :

• السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م، تحقيق مصطفى زيادة.

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) :

• لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، الطبعة الرابعة، (١٨ جزء).

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) :

• نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المجلد الثامن والعشرون تحقيق محمد أمين.

الهمداني : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) :

• الإكليل، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨هـ، الجزء العاشر، تحقيق محب الدين الخطيب، والجزء الأول، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ١٠ أجزاء.

• صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، تحقيق محمد بن علي الأكوع.

الهرثمي : أبو سعيد الشعراتي الهرثمي :

• مختصر سياسة الحروب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م، تحقيق عبدالرؤوف عون، مراجعة محمد مصطفى زيادة.

ابن هذيل الأندلسي : علي عبدالرحمن (من أعلام القرن الثامن الهجري) :

- حلية الفرسان وشعار الشجعان، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

ابن واصل : محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) :

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، د.ت، تحقيق جمال الدين الشيال، ٥ أجزاء.

ابن الوردي : زين الدين بن عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) :

- تاريخ ابن الوردي (٣ أجزاء)، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م.

الوصابي : وجيه الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر الحبشي (ت ٧٨٢هـ/١٣٨٠م) :

- تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٧٩م، تحقيق عبدالله الحبشي.

اليافعي : عبدالله بن أسعد بن علي (ت سنة ٧٦٨هـ/١٢٦٦م) :

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

ياقوت الحموي : ياقوت بن عبدالله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) :

- معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٨ أجزاء.

يحيى بن الحسين: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م):

- غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور.

اليقوبي : أحمد بن علي بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي
(ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) :

• كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧م.

أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) :

• كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٠٤٥هـ/١٩٨٥م.

ثانياً : المراجع العربية :

إبراهيم أحمد المقحفي :

- معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٨م.

أحمد إبراهيم صلاح :

- زبيد بين الماضي والحاضر، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ٢٠٠٤م.

أحمد أحمد البدوي :

- الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار الفكر العربي، ١٩٤٧م.

أحمد حسين شرف الدين :

- تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

أحمد بن حسن المعلم :

- القبورية في اليمن، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية، صنعاء، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

أحمد شلبي :

- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧م، الطبعة الأولى، ١٤ جزء.

أحمد فضل بن علي محسن العبدلي :

- هدية الزمن في ملوك لجج وعدن، دار العودة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

أحمد بن محمد الشامي :

- تاريخ الفكر اليمني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- جناية الأكوع على ذخائر الهمداني، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- قصة الأدب في اليمن، دار العمير للثقافة والنشر، صنعاء، ٢٠٠٤م.

أحمد بن محمد العقيلي :

- من أدب الجزيرة، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٤١٤هـ/١٩٨٤م.

أحمد محمد جلي :

- دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة "، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

أحمد المطاع :

- تاريخ اليمن الإسلامي، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٦م.

إسماعيل بن علي الأكوع :

- المدارس الإسلامية في اليمن، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ت.

الأولسي : جمال الدين أبو المعالي محمود شكري بن عبدالله (ت ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م) :

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، تصحيح محمد بهجة الأثري، الطبعة الثانية، د.ت.

أمين واصف بك :

- معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٨م.

إيمان أحمد شمسان :

- اليمن في العصر العباسي، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة، ٢٠٠١م.

أيمن فؤاد سيد :

- تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

-بامطرف محمد عبدالقادر :

- الجامع " جامع شامل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم "، دار الهمداني، عدن، ١٩٨٤م.

بيوتروفسكي م. ب :

- اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م.

جميل حرب محمود حسين :

- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، نشر تهامة، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

جواد علي :

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.

جودة حسنين جودة :

- شبه الجزيرة العربية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٨٨م.

جوردن اليورت وليويستمان :

- سيكولوجية الإشاعة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م، ترجمة مخيمر وعبد مبخائيل.

حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

حسن سليمان محمود :

- تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، بغداد، ١٩٦٩م.

حسين بن أحمد العرشي :

- بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى مُلك اليمن من ملك وإمام، مطبعة البرتيري، القاهرة، ١٩٣٩م.

حسين بن عبدالله العمري :

- مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

حسين بن علي الويسي :

- اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م.

حسين بن فيض الهمداني :

- الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار المختار، دمشق، ١٩٥٥م.

حسين مؤنس :

- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلان العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

حمزة بن لقمان :

- تاريخ القبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٦م.

خالد العاقل :

- أطلس تاريخ العمارة، القاهرة، د.ت.

خالد عبدالله القاضي :

- الحياة العلمية في مصر الفاطمية، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م.

خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٧هـ) :

- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.

ذو النون المصري :

- عمارة اليمني، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م.

حامد ربيع خليفة :

- الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

رجب عبدالجواد :

- المعجم العربي لأسماء الملابس، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

رزق الله منقريوس :

- تاريخ دول الإسلام، مطبعة الهلال، مصر، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

رؤوف الأنصاري :

- عمارة المساجد، دار النبوغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

زين العابدين نجم :

- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، الزهراء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

سامح عبدالرحمن فهمي :

- المكايل في صدر الإسلام، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

سقاف علي الكاف :

- حضرموت، مكتبة أسامة، بيروت، د.ت.

السيد رزق الطويل :

- في علوم القراءات، مكتبة الفيصلية، مكة، ١٤١٥هـ.

السيد مصطفى سالم :

- تكوين اليمن الحديث، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٣م.

سيد مظفر الدين :

- التاريخ الجغرافي للقرآن، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

شاكر مصطفى :

- التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم الملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

شوقي ضيف :

- تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م.

شوقي محمد بدران :

- العسكرية الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.

صبري المتولي :

- علم الحديث النبوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٨هـ.

عبدالرحمن بشير :

- من تاريخ اليمن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٩م.

عبدالرحمن الرافي، سعيد عبدالفتاح عاشور :

- مصر في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.

عبدالرحمن الشجاع :

- اليمن في صدر الإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

عبدالرحمن عميرة :

- الاستراتيجية الحربية في إدارة المعارك في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

عبد الصاحب عمران الدجيلي :

- أعلام العرب في العلوم والفنون، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

عبد عون الروضان :

- موسوعة تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م.

عبدالغني محمود :

- الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ٢٠٠٢م.

عبدالله سعيد الغامدي :

- صلاح الدين والصليبيون، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

عبدالله الثور :

- هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الثالثة.

عبدالله عبدالسلام الحداد :

- مدينة حيس اليمنية (تاريخها وآثارها الدينية)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

عبدالله عبدالكريم الجرافي :

- المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

عبدالله كامل :

- الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

عبدالله محمد الحبشي :

- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.
- مؤلفات حكام اليمن، أبرخر، ١٩٧٩م.

عبدالله عبدالوهاب الشماحي :

- اليمن، الإنسان والحضارة، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٥م.

عبدالمنعم الحنفي :

- موسوعة الصوفية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

عبدالهادي الفضلي :

- القراءات القرآنية، دار البيان العربي، جدة، ١٣٩٩هـ.

عبدالواسع بن يحيى الواسعي :

- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، المكتبة اليمنية الكبرى للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، ١٩٩٠م.

عصام الدين عبدالرؤوف الفقي :

- اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني رسول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢م.

ابن علوي الحداد :

- الدعوة التامة والتذكرة العامة، القاهرة، ١٩٧١م.

عمر رضا كحاله :

- معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٢م.

غازي رجب :

- الفن العربي الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٥م.

غيثان بن علي بن جريس :

- دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق ١ - ق ١٠هـ / ق ٧ - ق ١٦م)، جامعة الملك خالد، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

فرج محمد غنيم :

- غذاء الباحث في التصوف، طنطا، ١٩٥٣م.

فضل علي أحمد غانم :

- البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير، مطبعة الكتاب العربي، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

قائد الشرجبي :

- القرية والدولة في المجتمع اليمني، دار التضامن للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠م.

القشيري :

- الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة، ١٩٧٢م.

القتوجي : صديق بن حسن (ت ١٣٠٧هـ) :

- أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، تحقيق عبد الجبار زكا.

الكبسي : محمد بن إسماعيل الكبسي (ت ١٣٠٨هـ) :

- اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٣م.

الكلاباذي :

- التعريف لمذهب أهل التصوف، القاهرة، ١٩٣٣م.

لويس ماسينيون :

- الإسلام والتصوف، القاهرة، ١٩٧٩م.

محمد بن أحمد العقيلي :

- تاريخ المخلاف السليماني، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ.

محمود إبراهيم حسين :

- الإبهار في العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

محمد أمين صالح :

- تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٧٥م.

- النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

محمد آدم المرزوقي :

- قلعة زبيد (دار الإمارة)، دراسة تاريخية أثرية، صنعاء، ٢٠٠٩م.

محمد بن زبارة :

- خلاصة سيرة الهادي من أرجوزة الأئمة، مطبعة النصر الناصرية، تعز، د.ت.

محمد جمال الدين سرور :

- سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

محمد عبدالعال أحمد :

- الأيوبيون في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م.

محمد عبدالله زغلول :

- المصنوعات الجلدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.

محمد عبده السروري :

- تاريخ اليمن الإسلامي، مكتبة خالد بن الوليد وعالم الكتب اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٣م.
- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

محمد عبدالملك المروني :

- الثناء الحسن على أهل اليمن، دار الندى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

محمد عيسى الحريري :

- دراسات وبحوث في تاريخ اليمن الإسلامي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- معالم التطور في دولة بني نجاح باليمن وعلاقتهم بالفاطميين، دار القلم، الكويت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

محمد بن علي الأكوع :

- اليمن الخضراء مهد الحضارة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

محمد أبو الفرج العش :

- المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، تونس، ١٩٨٥م.

محمد بن علي مسفر :

- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٢٦هـ)، دار المدينة، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

محمد كامل حسين :

- في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.

محمد كريم إبراهيم :

- عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٦هـ/١٠٨٣-١٢٢٨م، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٥م.

محمد متولي :

- جغرافية شبه الجزيرة العربية (اليمن الشمالي)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، الطبعة الثانية.

محمد يحيى الحداد :

- تاريخ اليمن السياسي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
- التاريخ العام لليمن، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.

محيي الدين بن عربي :

- شرح معجم اصطلاحات الصوفية، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

مصطفى حلمي :

- منهج علماء السنة والحديث من أصول الدين، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

مصطفى عبدالله شبيحه :

- مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، وكالة اسكرين للدعاية والتجهيز الفني، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

مظهر الأريائي :

- القضاض، الموسوعة اليمنية، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

أبو الوفا التفتازاني :

- مدخل إلى التصوف، القاهرة، ١٩٧٦م.

يوحنا أبكار يوس :

- قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٨٩م، الطبعة الرابعة.

ثالثاً : الرسائل العلمية :

أحمد عبدالله عارف :

- المدارس الكلامية في اليمن فيما بين القرن الثالث والسادس الهجري، دكتوراه، دار علوم، القاهرة، ١٩٨٦م.

بدر عبدالرحمن محمد :

- النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي، ماجستير، القاهرة، ١٩٧٧م.

سليمان عبدالغني المالكي :

- بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري، القاهرة.

عطية أحمد القوصي :

- تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦هـ، دكتوراه، القاهرة، ١٩٧٣م.

عطية طه عبدالعزيز :

- الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الحجاز من القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس الهجري، دكتوراه القاهرة، ١٩٩٥م.

علي أحمد بيومي :

- قيام الدولة الأيوبية في مصر، ماجستير، القاهرة، ١٩٤٦م.

محمد بهجت مختار :

- الصلات السياسية والحضارية بين مصر وبلاد الحجاز منذ بداية العصر الإسلامي حتى نهاية عصر المماليك (٢٠-٩٢٣هـ / ٦٤١-١٥١٧م)، دكتوراه، عين شمس، ١٩٨٠م.

محمد عبده السروري :

- مظاهر الحضارة في الدول المستقلة باليمن من (٤٣٩-٦٢٦هـ / ١٠٤٧-١٢٢٨م)،
دكتوراه، القاهرة، ١٩٩٠م.

نصاري فهمي غزالي :

- العلاقات المصرية اليمنية على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية وتأثيرها السياسي
والحضاري في اليمن، دكتوراه، دار العلوم، القاهرة، ١٩٨٤م.

رابعاً : الدوريات العربية :

أحمد الحاج :

- وهم القبيلة وخداع السياسية في اليمن، مجلة الحكمة، العددان ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٠٠٣م.

أحمد بن عمر الزيلعي :

- دولة بني مهدي من خلال درهم فضة ضرب زبيد ٥٦٦هـ في زمن عبدالنبي بن مهدي، مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الأول، ٢٠٠٥م.

جعفر كرار أحمد :

- العلاقات التاريخية بين شبه الجزيرة العربية والصين منذ ظهور الإسلام وحتى أوائل القرن العشرين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٩٢، يناير، فبراير، مارس ١٩٩٩م.

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٤، ١٦، ١٧، ١٨٤١٨هـ/١٩٩٨م.

دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، م ٣، دار التعارف للمطبوعات، سوريا، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

زاهر رياض :

- دولة حبشية في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٨، القاهرة، ١٩٥٩م.

سامي الصقار :

- الأيوبيون والرسوليون في اليمن، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، مجلد ٦، ١٩٧٩م.

سيد إسماعيل الكاشف :

- دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤-١٩٦٥م.
- علاقة الصين بديار الإسلام، حولية كلية البنات، العدد ٣، يوليه ١٩٦١م.

شاكر مصطفى :

- التاريخ والمؤرخون في اليمن الإسلامية حتى القرن السابع الهجري، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد ١٣، يونيو ١٩٧٨ - جمادى الآخرة ١٣٩٨م.

عبدالعزیز المقالح :

- الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، دراسات يمنية، العدد ٥٠ أبريل يونيو ١٩٩٣م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء.

عبداللطيف سيف :

- الصناعة في الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م ١٢، عدد ٢، سنة ١٩٨٥م.

على حسني الخربوطلي :

- المسجد في فجر الإسلام، حولية كلية البنات، جامعة عين شمس، مطبعة جامعة عين شمس، العدد ٣، يوليه ١٩٦١م.

فاطمة علي فضل :

- الفئات الدنيا في المجتمع اليمني (الأخدام) دراسات يمنية، صنعاء، العدد ٤٩ سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

محمد أمين صالح :

- دولة الخوارج في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢٥ لسنة ١٩٧٨م.

محمد عبدالستار عثمان :

- المدينة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، ذو الحجة ١٤٠٨هـ - أغسطس ١٩٨٨م، المجلس الوطني الثقافي، الكويت.

محمد عبدالعال أحمد :

- دراسة عن أسباب الفتح الأيوبي لليمن، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١٣، جزء ٢، سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

محمد عيسى الحريري :

- تطور المذهب الزيدي في اليمن (قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لابن الشرفي)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، ١٩٨٧م.

محمد كامل حسين :

- التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مجلد ١٥، الجزء الأول، مايو ١٩٥٣م.

محمد كريم إبراهيم :

- جزر دهلك في البحر الأحمر، أهميتها وعلاقتها باليمن خلال العصور الإسلامية، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، السنة السابعة عشرة، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، سنة ١٩٨٩م.

محمد يوسف :

- علاقات العرب التجارية بالهند، مجلة كلية الآداب، القاهرة، المجلد ١٥، الجزء الأول، مايو ١٩٥٣م.

محمود ياسين التكريتي :

- الأيوبيون في اليمن تاريخهم السياسي (٥٦٩-٦٢٦هـ/١١٧٤-١٢٢٦م)، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد ١٢، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

مجلة الإكليل، عدد سبتمبر ١٩٨١م، ذو القعدة ١٤٠٤هـ.

- إنجازات الأيوبيين في تشجيع وحماية التجارة، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، المجلد ٢٠، العدد الثاني، سنة ١٩٨٨م.

مصطفى عبدالله شبيحة :

- بعض التأثيرات الأسبوعية على العمائر والفنون الإسلامية، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٤ يوليو ١٩٨٩م.

خامساً : المراجع الأجنبية :

References in Foreign Languages :

Aviva Klein – Franke ; The Jews of Yemen, Frankfurt, 1987

B. Ahmed :

- Imams, Notables et Bé douns du Yemen, Siecle, 1992.

Bannenfant, Baul :

- La, Qadad, Kes Maisons Tours De Sana'a, Lespresses Ducnrs, 1989.

C. H. Becker :

- Der islam, Hamburg, 1912.

Derenbourg :

- Oumara de Yémen, Paris.

El iyahu Ashtor :

- The Jews and Mediteranean Economy 10th – 15th Centuries, London, 1983.

Goitein :

- Jews and Arab, Their Contacts Through The age, New York, 1974.

Herbert S. Lewis :

- After The Eagles Landed The Yemenites of Israeal, London, 1989.

Joseph B. Schechtman :

- The Jews of Aden, Jewish Social, 1931.

Kay :

- Yaman; its Early Medieval history, London, 1892.

Malcolm, Cameronlyons :

- Saladin, Cambridge, 1982.

Michael Jenner :

- Yemen, London, 1983.

Oman : C.W.C. :

- " A history of The art of war in The Middle age ", London, 1962.

Paule. Walker :

- Exploring an Islamic Empire, (Fatimid History and its Sources), London, 2002.

R. B. Serjeant :

- Islamic Textiles in the Yemen, Lebanon, 1972.

R. B. Serjeant and Arnold :

- Sana and Arabian Islamic City, World of islam festival trust, 1983.

Robert W. Stookey :

- South Yemen, Croomhelm, London, 1982.

R. Smith :

- Studies in The Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997.

Solomon Grayzel :

- A History of The Jews, 1948.

Stephan Album :

- Rare Coins, Specialists I Islamic, Indian & Oriental Coins, California, 2009.

Stanly Lane – Poole :

- A history of Egypt in The Middle Ages.
- Mohammadan Dynasties, Paris, 1925.
- Saladin, Cooper Square, Press, 2002.

Werner Daum :

- From Aden to India and Cairo, : Jewish World trad in The 11th and 12th Centuries in Yemen 3000 Years of art Civilization in Arabia Felix, Frankfurt, 1987.

Yosef Tobi :

- The Jews of Yemen, Lieden, 1999.

سادساً : الدوريات والمقالات الأجنبية :

Periodicals. Essays in Foreign Languages :

Bikhazi, Ramzi, J :

- " Coins of Al- Yemen, 132-569 A.H. Al-Abath ", Journal of Amercan University of Beirut, vol xxiii, No 1-4 December, 1970.

Goitein :

- Ameditermean Society, Jwish Communities of Arab world as Partrayed in Doucuments of the Cairo Geniza 969-1250, University of California.

Journal of Islamic Studies, 1990.

Paul, Auchterloine :

- Yemen, Revised Edition, Cliopress, Oxford, 1998, vol, 50.

R. Smith :

- The Ayyubids and Rasulids The Transfer for Power in 7th – 13th Century Yemen, Islamic Clture, 1969, vol, XLIII.

The Encyclopedia Americana, international Edition, 1829, (Yemen), vol. 2,29.

The New Encyclopedia Britannica, Yemen, vol. 13, 15, 19, London, 1974.

Tirton, A. S. :

- The Muttrafya, Le Muson, Britishl ibrary, London, 1950, vol. BX.III.

Inv:101

Date:16/2/2016

